معاني القرآن وإعرابه

المسمّى

المختصر

في إعراب القرآن ومعانيه

تأليف

أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري

الزجاج البغدادي

المتوفى ٣١١هـ

علّق عليه ووضع حواشيه

أحمد فتحي عبد الرحمن

قدّم له

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي

عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

الجزء الثاني

المحتوى:

من أول سورة النساء - إلى آخر سورة هود

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: **MAʿĀNI AL-QURʾĀN WAʾIʿRĀBUH**
(Grammatical analysis and The meaning of the verses of The Holy Coran)
classification: Sciences of Coran
Author: Abu Isḥāq al-Zajjāj
Editor: Aḥmad Fatḥi ʿAbdul-Raḥmān
Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages: 1528 (4 volumes)
Year: 2007
Printed in: Lebanon
Edition: 1st

الكتاب: معاني القرآن وإعرابه
التصنيف: علوم قرآن
المؤلف: أبو إسحاق الزجاج
المحقق: أحمد فتحي عبدالرحمن
الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1528 (4 أجزاء)
سنة الطباعة: 2007
بلد الطباعة: لبنان
الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5249-1 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5249-7 (13 dig)

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon
No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban
Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة،
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ١٢/١١/٨١٠ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١ +
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح -بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النساء[1]

قوله -عز وجل- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾؛ ابتدأ الله السورة بالموعظة. أخبر بما يوجب أنه واحد أن حقه -عز وجل- أن يتقى فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

يعنى من آدم -عليه السلام-، وإنما قيل في اللغة: «واحدة» لأن لفظ النفس مؤنث ومعناها مذكر في هذا الموضع، ولو قيل: «من نفس واحد» لجاز.

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة النساء من سور القرآن الكريم المدنية، ترتيبها في المصحف الشريف الرابعة. عدد آياتها ست وسبعون ومائة آية.

جاءت تسميتها النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذا أطلق عليها سورة النساء الكبرى مقابل سورة النساء الصغرى التي عرفت في القرآن بسورة الطلاق.

تحدثت سورة النساء كشأن السور المدنية باستفاضة عن الأحكام الشرعية، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين، وهي تُعنَى، بجانب التشريع، بالحديث عن أمور هامة تتعلق بالمرأة، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع. وتعرضت السورة الكريمة لموضوع المرأة، فصانت كرامتها، وحفظت كيانها، ودعت إلى إنصافها، بإعطائها حقوقها التي فرضها الله تعالى لها كالمهر، والميراث، وإحسان العشرة.

كما تعرضت بالتفصيل إلى أحكام الميراث، على الوجه الدقيق العادل، وتحدثت عن المحرمات من النساء: بالنسب، والرضاع، والمصاهرة وتناولت السورة الكريمة تنظيم العلاقات الزوجية، وبينت أنها ليست علاقة جسدية وإنما علاقة إنسانية، وأن المهر ليس أجرًا ولا ثمنًا، وإنما هو عطاء يوثق المحبة، ويديم العشرة، ويربط القلوب.

ثم تناولت حق الزوج على زوجته، وحق الزوجة على زوجها، وأرشدت الرجل إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها لإصلاح الحياة الزوجية عند وقوع الخلاف الزوجي، وبينت معنى قوامة الرجل. ثم انتقلت إلى دائرة المجتمع فأمرت بالإحسان في كل شيء وبينت معناه.

وانتقلت إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها، فأمرت بأخذ العدة لمكافحة الأعداء. ثم وضعت قواعد المعاملات الدولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية.

واستتبعت الأمر بالجهاد حملة ضخمة على المنافقين، كما نبهت إلى خطر أهل الكتاب وبخاصة اليهود، وموقفهم من رسل الله الكرام. ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلالات النصارى في أمر المسيح عيسى ابن مريم حيث غالوا فيه حتى عبدوه، ثم زعموا صلبه، مع اعتقادهم بألوهيته، واخترعوا فكرة التثليث فأصبحوا كالمشركين الوثنيين، ودعتهم الآيات إلى الرجوع عن ضلالاتهم.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم، وبث الله جميع خلق الناس منها.

ومعنى ﴿وَبَثَّ﴾ نشر، يقال: بث الله الخلق، وقال -عز وجل- ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، فهذا يدل على بث. وبعض العرب يقول أبث الله الخلق، ويقال: بثثتك سري وأبثثتك سري.

وقوله . -عز وجل- ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾؛ بالتشديد، فالأصل «تتساءلون»، وأدغمت التاء في السين لقرب مكان هذه من هذه. ومن قرأ بالتخفيف فالأصل: «تتساءلون»، إلا أن التاء الثانية حذفت لاجتماع التاءين، وذلك يستثقل في اللفظ فوقع الحذف استخفافاً، لأن الكلام غير ملبس.

ومعنى ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾؛ تطلبون حقوقكم به.

﴿وَالأَرْحَامَ﴾؛ القراءة الجيدة نصب الأرحام؛ المعنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، فأما الجر في الأرحام فخطأ في العربية لا يجوز إلا في اضطرار شعر، وخطأ أيضاً في أمر الدين عظيم، لأن النبي ﷺ قال: «**لا تحلفوا بآبائكم**» فكيف يكون تساءلون به وبالرحم على ذا ؟.

رأيت أبا إسحاق إسماعيل بن إسحاق يذهب إلى أن الحلف بغير الله أمر عظيم ، وأن ذلك خاص لله -عز وجل- على ما أتت به الرواية.

فأما العربية فإجماع النحويين أنه يقبح أن يُنسق باسم ظاهر على اسم مضمر في حال الجر إلا بإظهار الجار، يستقبح النحويون: «مررت به وزيدٍ»، و«بك وزيدٍ»، إلا مع إظهار الخافض حتى يقولوا: «بك وبزيد»، فقال بعضهم: لأن المخفوض حرف متصل غير منفصل، فكأنه كالتنوين في الاسم، فقبح أن يعطف باسم يقوم بنفسه على اسم لا يقوم بنفسه.

وقد فسر المازي هذا تفسيراً مقنعاً فقال: الثاني في العطف شريك للأول، فإن كان الأول يصلح شريكاً للثاني وإلا لم يصلح أن يكون الثاني شريكاً له: فكما لا تقول: «مررت بزيد» فكذلك لا يجوز: «مررت بك وزيدٍ».

وقد جاز ذلك في الشعر، أنشد سيبويه [من البسيط][1]:

---

(١) البيت لعمر بن معدي كرب الزبيدي.

فاليومَ قرَّبتَ تهجونا وتَشتُمُنا فاذهب فما بكَ والأيامِ من عَجَبِ

وقوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾؛ أي أعطوهم أموالهم إذا ﴿آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً﴾ يسمون يتامى بعد أن يؤنس منهم الرشد، وقد زال عنهم اسم يتامى بالاسم الأول الذي كان لهم، وقد كان يقال في النبي ﷺ: «يتيم أبي طالب».

وقوله ـ -عز وجل- ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾؛ الطيب: مالكم، والخبيث: مال اليتيم وغيره مما ليس لكم، فلا تأكلوا مال اليتيم بدلاً من مالكم، وكذلك لا تأكلوا أيضاً ﴿أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.

أي: لا تضيفوا أموالهم في الأكل أموالكم، أي: إن احتجتم إليها فليس لكم أن تأكلوها مع أموالكم.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾؛ والحوب: الإثم العظيم، والحوب: فعل الرجل، تقول: حَابَ حُوباً كقولك: قد خَان خُوناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ قال مجاهد: إن تحرجتم أن تتركوا ولاية اليتامى إيماناً وتصديقاً فكذلك تحرجوا من الزنا، وإن خفتم ألا تعدلوا في أمر النساء فانكحوا ما ذكر الله -عز وجل.

وقال بعض المفسرين قولا ثالثاً؛ قال أهل البصرة من أهل العربية: يقول ذلك المفسر، قال: إنهم كانوا يتزوجون العشر من اليتامى ونحو ذلك رغبة في مالهن فقال الله -جل وعز- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي: في نكاح اليتامى، ودل عليه ﴿فَانكِحُوا﴾ كذلك قال أبو العباس محمد ابن يزيد، وهو مذهب أهل من أهل التفسير.

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾.

لم يقل: «من طاب» والوجه في الآدميين «من»، وفي الصفات وأسماء الأجناس أن يقال: «ما» تقول: «ما عندك ؟» فيقول: «فرس وطيب»، فالمعنى: فانكحوا الطيب الحلال على هذه العدة التى وصفت لأن ليس كل النساء طيباً، قال -عز وجل-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِن نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ...﴾ [النساء: ٢٣] فليس ممن ذكر ما يطيب.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾؛ بدل من ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ ومعناه: اثنين

اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، إلا أنه لا ينصرف لجهتين، لا أعلم أن أحداً من النحويين ذكرهما، وهي أنه اجتمع فيه علتان: أنه معدول عن اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأنه عدل عن تأنيث.

قال أصحابنا: أنه اجتمع فيه علتان أنه عدل عن تأنيث، وأنه نكرة، والنكرة أصل للأسماء، بهذا كان ينبغي أن نخففه، لأن النكرة تخفف ولا تعد فرعاً.

وقال غيرهم: هو معرفة وهذا محال لأنه صفة للنكرة قال الله -جل وعز- ﴿جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[فاطر: ١]،

فهذا محال أن يكون ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ الثلاثة والأربعة؛ وإنما معناه: أولي أجنحة ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة، قال الشاعر :

وَلكِنَّما أَهلي بِوادٍ أَنيسُهُ سِباعٌ ... تَبَغّى النَّاسَ مَثنى و موحَدُ(١)

فإن قال قائل من الرافضة: إنه قد أحل لنا تسع، لأن قوله: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ يراد به تسع، قيل: هذا يبطل من جهات؛ أحدها في اللغة: أن مثنى لا يصلح إلا لاثنين اثنين على التفريق.

ومنها: أنه يصير أَعْيَا كلام لو قال قائل في موضع تسعة: «أعطيك اثنين وثلاثة وأربعة» يريد تسعة، قيل: «تسعة» تغنيك عن هذا، لأن «تسعة» وضعت لهذا العدد كله، أعني من واحد إلى تسعة.

وبعد فيكون -على قولهم- من تزوج أقل من تسع أو واحدة فعاص، لأنه إذا كان الذي أبيح له تسعاً أو واحدة فليس لنا سبيل إلى اثنين، لأنه إذا أمرك من تجب عليك طاعته فقال: «أَدخل هذا المسجد في اليوم تسعاً أو واحدة»، فدخلت غير هاتين اللتين حددهما لك من المرات فقد عصيته.

هذا قول لا يعرج على مثله، ولكنا ذكرنا ليعلم المسلمون أن أهل هذه المقالة ما ينون لأهل الإسلام في اعتقادهم، ويعتقدون في ذلك ما يشتبه على أحد من الخطأ.

فأما قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾؛ فمعناه: ذلك أقرب ألا تجوروا.

وقيل في التفسير: ألا تميلوا، ومعنى «تميلوا»: تجوروا، فأما من قال: ألا تعولوا: ألا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥ /١٥)، واللمع في العربية (١ /١٥٦)، ومغني اللبيب (١ /٨٥٨)، وأدب الكاتب (١ /٤٥٨)، ولسان العرب (١٤ /٧٥).

تكثر عيالكم[١]، فزعم جميع أهل اللغة أن هذا خطأ، لأن الواحدة تعول، وإباحة كل ما ملكت اليمين أزيد في العيال من أربع، ولم يكن في العدد في النكاح حد حين نزلت هذه الآية.

والدليل على أنهم كانوا يرغبون في التزويج من اليتامى لمالهن: أنهم كانوا لا يبالون ألا يعدلوا في أمرهم، وقوله -عز وجل- ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾[النساء: ١٢٧].

فالمعنى: وإن خفتم ألا تقسطوا في نكاح اليتامى فانكحوا الطيب الذي قد أحل لكم من غيرهن؛ والمعنى: إن أمنتم الجور في اليتامى فأَنكحوا منهن كهذه العدة، لأن النساء تشتمل على اليتامى وغيرهن.

وقوله: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾؛ يقال: هو صَدَاق المرأة، وصدُقَة المرأة، وصُدْقة المرأة، وصَدَاق المرأة، مفتوح أولها، والذي في القرآن جمع: «صدُقة»، ومن قال: «صُدْقَة» قال: «صُدُقاتهنَّ»، كما يقول: «غرفة وغرفات»، ويجوز: «صُدْقاتهن، وصُدَقاتهن» بضم الصاد وفتح الدال، ويجوز: «صُدُقاتهن»، ولا تقرأن من هذا إلا ما قد قرئ به، لأن القراءة سنة لا ينبغي أن يقرأ فيها بكل ما يجيزه النحويون، وإن تتبع فالذي روي من المشهور في القراءة أجود عند النحويين، فيجتمع في القراءة بما قد روى الأتباع، وإثبات ما هو أقوى في الحجة إن شاء الله.

ومعنى قوله: ﴿نِحْلَةً﴾؛ فيه غير قول، قال بعضهم: فريضة، وقال بعضهم: ديانة، تقول: «فلان ينتحل كذا وكذا»، أي: يدين به، وقال بعضهم: هي نحلة من الله لهن أن جعل

---

(١) قال المفسرون في معنى ((تعولوا)) ثلاثة أقوال:

أحدهما : تميلوا قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وإبراهيم وقتادة والسدي ومقاتل والفراء وقال أبو مالك وأبو عبيد: وأشار الزجاج : أن ((تجوروا وتميلوا)) بمعنى واحد.

قال ابن الجوزي: واحتكم رجلان من العرب إلى رجل فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه إنك والله تعول علي أي : تميل وتجور.

والثاني : تضلوا قاله مجاهد. والثالث : ما زعم فيما معناه وذكره الزجاج ورد عليه.

انظر: زاد المسير (٢ /٩)، وتفسير القرطبي (٥ /١٥)، وفتح القدير (١ /٦٣١)، وتفسير أبي السعود (٢ /١٤٣)، وروح المعاني (٤ /١٩٦).

على الرجال الصداق، ولم يجعل على المرأة شيئاً من الغرم، فتلك نحلة من الله النساء، يقال: ((نحلت الرجل المرأة)) إذا وهبت له ((نِحْلةً ونُحْلاً))، ويقال: ((قد نَحِل جسم فلان ونَحُل)) إذا دق. و((النحل)): جائز أن تكون سميت نحلاً، لأن الله جل ثناؤه نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها.

وقوله -جل وعز- ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً﴾؛ أي: عن شيء من الصداق، و﴿لَكُمْ﴾ خطاب للأزواج، وقال بعضهم: للأولياء ههنا. و ﴿نَفْساً﴾ منصوب على التمييز لأنه إذا قال: ﴿طِبْنَ لَكُمْ﴾ لم يعلم في أي: صنف وقع الطيب؛ المعنى: فإن طابت أنفسهن بذلك. وقد شرحناه قبل هذا المكان شرحاً وافياً.

وقوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾؛ يقال: ((هنأني الطعام ومرأني))، وقال بعضهم: يقال مع هنأني: ((مرأني))، فإذا لم تذكر هنأني قلت: ((أمرأني)) بالألف. وهذا حقيقته؛ أن ((مرأني)) تبينت أنه سينهضم وأحمد مغبته، فإذا قلت: ((أمرأني الطعام)) فتأويله: أنه قد انهضم وحمدت مغبته.

فإن قال قائل: إنما قيل: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً﴾ فكيف يجوز أن يقبل الرجل المهر كله، وإنما قيل له: منه ؟ فالجواب في ذلك أن ﴿مِنْهُ﴾ ههنا للجنس لما قال -عز وجل-: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠]. فلم نؤمر أن نجتنب بعض الأوثان، ولكن المعنى: اجتنبوا الرجس الذي هو وثن. أي: فكلوا الشيء الذي هو مهر.

وقوله: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾؛ قال بعضهم: السفهاء النساء والصبيان، وقال بعضهم: السفهاء اليتامى[١].

---

(١) قال المفسرون في المراد بالسفهاء خمسة أقوال:

أحدها : أنهم النساء، قاله ابن عمر.

والثاني : النساء والصبيان، قاله سعيد بن جبير وقتادة والضحاك ومقاتل والفراء وابن قتيبة وعن الحسن ومجاهد.

والثالث : الأولاد قاله أبو مالك، وهذه الأقوال الثلاثة مروية عن ابن عباس.

والرابع : روي عن الحسن قال : هم الأولاد الصغار.

والخامس: اليتامى، قاله عكرمة وسعيد بن جبير في رواية.

انظر: تفسير ابن كثير (١ /٨٠)، وفتح القدير (١ /٦٤١)، وتفسير البغوي (١ /١٦٤)، وتفسير البيضاوي (١ / ١٤٧)، وتفسير أبي السعود (٢ /١٤٤)، والدر المنثور (٢ /٤٣٣)، وزاد المسير (٢ /١٢).

والسفهاء: يدل على أنه لا يعني به النساء وحدهن، لأن النساء أكثر ما يستعمل فيهن جمع: «سفهية» وهو: «سفائه»، ويجوز: «سفهاء» كما يقال: «فقيرة وفقراء».

وقال بعضهم: معناه: لا تهبوا للسفهاء أمولكم، وهذا عندي -والله أعلم- غير جائز. كذلك قال أصحابنا البصريون، بل السفية أحق بالهبة لتعذر الكسب عليه ولومنعنا من الهبة لهم لما جاز أن نورثهم، وإنما معنى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، لا تؤتوا السفهاء أموالهم، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، وإنما قيل: أموالكم لأن معناه: الشئ الذي به قوام أمركم، كما قال الله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٨٥] ولم يكن الرجل منهم يقتل نفسه، ولكن كان بعضهم يقتل بعضاً، أي: تقتلون الجنس الذي هو جنسكم.

قرئت ﴿الَتِي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً﴾ و«قيماً»، يقال: «هذا قُوام الأمر وملاكه»؛ المعنى: التي جعلها الله تقيمكم فتقومون بها قياماً، فهو راجع إلى هذا؛ والمعنى: جعلها الله قيمة الأشياء فبها يقوم أمركم.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾؛ أي: علموهم -مع إطعامكم إياهم، وكسوتكم إياهم- أمر دينهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَابْتَلُوا اليَتَامَى﴾؛ معناه: اختبروا اليتامى.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً﴾؛ معنى ﴿آنَسْتُم﴾: علمتم، ومعنى «الرشد»: الطريقة المستقيمة التي تثقون معها بأنهم يحفظون أموالهم، فادفعوا إليهم أموالهم.

﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا﴾؛ أي: مبادرة كبرهم.

قال بعضهم: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً﴾ لا تأثلوا منها، ة كلوا القوت على قدر نفعكم إياها في توليكم عليهم.

وقال بعضهم:

معنى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: يأكل قرضاً ولا يأخذ من مال اليتيم شيئاً، لأن المعروف أن يأكل الإنسان ماله، ولا يأكل مال غيره، قال: والدليل على ذلك قوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾.

كانت العرب لا تورث إلا من طاعن بالرماح وزاد عن المال وحاز الغنيمة، فأعلم الله -عز وجل- أن حق الميراث على ما ذكر من الفرض.

وجاءت امرأة إلى النبي ﷺ و معها بنات لها توفي أبوهن وهو زوجها، وقد هم عما البنات بأخذ المال فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ الآية.

فقال العمان: يا رسول الله أيرث من لا يطاعن بالرماح ولا يزود عن المال ولا يجوز الغنيمة ؟ فقال ﷺ: «أعطيا البنات الثلثين، وأعطيا الزوجة -وهي أمهن - الثمن، وما بقي فلكما»، فقالا: فمن يتولى القيام بأمرهما ؟ فأمرهما النبي ﷺ أن يتوليا ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾؛ هذا منصوب على الحال؛ المعنى: لهؤلاء أنصبة على ما ذكرناها في حال الفرض، وهذا كلام مؤكد لأن قوله -جل ثناؤه-﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ﴾؛ معناه: إن ذلك مفروض لهن.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِنْهُ﴾؛ أي: فاعطوهم منه.

قال الحسن -رحمة الله عليه- والنخعي: أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات والمساكين واليتامى من العين؛ يعنيان الورق والذهب؛ فإذا قسم الورق والذهب وصارت القسمة إلى الأرضيين والرقيق وما أشبه ذلك؛ قالوا لهم قولاً معروفاً، كانوا يقولون لهم: «بورك فيكم».

وقال قوم: نسخ الأمر للمساكين ومن ذكر في هذه الآية الفرض في القسمة؛ وإباحة الثلث للميت يجعله حيث شاء.

قال أبو إسحاق: وقد أجمعوا أن الأمر بالقسمة من الميراث للقرابة والمساكين واليتامى قد أمر بهما، ولم يجمعوا على نسخها، والأمر في ذلك على ما أجمع عليه؛ -والله أعلم-.

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ الكلام في ﴿ذُرِّيَّةً﴾ بضم الذال؛ ويجوز «ذِريه»، بكسر الذال؛ وقد قرئ بهما، إلا أن الضم أجود وهي منسوبة إلى الذر؛ وهي فعليه منه.

ويجوز أن يكون أصلها: «ذرورة»؛ ولكن الراء أبدلت ياءً؛ وأدغمت الواو فيها، فأما

الكسر في الذال فلكسر الراء كما قالوا في «عُتي»: «عِتي».

و«ضِعاف» جمع: «ضَعيف وضَعيفة»، كما تقول: «ظَريف وظِراف وخَبيث وخِباث»، وإن قيل: «ضُعفاء» جاز؛ تقول: «ضعيف وضعفاء».قيل: ومعنى الآية : أنهم كانوا يوصون بأموالهم على قدر أهوائهم، ويتركون ضعفة ذراريهم وأولادهم فأمرهم الله -عز وجل- أن يوصوا لهم، وأن يجروا ذلك من سداد. وقيل: قيل لهم هذا بسبب اليتامى. فوعظوا في توليتهم اليتامى بأن يفعلوا كما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم.

وكلا القولين جائز حسن، إلا أن تسمية الفرائض قد نسخ ذلك بما جعل من الأقسام للأولاد وذوي العصبة.

ثم خوف الله -عز وجل- وغلظ في أمر اليتامى وأوعد فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾**.

يقرأ: **﴿وسَيُصْلَوْنَ﴾**. في هذا أعني في قوله: **﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى﴾** دليل أن مال اليتيم إن أخذ منه على قدر القيام له ولم يتجاوز ذلك جاز.

بل يستظهر فيه إن أمكن ألا يقرب البتة لشدة الوعيد فيه، بأن لا يؤكل منه إلا قرضاً، وإن أخذ القصد وقدر الحاجة على قدر نفعه فلا بأس إن شاء الله.

وقوله -عز وجل- **﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾**؛ معنى **﴿يُوصِيكُمُ﴾**: فرض عليكم، لأن الوصية من الله -عز وجل- فرض، والدليل على ذلك قوله: **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾**، وهذا من المحكم علينا.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾؛ المعنى: يستقر للذكر مثل حظ الأنثيين، له الثلثان وللابنة الثلث.

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾؛ يجوز: «واحدةً و واحدةٌ» ههنا، وقد قرئ بهما جميعاً، إلا أن النصب عندي أجود بكثير، لأن قوله: **﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾** قد بيّن أن المعنى: فإن كان الأولاد نساء كذلك، وإن كانت المولودة واحدة، فلذلك اخترنا النصب، وعليه أكثر القراءة.

فإن قال قائل: إنما ذكر لنا ما فوق الثنتين وذكرت واحدة فلم أعطيت البنتان الثلثين فسوى بين الثنتين والجماعة ؟

فقد قال الناس في هذا غير قول؛ قال لعضهم: أعطيت البنتان الثلثين بدليل لا تفرض لهام مسمى، والدليل هو قوله: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ**

لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

فقد صار للأخت النصف كما أن للابنة النصف، ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ﴾ فأعطيت البنتان الثلثين كما أعطيت الأختان، وأعطي جملة الأخوات الثلثين قياساً على ما ذكر الله -عز وجل- في جملة البنات، وأعلم الله في مكان آخر أن حظ الابنتين وما فوقهما حظ واحد في قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾[النساء: ١٢].

فدلت هذه الآية أن حظ الجماعة إذا كان الميراث مسمى حظ واحدة، وهذا أيضاً في العربية كذا قياسه، لأن منزلة الاثنتين من الثلاث كمنزلة الثلاث من الأربع فالاثنان جمع كما أن الثلاث جمع، وصلاة الاثنين وصلاة الاثنتين جماعة، والاثنان يحجبان كما تحجب الجماعة. فهذا بين واضح.

وهذا جعله الله في كتابه يدل بعضه على بعض تفقيها للمسلمين وتعليماً، ليعلموا فيما يحزبهم من الأمور على هذه الأدلة.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد، وكذا قال إسماعيل بن إسحاق قالا: في الآية نفسها دليل أن للبنتين الثلثين، لأنه إذا قال: ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾، وكان أول العدد ذكراً وأنثى، فللذكر الثلثان وللأنثى الثلث، فقد بان من هذا أن للبنتين الثلثين، والله قد أعلم أن ما فوق الثنتين لهما الثلثان.

وجميع هذه الأقوال التي ذكرنا حسن جميل بيّن، فأما ما ذكر عن ابن عباس من أن البنتين بمنزلة البنت فهذا لا أحسبه صحيحاً عن ابن عباس وهو يستحيل في القياس لأن منزلة الاثنين منزلة الجمع، فالواحد خارج عن الاثنين.

ويقال: «ثُلُث ورُبع وسُدس»، ويجوز تخفيف هذه الأشياء لثقل الضم فيقال: «ثُلْث ورُبْع وسُدْس». ومن زعم أن الأصل فيه التخفيف وأنه ثقل فخطأ، لأن الكلام موضوع على الإيجاز والتخفيف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

فالأم لها في الميراث تسمية من جهتين، تسمية السدس مع الولد، وتسمية السدس مع الأخوة، وتسمية الثلث إن لم يكن له ولد.

والأب يرث من جهة التسمية السدس، ويرث بعد التسمية على جهة التعصيب.

والأم يحجبها الأخوة عن الثلث فترث معهم السدس.

قال أبو إسحاق: ونذكر من كل شيء من هذا مسألة، إذ كان أصل الفرائض في الأموال والمواريث في هذه السورة.

فإن مات رجل أو امرأة فخلفا أبوين، فللأم الثلث، والثلثان الباقيان للأب. بهذا جاء التنزيل وعليه اجتمعت الأمة.

فإن خلف الميت ولداً وكان ذكراً فللأم السدس وللأب السدس، وما بقي فللابن، فإن خلف بنتاً وأبوين، فللبنت النصف وللأم السدس، وما بقي للأب، يأخذ الأب سدساً بحق التسمية، ويأخذ السدس الآخر بحق التعصيب.

فإن خلف الميت -وكانت امرأة - زوجاً وأبوين، فللزوج النصف وللأم ثلث ما بقي وللأب ثلثا ما بقي، وهو ثلث أصل المال.

وقد ذكر ابن عباس أنه كان يعطي الأم الثلث من جميع المال، ويعطي الأب السدس. فيفضل الأم على الأب في هذا الموضع. والإجماع على خلاف ما روي عنه.

وقال الذين احتجوا مع الإجماع: لو أعلمنا الله -عز وجل- أن المال بين الأب والأم ولم يسم لكل واحد لوجب أن نقسمه بينهما نصفين، فلما أعلمنا الله -عز وجل- أن للأم الثلث علمنا أن للأب الثلثين، فلما دخل على الأب والأم داخل أخذ نصف المال، دخل النقص عليهما جميعاً، فوجب أن يكون الميراث للأبوين إنما هو النصف، فصار للأم النصف، وللأب ثلثا النصف.

وقيل في الاحتجاج في هذا قول آخر؛ قال بعضهم: إنما قيل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ ولم يرثه ههنا أبواه فقط، بل ورثه أبواه وورثه مع الأبوين غير الأبوين، فرجع ميراث الأم إلى ثلث ما بقي.

وقال أصحاب هذا الاحتجاج: فكيف تفضل الأم على الأب والأخوة يمنعون الأم الثلث فيقتصر بها على السدس، ويوفر الباقي على الأب، فيأخذ الأب خمسة أسداس، وتأخذ الأم سدساً.

فإن توفي رجل أو امرأة، وخلف إخوة ثلاثة فما فوق، وأماً وأباً أخذت الأم السدس وأخذ الأب الباقي، هذا إجماع.

وقد روي عن ابن عباس في هذا شيء شاذ؛ رووا أنه كان يعطي الإخوة هذا السدس الذي منع الأخوة لأم أن تأخذه، فكان يعطي الأم السدس، والإخوة السدس. ويعطي الأب

الثلثين. وهذا لا يقوله أحد من الفقهاء. وقد أجمعت فقهاء الأمصار أن الأخوة لا يأخذون مع الأبوين.

فإن توفي رجل وخلف أخوين وأبوين، فقد أجمع الفقهاء أن الأخوين يحجبان الأم عن الثلث، إلا ابن عباس فإنه كان لا يحجب بأخوين. وحجته أن الله -عز وجل- -قال: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

وقال جميع أهل اللغة: إن الأخوين جماعة، كما أن الإخوة جماعة، لأنك إذا جمعت واحداً إلى واحد فهما جماعة، ويقال لهما إخوة.

وحكي سيبويه أن العرب تقول: «قد وضعا رحالهما»، يريدون رحليهما، وما كان الشيء منه واحداً فتثنيته جمع، لأن الأصل هو الجمع، قال الله تعالي: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم: ٤].

وقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لأن كل واحد منهما قد ولده.

والأصل في «أم» أن يقال: «أَبَةٌ»، ولكن استغني عنها بأم. وأبوان تثنية أب، وأبة، وكذلك لو ثنيت «ابناً وابنة»، ولم تخف اللبس قلت: «ابنان».

﴿فَلِأُمِّهِ﴾ تقرأ بضم الهمزة وهي أكثر القراءات، وتقرأ بالكسر «فَلِإِمِّهِ»، فأما إذا كان قبل الهمزة غير كسر، فالضم لا غير، مثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[المؤمنون: ٥٠]، لا يجوز «وإمه»، وكذلك قوله: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾، وإنما جاز «لإمه»، و﴿فِي إِمِّهَا رَسُولاً﴾[القصص: ٥٩] بالكسر، لأن قبل الهمزة كسرة، فاستثقلوا الضمة بعد الكسرة، وليس في كلام العرب مثل: «فِعُل» بكسر الفاء وضم العين فلما اختلطت اللام بالاسم شبه بالكلمة الواحدة، فأبدل من الضمة كسرة، ومن قال: ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ بضم الهمزة أتي بها على أصلها، على أن اللام تقديرها تقدير الانفصال.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾؛ أي: إن هذه الأنصبة إنما تجب بعد قضاء الدين، وإنقاذ وصية الميت في ثلثه.

فإن قال قائل: فلم قال: ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾، وهلا كان «من بعد وصية يوصي بها ودين» ؟ فالجواب في هذا أن «أو» تأتي للإباحة، فتأتي لواحد واحد على انفراد، وتضم الجماعة فيقال: «جالس الحسن أو الشعبي»؛ والمعنى: كل واحد من هؤلاء أهل أن يجالس، فإن جالست الحسن فأنت مصيب، وإن قلت: «جالس الرجلين» فجالست واحداً منهما وتركت الآخر كنت غير متبع ما أمرت به.

فلو كان «من بعد وصية يوصي بها ودين» احتمل اللفظ أن يكون هذا إذا اجتمعت الوصية والدين، فإذا انفردا كان حكم آخر، فإذا كانت «أو» دلت على أن أحدهما إن كان فالميراث بعده، كذلك إن كان كلاهما.

وقوله -عز وجل-:﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾؛ في هذا غير قول.

أما التفسير فإنه يروي أن الابن إن كان أرفع درجة من أبيه في الجنة سأل أن يرفع إليه أبوه فيرفع، كذلك الأب إن كان أرفع درجة من ابنه سأل أن يرفع ابنه إليه فأنتم لا تدرون في الدنيا أيهم أقرب لكم نفعاً.

أي: أن الله -عز وجل- قد فرض الفرائض على ما هي عنده حكمة، ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم لكم أنفع في الدنيا، فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ أي: عليم بما يصلح خلقه، حكيم فيما فرض من هذه الأموال وغيرها.

وقوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللهِ﴾ منصوب على التوكيد والحال من ﴿وَلأَبَوَيْهِ﴾. أي: ولهؤلاء الورثة ما ذكرنا مفروضاً، ففريضة مؤكدة ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ﴾.

ومعنى ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ فيه ثلاثة أقوال:

قال سيبويه: كان القوم شاهدوا علماً وحكمة ومغفرة وتفضلاً، فقيل لهم إن الله كان كذلك ولا يزل، أي: لم يزل على ما شاهدتم.

وقال الحسن: كان ﴿عَلِيماً﴾ بالأشياء قبل خلقها، ﴿حَكِيماً﴾ فيما يقدر تدبيره منها.

وقال بعضهم: الخبر عن الله في هذه الأشياء بالمضي، كالخبر بالاستقبال والحال، لأن الأشياء عن الله في حال واحدة، ما مضى وما يكون وما هو كائن.

والقولان الأولان هما الصحيحان، لأن العرب خوطبت بما تعقل، ونزل القرآن بلغتها فما أشبه من التفسير كلامها فهو أصح، إذ كان محتاجاً إلى ذلك، فهما في النفع في هذا الباب لا يدرى أيهما أقرب نفعاً.

والقول الأول هو الذي عليه أهل التفسير.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً﴾؛ يقرأ: «يُورِث» بفتح الراء وكسرها. فمن قرأ «يُورِث» -بالكسر - ف﴿كَلالَةً﴾ مفعول، ومن قرأ ﴿يُورَثُ﴾ ف﴿كَلالَةً﴾

منصوب على الحال.

زعم أهل اللغة أن الكلالة من قولك «تكلله النسب»، أي: لم يكن الذي يرثه ابنه ولا أباه. والكلالة سوى الولد والوالد، والدليل على أن الأب ليس بكلالة قول الشاعر:

فإن أَب المَرْء أَحْمَى له   ومَوْلَى الكَلالة لا يغضَب

وإنما هوكالإكليل الذي على الرأس. وإنما استدل على أن الكلالة ههنا الإخوة للأم دون الأب بما ذكر في آخر السورة: أن للأختين الثلثين وأن للإخوة كل المال، فعلم ههنا لما جعل للواحد السدس، وللاثنين الثلث، ولم يزادوا على الثلث شيئاً ما كانوا، علم أنه يعني بهم الإخوة للأم.

فإن ماتت امرأة وخلفت زوجاً وأماً إخوةً لأم فللزوج النصف وللأم السدس، وللإخوة من الأم الثلث.

فإن خلفت زوجاً وأماً وإخوة لأب وأم وإخوة لأم فإن هذه المسألة يسميها بعضهم: «المسألة المشتركة»، وبعضهم يسميها: «الحمارية».

قال بعضهم: إن الثلث الذي بقي للإخوة للأم دون الإخوة للأم دون الإخوة للأب والأم، لأن لهؤلاء الذين للأم تسمية وهي: «الثلث» وليس للإخوة للأب والأم تسمية، فأعطيناهم الثلث.

كما أنه لو مات رجل وخلف أخوين لأم، وخلف مائة أخ لأب وأم لأعطي الأخوان للأم الثلث، وأعطي المائة الثلثين، فقد صار الإخوة للأم يفضلون في الأنصباء الإخوة للأب والأم الأشقاء.

وقال بعضهم: الأم واحدة، وسموها: «الحمارية» بأن قالوا: هب أباهم كان حماراً واشتركوا بينهم، فسميت: «المشتركة».

وقوله -عز وجل-: ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾؛ ﴿غَيْرَ﴾ منصوب على الحال.

المعنى: يوصي بها غير مضار، فمنع الله -عز وجل- من الضرار في الوصية. وروي عن أبي هريرة: «من ضار في وصية ألقاه الله في واد من جهنم أو من نار» فالضرار راجع في الوصية إلى الميراث.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ أي: ﴿عَلِيمٌ﴾ ما دبر من هذه الفرائض، ﴿حَلِيمٌ﴾ لمن عصاه بأن أخره وقبل توبته.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: الأمكنة التي لا ينبغي أن تتجاوز.

﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: يقيم حدوده على ما حد.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: يدخلهم مقدرين الخلود فيها، والحال يستقبل بها، تقول: «مررت به معه باز صائداً به غداً»، أي: مقداراً الصيد به غداً.

﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾؛ أي: يجاوز ما حده الله وأمر به.

﴿يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا﴾؛ ﴿خَالِداً﴾ من نعت النار.

ويجوز أن يكون منصوباً على الحال، أي: يدخله مقدراً له الخلود فيها.

قوله -جل وعز-: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِسَائِكُمْ﴾؛ الفاحشة: الزنا، والتي يجمع على «اللاتي، واللواتي» قال الشاعر:

مِنَ اللّواتِي والتِي واللاتي زَعَمْنَ أَنّي كبِرَتْ لِدَاتِي[1]

ويجمع «اللاتي» بإثبات الياء ويحذف الياء، قال الشاعر:

مِنَ اللائي لَم يَحجِجنَ يَبغينَ حِسبَةً وَلَكِن لِيَقتُلنَ البَريءَ المُغَفَّلا[2]

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ﴾؛ أي: من المسلمين.

﴿فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾؛ هذا كان الفرض في الزنا قبل أن ينزل الجلد، ويأمر النبي ﷺ بالرجم، فكان يحبس الزانيات أبداً.

وقال بعضهم: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ هو الحد الذي نسخ التخليد في الحبس والأذى.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾؛ قال بعضهم: كان الحبس للثيبين، والأذى للبكرين، يوبخان فيقال لهما: «زنيتما وفجرتما وانتهكتما حرمات الله»، قال بعضهم: نسخ الأذى لهما مع الحبس، وقال بعضهم: الأذى لا ينبغي أن يكون منسوخاً عنهما إلا أن يتوبا، وإن قوله -عز وجل-:﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٢] هومن

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٧٩)، وزاد المسير (٢/٣٤).

(٢) انظر: زاد المسير (٢/٣٤)، والأغاني (١/٣٩٠)، والمزهر في علوم اللغة (١/١٢١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٦٤).

التوبيخ لهما بأن يفضحاً على رؤوس الملأ.

أما ما سلف مما كان في أمر الفاجرين فقد استغنى عنه إلا أن الفائدة فيه أن الشهادة لم تزل في الزنا شهادة أربعة نفر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

ليس معناه: أنهم يعلمون السوء وهم جهال، غير مميزين فإن من لا عقل له ولا تمييز لا حد عليه، وإنما معنى ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أنهم في اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية جهال، فليس ذلك الجهل مسقطاً عنهم العذاب. لو كان كذلك لم يعذب أحد ولكنه جهل في الاختيار.

ومعنى ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يتوقفون قبل الموت، لأن ما بين الإنسان وبين الموت قريب، فالتوبة مقبولة قبل اليقين بالموت.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾. إنما لم تكن له التوبة، لأنه تاب في وقت لا يمكن الإقلاع بالتصرف فيما يحقق التوبة.

﴿أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾؛ أي: مؤلماً موجعاً، والمؤلم الذي يبلغ إيجاعه غاية البلوغ.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً﴾؛ معناه: تكرهوهن على التزوج بكم.

وهذه نزلت؛ لأنهم كانوا إذا مات زوج المرأة وله ولد من غيرها ضرب ابنه عليها حجاباً، وقال: أنا أحق بها، فتزوجها على العقد الذي كان عقده أبوه، من تزوجها ليرثها ما ورثت من أبيه، فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك حرام.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾؛ هؤلاء غير أولئك.

حرم الله أن تعضل المرأة، ومعنى «العضل»: تحبس عن التزوج. كان الرجل منهم إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها لتفتدى منه، فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك لا يحل.

و﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يصلح أن يكون نصباً ويصلح أن يكون جزماً. أما النصب فعلي: أن لا يحل لكم أن ترثوا النساء ولا أن تعضلوهن، ويصلح أن يكون جزماً على النهي.

﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ والفاحشة: الزنا.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالنصفة في المبيت والنفقة، والإجمال في القول.

وقوله -عز وجل-:﴿وَإِنْ أَرَدْتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾؛ معناه: إذا أردتم تخلية المرأة، وإذا أراد الرجل أن يستبدل مكانها ولم تُرِد، هذا شدد الله فيه بقوله: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾.

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾؛ القنطار المال العظيم، وقد بينا ما قاله الناس فيه في سورة آل عمران.

وقوله -عز وجل-:﴿فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾؛ فحرم الله الأخذ من المهر على جهة الإضرار بقوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.

والبهتان الباطل الذي يتحير من بطلانه، وبهتان حال موضوعة في موضع المصدر؛ المعنى: أتأخذونه مباهتين وآثمين.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

«الإفضاء» أصله الغشيان، وقال بعضهم: إذا خلا فقد أفضى، غشي أولم يغش.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾؛ قال بعضهم: هوعقد المهر، وقال بعضهم: الميثاق الغليظ قوله: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً﴾[البقرة: ٢٢٩] والتسريح بإحسان لا يكون بأن تأخذ منها مهرها. هذا تسريح بإساءة لا بإحسان.

وقوله -جل وعز--: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ المعنى: لا تنكحوا كما كان من قبلكم ينكح ما نكح أبوه، فهذا معنى ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾؛ المعنى: إلا ما قد سلف فإنه كان فاحشة، أي: زنا.

﴿وَمَقْتاً﴾ والمقت : أشد البغض.

﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾؛ أي: وبئس طريقاً. أي: ذلك الطريق بئس طريقاً.

فالمعنى: أنهم أعلموا أن ذلك في الجاهلية كان يقال له: «مقت»، وكان المولود عليه يقال له: «المقتي» فاعلموا أن هذا الذي حرم عليهم لم يزل منكراً في قلوبهم ممقوتاً عندهم.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد: جائز أن تكون «كان» زائدة؛ فالمعنى: على هذا: إنه فاحشة ومقت، وأنشد في ذلك قول الشاعر:

فكيف إِذَا مَرَرْتَ بدارِ قَوْمٍ وجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرامِ[1]

قال أبو إسحاق: هذا غلط من أبي العباس، لأن «كان» لو كانت زائدة لم تنصب خبرها. والدليل على هذا البيت الذي أنشده: «وجيران لنا كانوا كرام»، ولم يقل: «كانوا كراماً».

وقوله: -جل وعز-:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾.

هذا يسمى التحريم المبهم، وكثير من أهل العلم لا يفرق في المبهم وغير المبهم تفريقاً مقنعاً، وإنما كان يسمي هذا المبهم من المحرمات لأنه لا يحل بوجه ولا سبب، واللاحق به ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ والرضاعة قد أدخلت هذه المحرمات في الإبهام.

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؛ قد اختلف الناس في هذه فجعلها مبهمة وجعلها بعضهم غير مبهمة، فالذي جعلها مبهمة قال: «إن الرجل إذا تزوج المرأة حرمت عليه أمها دخل بها أولم يدخل بها». واحتج بأن ﴿اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إنما هو متصل بالربائب.

وروي عن ابن عباس أنه قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ من المبهمة.

﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾.

قال أبو العباس محمد بن يزيد: ﴿اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ نعت للنساء اللواتي هن أمهات الربائب لا غير، قال: والدليل على ذلك إجماع الناس أن الربيبة تحل إذا لم يدخل بأمها، وأن من أجاز أن يكون قوله: ﴿مِن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ هو لأمهات نسائكم، يكون المعنى: على تقديره: وأمهات نسائكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن.

فيخرج أن يكون اللاتي دخلتم بهن لأمهات الربائب.

والدليل على أن ما قاله أبو العباس هو الصحيح أن الخبرين إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحداً. لا يجيز النحويون: «مررت بنسائك وهربت من نساء زيد الظريفات»، على أن تكون «الظريفات» نعتاً لهؤلاء النساء وهؤلاء النساء. والذين قالوا بهذا القول أعني الذين

---

(١) انظر: أسرار العربية (١/١٣٤)، وشرح ابن عقيل (١/٢٨٩).

جعلوا أمهات نسائكم بمنزلة قوله: ﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إنما يجوز لهم أن يكون ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ تمام هذه التحريمات المبهمات، ويكون الربائب هن اللاتي يحللن إذا لم يدخل بأمهاتهن قط دون أمهات نسائكم هو الجيد البالغ.

فأما «الربيبة» فبنت امرأة الرجل من غيره، ومعناها: مربوبة، لأن الرجل هو يربها، ويجوز أن تسمى «ربيبة» لأنه تولى تربيتها، كانت في حجره أو لم تكن تربت في حجره، لأن الرجل إذا تزوج بأمها سمي: «ربيبها». والعرب تسمي الفاعلين والمفعولين بما يقع بهم ويوقعونه، فيقولون: «هذا مقتول وهذا ذبيح»، أي: قد وقع بهم ذلك. «وهذا قاتل» أي: قد قتل، هذه أضحية آل فلان لما قد ضحوا به، كذلك: «هذه قَتُوبَة، وهذه حَلُوبة»، أي: ما يقتب ويحلب.

وقوله: ﴿وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾؛ جمع حليلة وهي امرأة ابن الرجل، لا تحل للأب، وهي من المبهمات وحَلِيلة بمعنى مُحَلَّة، مشتق من الحلال.

﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾، «أن» في موضع رفع؛ المعنى: حرمت هذه الأشياء والجمع بين الأختين.

﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ المعنى: سوى ما قد سلف فإنه مغفور لكم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ القراءة بالفتح. قد أُجمع على الفتح في هذه، لأن معناها اللاتي أحصن بالأزواج. ولوقرئت: «والمحصِنَات» لجاز، لأنهن يحصن فروجهن بأن يتزوجن. وقد قرئت التي سوى هذه «المحصَنَات»، و«والمحْصِنات».

﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: إن ملك الرجل محصنة في بلاد الشرك فله أن يطأها، إلا أن جميع الوطء لا يكون في ملك اليمين إلا عن استبراء.

وقد قال بعضهم: إن الرجل إذا ملك جارية وكانت متزوجة فبيعها وملكها قد أحل فرجها، وإن لم تكن أحصنت في بلاد الشرك.

والتفسير على ما وصفنا في ذوات الأزواج في الشرك.

وقوله: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ منصوب على التوكيد محمول على المعنى: لأن معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ كتب الله عليكم هذا كتاباً كما قال الشاعر[1] [من الطويل]:

---

(١) هو: امرؤ القيس.

* وَرُضت فَذلَّت صَعبَةً أَيَّ إِذلال[١]*

لأن معنى «رضت»: أذللت، وقد يجوز أن يكون منصوباً على جهة الأمر، ويكون ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مفسراً له، فيكون المعنى: الزموا كتاب الله. ولا يجوز أن يكون منصوباً بعليكم، لأن قولك: «عليك زيداً»، ليس له ناصب متصرف فيجوز تقديم منصوبه، وقول الشاعر [من الرجز]:

يا أيُّها المَاتِحُ دَلوي دُونكَا إِني رأَيتُ الناسَ يَحْمدُونكَا[٢]

يجوز أن يكون «دلوي» في موضع نصب بإضمار: «خذ دلوي»، ولا يجوز على أن يكون دونك دلوي لما شرحناه، ويجوز أن يكون «دلوي» في موضع رفع، والمعنى: هذا دلوي دونكا.

ويجوز أن يكون ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ رفعاً على معنى هذا فرض الله عليكم، كما قال -جل وعز-: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَّهَارٍ بَلاغٌ﴾[الأحقاف: ٣٥].

وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾؛ و «أُحِلَّ» أيضاً يقرآن جميعاً، ومعنى ﴿مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ ما بعد ذلكم.

أي: ما بعد هذه الأشياء التي حرمت حلال، على ما شرع الله، إلا أن السنة قد حرمت تزوج المرأة على عمتها، وكذلك تزوجها على خالتها، ولم يقل الله -عز وجل-: لا أحرم عليكم غير هذا، وقال -عز وجل-:﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، وأَتَوهَّم أن الخالة كالوالدة، وأن العمة كالوالد، لأن الوالد في وجوب الحق كالوالدة، وتزوجها على عمتها وخالتها من أعظم العقوق.

وقوله -عز وجل-:﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾؛ نصب، وإن شئت رفع؛ المعنى: أحل لكم أن تبتغوا محصنين غير مسافحين.

أي: عاقدين التزويج غير مسافحين، أي: غير زناة، والمسافح والمسافحة الزواني غير الممتنعين من الزنا، فإذا كانت تزني بواحد فهي ذات خدن.

فحرم الله الزنا على الجهات كلها، على السفاح وعلى اتخاذ الصديق.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/٤٨٨)، وزاد المسير (١/٣٧٨)، والمثل السائر (٢/١٨٠)، ونفح الطيب (٦/١٧٦)، ولسان العرب (٧/١٦٢).

(٢) انظر: اللباب علل البناء والإعراب (١/٤٦١).

والإحصان: إحصان الفرج وهو إعفافه، يقال: امرأة حَصَانٌ بينة الْحُصن، وفرس حصان بينة التَّحُصن والتحصين وبناء حصين بيِّن الحصانة، ولو قيل في كله: «الحصَانة» لكان بإجماع.

والسفاح في الزنا اشتق من قولهم: «سفحت الشيء» إذا صببته، وأمر الزنا سفاح لأنه جار على غير عقد، كأنه بمنزلة السفوح الذي لا يحبسه شيء.

وقوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

هذه آية قد غلط فيها قوم غلطاً عظيماً جداً لجهلهم باللغة، ذلك أنهم ذهبوا إلى أن قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ من المتعة التي قد أجمع أهل الفقه أنها حرام.

وإنما معنى قوله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أي: فما نكحتموه، على الشريطة التي جرت في الآية -آية الإحصان-: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ أي: عاقدين التزويج الذي جرى ذكره.

﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾؛ أي: مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أعطى المهر.

والمتاع في اللغة: كل ما انتفع به، فهو متاع.

وقوله -عز وجل- في غير هذا الموضع: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾[البقرة: ٢٣٦] ليس بمعنى زوِّجُوهُنَّ الْمُتَعَ، إنما المعنى: أعطوهن ما يستمتعن به، وكذلك قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٤١]، ومن زعم أن قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ المتعة التي هي الشرط في التمتع الذي تعمله الرافضة فقد أخطأ خطأ عظيماً، لأن الآية واضحة بينة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾.

أي: لا إثم عليكم في أن تهب المرأة للرجل مهرها، أو يهب الرجل للمرأة التي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب إلا لمن دخل بها.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ أي: عليماً بما يصلح أمر العباد، حكيماً فيما فرض لهم من عقد النكاح الذي حفظت به الأموال والأنساب.

وقوله -عز وجل-:﴿وَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

المحصنات: هن الحرائر خاصة. وزعم من قال: «إنهن العفائف» حرم على الناس أن يتزوجوا بغير العفيفة، وليس ينبغي للإنسان أن يتزوج بغير عفيفة، واحتج قائل هذا القول

بأن قوله -عز وجل-:﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٣] منسوخ، وأن قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾[النور: ٣٢]، يصلح أن يكون يتزوج الرجل من أحب من النساء.

والدليل على أن «المحصنات» هن: «العفائف» قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[التحريم: ١٢] أي: أعفت فرجها.

والطول: القدرة على المهر، قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً﴾ أي: من لم يقدر على مهر الحرة، يقال: «وقد طَالَ فلان على فلان طَولاً»، أي: كان له فضل عليه في القدرة، و«قد طال الشيء يطول طُولاً، وأطلته إطالة، وقد طال طِوَلُك وطِيلُك، وطِيلَكَ» أي: طالت مدتك، قال الشاعر[1] [من البسيط]:

إنَّا مُحيّوكَ فأسلَم أيُّها الطَّلَلُ وإن بُلِيتَ وإن طالت بك الطِّيَلُ[2]

والطِّوَلُ: الحبل، وقال الشاعر[3] [من الرجز]:

* تعرُّضَ المهرَةِ في الطِّوَلِّ[4] *

اللام مشددة للقافية.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ الفتيات: المملوكة، العرب تقول للأمة: «فتاة»، وللعبد: «فتى» أي: من لم يقدر أن يتزوج الحرة جاز له أن يتزوج المملوكة إذا خاف على نفسه الفجور.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾؛ أي: اعلموا على ظاهركم في الإيمان، فإنكم متعبدون بما ظهر من بعضكم لبعض.

وقوله --عز وجل- ﴿بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ﴾؛ قيل: في الحسب، أي: كلكم ولد آدم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ﴾ دينكم واحد لأنه ذكر ههنا المؤمنات من العبيد، وإنما قيل لهم ذلك لأن العرب كانت تطعن في الأنساب، وتفخر بالأحساب وتعير بالْهُجْنَة، كانوا يسمون ابن الأمة: «الْهَجِينَ»، فأعلم الله -عز وجل- أن أمر العبيد وغيرهم

---

(١) هو: القطامي التغلبي.

(٢) انظر: الأغاني (١٤١/٣).

(٣) أنشدوه لرجل من فقعس.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٧٠/٣)، واللباب علل البناء والإعراب (١٠٥/٢)، وسر صناعة الإعراب (١/ ١٦١)، وإصلاح المنطق (١٧٠/١)، ولسان العرب (١٦٥/٧)، وتاج العروس (٤٦٦٧/١).

مستوفى الإيمان، وإنما كره التزوج بالأمة إذا وجد إلى الحرة سبيل، لأن ولد الحر من الأمة يصير رقيقاً، ولأن الأمة مستخدمة ممتهنة تكثر عشرة الرجال، وذلك شاق على الزوج، فلذلك كره تزوج الحر بالأمة. فأما المفاخرة بالأحساب والتعيير بالأنساب فمن أمر الجاهلية.

يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من أمر الجاهلية، الطعن في الأنساب، والمفاخرة بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء» ولن تُترك في الإسلام.

وقوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾؛ أمر الله أن تنكح بإذن مولاها.

وقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾.وتقرأ ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الألف.

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

أي: عليهن نصف الحد، والحد: مائة جلدة على الحر والحرة غير المحصنين، وعلى المحصنين الرجم، إلا أن الرجم قتل، والقتل لا نصف له، فإنما عليهن نصف الشيء الذي له نصف وهو الجلد.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾؛ أي: تزوج الإماء جائز لمن خاف العنت.

والعنت في اللغة: المشتقة الشديدة، يقال: من ذلك: «أَكَمَةٌ عَنُوتٌ» إذا كانت شاقة.

قال أبو العباس: ﴿الْعَنَتَ﴾ ههنا الهلاك، وقال غيره: معناه: ذلك لمن خشي أن تحمله الشهوة على الزنا، فيلقى الإثم العظيم في الآخرة والحد في الدنيا، قال بعضهم: معناه: أن يعشق الأمة، وليس في الآية عشق، ولكن ذا العشق يلقى عنتاً.

وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾؛ أي: الصبر خير لكم لما وصفنا من أن الولد يصيرون عبيداً.

وقوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

قال الكوفيون معنى اللام معنى «أن» و «أردت، وأمرت» تطلبان المستقبل، لا يجوز أن تقول: «أردت أن قمت، ولا أمرت أن قمت»، ولم يقولوا لم لا يجوز ذلك. وهذا غلط أن تكون لام الجر تقوم مقام «أن» وتؤدي معناها، لأن ما كان في معنى «أن» دخلت عليه اللام، تقول: «جئتك لكي تفعل كذا وكذا»، و«جئت لكي تفعل كذا وكذا» وكذلك اللام في قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كاللام في «كي».

المعنى: أراده الله -عز وجل- للتبيين لكم، أنشد أهل اللغة[(١)] [من الطويل]:

أَرَدْتَ لكيما لا ترى لِيَ زَلّةً ومَنْ ذا الذي يُعطَى الكمالَ فيَكمُلُ[(٢)]

وأنشدنا محمد بن يزيد المبرد [من الطويل]:

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّها سَرَاوِيلُ قَيْسٍ والوُفُودُ شُهُودُ[(٣)]

فأدخل هذه اللام على «كي»، ولو كانت بمعنى «أن» لم تدخل اللام عليها، وكذلك: «أردت لأن تقوم، وأمرت لأن أكون مطيعاً» وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[يوسف: ٤٣] أي: إن كنتم عبارتكم للرؤيا، وكذلك قوله -عز وجل- أيضاً: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[الأعراف: ١٥٤]، أي: الذين هم رهبتهم لربهم.

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم﴾ أي: طرق الذين من قبلكم، وقد بينا ذلك فيما سلف من الكتاب.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: يدلكم بطاعته على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾؛ أي: أن تعدلوا عن القصد.

وقوله: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾؛ أي: يستميله هواه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾.

فحرم الله -جل وعز- المال إلا أن يوجد على السبل التي ذكر من الفرائض في المواريث والمهور والتسري والبيع والصدقات التي ذكر وجوهها.

﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾؛ المعنى: إلا أن تكون الأموال تجارة، ومن قرأ: «إلا أن تكون تجارةٌ» فمعناه: إلا أن تقع تجارة.

﴿عَن تَرَاضٍ مِنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ فأعلم أن التجارة تصح برضا البيع والمشترى.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً﴾؛ أي: ومن يأكلها ويقتل النفس، لأن قوله: ﴿وَلاَ

---

(١) أنشده ابن الأعرابي. انظر: رسالة الصاهل والشاحج (ص: ٣٤٠).

(٢) انظر: نقعة الصديان (١/٦١)، ولسان العرب (١١/٨)، وتاج العروس (١/٦٨٢٧).

(٣) انظر: فتح القدير (١/٦٨١)، وتفسير البيضاوي (١/١٧٤)، والمستطرف (٢/٥٦)، وثمار القلوب (١/ ٦٠١)، ولسان العرب (١١/٣٣٤)، وتاج العروس (١/٧١٧٣).

تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: لا يقتل بعضكم بعضاً.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً﴾ معنى «العدوان» أن يعدوا ما أمر به، والظلم أن يضع الشيء في غير موضعه.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً﴾، و﴿نُصْلِيهِ نَاراً﴾ وعد الله -جل وعز- على أكل الأموال ظلماً وعلى القتال النار.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾؛ أي: سهلاً، يقال: قد يسر الشيء فهو يسير إذا سهل، وقد عسر الشيء وعسر إذا لم يسهل فهو عسير.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾؛ تجتنبوا تتركوا نهائياً.

والكبائر: حقيقتها أنها كل ما وعد الله عليه النار نحو: القتل والزنا والسرقة وأكل مال اليتيم.

ويروى عن ابن عباس: «الكبائر إلى أن تكون سبعين أقرب منها إلى أن تكون سبعاً».

قال بعضهم: «الكبائر من أول سورة النساء إلى رأس الثلاثين».

والكبائر: ما كبر وعظم من الذنوب.

وقوله -عز وجل- ﴿وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً﴾؛ الاسم على: «أدخلت»، ومن قال: «مدخلاً» بفتح الميم، فهو مبني على: «دخل مدخلاً»، يعني به ههنا الجنة.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

قيل: لا ينبغي أن يتمنى الرجل مال غيره ومنزل غيره، فإن ذلك هو الحسد، ولكن ليقل: «اللهم إني أسألك من فضلك»، وقيل: إن أم سلمة قالت: «ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا وغزونا وكان لنا ثواب الرجال».

وقال بعضهم: قال الرجال: «ليتنا فضلنا في الآخرة على النساء كما فضلنا في الدنيا».

وهذا كله يرجع إلى تمني الإنسان ما لغيره.

وقوله -عز وجل- ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾؛ أي: جعلنا الميراث لمن هو مولى الميت.

المولى: كل من يليك، وكل من والاك فهو مولى لك في المحبة، الموالي مولى نعمة نحو: «مولى العبد»، والمولى: العبد إذا عتق.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

هؤلاء كانوا في الجاهلية، كان الرجل الذليل يأتي الرجل العزيز فيعاقده، أي: يحالفه، ويقول له: «أنا ابنك ترثني وأرثك، حرمتي حرمتك، ودمي دمك، وثأري ثارك»، وأمر الله -عز وجل- بالوفاء لهم.

وقيل: إن ذلك أمر به قبل تسمية المواريث، وقيل أيضاً: أمر أن يوفي لهم بعقدهم الذي يعقد على الموالاة، ويجب أن يجعل له نصيب في المال يذهب إلى أن ذلك من الثلث الذي هو للميت.

وإجماع الفقهاء أنه لا ميراث لغير من وصف الآباء والأبناء، وذوي العصبة والموالي والأزواج.

وقوله -عز وجل-: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾؛ الرجل قيم على المرأة فيما يجب لها عليه فأما غير ذلك فلا، ويقال: هذا قيم المرأة وقوامها، قال الشاعر(١) [من المنسرح]:

اللهُ بَيني وَبَينَ قَيِّمِها يَفِرُ عَنّي بِها وَأَتَّبِعُ(٢)

جعل الله -عز وجل- ذلك للرجال لفضلهم في العلم، والتمييز، ولإنفاقهم أموالهم في المهور وأقوات النساء.

وقوله -عز وجل- ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ أي: قيمات بحقوق أزواجهن.

﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾؛ تأويله -والله أعلم- بالشيء الذي يحفظ أمر الله ودين الله، ويحتمل أن يكون على معنى: بحفظ الله، أي: بأن يحفظن الله، وهو راجع إلى أمر الله.

وقوله: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾؛ النشوز: كراهة أحدهما صاحبه، يقال: «نَشَزت المرأة تَنْشِزُ وتنشُزُ» جميعاً وقد قرئ بهما، ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾[المجادلة: ١١]، انْشِزوا، وانْشُزوا، فانشزوا، واشتقاقه: من النَشزِ، وهو المكان المرتفع من الأرض، يقال له: نَشْزٌ ونَشَزٌ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾؛ أي: في النوم معهن، والقرب منهن، فإنهن إن كن يحببن أزواجهن شق عليهن الهجران في المضاجع، وإن كن مبغضات وافقهن ذلك فكان دليلاً على النشوز منهن.

يقال: «هَجَرت الإنسان والشيء أَهْجُره هَجْراً وهُجْرَاناً، وأَهْجَرَ فلان منصبه يُهجِرُه

---

(١) هو: الأحوص الأنصاري.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٣/١٣٧)، والأغاني (٤/٢٤٤).

إِهْجَاراً» إذا تكلم بالقبيح، و«هَجَر الرجل هَجْرًا» إذا هذى، و«هجرت البعير أَهْجُره هَجْراً» إذا جعلت له هجاراً، و «الْهِجَار»: حبل يشد في حقو البعير وفي رسغه، و«هَجَّرت تَهْجِيراً» إذا قمت وقت الهاجرة، وهو انتصاف النهار.

فأمر الله -عز وجل- في النساء أن يبدأن بالموعظة أولاً، ثم بالهجران بعد، فإن لم ينجعا فيهن فالضرب، ولكن لا يكون ضرباً مبرحاً، فإن أطعن فيما يلتمس منهن، فلا يبغي عليهن سبيلاً، أي: لا يطلب عليهن طريق عنت.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾؛ أي: هو متعال أن يكلف إلا بالحق، ومقدار الطاقة.

وقوله -جل وعز- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾.

قال بعضهم:. ﴿خِفْتُمْ﴾ ههنا في معنى أيقنتم وهذا خطأ، لو علمنا الشقاق على الحقيقة، لم يجنح إلى الحكمين، وإنما يخاف الشقاق، والشقاق: العداوة، واشتقاقه من «المتشاقين» كل صنف منهن في شق، أي: في ناحية، فأمر الله تعالى -إن خفتم وقوع العداوة بين المرء وزوجه أن يبعثوا حكمين، حكماً من أهل المرأة وحكماً من أهل الرجل، والحكم القيم بما يسند إليه.

يروى عن علي بن أبي طالب -رضوان الله عليه- أنه اجتمع إليه فئام من الناس، أي: جمع كثير مع امرأة وزوجها، قد وقع بينهما اختلاف، فأمر حكمين أن يتعرفا أمرهما، وقال لهما: «أتدريان ما عليكما ؟ إن عليكما إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، وإن رأيتما أن تجمعا جمعتما».

وقال بعضهم: على الحكمين أن يعظا ويعرفا ما على كل واحد من الزوج والمرأة في مجاوزة الحق، فإن رأيا أن يفرقا فرقا، وإن رأيا أن يجمعا جمعا.

وحقيقة أمر الحكمين أنهما يقصدان للإصلاح، وليس لهما طلاق وإنما عليهم أن يعرفا الإمام حقيقة ما وقفا عليه، فإن رأى الإمام أن يفرق فرق، أو أن يجمع جمع، وإن وكلهما بتفريق أو بجمع فهما بمنزلة، وما فعل علي ﷺ فهو فعل للإمام أن يفعله، وحسبنا بعلي -عليه السلام- إماماً فلما قال لهما: «إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما»، كان قد ولاهما ذلك ووكلهما فيه.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ أي: عليماً بما فيه الصلاح للخلق، خبيراً بذلك.

وقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ أي: لا تعبدوا معه غيره، فإن ذلك يفسد عبادته. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾؛ المعنى: أوصاكم الله بعبادته، وأوصاكم بالوالدين إحساناً،

وكذلك قوله -تعالى-: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء:٢٣]. لأن معنى قضى هنا أمر ووصى.

وقال بعض النحويين: ﴿إِحْسَاناً﴾ منصوب على: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، كما تقول: «ضرباً زيداً»؛ المعنى: اضرب زيداً ضرباً.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾؛ أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى الوالدين.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ في موضع جر؛ المعنى: وباليتامى والمساكين أوصاكم أيضاً، وكذلك جميع ما ذكر في هذه الآية؛ المعنى: أحسنوا بهؤلاء كلهم.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾؛ أي: الجار الذي يقاربك وتعرفه ويعرفك.

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾؛ والجار القريب المتباعد، قال علقمة [من الطويل]:

فلا تُحرِمَنّي نائِلاً عَن جَنابَةٍ   فَإِنّي اِمرُؤٌ وَسطَ القِبابِ غَريبُ[1]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾؛ قيل: هو الصاحب في السفر.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ الضيف يجب قراه، وأن يبلغ حيث يريد.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾؛ أي: وأحسنوا بملك أيمانكم، موضع «ما» عطف على ما قبلها، وكانت وصية النبي ﷺ عند وفاته: «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾.

المختال: الصلف التياه الجهول، وإنما ذكر الاختيال في هذه القصة، لأن المختال يأنف من ذوي قراباته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، فلا يحسن عشرتهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾، و «البَخَل» جميعاً يقرأان.

يعنى به اليهود لأنهم يبخلون بعلم ما كان عندهم من مبعث النبي ﷺ.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ أي: ما أعطاهم من العلم برسالة النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾؛ أي: جعلنا ذلك عتاداً لهم، أو مثبتاً لهم، فجائز أن يكون موضع «الذين» نصباً على البدل؛ والمعنى: إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً، أي: لا يحب الذين يبخلون.

وجائز أن يكون رفعه على الابتداء، ويكون الخبر ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧١/٥)، ومعاني القرآن (٨٣/٢)، ومفردات القرآن (٢٦٧/١)، ولسان العرب (٢٧٥/١)، وتاج العروس (٣٦٧/١).

ويكون ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ عطفاً على ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ في النصب والرفع.

وهؤلاء يعنى بهم المنافقون، كانوا يظهرون الإيمان ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً﴾؛ أي: من يكن عمله بما يسول له الشيطان فبئس العمل عمله، ﴿فَسَاءَ قَرِيناً﴾ منصوب على التفسير، كما تقول: «زيد نعم رجلاً»، وكما قال ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[الأعراف: ١٧٧].

وقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾؛ يصلح أن تكون «ما» و«ذا» اسماً واحداً؛ المعنى: وأي شيء عليهم، ويجوز أن يكون «ذا» في معنى «الذي»، أو تكون «ما» وحدها اسماً؛ المعنى: وما الذي عليهم ﴿لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

هذا يدل على أن الذين يبخلون؛ يبخلون بما علموا، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾.

وقوله -جل ثناؤه-:﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ ﴿مِثْقَالَ﴾: مفعال من الثقل، أي: ما كان وزنه الذرة، وقيل لكل ما يعمل: «وزن مثقال» تمثيلاً، لأن الصلاة والصيام والأعمال لا وزن لها، لكن الناس خوطبوا فيما في قلوبهم بتمثيل ما يدرك بأبصارهم، لأن ذلك - أعني ما يبصر- أبين لهم.

وقوله --عز وجل- -: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾.

الأصل في «يكن»: «تكون» فسقطت الضمة للجزم وسقطت الواو لسكونها وسكون النون، فأما سقوط النون من «تكن» فأكثر الاستعمال جاء في القرآن بإثباتها، وإسقاطها قليل قال الله -عز وجل-: ﴿إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾[النساء: ١٣٥]، فاجتمع في النون أنها تشبه حروف اللين، وأنها ساكنة، فحذفت استخفافاً لكثرة الاستعمال كما قالوا: «لا أدر، ولا أبل» والأجود: «لم أبال ولا أدري».

و﴿حَسَنَةً﴾ يكون فيها الرفع والنصب؛ المعنى: وإن تكن فعلته حسنة يضاعفها، ومن قرأ: «وإن تكن حسنةٌ» بالرفع، رفع على اسم كان، ولا خبر لها وهي ههنا في مذهب التمام؛ والمعنى: وإن تحدث حسنة يضاعفها.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾.

﴿وَيُؤْتِ﴾ بغير ياء، سقطت الياء للجزم، معطوف على ﴿يُضَاعِفْهَا﴾، ووقعت «لدن» وهي في موضع جر، وفيها لغات.

يقال: «لَدُ ولَدُن، ولَدُنٌ، ولَدَي» والمعنى واحد؛ ومعناه: من قبله، إلا أنها لا تتمكن تمكن «عند»، لأنك تقول: «هذا القول عندي صواب» ولا يقال: «الوقت لدني صواب»، وتقول: «عندي مال عظيم» والمال غائب عنك، و«لدن» لما يليك.

قوله -جل وعز-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾؛ أي: فكيف تكون حال هؤلاء يوم القيامة، وحذف «تكون حالهم» لأن في الكلام دليلاً على ما حذف، و«كيف» لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها معنى التوبيخ.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾؛ أي: نأتي بكل نبي أمة يشهد عليها ولها.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾.

الاختيار: الضم في الواو في ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ لالتقاء الساكنين والكسر جائز، وقد فسرناه فيما مضى.

وقوله: ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾؛ و﴿بِهِمِ الأَرْضُ﴾ بضم الميم وكسرها.

﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾؛ أي: يودون أنهم لم يبعثوا، وأنهم كانوا والأرض سواء.

وقد جاء في التفسير: أن البهائم يوم القيامة تصير تراباً، فيودون أنهم يصيرون تراباً.

قوله: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾ فيه غير قول؛ قال بعضهم: ودوا أن الأرض سويت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثاً، لأن قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٢٣] قد كذبوا فيه، قال بعضهم: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثاً﴾، مستأنف، لأن ما علموه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمه.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾. قيل في التفسير: إنها نزلت قبل تحريم الخمر، لأن جماعة من أصحاب النبي ﷺ اجتمعوا فشربوا الخمر قبل تحريمها، وتقدم رجل منهم فصلى بهم فقرأ: «قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، وأنا عبد ما عبدتم» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.

ويروى أن عمر بن الخطاب قال: «اللهم إن الخمر تضر بالعقول، وتذهب بالمال، فأنزل فيها أمرك» فنزل في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ﴾[المائدة: ٩٠]، وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾[البقرة: ٢١٩].

والتحريم نص بقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾[الأعراف: ٣٣]، فقد حرمت الخمر بأنه قال: إنها إثم كبير.

وقد حرم الله -عز وجل- الإثم، فأمر الله -عز وجل- -في ذلك الوقت ألا يقرب الصلاة السكران وحرم بعد ذلك الشكر، لأن إجماع الأمة أن السكر حرام.

وإنما حرم ذو السكر، لأن حقيقة السكر أنه لم يزل حراماً وقد بينا هذا في سورة البقرة.

وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾؛ أي: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب، إلا عابري سبيل، أي: إلا مسافرين لأن المسافر يعوزه الماء، وكذلك المريض الذي يضر به الغسل.

ويروى أن قوماً غسلوا مجدراً فمات، فقال النبي ﷺ : «قتلوه قتلهم الله، كان يجزيه التيمم».

وقال قوم: لا تقربوا موضع الصلاة، حقيقته: لا تصلوا إذا كنتم جنباً حتى تغتسلوا، إلا أن لا تقدروا على الماء، وإلا أن تخافوا أن يضركم الغسل إضراراً شديداً، وذلك يكون إلا في حال مرض.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾؛ معنى «تيمموا» أقصدوا، والصعيد وجه الأرض.

فعلى الإنسان في التيمم أن يضرب بيديه ضربة واحدة فيمسح بهما جميعاً وجهه، وكذلك يضرب ضربة واحدة، فيمسح بهما يديه، والطيب: هو النظيف الطاهر، ولا يبالي أكان في الموضع تراب أم لا، لأن الصعيد ليس هو التراب، إنما هو وجه الأرض، تراباً كان أو غيره. ولو أن أرضاً كانت كلها صخراً لا تراب عليها ثم ضرب المتيمم يده على ذلك الصخر لكان ذلك طهوراً إذا مسح به وجهه، قال الله -عز وجل-: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾[الكهف: ٤٠] فأعلمك أن الصعيد يكون زلقاً، و«الصعدات»: الطرقات، وإنما سمي «صعيداً»، لأنها نهاية ما يصعد إليه من باطن الأرض، لا أعلم بين أهل اللغة اختلافاً في أن الصعيد: وجه الأرض.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُواً غَفُوراً﴾؛ أي: يقبل منكم العفو ويغفر لكم، لأن قبوله التيمم تسهيل عليكم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِن الكِتَابِ﴾؛ قال بعضهم: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ ألم تخبر. وقال أهل اللغة: ألم تعلم.

المعنى: ألم ينته علمك إلى هؤلاء، ومعناه: أعرفهم، يعني به علماء أهل الكتاب، أعطاهم الله في كتابهم علم نبوة النبي ﷺ أنه عندهم مكتوب في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾؛ أي: يؤثرون التكذيب بأمر النبي ﷺ ليأخذوا على ذلك الرشا ويثبت لهم رياسة.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ أي: تضلوا طريق الهدى، لأن السبيل في اللغة: الطريق.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾؛ أي: هوأعرف بهم فهو يعلمكم ما هم عليه.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً﴾؛ أي: الله ناصركم عليهم، ومعنى الباء: التوكيد.

المعنى: وكفى الله ولياً وكفى الله نصيراً، إلا أن الباء دخلت في اسم الفاعل، لأن معنى الكلام الأمر؛ المعنى: اكتفوا بالله.

وقوله -عز وجل- ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

فيها قولان: جائز أن تكون «من» صلة ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ﴾ والمعنى: ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب من الذين هادوا، ويجوز أن يكون من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم. ويكون ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ صفة، والموصوف محذوف.

أنشد سيبويه في مثل هذا قول الشاعر(١) [من الطويل]:

وما الدهر إلا تارتانِ فَمِنهُما أَموتُ وأُخرى أَبتغي العيشَ أكدَحُ(٢)

المعنى: منهما تارة أموت فيها.

وقال بعض النحويين: المعنى: مِن الذين هادوا مَن يحرفونه، فجعل يحرفون صلة من، وهذا لا يجوز؛ لأنه لا يحذف الموصل وتبقى صلته، وكذلك قول الشاعر [من الرجز]:

لَوْ قُلْتَ مَا فِي قَوْمِهَا لَمْ تِيثَمِ يَفْضُلُهَا فِي حَسَبٍ وَمَيِسم(٣)

---

(١) هو: العجيز السلولي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٧٦)، وتفسير القرطبي (١٣/١٣٧)، وفتح القدير (٥/٥٧٥)، وتفسير البيضاوي (١/٣٣٣)، وروح المعاني (٥/٤٦)، وزاد المسير (٢/٩٩)، والكشاف (١/٢٥٦)، ومعاني القرآن (٥/٢٥٤)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/١٩٧)، ولسان العرب (٢/٥٦٩)، وتاج العروس (١/١٧٢٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٧٦)، وتفسير القرطبي (٥/٢٣٣)، وفتح القدير (١/٧١٦)، ومعاني القرآن (٢ =

المعنى: ما في قومها أحد يفضلها، وزعم النحويون أن هذا إنما يجوز مع «من» و«في»، وهو جائز إذا كان «فيما بقي دليل على ما ألقي»، لو قلت: «ما فيهم يقول ذاك أو ما عندهم يقول ذاك» جازا جميعاً جوازاً واحداً؛ والمعنى: ما عندهم أحد يقول ذاك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

كانت اليهود -لعنت- تقول للنبي ﷺ: «اسمع»، وتقول في أنفسها: «لا أسمعت»، وقيل: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ غير مجاب إلى ما تدعو إليه.

وقوله: ﴿وَرَاعِنَا﴾؛ هذه كلمة كانت تجري بينهم على حد السخرى والهزو، وقال بعضهم: كانوا يسبون النبي ﷺ بهذه الكلمة.

وقال بعضهم: كانوا يقولونها كِبراً، كأنهم يقولون: «أَرْعِنا سمعك» أي: اجعل كلامك لسمعنا مَرْعَى، وهذا مما لا تخاطب به الأنبياء -صلوات الله عليهم- إنما يخاطبون بالإجلال والإعظام.

وقوله: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾؛ أي: يفعلون ذلك معاندة للحق وطغياناً في الدين. وأصل ﴿لَيًّا﴾ لوياً ولكن الواو أدغمت في الياء لسبقها بالسكون.

وقوله: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾؛ أي: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لا يجب به أن يسموا المؤمنين. وقال بعضهم: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أي: إلا قليلاً منهم، فإنهم آمنوا.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾.

فيها ثلاثة أقوال؛ قال بعضهم: نجعل وجوههم كأقفائهم. وقال بعضهم: نجعل وجوههم منابت للشعر كأقفائهم. وقال بعضهم: «الوجوه» ههنا تمثيل بأمر الدين.

المعنى: قبل أن نضلهم مجازاة لما هم عليه من المعاندة، فنضلهم ضلالاً لا يؤمنون معه أبداً.

وقوله -جل وعز- ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

أجمع المسلمون أن ما دون الكبائر مغفور، واختلفوا في الكبائر فقال بعضهم: الكبائر التي وعد الله عليها النار لا تغفر، وقال المشيخة من أهل الفقه والعلم: جائز أن يغفر كل ما

=

/١٠١)، وأوضح المسالك (٣/٣٢٠)، والخصائص (٢/٣٧٠)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/١٥٤)، ولسان العرب (٨/٢٨٦)، وتاج العروس (١/٧٥٩٩).

دون ذلك بالتوبة، وبالتوبة يغفر الشرك وغيره.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾؛ افترى اختلف وكذب، ﴿إِثْماً عَظِيماً﴾؛ أي: غير مغفور.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تخبر في قول بعضهم. وقال أهل اللغة: ألم تعلم.

وتأويله: سؤال فيه معنى الإعلام. تأويله: اعلم قصتهم، وعلى مجرى اللغة ألم ينته علمك إلى هؤلاء، ومعنى ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: تزعمون أنهم أزكياء، وتأويل قولنا: «زكاء الشيء»: في اللغة: نماؤه في الصلاح. وهذا أيضاً يعني به اليهود. وكانوا جاؤوا إلى النبي ﷺ بأطفالهم فقالوا: يا محمد أعلى هؤلاء ذنوب، فقال النبي ﷺ: «لا»، فقالوا: كذا نحن، ما نعمل بالليل يغفر بالليل، وما نعمل بالنهار يغفر بالنهار.

قال الله -عز وجل-: ﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: يجعل من يشاء زاكياً.

﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾؛ تأويله: ولا يظلمون مقدار فتيل.

قال بعضهم: «الفتيل» ما تفتله بين إصبعيك من الوسخ. قال بعضهم: الفتيل ما كان في باطن النواة من لحائها، وقالوا في التفسير: ما كان في ظهرها وهو الذي تنبت منه النخلة، والقطمير: جملة ما التف عليها من لحائها.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾.

أي: يفعلونه ويختلقونه.

ويقال: قد فَرَى الرجل يَفْرِي إذا عمل، وإذا قطع، ومن هذا: فريت جلده. فتأويله: أن هذا القول أعني تزكيتهم أنفسهم فرية منهم.

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُبِيناً﴾؛ أي: كفى هو إثما، منصوب على التمييز، أي: كفى به في الآثام.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ﴾؛ يعني به علماء اليهود. أي: أعطوا علم أمر النبي ﷺ فكتموه.

قال أهل اللغة: كل معبود من دون الله فهو جبت وطاغوت. وقيل: الجبت والطاغوت: الكهنة والشياطين.

وقيل في بعض التفسير: الجبت والطاغوت ههنا حيي بن أخطب، وكعب بن

الأشرف اليهوديان وهذا غير خارج عما قال أهل اللغة، لأنه إذا اتبعوا أمرهما فقد أطاعوهما من دون الله -عز وجل-.

وقوله ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾.

وهذا برهان ودليل على معاندة اليهود لأنهم زعموا أن الذين لم يصدقوا بشيء من الكتب وعبادة الأصنام، أهدى طريقاً من الذين يجامعونهم على كثير مما يصدقون به، وهذا عناد بين. وقوله: -جل وعز-: ﴿سَبِيلاً﴾؛ منصوب على التمييز، كما تقول: «هذا أحسن منك وجهاً وهذا أجود منك ثوباً» لأنك في قولك: «هذا أجود منك» قد أبهمت الشيء الذي فضلته به إلا أن تريد أن جملته أجود من جملتك فتقول: «هذا أجود منك» وتمسك.

وقوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: الذين باعدهم من رحمته. وقد بينا أن اللعنة هي المباعدة في جميع اللعنة.

وقوله ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾؛ أي: من يباعد الله من رحمته فهو مخذول في دعواه وحجته ومغلوب. واليهود خاصة أبين خذلاناً في أنهم غلبوا من بين جميع سائر أهل الأديان، لأنهم كانوا أكثر عناداً، وأنهم كتموا الحق وهم يعلمونه.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾؛ المعنى: بل لهم نصيب من الملك.

﴿فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً﴾؛ قال بعضهم: إنما معناه: أنهم لو أعطوا الملك، ما أعطوا الناس نقيراً.

وذكر النقير ههنا تمثيل؛ المعنى: لظنوا بالقليل. وأما رفع ﴿يُؤْتُونَ﴾ فعلى «فلا يؤتون الناس نقيراً إذن» ومن نصب فقال: «لا يؤتوا الناس» جاز له ذلك في غير القراءة فأما المصحف فلا يخالف. قال سيبويه: «إذا» في عوامل الأفعال بمنزلة «أظن» في عوامل الأسماء، فإذا ابتدأت «إذن» وأنت تريد الاستقبال نصبت لا غير، تقول: «إذن أكرمك»، وإن جعلتها معترضة ألغيتها فقلت: «أنا إذن أكرمك»، أي: أنا أكرمك إذن. فإن أتيت بها مع «الواو والفاء» قلت: «فإذا أكرمك»، وإن شئت: «فإذن أكرمك». فمن قال: «فإذن أكرمك» نصب بها وجعل الفاء ملصقة بها في اللفظ والمعنى، ومن قال: «فإذن أكرمك» جعل «إذا» لغواً، وجعل الفاء في المعنى: معلقة بأكرمك؛ والمعنى: «فأكرمك إذن». وتأويل «إذن»: إن كان الأمر كما ذكرت، أو كما جرى، يقول القائل: «زيد يصير إليك» فتجيب فتقول: «إذن أكرمه»، تأويله: إن كان الأمر على ما تصف وقع إكرامه فإن مع

إكرامه مقدرة بعد «إذن»؛ المعنى: إكرامك واقع إن كان الأمر كما قلت.

قال سيبويه: حكى بعض أصحاب الخليل عن الخليل أن «أن» هي العاملة في باب «إذن». فأما سيبويه فالذي يذهب إليه ونحكيه عنه أن «إذن» نفسها الناصبة، وذلك أن «إذن» لما يستقبل لا غير في حال النصب، فجعلها بمنزلة «أن» في العمل كما جعلت «لكن» نظيرة «إن» في العمل في الأسماء، وكلا القولين حسن جميل إلا أن العامل -عندي- في النصب في سائر الأفعال: «أن»، وذلك أجود، إما أن تقع ظاهرة أو مضمرة. لأن رفع المستقبل بالمضارعة فيجب أن يكون نصبه في مضارعه ما نصب في باب الأسماء، تقول: «أظن أنك منطلق»؛ فالمعنى: أظن انطلاقك. وتقول: «أرجو أن تذهب» أي: أرجو ذهابك، فإن الخفيفة مع المستقبل كالمصدر. كما أن «أن» الشديدة مع اسمها وخبرها كالمصدر، وهو وجه المضارعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ معناه: بل أيحسدون الناس.

وهنا يعني به النبي ﷺ كانت اليهود قد حسدته على ما آتاه الله من النبوة، وهم قد علموا أن النبوة في آل إبراهيم -عليه السلام-، فقيل لهم: أتحسدون النبي ﷺ وقد كانت النبوة في آله وهم آل إبراهيم -عليهما السلام-. وقيل في التفسير إن اليهود قالت: إن النبي ﷺ شأنه النساء، حسداً لما أحل له منهن، فأعلم الله -جل وعز- أن آل إبراهيم قد أوتوا ملكاً عظيماً.

وقال بعضهم: نالوا من النساء أكثر مما نال محمد ﷺ كان لداود مائة مرأة، وكان لسليمان ألف ما بين حرة ومملوكة، فما بالهم حسدوا النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ﴾؛ أي: من آمن بالنبي ﷺ.﴿وَمِنْهُم مَن صَدَّ عَنْهُ﴾؛ وقيل: ﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي: بهذا الخبر عن سليمان وداود فيما أعطيا من النساء.

وقوله: ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾؛ المعنى: كفت جهنم شدة توقد.

وقوله: ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً﴾؛ أي: نشويهم في نار، ويروى أن يهودية أهدت إلى النبي ﷺ شاة مصلية أي: مشوية.

وقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾؛ الأحسن إظهار التاء ههنا مع الجيم. لئلا تكثر الجيمات، وإن شئت أدغمت التاء في الجيم، لأن الجيم من وسط اللسان والتاء من طرفه، والتاء حرف مهموس فأدغمته في الجيم.

فإن قال قائل: بدل الجلد الذي عصى بالجلد الذي غير العاصي، فذلك غلط من القول. لأن العاصي والآلم هو الإنسان لا الجلد.

وجائز أن يكون بدل الجلد النضج، وأعيد كما كان جلده الأول، كما تقول: قد صغت من خاتمي خاتماً آخر فأنت وإن غيرت الصوغ فالفضة أصل واحد.

وقد كان الجلد بلي بعد البعث، فإنشاؤه بعد النضج كإنشائه بعد البعث.وقوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾؛ أي: ليبلغ في ألمهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾؛ «العزيز»: البالغ إرادته، الذي لا يغلبه شيء، وهو مع ذلك «حكيم» فيما يدبر، لأن الملحدين ربما سألوا عن العذاب كيف وقع فأعلم الله -عز وجل- أن جميع ما فعله بحكمة.

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾؛ المعنى: تجري من تحتها مياه الأنهار، لأن الجاري على الحقيقة الماء.

وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾؛ معنى «ظليل»: يظل من الريح والحر، وليس كل ظل كذلك.

أعلم الله -عز وجل- أن ظل أهل الجنة ظليل لا حر معه ولا برد، وكذلك قوله: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾[الواقعة: ٣٠] لأن ليس كل ظل ممدوداً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾؛ هذا أمر عام للنبي ﷺ وجميع أمته. ويروى في التفسير أن العباس عم النبي ﷺ سأل النبي ﷺ أن يجعل له السقاية والسدانة وهي «الحجبة». وهو أن يجعل له مع السقاية فتح البيت وإغلاقه، فنازعه شيبة ابن عثمان فقال يا رسول الله اردد علي ما أخذت مني -يعني: مفتاح الكعبة-، فرده ﷺ على شيبة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾. هذه على أوجه: ﴿نِعِمَّا﴾ بكسر النون والعين وإدغام الميم في الميم، وإن شئت فتحت النون، وإن شئت أسكنت العين فقلت: «نَعْمَّا»، إلا أن الأحسن عندي الإدغام مع كسر العين، فأما من قرأ: «نعْمْ» ما بإسكان العين والميم، فهو شيء ينكره البصريون، ويزعمون أن اجتماع الساكنين أعني العين والميم غير جائز، والذين قالوا بين، وذلك أنه غير ممكن في اللفظ، إنما يحتال فيه بمشقة في اللفظ.

وقوله: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾؛ أي: أطيعوا أولي الأمر منكم، فأمر الله -عز وجل- بطاعته، فيما فرض، وطاعة رسوله وتصديقه فيما أدى عن الله. وأولو الأمر منهم: هم

أصحاب رسول الله ﷺ ومن اتبعهم من أهل العلم، وقيل: إنهم هم الأمراء، والأمراء إذا كانوا أولي علم ودين آخذين بما يقوله أهل العلم، فطاعتهم فريضة. وجملة أولي الأمر من المسلمين من يقوم بشأنهم في أمر دينهم وجميع ما أدى إلى صلاح له.

ويقال: «أديت الشيء تَأْدِية»، و«الأَدَاء» اسم ممدود، «وأَدَوْت الرجل آدوله أَدْواً» إذا ختلته، قال الشاعر:

أدوت له لآخذه فهيهات الفتى حذرا

و«أَدِيَ اللبن أَدِيًّا» إذا حمض.

وقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾؛ معنى ﴿تَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم وتجادلتم وقال كل فريق: «القول قولي».

واشتقاق المنازعة أن كل واحد منهما ينزع الحجة.

وفي هذه الآية : أمر مؤكد يدل على أن القصد للاختلاف كفر، وأن الإيمان اتباع الإجماع والسنة، ولا يخلو قوله -عز وجل-: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ من أحد أمرين:

إما أن تردوا ما اختلفتم فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله، أو تقولوا إن لم تعلموه: الله ورسوله أعلم.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾؛ أي: إن ردكم ما اختلفتم فيه إلى ما أتى من عند الله وترككم التحارب خير، وأحسن تأويلاً لكم، أي: أحسن عاقبة لكم. وجائز أن يكون ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: أحسن من تأولكم أنتم دون ردكم إياه إلى الكتاب والسنة. و﴿تَأْوِيلاً﴾ منصوب على التمييز.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ يعنى به المنافقون.

﴿أَنَّهُمْ﴾ تنوب عن اسم الزعم وخبره.

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾؛ إلى الكاهن والشيطان. ويروى أن رجلاً من المنافقين نازعه رجل من اليهود، فقال اليهودي: بيني وبينك أبو القاسم، وقال المنافق: بيني وبينك الكاهن، فلم يرض اليهودي بالكاهن وصار إلى النبي ﷺ فحكم لليهودي على المنافق فقال المنافق: لا أرضى، بيني وبينك أبو بكر، فحكم أبو بكر أيضاً

لليهودي، فلم يرض المنافق وقال بيني وبينك عمر فصارا إلى عمر فأخبره اليهودي بأن المنافق قد حكم عليه النبي ﷺ وأبوبكر فلم يرض بحكمهما.

فقال عمر للمنافق: أكذاك ؟: نعم، فقال عمر: اصبروا فإن لي حاجة أدخل فأقضيها وأخرج إليكما فدخل وأخذ سيفه وخرج إلى المنافق فضربه بالسيف حتى قتله، فجاء أهله فشكوا عمر إلى النبي ﷺ فسأله عن قصته فقال عمر: إنه رد حكمك يا رسول الله، فقال رسول الله: «أنت الفاروق».وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً﴾؛ أي: يصدون عن حكمك.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: فكيف تكون حالهم إذا قتل صاحبهم بما أظهر من الخيانة ورد حكم النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾؛ أي: ما أردنا بمطالبتنا بدم صاحبنا إلا إحساناً وطلباً لما يوافق الحق. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.الله يعلم ما في قلوب أولئك وقلوب غيرهم، إلا إن الفائدة في ذكره ههنا الذين يعلم الله ما في قلوبهم أي: أولئك الذين قد علم الله أنهم منافقون. والفائدة لنا هي: اعلموا أنهم منافقون.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾؛ أي: أعلمهم أنهم إن ظهر منهم رد لحكمك وكفر، فالقتل حقهم. يقال: قول بليغ إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، ويقال: «أحمق بَلْغُ وبَلْغٌ»، وفيه قولان: إنه أحمق يبلغ حيث يريد، ويكون «أحمق بَلْغُ وبَلْغٌ» قد بلغ في الحماقة. والقول الأول قول من يوثق بعمله، والثاني وجه جيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: أذن في ذلك، و«من» دخلت للتوكيد.

المعنى: وما أرسلنا رسولاً إلا ليطاع بإذن الله.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾؛ «أن» في موضع رفع؛ المعنى: لو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم أنفسهم مع استغفارهم ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾.

وقوله: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ يعنى به المنافقون.

﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: فيما وقع من الاختلاف بينهم.

﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾؛ أي: لا تضيق صدورهم مما قضيت.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾؛ أي: يسلمون لما يأتي به من حكمك، لا يعارضونه بشيء.

و﴿تَسْلِيماً﴾ مصدر مؤكد، والمصادر المؤكدة بمنزلة ذكر الفعل ثانياً، كأنك إذا قلت: «سلمت تسليماً» فقد قلت: «سلمت سلمت». وحق التوكيد أن يكون محققاً لما تذكره في صدر كلامك، فإذا قلت: «ضربت ضرباً»، فكأنك قلت أحدثت ضرباً أحقه ولا أشك فيه، وكذلك ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ أي: يسلمون لحكمك تسليماً، لا يدخلون على أنفسهم فيه شكاً.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾. «لو» يمنع بها الشيء لامتناع غيره. تقول: «لو جاءني زيد لجئته»؛ المعنى: إن مجيئي امتنع لامتناع مجيء زيد، فحقها أن يليها الأفعال. إلا أن «أن» المشددة تقع بعدها، لأن «أن» في اللغة تنوب عن الاسم والخبر، تقول: «ظننت أنك عالم»، وهذا كقولك: «ظننتك علماً». والمعنى: «ظننت علمك».

المعنى: في «أن» بعد «لو» أنها نابت عن الفعل والاسم، كما نابت عن الاسم والخبر.

فالمعنى: في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ كالمعنى في: «لو كتبنا عليهم»، وجائز أن يكون مُضْمِراً الفعل مع «أن» مع وقوع قابلها؛ المعنى: ولو وقع وكتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم. وإن شئت كسرتها لالتقاء الساكنين أعني «أنِ اقتلوا أنفسكم» وإن شئت قلت «أنُ اقتلوا» فضممتها لانضمام التاء. وأبوعمرو ابن العلاء يختار مع النونات خاصة الكسر ومع سائر ما في القرآن -إذا كان ما بعدها مضموماً- الضم، إلا قوله: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾[يوسف: ٣١]، ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾[الرعد: ٣٢] ولست أعرف في هذين الحرفين خاصية أبي عمرو إياهما بالكسر، إلا أن يكون روى فاختار الكسر لهذه العلة، أو يكون أراد أن الكسر جاز أيضاً كما جاز الضم، وهذا أجود التأويلين. وللكسر والضم في هذه الحروف وجهان جيدان قد قرأت القراء بهما.

فأما رفع ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. فعلى البدل من الواو؛ المعنى: ما فعله إلا قليل منهم. والنصب جائز في غير القرآن، على معنى ما فعلوه استثني قليلاً منهم، وعلى ما فسرنا في

نصب الاستثناء، فإن كان في النفي نوعان مختلفان فالاختيار النصب، والبدل جائز، تقول: «ما بالدار أحد إلا حماراً» قال النابغة الذبياني [من البسيط].

وَقَفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائِلُها عَيَّت جَواباً وَما بِالرَّبعِ مِن أَحَدِ

إِلا الأَوارِيَّ لأياً مَا أُبَيِّنُها وَالنُؤيَ كَالحَوضِ بِالمَظلومَةِ الجَلَدِ(١)

فقال: «ما بالربع من أحد»، أي: ما بالربع أحد إلا أواري، لأن الأواري ليست من الناس.

وقد يجوز الرفع على البدل وإن كان من جنس الأول كما قال الشاعر [الرجز]:

وبلدةٍ ليس بها أنيس إلاّ اليعافير وإلاّ العيس(٢)

فجعل «اليعافير والعيس» بدلاً من الأنيس، وجائز أن يكون أنيس ذلك البلد اليعافير والعيس.

وقوله: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾؛ يعنى النبيين، لأنة قال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ﴾ أي: المطيعون.

﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِن النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾؛ أي: الأنبياء ومن معهم حسنوا رفيقاً.

﴿رَفِيقاً﴾ منصوب على التميز، ينوب عن رفقاء، وقال بعضهم: لاينوب الواحد عن الجماعة إلا أن يكون أسماء الفاعلين. فلو كان «حسن القوم رجلاً» لم يجز عنده. ولا فرق بين: «رفيق ورجل» في هذا المعنى:، لأن الواحد في التمييز ينوب عن الجماعة، في المواضع التي لا تكون إلا جماعة. نحو قولك: «هو أحسن فتى وأجمله»؛ المعنى: هو أحسن الفتيان وأجملهم، إذا كان الموضوع الذي لا يلبس ذكر الواحد فيه فهو ينبي عن الجماعة كقول الشاعر(٣) [من الطويل]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٧٦/٤)، وتفسير القرطبي (٢٩٧/٥)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٧٠/١)، والأغاني (٣٣/١١)، ولسان العرب (٣٦٤/١٥)، وتاج العروس (٧٩٨١/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧٦/٤)، وتفسير القرطبي (٢٩٧/٥)، وروح المعاني (٢٠٨/١٣)، والكشاف (١/ ١٣٦٩)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢٧١/١)، وشرح شذور الذهب (٣٤٤/١)، وموصل الطلاب إلى قواعد الإعراب (١٤٥/١)، والإيضاح في علوم البلاغة (٢٦٩/١)، وفقه اللغة (١٢٩٨/١)، ولسان العرب (٣٦٤/١٥)، وتاج العروس (٨٦٨٣/١).

(٣) هو: الراعي النميري.

بِها جِيَفُ الحَسرى فَأَمّا عِظامُها فَبيضٌ وَأَمّا جِلدُها فَصَليبُ[1]

وقال الآخر:

* فِي حَلْقِكُم عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا[2]*

يريد: في حلوقكم عظام، ولو قلت: «حسُنَ القوم مجاهداً في سبيل الله، وحسُنَ القوم رجلاً» كان واحداً.

وقوله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً﴾؛ معناه: وكفى الله عليماً، والباء مؤكدة؛ المعنى: اكتفوا بالله عليماً.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

أمر الله أن لا يلقى المؤمنون بأيديهم إلى التهلكة وأن يحذروا عدوهم وأن يجاهدوا في الله حق الجهاد، ليبلو الله الأخيار، وضمن لهم مع ذلك النصر، لأنة لو تولى الله تعالى قتل أعدائه بغير سبب للآدميين. لم يكونوا مثابين، ولكنه أمر أن يؤخذ الحذر.

وقال ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً﴾؛ والثُبات: الجماعات المتفرقة، واحدهما: «ثبة»، قال زهير بن أبي سلمى [من الوافر]:

وَقَد أَغدو عَلى ثُبَةٍ كِرامٍ نَشاوى واجِدينَ لِما نَشاءُ[3]

قال سيبويه: «ثُبَة» تجمع: «ثُبون وثُبين»، في الرفع والنصب والجر وإنما جمعت بالواو والنون وكذلك «عزة وعضة» كقوله -عز وجل- ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[الحجر: ٩١]، لأن الواو والنون جعلتا عوضاً من حذف آخر الكلمة، و«ثُبَة» التي هي الجماعة محذوف آخرها؛ تصغر «ثُبية»، و«ثَبَة» الحوض وسطه حيث يثوب الماء إليه تصغر: «ثُويبَة»، لأن هذا محذوف منه عين الفعل، وإنما اشتقت «ثُبَة»: الجماعة من: «ثَبَّيْتُ على الرجل» إذا أثنيت عليه في حياته، وتأويله: أنك جمعت ذكر محاسنه، فأما الثبة الجماعة من فرقة. فتأويله: «انفروا جماعات متفرقة أو انفروا بعضكم إلى بعض».

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/٥٨٣)، وتفسير القرطبي (١/٢٣٢)، وزاد المسير (١/٣٠٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/٢٣٢)، وزاد المسير (٢/١٢٨)، والأصول في النحو (١/٣١٣)، ولسان العرب (٥/٢٣٦)، وتاج العروس (١/٨٤٤٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤/١٦٧)، ومفردات القرآن (١/٢٠٤)، ولسان العرب (١/٢٤٣)، وتاج العروس (١/٣٢٦).

وقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾؛ أي: ممن أظهر الإيمان لمن يبطئ عن القتال، قد «أَبطأَ» الرجل «وبَطُأَ» بمعنى «أبطأ»: «تأخر»، ومعنى «بَطُأَ»: ثقل، «إِبْطَاء، وبُطْئًا».

واللام الأولى التي في «لمن» لام «إن». واللام التي في ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ لام القسم، ومن موصولة بالجالب للقسم، كان هذا لو كان كلاماً لقلت: «إن منكم لمن أحْلِف والله ليبطئن»، والنحويون يجمعون على أن «من وما والذي» لا يوصلن بالأمر والنهي إلا بما يضمر معها من ذكر الخبر، وأن لام القسم إذا جاءت مع هذه الحروف فلفظ القسم وما أشبه لفظة مضمر معها.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ﴾ هذا المبطئ ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً﴾؛ أي: لم أشركهم في مصيبتهم. ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: ظفرتم وغنمتم. ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾. و﴿كَأَن لَمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ جائز أن يكون وقع ههنا معترضاً؛ المعنى: ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ ويكون: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة.ومعنى «المودة» ههنا، أي: كأنه لم يعاقدكم على الإيمان أي: كأنه لم يظهر لكم المودة، جائز أن يكون -والله أعلم- ليقولن يا ليتني كنت معهم كأن لم تكن بينكم وبينه مودة، أي: كأنه لم يعاقدكم على أن يجاهد معكم. فلا يكون في العربية فيه عيب ولا ينقص معنى -والله أعلم-. ﴿فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾؛ ﴿فَأَفُوزَ﴾ منصوب على جواب التمني بالفاء.

وقوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: إن كانت بينكم وبينه عقدة أمان فليقاتل في سبيل الله معكم. ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾؛ أي: يبيعون، يقال: «شريت» بمعنى بعت، و«شريت» بمعنى اشتريت قال يزيد بن مفرغ [من مجزوء الكامل].

وَشَرَيتُ بُرداً لَيتَني   مِن بَعدِ بُردٍ كُنتُ هامَه[1]

برد غلامه، وشريته: بعته.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، «ما» منفصلة؛ المعنى: أي: شيء لكم تاركين القتال.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٥٧/١)، وتفسير القرطبي (١٣٤/٩)، وفتح القدير (٣١٩/١)، وروح المعاني (١٢/ ٢٠٤)، وزاد المسير (١٣١/٢)، والكشاف (٢٦٤/١)، والأغاني (٢٦٩/١٨)، ولسان العرب (٨٢/٣).

و﴿لاَ تُقَاتِلُونَ﴾ في موضع نصب على الحال كقوله -عز وجل- ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾[المدثر: ٤٩]. ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في موضع جر؛ المعنى: وما لكم.

﴿وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾؛ يعني بالقرية مكة، أي: ما لكم لا تسعون في خلاص هؤلاء.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيراً﴾؛ أي: تولنا بنصرك وخلصنا من أهل مكة الظالم أهلها. فهو نعت للقرية، ووحد ﴿الظَّالِمِ﴾ لأنه صفة تقع موقع الفعل تقول: «مررت بالقرية الصالح أهلها» كقولك: «التي صلح أهلها».قال أبو العباس محمد بن يزيد: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ في موضع جر: من وجهين؛ المعنى: ما لكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي المستضعفين، قال: وجائز أن يكون عطفاً على اسم الله، أي: في سبيل الله وسبيل المستضعفين، قال: وأختار أن يكون على «وفي المستضعفين» لاختلاف السبيلين، لأن معنى سبيل المستضعفين كأنه خلاص المستضعفين، وقول أكثر النحويين كما اختار أبو العباس محمد بن يزيد. والوجه الثاني عندي أشبه بالمعنى، لأن سبيل المستضعفين هي سبيل الله.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾. ﴿الطَّاغُوتِ﴾ في قول النحويين أجمعين يذكر ويؤنث. وفي القرآن دليل على تذكيره وتأنيثه، فأما تذكيره فقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾[النساء: ٦٠]، وأما تأنيثه فقوله -جل وعز-: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾[الزمر: ١٧].

قال أبوعبيدة: «الطاغوت» ههنا في معنى جماعة، كما قال الله -عز وجل-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾[المائدة: ٣]؛ معناه: لحم الخنازير كلها. والطاغوت: الشيطان، وكل معبود من دون الله فهو طاغوت. والدليل على أن «الطاغوت»: الشيطان قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾[النساء: ٦٠].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾. قيل: كان المسلمون قبل أن يؤمروا بالقتال قالوا للنبي ﷺ: لو أذنت لنا أن نعمل معاول نقاتل بها المشركين، فأمروا بالكف وأداء ما افترض عليهم غير القتال، فلما كتب عليهم القتال خشي فريق منهم ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ المعنى: هلا أخرتنا.فأعلم الله -عز وجل- أن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة لأهل التقى.

وأعلمهم أن آجالهم تخطئهم ولو تحصنوا بأمنع الحصون فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا

﴿يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ لأن مفعلة، ومفعل للتكثير، يقال: «شَادَ الرجل بناءه يُشَيِّده شَيداً» إذا رفعه وإذا طلاه بالشيد، وهو ما يطلى به البناء من الكلس والجص وغيره، ويقال أيضاً: «قد أشاد الرجل بناءه» فأما في الذكر فأشدت بذكر فلان لا غير إذا رفعت من ذكره.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾. قيل: كانت اليهود -لُعنت- تشاءمت برسول الله ﷺ عند دخوله المدينة فقالت: منذ دخل المدينة نقصت ثمارنا وغلت أسعارنا، فأعلم الله -عز وجل- أن الخصب والجدب من عند الله.

وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾.هذا خطاب للنبي ﷺ يراد به الخلق، ومخاطبة النبي ﷺ قد تكون للناس جميعاً لأنه -عليه السلام- لسانهم، والدليل على ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. فنادى النبي ﷺ وحده وصار الخطاب شاملاً له ولسائر أمته، فمعنى ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ أي: ما أصبتم من غنيمة أو أتاكم من خصب فمن تفضل الله، وما أصابك من سيئة أي: من جدب أو غلبة في حرب فمن نفسك، أي: أصابكم ذلك بما كسبتم كما قال الله -جل وعز- ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

ومعنى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾. معنى «الرسول ههنا» مؤكد لقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ لأن ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ﴾ تدل على أنه رسول. ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾؛ أي: الله قد شهد أنه صادق، وأنه رسوله، و ﴿شَهِيداً﴾ منصوب على التمييز، لأنك إذا قلت: «كفى الله» ولم تبين في أي شيء الكفاية مُبْهِماً. والفاء دخلت في قوله -جل وعز-: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ لأن الكلام في تقدير الجزاء، وهو بمنزلة قولك: «إن تصبك حسنة فمن الله».

وقوله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾؛ أي: من قبل ما أتى به الرسول فإنما قبل ما أمر الله به.

وقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾؛ تأويله -الله أعلم- أنك لا تعلم غيبهم إنما لك ما ظهر منهم، والدليل على ذلك ما يتلوه وهو قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾.قال النحويون تقديره: أمرنا طاعة. وقال بعضهم: منا طاعة؛ والمعنى واحد، إلا أن إضمار: «أمرنا» أجمع في القصة وأحسن.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾. يقال لكل أمر قد

قضي بليل: «قد بيت» قال الشاعر[١] [من المتقارب]:

أتوني فلم أرضَ ما بيّتوا وكانوا أتوني بشيء نُكر[٢]

أي: فلست حفيظاً عليهم تعلم ما يغيب عنك من شأنهم، وهذا ونظائره في كتاب الله من أبين آيات النبي ﷺ، لأنهم ما كانوا يخفون عنه أمراً إلا أظهره الله عليه.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾؛ فيه وجهان:

يجوز أن يكون -والله أعلم- ينزله إليك في كتابه، وجائز أن يكون يكتب ما يبيتون يحفظه عليهم ليجازوا به.

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي: لا تسم هؤلاء بأعيانهم لما أحب الله من ستر أمر المنافقين إلى أن يستقيم أمر الإسلام.

فأما قوله: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فذكر ولم يقل: «بيتت»، فلأن كل تأنيث غير حقيقي فتعبيره بلفظ التذكير جائز، تقول: «قالت طائفة من أهل الكتاب»، و «قال طائفة من المسلمين» لأن «طائفة وفريقاً» في معنى واحد، فكذلك قوله -عز وجل-: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّهِ﴾[البقرة: ٢٧٥]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾[يونس: ٥٧]، يعني الوعظ إذا قلت فمن جاءه موعظة.

وقرأ القراء: «بيتْ طائفة» على إسكان التاء وإدغامها في الطاء، وروي عن السكاني أن ذلك إذا كان في فعل قبيح، ولا فرق في الإدغام ههنا في فعل كان أو في اسم لو قلت: «بيتُ طائفة» و«هذا بيتُ طائفة»، وأنت تريد بيت طائفة كان واحداً، وإنما جاز الإدغام لأن التاء والطاء من مخرج واحد.

وقوله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾؛ يعنى به المنافقون.

أي: لو كان ما يخبرون به مما بيتوا، وما يسرون ويوحى إلى النبي ﷺ لولا أنه من عند الله لما كان الإخبار به غير مختلف، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله. وهذا من آيات النبي ﷺ البينة. ومعنى: «تدبرت الشيء»: نظرت في عاقبته، وقولهم في الخبر: «لا تدابروا»، أي: لا

---

(١) هو: الأسود بن يعفر النهشلي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٠/٤)، وفتح القدير (٧٣٩/١)، وزاد المسير (١٤٢/٢)، ولسان العرب (٢٣٢/٥)، وتاج العروس (٣٥٧٠/١).

تكونوا أعداء، أي: لا يولي بعضكم دبره، يقال: «قد دَبَر القوم يَدْبَرُون دباراً» إذا هلكوا، و«أَدْبَرُوا» إذا ولَّى أمرهم، وإنما تأويله: أنه تقضي أمرهم إلى آخره فلم يبق منهم باقية، و«الدَّبْرُ»: النحل سمي دبراً لأنه يعقب ما ينتفع به، و «الدِّبرُ»: المال الكثير سمي «دبراً» لكثرته، ولأنه يبقى للأعقاب والأدبار.وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾؛ أي: أظهروه ونادوا به في الناس، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

أَذاعَ بِهِ في الناسِ حَتّى كأنه بِعَلياءَ نارٌ أُوقِدَت لِثقوبِ[2]

وكان إذا علم النبي ﷺ أنه ظاهر على قوم أمن منهم، أو أُعلم تجمع قوم يخاف من جمع مثلهم، أذاع المنافقون ذلك ليحذر من يحذر من الكفار، وليقوى قلب من ينبغي أن يقوى قلبه لما أذاعوا، وكان ضعفة المسلمين يشيعون ذلك معهم من غير علم بالضرر في ذلك، فقال -عز وجل- ولو ردوا ذلك إلى أن يأخذوه من قبل الرسول ومن قبل أولي الأمر منهم، أي: من قبل ذوي العلم والرأي منهم.

وقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لعلمه هؤلاء الذين أذاعوا به من ضعفة المسلمين من النبي ﷺ وذوي العلم، وكانوا يعلمون مع ذلك هل ينبغي أن يذاع أو لا يذاع.ومعنى «يستنبطونه» في اللغة: يستخرجونه، وأصله من «النبط» وهو الماء الذي يخرج من البئر في أول ما يحفر، يقال: من ذلك: «قد أَنْبط فلان في غضراء»، أي: استنبط الماء من طين حر. و«النِّبط» إنما سموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين.

وقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. قال بعضهم: لولا ما أنزله الله عليكم من القرآن، وبين لكم من الآيات على لسان نبيه لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً، أي: كان أولكم بجوار الكفر، وهذا ليس قول أحد من أهل اللغة، قال أهل اللغة كلهم: المعنى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إنما هو استثناء من قوله ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلا قليلاً، وقال النحويون: المعنى: أذاعوا به إلا قليلاً وقالوا: يكون الاستثناء من «أذاعوا به إلا قليلاً» أجود، لأن ما علم بالاستنباط

---

(١) هو: أبو الأسود الدؤلي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٨٢/٤)، وتفسير القرطبي (٦/٢٠)، وفتح القدير (٥٩٢/٥)، والكشاف (٢٦٨/١)، والأغاني (٣٥٥/١٢)، ولسان العرب (٩٨/٨)، وتاج العروس (٥٢٢٤/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥٧٦).

والاستخراج في القليل من الناس. وهذا -في هذا الموضع- غلط من النحويين، لأن هذا الاستنباط ليس بشيء يستخرج بنظر وتفكر، إنما القليل المبالغ في البلادة لا يعلم ما يخبر به، والقول الأول مع هذين القولين جائزة كلها -والله أعلم-. لأن القرآن قبل أن ينزل قبل أن يبعث قد كان في الناس القليل ممن لم يشاهد القرآن ولا النبي * مؤمناً. وقد يجوز أن يقول القائل: إن من كان قبل هذا مؤمناً فبفضل الله وبرحمته آمن، فالفضل والرحمة لا يخلو منهما من نال ثواب الله -جل وعز- إلا أن المقصود به في هذا الموضع النبي ﷺ والقرآن.

وقوله -جل وعز- ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾. هذه الفاء جواب قوله -جل وعز-: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[النساء: ٧٤]، ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ويجوز أن يكون متصلاً بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[النساء: ٧٥] أي شيء لكم في ترك القتال ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فأمره الله بالقتال ولو أنه قاتل وحده، لأنه قد ضمن له النصر. ويروى عن أبي بكر رحمه الله أنه قال في الردة: «لو خالفتني يميني جاهدتها بشمالي».

وقوله: ﴿عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾؛ «البأس»: الشدة في كل شيء.

وقوله: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾. الكفل في اللغة: النصيب، أخذ من قولهم: «أكفلت البعير» إذا أدرت على سنامه أو على موضع من ظهره كساء، وركبت عليه، وإنما قيل له: «كفل»، و«اكتفل البعير»، لأنه لم يستعمل الظهر كله، إنما استعمل نصيب من الظهر، ولم يستعمل كله.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾. قال بعضهم: «المقيت»: القدير، وقال بعضهم: «المقيت» الحفيظ، وهو عندي -والله أعلم-: بالحفيظ أشبه، لأنه من «القُوتِ» مشتق، يقال: «قُتُّ الرجل أَقُوتهُ قوتاً» إذا حفظت عليه نفسه بما يقوته. و«القوت»: اسم ذلك الشيء الذي يحفظ نفسه، ولا فضل فيه على قدرة الحفظ، فمعنى «المقيت» -والله أعلم-: الحفيظ الذي يعطي الشيء قدر الحاجة من الحفظ قال الشاعر[1] [من الخفيف]:

---

(١) هو: السموأل.

أَلِيَ الفَضلُ أَم عَلَيَّ إذا حو سِبتُ أَنّي عَلى الحِسابِ مُقيتُ[(١)]

وقوله -جل وعز-: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾. قال النحويون: «أحسن» ههنا صفة لا تنصرف لأنه على وزن «أفعل» وهو صفة؛ والمعنى: فحيوا بتحية أحسن منها.

وقيل في التفسير: التحية ههنا السلام، وهي «تفعلة» من: «حييت».

ومعنى ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾: إذا قيل: لكم «السلام عليكم» فقولوا: «وعليكم السلام ورحمة الله»، فالتحية التي هي أحسن منها، هي «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته»، ويقال لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام كلمة: «وبركاته». ويروى أن داخلا دخل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبي ﷺ: «وعليك»، ودخل آخر فقال: السلام عليكم فقال النبي ﷺ: «وعليكم السلام ورحمة الله»، ودخل رجل آخر فقال: «السلام عليكم ورحمة الله»، فقال النبي ﷺ: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته» فقام الداخل الأول فقال: يا رسول الله سلمت فلم تزد على «وعليك»، وقام هذا فقال: «السلام عليكم» فزدته، وقام هذا فقال: «السلام عليكم ورحمة الله» فزدته، فقال النبي ﷺ: «إنك لم تترك من السلام شيئاً»، فرددت عليك، وهذان تركا منه شيئاً فزدتهما. وهذا دليل أن آخر ما في السنة من السلام كلمة : «وبركاته».

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾؛ أي: يعطي كل شيء من العلم والحفظ والجزاء مقدار ما يحسبه، أي: يكفيه.

تقول: «حسبك بهذا» أي: اكتف بهذا، وقوله تعالى: ﴿عَطَاءً حِسَاباً﴾[النبأ: ٣٦] أي: كافياً، وإنما سمي الحساب في المعاملات حساباً لأنه يعلم ما فيه كفاية ليس فيها زيادة على المقدار ولا نقصان.

وقوله -جل وعز-: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾؛ هذه لام القسم كقولك: «والله ليجمعنكم» ،

معنى «القيامة» في اللغة -والله أعلم- على ضربين؛ جائز أن تكون سميت: «القيامة» لأن الناس يقومون من قبورهم، قال الله -جل وعز-: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٨/٤)، وفتح القدير (٧٤٣/١)، وزاد المسير (١٥١/٢)، والكشاف (٢٦٩/١)، ومعاني القرآن (١٤٨/٢)، ولسان العرب (٧٤/٢).

﴿مُنتَشِرٌ﴾[القمر: ٧]، وجائز أن تكون سميت: «القيامة» لأن الناس يقومون للحساب، قال الله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾[المطففين: ٦].

ومعنى ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: -والله أعلم- أي: يجمعكم في الموت وفي قبوركم.وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾؛ هذا خطاب للمسلمين، وذلك أن قوماً من المنافقين قالوا للنبي ﷺ قد اجتوينا المدينة، فلو أذنت لنا فخرجنا إلى البدو، فلما خرجوا لم يزالوا يرحلون مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فقال قوم من المسلمين: «هم كفار هم كفار»، وقال قوم: «هم مسلمون حتى نعلم أنهم بدلوا»، فأمر الله بأن يتفق المسلمون على تكفير من احتال على النبي ﷺ وخالفه، فقال -عز وجل-: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي المُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾. أي: أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾. وتأويل ﴿أَرْكَسَهُم﴾ في اللغة: نكسهم وردهم، يقال: أَرْكَسه ورَكَسه. ومعنى ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: ردهم إلى حكم الكفار.وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؛ أي: أتقولون إن هؤلاء مهتدون والله قد أضلهم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾؛ أي: طريقاً إلى الحجة.

وقال النحويون في نصب ﴿فِئَتَيْنِ﴾ منصوبة على الحال، وقال سيبويه: إذا قلت: «ما لك قائماً» فإنما معناه: لم قمت ؟ ونصب على تأويل: أي شيء يستقر لك في هذه الحال، قال غيره: إن «قائماً» ههنا منصوب على جهة فعل «مال» ويجيز: «ما لك قائماً»، و«ما لك القائم يا هذا»، و«ما لك القائم» خطأ، لأن «القائم» معرفة فلا يجوز أن تقع حالاً، و«ما» حرف من حروف الاستفهام لا تعمل عمل «كان»، ولو جاز: «ما لك القائم يا هذا»، جاز أن يقول: «ما عندك القائم ؟»، و«ما بك القائم»، وبالإجماع أن: «ما عندك القائم» خطأ، فما لك القائم مثله لا فرق في ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تتخذوا من هؤلاء الذين احتالوا على النبي ﷺ حتى فارقوه أولياء، أي: لا تقولوا أنهم مؤمنون حتى يهاجروا في سبيل الله، أي: حتى يرجعوا إلى النبي ﷺ.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ أي: تولوا عن أن يهاجروا، ولزموا الإقامة على ما هم عليه ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً﴾.

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ﴾؛ أي: فاقتلوهم إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق.ويروى أن هؤلاء اتصلوا ببني مدلج وكانوا صلحاً للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾؛ معناه: ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم.

وقال النحويون إن ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾؛ معناه: أو جاؤوكم قد حصرت صدورهم، لأن «حصرت» لا يكون حالاً إلا بقد، وقال بعضهم: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ خبر بعد خبر، كأنه قال: أو جاؤوكم، ثم أخبر فقال: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ﴾.وقوله -جل وعز- : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾، أي: ضيق صدورهم عن قتالكم إنما هو لقذف الله الرعب في صدورهم، وقرأ بعضهم «حصرت صدورهم» على الحال.

وقوله -جل وعز-: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

ستجدون من يظهر لكم الصلح ليأمنكم، وإذا سنحت فتنة كانوا مع أهلها عليكم.

وقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾؛ أي: انتكسوا عن عهدهم الذي عقدوه.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾؛ أي: فإن لم يعتزلوا قتالكم ولم يعاونوا عليكم. ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾؛ أي: المقادة والاستسلام. ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: عن الحرب. ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَائِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾؛ أي: حجة بينة بأنهم غدرة، لا يفون بما يفارقونكم عليه من الهدنة والصلح.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً﴾؛ المعنى: ما كان لمؤمن البتة. و﴿إِلاَّ خَطَئاً﴾ استثناء ليس من الأول. المعنى: إلا أن يخطئ المؤمن فكفارة خطئه ما ذكر بعد. وقال بعض أهل العلم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً﴾ على معنى أن دم المسلم إنما يصفح عن أن يؤخذ به القاتل في الخطأ فقد عفى له عن قتل الخطأ، إلا أن الله -جل ثناؤه- فرض في كتابه على القاتل خطأ تحرير رقبة ودية مسلمة إلى أولياء المقتول، وبين رسول الله ﷺ دية الخطأ على العاقلة، وعلى القاتل أن يؤدي في ذلك لقوله -عز وجل-: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾. ويحتمل أن يكون الصيام بدلاً من الرقبة وبدلاً مما ينبغي أن يؤدى في الدية. فإن قتل المؤمن خطأ رجلاً مؤمناً من قوم كفرة فعليه تحرير رقبة، ولا مال للكفار الذين هم في حرب، لأن الدية في الخطأ إنما جعلت -والله أعلم- ليحذر الناس حذراً شديداً من أن يخطئوا خطأ يؤدي إلى القتل، لتذهب الضغائن بينهم. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾. وإن كان من قوم بينهم وبين المسلمين عهد فتحرير رقبة وتسليم الدية إلى ذوي الميثاق لئلا تقع ضغينة بين أهل الميثاق والمؤمنين. ونصب ﴿تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾

على جهة نصب «فعلت ذلك حذار الشر»؛ المعنى: فعليه صيام شهرين، وعليه دية إذا وجد توبة من الله، أي: فعل ذلك توبة من الله. فأما النفس فجزاؤه كما قال الله -عز وجل-: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾[المائدة: ٤٥] في الدنيا، وفي الآخرة جهنم.قال الله -جل وعز-: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾. وهذا وعيد شديد في القتل حظر الله -عز وجل- به الدماء.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ الله فَتَبَيَّنُوا﴾، و﴿فَتَثَبَّتُواْ﴾ بالثاء والتاء؛ ومعنى ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ سرتم في الأرض وغزوتم.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾.قرئت ﴿السَّلامَ﴾ بالألف، وقرئت «السلم». فأما «السلام» فيجوز أن يكون من التسليم، ويجوز أن يكون بمعنى السلم، وهو الاستسلام، وإلقاء المقادة إلى إرادة المسلمين. ويروى في التفسير أن سبب هذا أن رجلاً انحاز وأظهر الإسلام فقتله رجل من المسلمين وأخذ سلبه. فأعلم الله -عز وجل- أن حق من ألقى السلم أن يتبين أمره. ومن قرأ ﴿فَتَثَبَّتُواْ﴾ فحقه أن يتثبت في أمره.

وأعلم الله -جل وعز- أن كل من أسلم ممن كان كافراً فبمنزلة الذي تعوذ بالإسلام، فقال -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِن قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ﴾.

أي: مَنَّ عليكم بالإسلام، وبان قبل ذلك منكم على ما أظهرتم، ثم كرر الأمر بالتبيين فقال -عز وجل-: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾. ﴿لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾. قرئت ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ بالرفع، و﴿غَيْرَ﴾ بالنصب، فأما الرفع فمن جهتين؛ إحداهما أن يكون «غير» صفة للقاعدين، وإن كان أصلها أن تكون صفة للنكرة؛ المعنى: لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر، أي: لا يستوي القاعدون الذين هم غير أولي الضرر، أي: لا يستوي القاعدون الأصحاء والمجاهدون وإن كانوا كلهم مؤمنين، ويجوز أن يكون «غير» رفعاً على جهة الاستثناء؛ المعنى: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولو الضرر، فإنهم يساوون المجاهدين، لأن الذي أقعدهم عن الجهاد الضرر، والضرر أن يكون ضريراً أو أعمى أو زمناً أو مريضاً. ويروى أن ابن أم مكتوم قال للنبي ﷺ أعلي جهاد، فقال النبي ﷺ: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾[التوبة: ٤١]، فإما أن تكون من الخفاف أو من الثقال فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾[النور: ٦١].

وقوله -جل عز-: ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: وعد الجنة. ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾. ويجوز أن يكون ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ نصباً على الاستثناء من ﴿الْقَاعِدِينَ﴾؛ المعنى: لا يستوي القاعدون إلا أولي الضرر على أصل الاستثناء النصب، ويجوز أن يكون «غير» منصوباً على الحال؛ المعنى: لا يستوي القاعدون في حال صحتهم والمجاهدون، كما تقول: «جاءني زيد غير مريض»، أي: جاءني زيد صحيحاً. ويجوز جر «غير» على الصفة للمؤمنين، أي: لا يستوي القاعدون من المؤمنين الأصحاء والمجاهدين. أما الرفع والنصب فالقراءة بهما كثيرة، والجر وجه جيد إلا أن أهل الأمصار لم يقرأوا به وإن كان وجهاً، لأن القراءة سنة متبعة.

وقوله -جل وعز-: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾. ﴿دَرَجَاتٍ﴾ في موضع نصب بدلاً من قوله: ﴿أَجْراً عَظِيماً﴾، وهو مفسر للآخر؛ المعنى: فضل الله المجاهدين درجات ومغفرة ورحمة. وجائز أن يكون منصوباً على التوكيد لأجراً عظيماً،لأن الأجر العظيم هو رفع الدرجات من الله -جل وعز- والمغفرة والرحمة، كما تقول: «لك علي درهم»، لأن قولك: «علي ألف درهم» هو اعترف فكأنك قلت: «أعرفها عرفاً»، وكأنه قيل: عفو ورحمة وفضل. ويجوز الرفع في قوله ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾، ولو قيل «درجاتٌ منه ومغفرة ورحمة» كان جائزاً على إضمار: تلك درجات منه ومغفرة كما قال -جل ثناؤه-:﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَهَارٍ بَلاغٌ﴾[الأحقاف: ٣٥]؛ ذلك بلاغ.

يعنى به المشركون الذين تخلفوا عن الهجرة إلى النبي ﷺ.

فـ ﴿تَوَفَّاهُمُ﴾ إن شئت كان لفظه ماضياً على معنى: إن الذين توفتهم الملائكة وذكر الفعل لأنه فعل جميع، ويجوز أن يكون على معنى الاستقبال على معنى: إن الذين تتوفاهم الملائكة، وحذفت التاء الثانية لاجتماع تاءين، وقد شرحنا ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب.

وقوله: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ نصب على الحال.

المعنى: تتوفاهم في حال ظلمهم أنفسهم، والأصل ظالمين أنفسهم إلا أن النون حذفت استخفافاً، والمعنى معنى ثبوتها، كما قال -جل وعز-: ﴿هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾[المائدة: ٩٥]؛ والمعنى معنى ثبوت التنوين معنى بالغاً الكعبة.

وقوله: ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾؛ هذه الواو للملائكة أي: قالت الملائكة للمشركين فيم

كنتم، أي: أكنتم في المشركين أم في أصحاب محمد ﷺ. وهذا سؤال توبيخ قد مر نظراؤه مما قد استقصينا شرحه.وقوله: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾؛ فأعلم الله أنهم كانوا مستضعفين عن الهجرة. فقالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾. ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ نصب على الاستثناء من قوله: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾... ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾؛ أي: إلا من صدق أنه مستضعف غير مستطيع حيلة ولا مهتد سبيلاً، فأعلم الله أن هؤلاء راجون العفو، كما يرجو المؤمنون فقال: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾. و﴿عَسَى﴾ ترج، وما أمر الله به أن يرجى من رحمته فبمنزلة الواقع كذلك الظن بأرحم الراحمين.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً﴾؛ تأويل «كان» في هذا الموضع قد اختلف فيه الناس، فقال الحسن البصري: «كان غفوراً لعباده»، وعن عبادة: «قبل أن يخلقهم».

وقال النحويون البصريون: كأن القوم شاهدوا من الله رحمة فأعلموا أن ذلك ليس بحادث، وأن الله لم يزل كذلك، وقال قوم من النحويين: «كان» و«فعل» من الله بمنزلة ما في الحال؛ فالمعنى: -والله أعلم- والله عفو غفور.

والذي قاله الحسن وغيره أدخل في اللغة، وأشبه بكلام العرب، وأما القول الثالث فمعناه يؤول إلى ما قاله الحسن وسيبويه، إلا أن يكون الماضي بمعنى الحال يَقِل. وصاحب هذا القول له من الحجة قولنا: «غفر الله لفلان» بمعنى ليغفر الله له، فلما كان في الحال دليل على الاستقبال وقع الماضي مؤدياً عنها استخفافاً، لأن اختلاف ألفاظ الأفعال إنما وقع لاختلاف الأوقات، فإذا أعلمت الأحوال والأوقات استغنى بلفظ بعض الأفعال عن لفظ بعض، الدليل على ذلك قوله -جل وعز- ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام: ١٦٠]، وقوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً﴾[الفرقان: ٧١]؛ معناه: من يتب ومن يجئ بالحسنة يعط عشر أمثالها.

وقوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾؛ معنى «مراغم» معنى مهاجر.

المعنى: يجد في الأرض مهاجراً، لأن المهاجر لقومه والمراغم بمنزلة واحدة، وإن اختلف اللفظان وقال الشاعر:

إلى بَلَدٍ غيرِ داني المَحَل　　　بعيدِ المُراغَمِ والمُضْطَرَبْ[١]

وقيل: «المراغم» ههنا المضطرب، وليس المراغم ههنا إلا المضطرب في حال هجرة، وإن كان مشتقاً من «الرَّغَام»، و«الرَّغَام»: التراب؛ وتأويل قولك: «راغمت فلاناً» أي: هجرته وعاديته، و«لم أبال رغم أنفه»، أي: وإن لصق أنفه بالتراب، و«الرَّغام والرُّغام» ما يسيل من الأنف، والأنف يوصف بالرغم فيضرب مثلاً لكل ذليل فيقال: «على رغم أنفه». وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾؛ هذه الهاء والميم يعودان على المؤمنين. أي: وإذا كنت أيها النبي في المؤمنين في غزواتهم وخوفهم. ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا﴾؛ أي: فإذا سجدت الطائفة التي قامت معك. ﴿فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾. جائز أن يكون -والله أعلم- ولتأخذ الجماعة حذرهم وأسلحتهم. ويجوز أن يكون الذين هم وجاه العدو يأخذون أسلحتهم، لأن من في الصلاة غير مقاتل، وجائز أن تكون الجماعة أمرت بحمل السلاح وإن كان بعضها لا يقاتل لأنه أرهب للعدو وأحرى ألا يقدم على الحذرين المتيقظين المتأهبين للحرب في كل حال. وقد اختلف الناس في صلاة الخوف فزعم مالك بن أنس أن أحب ما روي فيها إليه أن النبي ﷺ قام يصلي وقامت خلفه طائفة من المؤمنين وطائفة وجاه العدو، فصلى بالطائفة التي خلفه ركعة وقام فأتمت الطائفة بركعة أخرى وسلمت، وهو ﷺ واقف، ثم انصرفت وقامت وجاه العدو، والنبي ﷺ واقف في الصلاة، وأتت الطائفة التي كانت وجاه العدو، فصلى بهم ركعة ثانية له، وهي الأولى لهذه الطائفة الأخرى، وجلس النبي ﷺ وقاموا فصلوا ركعة ثانية وحدهم وهو ﷺ قاعد، وقعدوا في الثانية فسلم وسلموا بتسليمه، فصلت كل طائفة منهم ركعتين، وصلى النبي ﷺ ركعتين.

وقال مالك: هذا أحب ما روي في صلاة الخوف إلي.

وأما «أسلحة» فجمع: «سِلاح» مثل: «حمار وأَحمرة». وسلاح: اسم لجملة ما يدفع الناس به عن أنفسهم في الحروب مما يقاتل به خاصة، لا يقال: للدوآب وما أشبهها سلاح. فأما ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ فالقراءة على سكون اللام: ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾، ﴿وَلِيَأْخُذُوا﴾ هو الأصل بالكسر إلا أن الكسر استثقل فيحذف استخفافاً. وحكى الفراء أن لام الأمر قد

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/٢٤٥)، وتاج العروس (١/٧٧٣٥).

فتحها بعض العرب في قولك: «لِيجلس»، فقالوا: «لَنجلس» ففتحوا، وهذا خطأ، لا يجوز فتح لام الأمر لئلا تشبه لام التوكيد. وقد حكى بعض البصريين فتح لام الجر نحو قولك: «المال لزيد»، تقول: «المال لَزيد» وهذه الحكاية في الشذوذ كالأولى، لأن الإجماع والروايات الصحيحة كسر لام الجر ولام الأمر، ولا يلتفت إلى الشذوذ، خاصة إذا لم يروه النحويون القدماء الذين هم أصل الرواية، وجميع من ذكرنا من الذين رووا هذا الشاذ عندنا صادقون في الرواية، إلا أن الذي سمع منهم مخطئ.

وقوله: ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؛ «الجناح» الإثم، وتأويله من جنحت إذا عدلت عن المكان أي: أخذت جانباً عن القصد.

فتأويل ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تعدلون عن الحق إن وضعتم أسلحتكم ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ﴾. و«أذى» مقصورة، تقول: «أَذَى يَأْذَى أَذًى، مثل: «فزع يفزع فزعاً». وموضع ﴿أَن تَضَعُوا﴾ نصب. أي: لا إثم عليكم في أن تضعوا، فلما سقطت «في» عمل ما قبل «أن» فيها، ويجوز أن يكون موضعها جراً بمعنى «في».

وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ﴾؛ يعني به صلاة الخوف هذه. ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾؛ أي: اذكروه بتوحيده وشكره وتسبيحه، وكل ما يمكن أن يتقرب به منه.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾؛ أي: إذا سكنت قلوبكم، ويقال: «اطمأن الشيء» إذا سكن و «طامنته وطَمْأَنته» إذا سكنته، وقد روي «إِطْبَأَن» بالباء ولكن لا تقرأ بها لأن المصحف لا يخالف البتة.

وقوله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾؛ أي: فأتموا. لأنه جعل لهم في الخوف قصرها، وأمروا في الأمن بإتمامها.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾؛ أي: مفروضاً مؤقتاً فرضه.وقوله: ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾؛ هذا خطاب للمؤمنين، «والقوم» ههنا الكفار الذين هم حرب المؤمنين. وتأويل: «لا تهنوا» في اللغة: لا تضعفوا، يقال: «وَهَنَ الرجل يَهِن» إذا ضعف فهو: «وَهِن».

ومعنى ﴿ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾: طلب القوم بالحرب.

وقوله: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ﴾؛ أي: إن تكونوا توجعون فإنهم يجدون من الوجع بما ينالهم من الجراح والتعب كما تجدون، وأنتم مع ذلك ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾. أي: أنتم ترجون النصر الذي وعدكم الله به، وإظهار دينكم على سائر أديان أهل

الملل المخالفة لأهل الإسلام وترجون مع ذلك الجنة، وهم -أعني المشركين - لا يرجون الجنة لأنهم كانوا غير مقرين بالبعث فأنتم ترجون من الله ما لا يرجون. قال بعض أهل التفسير: معنى «ترجون» ههنا تخافون، وأجمع أهل اللغة الموثوق بعلمهم: أن الرجاء ههنا على معنى الأمل لا على تصريح الخوف، وقال بعضهم: الرجاء لا يكون بمعنى الخوف إلا مع الجحد، قال الشاعر(١).

ما تَرْتَجي حينَ تُلاقي الذَّائدا أَسَبْعَةً لاقتْ معاً أَمْ وَاحِدَا(٢)

معناه: لا تخاف، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ أي: لا تخافون لله عظمة ولا عظة. وإنما اشتمل الرجاء على معنى الخوف لأن الرجاء أمل قد يخاف ألا يتم.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾؛ أي: بالحق الذي أعلمكه الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَلاَ تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾؛ أي: لا تكن مخاصماً ولا دافعاً عن خائن.

ويروى أن رجلاً من الأنصار كان يقال له أبو طُعمة أو طِعمة سرق درعاً وجعله في غِرَارة دقيق، وكان فيها خرق، فانتثر الدقيق من مكان سرقته إلى منزله فظن به أنه سارق الدرع وحيص في أمره، فمضى بالدرع إلى رجل من اليهود فأودعها إياه ثم صار إلى قومه فأعلمه أنه لما اتهم بالدرع اتبع أثرها فعلم أنها عند اليهودي، وأن اليهودي سارقها، فجاء قومه أي: طُعمة أو طِعمة إلى النبي ﷺ فسألوه أن يعذره عند الناس، وأعلموه أن اليهودي صاحب الدرع، وكان بعضهم قد علم أن أبا طعمة قد رمى اليهودي وهو بريء من الدرع، فهم النبي ﷺ أن يعذره، فأوحى الله إليه وعرفه قصته أي طعمه وأعلمه أنه خائن، ونهاه أن يحتج له، وأمره بالاستغفار مما هم به، وأن يحكم بما أنزل الله في كتابه، فقال: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾. يعني «أبا طعمة» ومن عاونه من قومه، وهم يعلمون أنه سارق.

ويروى أن أبا طعمة هذا هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام، وأنه نقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

(١) أنشده الفراء، ولا يعرف قائله. انظر معاني القرآن للباقلاني (ص: ١٢).

(٢) انظر: لسان العرب (١٢/٢٤٥).

وقوله: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت. يعني به هذا السارق، والذي بيت من القوم أن قال: أرمي اليهودي بأنه سارق الدرع، وأحلف أني لم أسرقها، فتقبل يميني لأني على ديني، ولا تقبل يمين اليهودي. فهذا ما بيت من القول -والله أعلم-.

وقوله: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ يعني به من احتج عن هذا السارق. ﴿فَمَن يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾؛ أي: في اليوم الذي يؤخذ فيه بالحقائق، وأمر الدنيا يقوم بالشهادات في الحقوق، وجائز أن تكون الشهادة غير حقيقة، فكأنه -والله أعلم- قيل لهم: إن يقم الجدال في الدنيا والتغييب عن أمر هذا السارق، فيوم القيامة لا ينفع فيه جدال ولا شهادة. ومعنى قوله: ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ «ها» للتنبيه، وأعيدت في «أولاء»، والمعنى: -والله أعلم- ها أنتم الذين جادلتم، لأن «هؤلاء» و«هذا» يكونان في الإشارة للمخاطبين بمنزلة الذين، نحو قول الشاعر[1] [من الطويل]:

* وَهَذا تَحمِلينَ طَليقُ[2]*

أي: والذي تحملينه طليق.وأصل المجادلة والجدال في اللغة: شدة المخاصمة، و«الجَدْل»: شدة القتل، و«رجل مَجْدُول»، أي: كأنه قد قتل، و«الأَجْدَل»: الصقر، يقال له أجدل لأنه من أشد الطيور قوة. وأعلم الله -جل وعز- أن التوبة مبذولة في كل ذنب دون الشرك فقال جل ثناؤه. ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً﴾؛ أي: يسأله المغفرة مع إقلاع، لأنه إذا كان مقيماً على الإصرار فليس بتائب.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ ولا يؤخذ الإثم بالإثم.

وقوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً﴾؛ قيل: ﴿إِثْماً﴾ لأن الله قد سمى بعض المعاصي خطايا، وسمى بعضها آثاماً.

فأعلم الله -جل وعز- أن من كسب خطيئة، ويقع عليها اسم «الإثم» أو اسم

---

(١) هو: يزيد بن مفرغ الحميري.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٥٥/٢)، وتفسير القرطبي (٤٦٠/١)، ومعاني القرآن (٣٨٦/٤)، والجمل في النحو (١٨٠/١)، وأوضح المسالك (١٦٢/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٧١٧/٢)، واللباب علل البناء والإعراب (١٢٠/٢)، والمفصل في صنعة الإعراب (١٩٠/١)، وشرح شذور الذهب (١٩٠/١)، وشرح قطر الندى (١٠٦/١)، ومغني اللبيب (٦٠٢/١)، وأدب الكاتب (٣٢١/١)، والأغاني (٢٧٩/١٨)، ولسان العرب (٤٦/٦)، وتاج العروس (٤٠١٢/١).

((الخطيئة))، ثم رمى به من لم يعلمه وهو منه بريء ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً﴾. و((البهتان)) الكذب الذي يتحير من عظمه وبيانه، يقال: ((قد بَهت فلان فلاناً)) إذا كذب عليه، و((قد بُهت الرجل يُبْهَت)) إذا تحير قال الله -عز وجل- ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: ٢٥٨]، ويجوز أن يكون -والله أعلم- ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً﴾ أي: من يقع عليه خطأ نحو قتل الخطإ الذي يقع فيه القوم ولا إثم فيه، فيكون أن يرمي بذلك غيره فقد احتمل بهتاناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾. هذا خطاب النبي ﷺ، والطائفة هم طعمة هذا السارق، لأن بعضهم قد كان وقف على أنه سارق، وسأل النبي ﷺ أن يعذره. فالتأويل -والله أعلم- لولا فضل الله عليك ورحمته بما أوحى إليك، وأعلمك أمر هذا السارق لهمت طائفة أن يضلوك.

والمعنى: في ((همت طائفة منهم أن يضلوك))؛ أي: فيفضل الله ورحمته صرف الله عنك أن تعمل ما همت به الطائفة.وقال بعضهم: معنى ((أن يضلوك)) أن يخطئوك في حكمك.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: لأنهم هم يعلمون عمل الضالين، والله يعصم نبيه ﷺ من متابعتهم، والإضلال راجع عليهم وواقع بهم.

وقوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: مع عصمة الله إياك، ونصره دينه دين الحق.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي: بين في كتابه ما فيه الحكمة التي لا يقع لك معها ضلال.

وقوله: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ﴾؛ ((النجوي في الكلام)): ما تنفرد به الجماعة أو الاثنان سراً كان أوظاهراً، ومعنى نجوت الشيء في اللغة: خلصته وألقيته، يقال: نجوت الجلد إذا ألقيته عن البعير وغيره. قال الشاعر[1] [من الطويل]:

فقُلْتُ انْجُوَا عنها نَجا الجِلدِ إِنّه سَيُرْضِيكما مِنها سَنامٌ وغارِبُهْ[2]

و((قد نجوت فلاناً)) إذا استنكهته.

---

(١) هو: عبد الرحمن بن حسان الأنصاري.

(٢) انظر: زاد المسير (١٩٨/٢)، ومفردات القرآن (١٤١٧/١)، وإصلاح المنطق (٩٤/١)، ولسان العرب (٨/ ٥٣)، وتاج العروس (٨٦١٣/١).

قال الشاعر[١] [من الوافر]:

نَكِهْتُ مُجَالِداً وشممتُ منه كَرِيح الكَلْبِ ماتَ قريبَ عهْدِ[٢]

و«نجوت الوبر واستنجيته» إذا خلصته، قال الشاعر[٣] [من الرمل]:

فتبازَتْ فَتبازَخْتُ لها جِلْسةَ الجازِرِ يَسْتَنجِي الوَتَرْ[٤]

وأصله كله من «النجوة»، وهو ما ارتفع من الأرض قال الشاعر[٥] [من البسيط]:

فَمَن بِنَجوَتِهِ كَمَن بِمَحفِلِهِ وَالمُستَكِنُّ كَمَن يَمشي بِقِرواحِ[٦]

ويقال: «ما أنجى فلان شيئاً، وما نَجا شيئاً منذ أيام»، أي: لم يدخل الغائط. والمعنى: -والله أعلم- ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ﴾؛ أي: مما يدبرونه بينهم من الكلام. ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾؛ فيجوز أن يكون موضع ﴿مَنْ﴾ خفضاً.

المعنى: إلا في نجوى من صدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ويجوز أن يكون -والله أعلم- استثناء ليس من الأول ويكون موضعها نصباً، ويكون على معنى لكن من أمر بصدقة أو معروف ففي نجواه خير.

وأعلم الله -عز وجل- أن ذلك إنما ينفع من ابتغى به ما عند الله فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾. ومعنى ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ﴾ طلب مرضاة الله. ونصب ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ لأنه مفعول له.

المعنى: ومن يفعل ذلك لابتغاء مرضاة الله، وهو راجع إلى تأويل المصدر، كأنه قال: ومن يبتغ ابتغاء مرضاة الله.

ثم عاد الأمر إلى ذكر طعمة هذا ومن أشبهه فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾. لأن طعمة هذا كان

---

(١) هو: الحكم بن عبدل الأسدي.

(٢) انظر: لسان العرب (١٢٤/٣)، وتاج العروس (١٩٣٥/١).

(٣) هو: عبد الرحمن بن حسان الأنصاري.

(٤) انظر: الخصائص (٨/١)، ولسان العرب (٨/٣)، وتاج العروس (١٨٠٠/١).

(٥) هو: أوس بن حجر.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٦٠٦/٦)، وتفسير القرطبي (٣٦٣/٥)، وزاد المسير (١٩٩/٢)، والأغاني (٧٥/١١)، ولسان العرب (٥٥٧/٢).

قد تبين له ما أوحى الله إلى نبيه في أمره، وأظهر من سرقته في الآية ما فيه بلاغ، فعادى النبي ﷺ وصار إلى مكة، وأقام مع المشركين. ومعنى ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾، ندعه وما اختار لنفسه في الدنيا لأن الله -جل وعز- وعد بالعذاب في الآخرة.

وأعلم تعالى أنه لا يغفر الشرك، وذكر قبل هذه الآية : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

وأعلم بعدها أن الشرك لا يجوز أن يغفره ما أقام المشرك عليه، فإن قال قائل فإنما قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ فإن سُمِيَّ رجل «كافراً» ولم يشرك مع الله غيره فهوخارج عن قوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾؛ فالجواب في هذا: أن كل كافر مشرك بالله، لأن الكافر إذا كفر بنبي فقد زعم أن الآيات التي أتى بها ليست من عند الله، فيجعل ما لا يكون إلا الله لغير الله فيصير مشركاً. فكل كافر مشرك. فالمعنى: أن الله لا يغفر كفر من كفر به وبنبي من أنبيائه لأن كفره بنبيه كفر به. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾؛ لأن جعله الله غيره من أبعد الضلال والعمى، وهذا أكثر ما جرى ههنا من أجل الذين عبدوا الأصنام، والدليل على ذلك قوله -عز وجل- بعقب هذا: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً﴾. فأما ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾؛ ففيها أوجه:

يجوز فيها «نولهي» بإثبات الياء، ويجوز «نولهو» إثبات الواو، ويجوز «نوله» بكسر الهاء، فأما «نوله» - بإسكان الهاء و«نصله جهنم»، فلا يجوز إسكان الهاء لأن الهاء حقها أن يكون معها ياء، وأما حذف الياء فضعيف فيها، ولا يجوز حذف الياء ولا تبقى الكسرة التي تدل عليها.

وقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً﴾؛ وتقرأ: «إلاَّ أُنُثَاً»، و«إِلاَّ أُثُنَا» بتقديم الثاء وتأخيرها. فمن قال: «إناث» فهو جمع: «أنثى وإناث»، ومن قال «أُنُث» فهو جمع: «إناث»، لأن إناثاً على وزن: «مثال»، و«إناث وأُنث» مثل: «مثال ومثل» ومن قال: «أُثنا» فإنه جمع: «وَثَن»، والأصل: «وُثُن»، إلا أن الواو إذا انضمت يجوز إبدالها همزة كقوله -تعالى-: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾[المرسلات: ١١]. الأصل: «وقتت»، ومثال «وُثُن» في الجمع مثل: «سُقُف». وجائز أن يكون: «أُثْن» مثل: «أَسَد وأُسْد»، وجائز أن يكون «أُثُن» أصلها «أُثْن»، فاتبعت الضمة الضمة.

وقوله -جل وعز- ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَرِيداً﴾؛ يعنى به إبليس لأنهم إذا أطاعوه فيما سول لهم فقد عبدوه، ﴿يَدْعُونَ﴾ في معنى يعبدون، لأنهم إذا دعوا الله مخلصين فقد

عبدوه، وكذلك قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]، أي: اعبدوني، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[غافر:٦٠].ومعنى «مريد» أي: خارج عن الطاعة متملص منها، ويقال: «شجرة مرداء»، إذا تناثر ورقها، ومن ذلك يسمى من تنبت له لحية: «أمرد» أي: أملس موضع اللحية، و«قد مَرَدَ الرجل يَمْرُد مُرُوداً» إذا عتا وخرج عن الطاعة. ﴿وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾ قيل: في مفروض إن معناه: مؤقت.

وجاء في بعض التفسير: «من كل ألف واحد لله وسائرهم لأبليس».

ومعنى مفروض -والله أعلم- أي: افترضه على نفسي، وأصل الفرض في اللغة: القطع، و«الفرض»: الحز الذي يكون في المسواك يشد فيه الخيط، و«الفرض» في القوس الحز الذي يشد فيه الوتر، و«الفريضة» في سائر ما افترض ما أمر الله به العباد فجعله حتماً عليهم قاطعأن وكذلك قوله: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[البقرة: ٢٣٧] أي: جعلتم لهن قطعة من المال، و«قد فرضت الرجل» جعلت له قطعة من مال الفيء، فأما قول الشاعر:

إِذا أَكلتُ سمَكاً وفَرْضا ذهَبْتُ طُولاً وذهَبْتُ عَرْضا[1]

فالفرض ههنا: التمر، وإنما سمي التمر فرضاً لأنه يؤخذ في فراض الصدقة.

وقوله: ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، أي: أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون من الآخرة حظاً، كما قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾[النمل: ٢٤]. ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ كأنه -والله أعلم- ولآمرنهم بتبتيك آذان الأنعام ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ أي: يشققن، بقال: «بَتَكْت الشيء أبْتِكه بَتْكاً» إذا قطعته، و«بَتْكَة وبِتَكٌ»، مثل: «قطعة وقطع»، وهذا في البَحِيرة، كانت الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن فكان الخامس ذكراً شقوا أذن الناقة وامتنعوا من الانتفاع بها ولم تطرد عن ماء ولا مرعى، وإذا لقيها المُعْيي لم يركبها. فهذا تأويل ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾.سول لهم إبليس أن في تركها لا ينتفع بها قربة إلى الله. ﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾؛ قيل: إن معناه: أن الله خلق الأنعام ليركبوها ويأكلوها فحرموها على أنفسهم، وخلق الشمس والقمر والأرض والحجارة سخرة للناس ينتفعون بها فعبدها المشركين، فغيروا خلق الله، أي: دين الله، لأن الله فطر الخلق على الإسلام،

---

(١) انظر: لسان العرب (٢٠٢/٧)، وتاج العروس (٤٦٩٤/١).

خلقهم من بطن آدم كالذر، وأشهدهم أنه ربهم فآمنوا، فمن كفر فقد غير فطرة الله التي فطر الناس عليها. فأما قوله: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ فإن معناه: ما خلقه الله هو الصحيح، لا يقدر أحد أن يبدل معنى صحة الدين.

وقال بعضهم: فليغيرن خلق الله هو الخصاء لأن الذي يخصي الفحل قد غير خلق الله.ومعنى ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً﴾؛ أي: ما يعبدون إلا ما قد سموه باسم الإناث، يعنى به المشركون، سموا الأصنام: «اللات والعزى ومناة»، وما أشبهه.

وقيل إن معنى قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً﴾ أى مواتا، والموات كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث، تقول من ذلك: «هذه الأحجار تعجبني»، ولا تقول: «يعجبونني»، وكذلك الدراهم تنفعني.

وقوله: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً﴾؛ أي: لا يجدون عنها معدلاً ولا ملجأ.يقال: «حِصْتُ عن الرجل أَحِيص»، ورووا: «جِضْت عنه أَجِيض» بالجيم والضاد والمعجمة، بمعنى: «حِصْت»، ولا يجوز ذلك في القرآن، وإن كان المعنى: واحداً والخط غير مخالف، لأن القرآن سنة لا تخالف فيه الرواية عن النبي ﷺ وأصحابه والسلف وقراء الأمصار بما يجوز في النحو واللغة، وما فيه أفصح مما يجوز. فالاتباع فيه أولى.

يقال: «حِصْت أَحُوص حَوْصا وحياصاً»، إذا خطت، قال الأصمعي: يقال: «حُصْ عين صقرك» أي: خط عينه، والحوص: في العين ضيق مؤخرها.والخَوصُ بالخاء - معجمة -غُؤورُهَا.

وقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾؛ اسم «ليس ة مضمر.

المعنى: ليس ثواب الله بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، وقد جرى ما يدل على إضمار الثواب، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾. أي: إنما يدخل الجنة من آمن وعمل صالحاً. ليس كما يتمنى أهل الكتاب، لأنهم كانا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠]، فأعلم الله -عز وجل- أن دخول الجنة وثواب الله على الحسنات والسيئات ليس بالأماني ولكنه بالأعمال.

ثم ذكر بعض ذلك فقال -عز وجل-: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾؛ أي: لا ينفعه تمنيه.

﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾. فأعلم الله أن عامل السوء لا ينفعه تمنيه. ولا

يتولاه متول ولا ينصره ناصر.

وقد احتج قوم من أصحاب الوعيد بقوله: ﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً﴾ فزعموا أن هذا يدل على أن من عمل السوء جزي به.

وقد أعلم الله -عز وجل- أنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، فعامل السوء -ما لم يكن كافراً- مرجو له العفو والرحمة، والنبي ﷺ لأمته يشفع فيهم.

ومعنى: ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾؛ «النقير» النقطة في ظهر النواة، وهي منبت النخلة؛ والمعنى: ولا يظلمون مقدار ذلك.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾؛ «الخليل» المحب الذي ليس في محبته خَلَل.

فجائز أن يكون إبراهيم سمي «خليل الله» بأنه الذي أحبه الله واصطفاه محبة تامة كاملة. وقيل أيضاً: «الخليل» الفقير، فجائز أن يكون فقير الله، أي: الذي لم يجعل فقره وفاقته إلا إلى الله مخلصاً في ذلك، قال الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾[فاطر: ١٥]. ومثل أن إبراهيم الخليل الفقير إلى الله قول زهير يمدح هرم بن سنان [من البسيط]:

وَإِن أَتاهُ خَليلٌ يَومَ مَسأَلَةٍ يَقولُ لا غائِبٌ مالي وَلا حَرِمُ

وجاء في التفسير أن إبراهيم كان يضيف الضيفان ويطعم المساكين الطعام، وأصاب الناس جدب فبعث إلى خليل له كان بمصر يمتار منه. فقال ذلك الخليل لنفسه: لو كان إبراهيم إنما يريد الميرة لنفسه لوجهت إليه بها، ولكنه يريدها للناس فرجع غلمان إبراهيم بغير ميرة، فاجتازوا ببطحاء لينة فأخذوا من رمل كان فيها وجعلوه في أوعيتهم استحياء من الناس أن يرجعوا بغير شيء، فلما رآهم -عليه السلام-، سألهم عن الخبر فأعلموه، فحملته عينه فنام مهموماً، وانتبهت امرأته وقد بصرت بالأوعية مملوءة، فأمرت بأن يخرج منها ويخبز، فأخرج منها طعام في غاية الحسن فاختبز، وانتبه إبراهيم وشم رائحة الطعام، فقال: من أين هذا ؟ فقالت امرأته من عند خليلك المصري. فقال إبراهيم هذا من عند خليلي الله -عز وجل-.

فهذا ما روي في التفسير وهو من آيات الأنبياء -عليهم السلام- غير منكر.

والذي فسرنا من الاشتقاق لا يخالف هذا.والخلة: الصداقة، والخلة: الحاجة. فأما معنى «الحاجة» فإنه الاختلاف الذي يلحق الإنسان فيما يحتاج إليه، وأما الخلة: الصداقة فمعناها أنه يسد كل محب خلل صاحبه في المودة وفي الحاجة إليه، و «الخلل» كل فرجة

تقع في شيء، و«الخِلال» الذي يتخلل به، وإنما سمي خلالاً لأنه يتبع به الخلل بين الأسنان، وقول الشاعر[1] [من الكامل]:

فَنَظَرنَ مِن خَلَلِ الحِجالِ بِأَعيُنٍ مَرضى مُخَالِطوها السَّقامُ صِحاحِ

فإن معناه: نظرن من الفرج التي تقع في الستور.

وقوله القائل: «لك خُلة من خِلالٍ» تأويله: أني أُخلَى لك من رأيي أو مما عندي عن خُلة من خِلال». وتأويل: «أُخْلَى» إنما هو: «أخلل»، وجائز أن يكون أخلى من الخلوة، «والخلوة والخلل» يرجعان إلى معنى، و«الخَلُّ» الطريق في الرمل؛ معناه: أنه انفرجت فيه فرجة فصارت طريقاً. و«الخَلُّ» الذي يؤكل إنما سمي «خلا» لأنه اختل منه طعم الحلاوة.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: إن إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً هو عبد الله، وهو له وكل ما في السماوات والأرض.

وقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾؛ موضع «ما» رفع.

المعنى: الله يفتيكم فيهن، وما يتلى عليكم في الكتاب، أيضاً يفتيكم فيهن. ويجوز أن يكون «ما» في موضع جر، وهو بعيد جداً، لأن الظاهر لا يعطف على المضمر، فلذلك اختير الرفع، ولأن معنى الرفع أيضاً أبين، لأن ما يتلى في الكتاب هو الذي بين ما سألوا؛ فالمعنى: ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، وكتابه يفتيكم فيهن.

وقوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ المعنى: وترغبون عن أن تنكحوهن.

وقوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ﴾؛ يعني اليتامى.

وموضع «المستضعفين» جر، عطف على قوله: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾؛ المعنى: وفي المستضعفين من الولد والذي يفتيهم من القرآن قوله -عز وجل-: ﴿وَآتُوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾[النساء: ٢] والذي تلي عليهم في التزويج هو قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[النساء: ٣]. فالمعنى: قل الله يفتيكم فيهن، وهذه الأشياء التي في الكتاب يفتيكم فيهن.

وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾؛ «أن» في موضع جر.

---

(١) هو: ابن ميادة المري.

المعنى: وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء، وفي أن تقوموا لليتامى بالقسط.

وقوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾. النشوز من بعل المرأة أن يسيء عشرتها وأن يمنعها نفسه ونفقته والله -عز وجل- قال في النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[النساء: ١٩]، وقال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[البقرة: ٢٢٩]، وقال: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾[البقرة: ٢٢٩]. فشدد الله في العدل في أمر النساء فلولم يعلم -عز وجل- أن رضا المرأة من زوجها بالإقامة على منعها في كثير من الأوقات نفسه، ومنعها بعض ما يحتاج إليه لما جاز الإمساك إلا على غاية العدل والمعروف، فجعل الله -عز وجل- الصلح جائزاً بين الرجل وامرأته إذا رضيت منه بإيثار غيرها عليه. فقال: «لا إثم عليهما في أن يتصالحا بينهما صلحاً، والصلح خير من الفرقة».

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾؛ وهو أن المرأة تشح على مكانها من زوجها، والرجل يشح على المرأة بنفسه إن كان غيرها أحب إليه منها.

وقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ أي: إن تحسنوا إليهن، وتحملوا عشرتهن. ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾؛ أي: يخبر ذلك فيجازيكم عليه.

فإن قال قائل: إنما قيل: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ﴾، ولم يقل وإن نشز رجل على المرأة لأن الخائف للشيء ليس بمتيقن له، فالجواب في هذا: إن خافت الإقامة منه على النشوز والإعراض، وليس أن تخاف الإقامة إلا وقد بدا منه شيء، فأما التفرقة بين «إن» الجزاء والفعل الماضي فجيد. ولكن إن وقعت التفرقة بين «إن» والفعل المستقبل فذلك قبيح. إن قلت: «إن امرأة تخاف» فهو قبيح، لأن «إن» لا يفصل بينها وبين ما يجزم، وذلك في الشعر جائز في «إن» وغيرها. قال عدي بن زيد:

فَمَتَى وَاغِلٌ يَنُبْهُم يُحَيُّوهُ وتُعْطَفْ عليهِ كَأْسُ السَّاقِي[1]

فأما الماضي فـ«إن» غير عاملة في لفظه، و«إن» أم حروف الجزم، فجاز أن تفرق بينها وبين الفعل.

---

(١) انظر: الأصول في النحو (٢/٢٣٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٦١٧)، واللباب علل البناء والإعراب (٢/٥٨)، لسان العرب (١١/٧٣١).

و﴿امْرَأَةٌ﴾ ارتفعت بفعل مضمر يدل عليه ما بعد الاسم؛ المعنى: إن خافت امرأة خافت، فأما غير «إن» فالفصل يقبح فيه مع الماضي والمستقبل جميعاً، لو قلت: «متى زيد جاءني أكرمته»، كان قبيحاً، ولو قلت: «إن الله أمكنني فعلت» كان حسناً جميلاً.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾؛ كان مشركو العرب لا يؤمنون بالبعث، وكانوا مقرين بأن الله خالقهم، فكان تقربهم إلى الله -عز وجل- إنما هو ليعطيهم من خير الدنيا، ويصرف عنهم شرها، فأعلم الله -عز وجل- أن خير الدنيا والآخرة عنده.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾؛ القسط والإقساط العدل، يقال: «أَقْسَط إِقْسَاطاً» إذا عدل وأتى بالقسط، ويقال: «قَسِط الرجل قُسُوطاً» إذا جار، قال الله -جل وعز-: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: ٩]. أي: أعدلوا إن الله يحب العادلين، وقال -جل وعز-: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[الجن: ١٥]، أي: الجائرون، يقال: «قَسَط البعير قَسْطاً» إذا يبست يده، و«يد قَسْطَاء» أي: يابسة، فكأن «أَقْسَط ة: أقام الشيء على حقيقة التعديل، وكأن «قَسَطَ» بمعنى جار؛ معناه: يبس الشيء، وأفسد جهته المستقيمة.

وقوله: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾؛ المعنى: قوموا بالعدل وأشهدوا لله بالحق، وإن كان الحق على نفس الشاهد أو على والديه وأقربيه. ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾؛ أي: إن يكن المشهود له فقيراً فالله أولى به، وكذلك إن يكن المشهود عليه غنياً فالله أولى به.

فالتأويل: أقيموا الشهادة لله على أنفسكم وأقاربكم، ولا تميلوا في الشهادة رحمة للفقير، ولا تحيفوا لاحتفال غِنَى غَنِيٍ عندكم.

وقوله: ﴿فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾؛ أي: لا تتبعوا الهوى فتعدلوا. ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾؛ قرأ عاصم وأبو عمرو بن العلاء وأهل المدينة ﴿تَلْوُوا﴾ بواوين، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة بواو واحدة «تلوا»، والأشبه على ما جاء في التفسير و مذهب أهل المدينة وأبي عمرو، لأنه جاء في التفسير أن «لوى الحاكم في قضيته» أعرض. ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾؛ يقال: «لويت فلاناً حقه» إذا دفعته به ومطلته، ويجوز أن يكون «وأن تَلُو» أصله: «تَلْوُوا» فأبدلوا من الواو المضمومة همزة فصارت: «تلؤوا» بإسكان اللام ثم طرحت الهمزة وطرحت حركتها على اللام فصار: «تَلُوا» كما قيل: في

«أَدْؤُرٍ»: «أَدُورٍ» ثم طرحت الهمزة فصارت: «آدُر». ويجوز أن يكون «وإن تلوا» من الولاية.

و﴿تُعْرِضُوا﴾ أي: إن قمتم بالأمر أو أعرضتم عنه، فإن الله كان بما تعملون خبيراً.

وقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾؛ قيل: كالمحبوسة لا أيماً ولا ذات بعل.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾؛ قيل فيه قولان:

يا أيها الذين آمنوا أقيموا على الإيمان بالله كما قال -عز وجل- ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[الفتح: ٢٩]، أي: وعد من أقام على الإيمان من أصحاب النبي ﷺ الذين ذكروا في هذه القصة مغفرة وأجراً عظيماً. وقيل: يعنى بهذا المنافقون الذين أظهروا التصديق وأسروا التكذيب، فقيل: يا أيها الذين أظهروا الإيمان آمنوا بالله ورسوله أي: أبطنوا مثل ما أظهرتم. والتأويل الأول أشبه -والله أعلم-.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ قيل فيه غير قول:

قال بعضهم: يعنى به اليهود لأنهم آمنوا بموسى ثم كفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد ﷺ. وقيل: جائز أن يكون محارب آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر. وقيل: جائز أن يكون منافق أظهر الإيمان وأبطن الكفر ثم آمن بعد ثم كفر وازداد كفراً بإقامته على الكفر. فإن قال قائل: الله -جل وعز- لا يغفر كفر مرة واحدة فلم قيل ههنا فيمن آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ وما الفائدة في هذا ؟ فالجواب في هذا -والله أعلم-: أن الله -عز وجل- يغفر للكافر إذا آمن بعد كفره، فإن كفر بعد إيمانه لم يغفر الله له الكفر الأول، لأن الله -جل وعز- يقبل التوبة، فإذا كفر بعد إيمان قبله كفر فهو مطالب بجميع كفره.

ولا يجوز أن يكون إذا آمن بعد ذلك لا يغفر له، لأن الله -جل ثناؤه- يغفر لكل مؤمن بعد كفره، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[الشورى: ٢٥]، وهذا في القرآن كثير، وهو شبيه بالإجماع أيضاً. ومعنى: ﴿وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾؛ أي: لا يجعلهم بكفرهم مهتدين بل يضلهم، لأنه -جل وعز- يضل الفاسقين.

وقوله -جل وعز-: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾؛ معنى «أليم» موجع.

قال «بشر» أي: أجعل في مكان بشارتهم «لهم العذاب». العرب تقول: «تحيتك الضرب، وعتابك السيف» أي: لك بدلاً من التحية هذا؛ قال الشاعر[1] [من الوافر]:

وخيلٍ قد دَلَفتُ لها بِخَيلٍ تحيّةُ بَينِهم ضربٌ وَجيعُ[2]

وقوله -جل وعز-: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ﴾ أي: أيبتغي المنافقون عند الكافرين العزة، والعزة: المنعة وشدة الغلبة، وهو مأخوذ من قولهم: «أرض عزاز». قال الأصمعي: «العزاز»: النفل من الأرض والصلب الحجارة، الذي يسرع منه جري الماء والسيل. هذا لفظ الأصمعي. فتأويل «العزة» الغلبة والشدة التي لا يتعلق بها إذلال، قالت الخنساء [من المتقارب]:

كَأَن لَم يَكونوا حِمىً يُتَّقى إِذِ الناسُ إِذ ذاكَ مَن عَزَّ بَزّا[3]

أي: من قوى وغلب سلب. ويقال: «قد استعز على المريض» إذا اشتد وجعه، وكذلك قول الناس: «يعز علي أن تفعل»، أي: يشتد، فأما قولهم: «قد عز الشيء» إذا لم يوجد، فتأويله: قد اشتد وجوده، أي: صعب أن يوجد.

وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾. أعلم الله -عز وجل- المؤمنين أن المنافقين يهزأون بكتاب الله، فأمروا ألا يقعدوا معهم ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، أي: في حديث غير القرآن.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾؛ أي: إنكم إذا جالستموهم على الخوض في كتاب الله بالهزؤ فأنتم مثلهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِن المُؤْمِنِينَ﴾؛ هذا يقوله المنافقون إذا كان للكافرين نصيب قالوا: ألم نستحوذ عليكم، أي: ألم نغلب عليكم بالموالاة لكم، ونمنعكم من المؤمنين بما كنا نعلمكم من أخبارهم.

و﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ في اللغة: نستولي على الشيء، يقال: «حَاذَ الحمار آتُنَه» إذا استولى

---

(١) هو: عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤٣٢/١)، وروح المعاني (٢٠٨/١٣)، وزاد المسير (٢٢٦/٢)، ومعاني القرآن (٢/ ٢١٨)، ومفردات القرآن (١٢٠/١)، ولسان العرب (٢٦٤/٥)، وتاج العروس (٣٦٤١/١).

(٣) انظر: زاد المسير (٢٢٧/٢)، ومغني اللبيب (١١٨/١)، والمستقصى في أمثال العرب (٣٥٧/٢)، ومجمع الأمثال (٣٠٧/٢).

عليها وجمعها، وكذلك حازها، قال الشاعر[١] [الرجز]:

يَحُوذُهنَّ وَلَهْ حُوذِيُّ [٢]

ورووه أيضاً:

يَحُوزُهنَّ وَلَهْ حُوزِيُّ

قال النحويون: «استحوذ» خرج على أصله، فمن قال: «حَاذَ يَحُوذ» لم يقل إلا: «اسْتَحَاذ يَسْتَحِيذ»، ومن قال: «أَحوَذَ» فهو كما قال بعضهم: أجودت وأطيبت بمعنى أجدت وأطبت، فأخرجه على الأصل قال: «استحوذ».

وقوله: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾؛ أي: إن الله ناصر المؤمنين بالحجة والغلبة، فلن يجعل للكافرين أبداً على المؤمنين سبيلاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؛ أي: يخادعون النبي ﷺ بإظهارهم له الإيمان وإبطانهم الكفر، فجعل الله -عز وجل- مخادعة النبي ﷺ مخادعة له، كما قال -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فيه غير قول:

قال بعضهم: مخادعة الله إياهم جزاؤهم على المخادعة بالعذاب، وكذلك قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾[الأنفال: ٣٠]، وقيل: وهو خادعهم بأمره -عز وجل- بالقبول منهم ما أظهروا، فالله خادعهم بذلك.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ أي: لا تجعلوهم بطانتكم وخاصتكم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾؛ أي: حجة ظاهرة.

والسلطان في اللغة: الحجة، وإنما قيل للخليفة والأمير: «سلطان» لأن معناه: أنه ذو الحجة. والعرب تؤنث «السلطان» وتذكره، فتقول: «قضت عليك بهذا السلطان»، و«أمرتك به السلطان».

وزعم قوم من الرواة أن التأنيث فيه أكثر، ولم يختلف في التذكير. وأحسب الذين رووا لم يضبطوا معنى الكثرة من القلة. والتذكير فيه أكثر، فأما القرآن فلم يأت فيه ذكر

(١)وهو: رؤبة بن العجاج.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٣٠/٤)، ولسان العرب (٤٨٥/٣)، وتاج العروس (٢٣٨٩/١).

السلطان إلا مذكراً، قال الله -عز وجل-: ﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[الكهف: ١٥]، وقال: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٩]، وقال: ﴿سُلْطَاناً مُبِيناً﴾[النساء: ٩١]، فجميع ما في القرآن من ذكر السلطان مذكر، ولو كان التأنيث أكثر لكان في كتاب الله -جل وعز-.

فإن قال قائل: إنما رووا أن السلطان بين الناس هو المؤنث، قيل: إنما السلطان؛ معناه: ذو السلطان. والسلطان: الحجة. والاحتجاج والحجة معناهما واحد. فأما التأنيث فصحيح، إلا أنه أقل من التذكير، فمن قال: «قضت به عليك السلطان» أراد قضت عليك به الحجة، و «قضت عليك حجة الوالي»، ومن قال: «قضى به عليك السلطان» ذهب إلى معنى صاحب السلطان. وجائز أن يكون ذهب به إلى البرهان والاحتجاج، أي: قضى به عليك البرهان.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾؛ قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى: «جهنم أَدْرَاك»، أي: منازل، فكل منزلة منها درك. والقراءة: ﴿الدَّرَكِ﴾ بفتح الراء. و«الدْرك» بتسكين الراء، فأما أهل المدينة وأهل البصرة فيقرؤونها: ﴿الدَّرَكِ﴾ بفتح الراء، وأما أهل الكوفة والأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب، فيقرؤون «الدَّرك». وقد اختلف فيها عن عاصم، فرواها بعضهم عنه ﴿الدَّرَكِ﴾ ورواها بعضهم «الدْرك» بالحركة والسكون جميعاً، واللغتان حكاهما جميعاً أهل اللغة، إلا أن الاختيار فتح الراء، لإجماع المدنيين والبصريين عليها وأن أحداً من المحدثين ما رواها إلا الدَّرك بفتح الراء، فلذلك اخترنا الدَّرك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾؛ أي: لا يمنعهم مانع من عذاب الله -عز وجل- ولا يشفع لهم شافع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾.

الخط حذفت منه الياء في هذا الموضع، وزعم النحويون أن الياء حذفت من الخط كما حذفت في اللفظ، لأن الياء سقطت من اللفظ لسكونها وسكون اللام في «الله» وكذلك قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]، الياء من «يناد» حذفت في الخط لهذه العلة، وكذلك ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَة﴾[العلق: ١٨]، و﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[القمر: ٦] فالواو حذفت ههنا لالتقاء الساكنين.

فأما قول الله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾[الكهف: ٦٤]، فهو كقوله ﴿يُنَادِ الْمُنَادِ﴾[ق: ٤١]، و﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾[القمر: ٦]، فهذه الياءات من نحو﴿نَبْغِ﴾ حذفت لأن

الكسرة دلت على الياء فحذفت الياء لثقلها، وليس الوجه عند النحويين حذفها. فأما «المنادي والداعي» فحذفت الياء منها كما حذفت قبل دخول الألف واللام، لأنك تقول: «هذا داع وهذا مناد».

فأما ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[الفجر: ٤]. فحذفت الياء لأنها رأس آية، ورؤوس الآي الحذف جائز فيها كما يجوز في آخر الأبيات.

وقوله -جل وعز-: ﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾، و ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ يقرأ بهما جميعاً. فالمعنى: أن المظلوم جائز أن يظهر بظلامته تشكياً، والظالم يجهر بالسوء من القول ظلماً واعتداء، وموضع «من» نصب بالوجهين جميعاً، لأنه استثناء ليس من الأول. المعنى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن المظلوم يظهر بظلامته تشكياً، ولكن الظالم يجهر بذلك ظلماً. ويجوز أن يكون موضع «من» رفعاً على معنى لا يحب الله أن يجهر بالسوء من القول إلا من ظلم فيكون «من» بدلاً من معنى «أحدٍ»؛ المعنى: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول إلا المظلوم. وفيها وجه آخر لا أعلم النحويين ذكروه، وهو أن يكون ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ على معنى لكن الظالم أجهر له بالسوء من القول، وهذا بعد استثناء ليس من الأول. وهو وجه حسن، وموضعه نصب. وقد روي أن هذا ورد في الضيف إذا أسيء إليه، فله أن يشكو لك، وحقيقته ما قلناه -والله أعلم-.

وقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ﴾.

وهذا حين قالوا للنبي ﷺ ﴿وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾[الإسراء: ٩٣]، أي: فقد سألوا موسى بعد أن جاءهم بالآيات، فقالوا: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾. وقال أهل اللغة في ﴿جَهْرَةً﴾ قولين:

قال أبوعبيدة: قالوا جهرة أرنا الله، لأنهم إذا رأوا الله فالسر جهرة، فإنما جهرة صفة لقولهم. وقال بعضهم: ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾، إنما معناه: أرنا رؤية بينة منكشفة ظاهرة، لأن من علم الله -عز وجل- فقد زاد علماً، ولكن سألوه رؤية يدركونها بأبصارهم. ودليل هذا القول قوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥]، وهذا عندي هو القول البين إن شاء الله.

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾؛ «ما» لغو في اللفظ.

المعنى: فبنقضهم ميثاقهم حقاً، فكما أن «حقاً» لتوكيد الأمر فكذلك «ما» دخلت

للتوكيد. وتأويل نقضهم ميثاقهم أن الله -عز وجل- أخذ عليهم الميثاق في أن يبينوا ما أنزل عليهم من ذكر النبي ﷺ وغيره، قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[آل عمران: ١٨٧]. والجالب للباء والعامل فيها قوله -عز وجل-: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾. المعنى: بنقضهم ميثاقهم، والأشياء التي ذكرت بعده.

وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بدل من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾.

وقوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾. أي: أوعية للعلم. ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾؛ وإن شئت أدغمت اللام في الطاء، وكذلك: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[الأعلى: ١٦] يدغم فتقول: بطبع، وبتؤثرون، فجعل الله مجازاتهم على كفرهم أن طبع على قلوبهم.

وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾؛ «البهتان» الكذب الذي يحير من شدته وعظمه.

وذلك أن اليهود -لعنها الله- رمت مريم، وهي صفوة الله على نساء العالمين، بأمر عظيم.

وقوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾؛ أي: باعترافهم بقتلهم إياه. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾؛ فإنما عذبوا أو يعذبون عذاب من قتل، أو كان شبه لهم لأنهم قد أتوا الأمر على أنه قتل نبي.

وجاء في التفسير: أن عيسى لما أراد الله -جل ثناؤه- رفعه إليه وتطهيره منهم، قال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة، فقال رجل منهم: أنا، فألقي عليه شبهه فقتل، ورفع الله عيسى إليه.

وهذا كله غير ممتنع، لأنا لا نشك في أنه شبه لهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾؛ أي: الذين اختلفوا في قتله شاكون، لأن بعضهم زعم أنه إله، وما قتل، وبعضهم ذكر أنه قتل، وهم في ذلك شاكون.

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾. ﴿اتِّبَاعَ﴾ منصوب بالاستثناء، وهو استثناء ليس من الأول؛ المعنى: ما لهم به من علم لكنهم يتبعون الظن. وإن رفع جاز على أن يجعل عليهم اتباع الظن، كما تقول العرب: «تحيتك الضرب وعتابك السيف». قال الشاعر [١]

---

(١) هو: عمرو بن معد كرب الزبيدي.

[من الوافر]:

وخيلٍ قد دَلَفتُ لها بِخَيلٍ تحيّةُ بَينِهم ضربٌ وَجيعُ[١]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾؛ قال بعضهم: الهاء للعلم.

المعنى: وما قتلوا علمهم يقيناً، كما تقول: أنا أقتل الشيء علماً، تأويله: إني أعلمه علماً تاماً.

وقال بعضهم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ الهاء لعيسى كما قال: وما قتلوه وما صلبوه وكلا القولين جائز.

وقوله: ﴿بَل رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾؛ إدغام اللام في الراء هو الكلام وعليه القراءة، لأن اللام قريبة من مخرج الراء، والراء متمكنة، وفيها كالتكرير، فلذلك اختير الإدغام فيها، وإن لم تدغم لأنه من كلمتين جاز.

وقوله: ﴿وَإِن مِن أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ المعنى: وما منهم من أحد إلا ليؤمنن به، وكذلك قوله: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[مريم: ٧١].

المعنى: ما منك أحد إلا واردها، وكذلك ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[الصافات: ١٦٤]؛ المعنى: وما منا أحد إلا له مقام معلوم.

ومثله قول الشاعر:

لَوْ قُلْتَ مَا فِي قَوْمِهَا لَمْ تِيثَم يَفْضُلُهَا فِي حَسَبٍ وَمِيسَمِ[٢]

المعنى: ما في قومها أحد يفضلها.

فالمعنى: ﴿إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ فالهاء في «موته» راجعة على كافر في بعض الأقاويل.

وقد قيل: ما من أحد إلا ليؤمنن بعيسى ممن كفر به قبل موته، لأن الميت قبل موته يعاين عمله فيعلم صالحه من طالحه، وكل كافر إذا عاين آمن بكل نبي كفر به قبل موته.

وقالوا في الهاء في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ أي: بعيسى، وقال بعضهم: بمحمد ﷺ. والقولان واحد، لأن من كفر بنبي عاين قبل موته أنه كان على ضلال، وآمن حيث لا ينفعه الإيمان.

---

(١) مر ذكره.

(٢) مر ذكره.

وقال بعضهم: ﴿إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ أي: سيؤمن بعيسى إذا نزل لقتل المسيح الدجال، وهذا بعيد في اللغة، لأنه قال: ﴿وَإِن مِن أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، والذين يبقون إلى ذلك الوقت إنما هم شرذمة منهم، ولكنه يحتمل أنهم كلهم يقولون: إن عيسى الذي ينزل لقتل الدجال. ونحن نؤمن، فيجوز علة هذا، والله أعلم بحقيقته.

وقوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

يعنى بالراسخين الثابتون في العلم من أهل الكتاب أنهم لعلمهم آمنوا بالنبي ﷺ وسائر الأنبياء -عليهم السلام-.

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ﴾؛ نسق على «ما».

المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة أي: ويؤمنون بالنبيين المقيمين الصلاة.

وقال بعضهم: ﴿وَالْمُقِيمِينَ﴾ عطف على الهاء والميم.

المعنى: لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك، وهذا عند النحويين رديء، أعني العطف على الهاء والميم لأنه لا يعطف بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا في شعر، وذهب بعضهم أن هذا وهم من الكاتب.

وقال بعضه: في كتاب الله أشياء استصلحها العرب بألسنتها، وهذا القول عند أهل اللغة بعيد جداً، لأن الذين جمعوا القرآن أصحاب رسول الله ﷺ وهم أهل اللغة وهم القدوة وهم قريبو العهد بالإسلام فكيف يتركون في كتاب الله شيئاً يصلحه غيرهم، وهم الذين أخذوه عن رسول الله ﷺ وجمعوه، وهذا ساقط عمن لا يعلم بعدهم وساقط عمن يعلم، لأنهم يُقْتَدى بهم فهذا مما لا ينبغي أن ينسب إليهم رحمة الله عليهم. والقران محكم لا لحن فيه، ولا تتكلم العرب بأجود منه في الإعراب، كما قال -عز وجل- ﴿تَنزِيلٌ مِن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢]، وقال ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥].

ولسيبويه والخليل وجميع النحويين في هذا باب يسمونه: «باب المدح» قد بينوا فيه صحة هذا وجودته. وقال النحويون: إذا قلت: «مررت بزيد الكريم»، وأنت تريد أن تخلص زيداً من غيره فالجر هو الكلام حتى يعرف زيد الكريم من زيد غير الكريم، وإذا أردت المدح والثناء فإن شئت نصبت فقلت: «مررت بزيد الكريم» كأنك قلت: «أذكر الكريم»، وإن شئت قلت: «بزيد الكريم» على تقدير: هو الكريم، و«جاءني قومك المطعمين في المحل، والمغيثون في الشدائد»، على معنى أذكر المطعمين، وهم المغيثون

في الشدائد، وعلى هذا الآية، لأنه لما قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[البقرة: ٤] علم أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. فقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، على معنى، أذكر المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة، وأنشدوا بيت الخزنق بنت بدر بن هفان [من السريع]:

لا يَبعَدَن قَومي الَّذينَ هُم سُمُّ العُداةِ وَآفَةُ الجُزرِ

النازِلونَ بِكُلِّ مُعتَرَكٍ وَالطَّيِّبونَ مَعاقِدَ الأُزُرِ(١)

على معنى أُذكر النازلين، رفعه ونصبه على المدح. وبعضهم يرفع «النازلين» وينصب «الطيبين»، وكله واحد جائز حسن.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾؛ القراءة فيه بفتح الزاي وضمها، وأكثر القراء على فتح الزاي، وقد قرأت جماعة: «زُبوراً» بضم الزاي، منهم الأعمش وحمزة.

فمن قرأ ﴿زَبُوراً﴾، بفتح الزاي فمعناه: كتاباً، وهذا الوجه عند أهل اللغة، لأن الآثار كذا جاءت: «زبور داود»، كما جاء توراة موسى وإنجيل عيسى.

ومن قرأ «زُبوراً» بضم الزاي فمعناه: وآتيناه كتباً، جمع: «زَبْر وزُبُور» ويقال: «زَبرت الكتاب أَزْبُره زَبْراً» إذا كتبت، وزَبَرت أزبر زبراً، و«أَذْبُر» إذا قرأت.

والزَّبْرُ في اللغة: إحكام العمل في البئر خاصة، تقول: بئر مَزْبُورَة إذا كانت مطوية بالحجارة، والزبر إحكام الكتاب، وقول الشاعر(٢) [من الكامل]:

* هَوجاءُ لَيسَ لِلُبِّها زَبرُ(٣)*

يصف ريحاً، جعل هذا مثلاً لها، كأنه قال: ليس لشأنها قوة في الاستواء.

وقوله-عز وجل-: ﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ﴾[الكهف: ٩٦] واحدها زُبْرَة، وهي قطع الحديد.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾. «رسلا» منصوب من جهتين؛ أجودهما: أن يكون منصوباً بفعل مضمر، الذي ظهر يفسره.

---

(١) انظر: أوضح المسالك (٣/٣١٤)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٤٦٨)، والمزهر في علوم اللغة (١/١١٣)، ونفح الطيب (٤/٥٤٤).

(٢) هو: عمرو بن أحمد الباهلي.

(٣) انظر: لسان العرب (٢/٣٩٤).

المعنى: وقد قصصنا رسلاً عليك قد قصصناهم، كما تقول: ((رأيت زيداً وعمراً أكرمته))؛ المعنى: وأكرمت عمراً أكرمته.

وجائز أن يحمل ﴿وَرُسُلاً﴾ على معنى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[النساء: ١٦٣] لأن معناه: إنا أرسلنا إليك موحين إليك، وأرسلنا رسلاً قد قصصناهم عليك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾.

أخبر الله -عز وجل- بتخصيص نبي ممن ذكر، فأعلم -عز وجل- أن موسى كلم بغير وحي، وأكد ذلك بقوله تكليماً، فهوكلام كما يعقل الكلام لا شك في ذلك.

وقوله -جل وعز-: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ القراءة الرفع مع تخفيف ﴿لَكِنِ﴾، والنصب جائز ((لكنَّ الله يشهد)) إلا أنه لا يقرأ بما يجوز في العربية إلا أن يثبت به رواية عن الصحابة وقراء الأمصار.

ومعنى ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾؛ لأن الشاهد هو المبين لما يشهد به فالله -جل وعز- يبينه ويعلم مع إبانته أنه حق.

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾؛ معناه: وكفى الله شهيداً، والباء دخلت مؤكدة؛ المعنى: اكتفوا بالله في شهادته.

ومعنى ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: أنزل القرآن الذي فيه علمه.

وقوله: ﴿فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ﴾؛ اختلف أهل العربية في تفسير نصب ((خير))، فقال الكسائي: انتصب لخروجه من الكلام، قال: وهذا تقوله العرب في الكلام التام نحو قولك: ((لتقومن خيراً لك))، فإذا كان الكلام ناقصاً رفعوا فقالوا: ((إن تنته خير لك)).

وقال الفراء: انتصب هذا وقوله ﴿خَيْراً لَكُمْ﴾ لأنه متصل بالأمر وهومن صفته، ألا ترى أنك تقول:((انته هوخير لك)) فلما سقطت ((هو)) اتصل بما قبله، وهو معرفة فانتصب، ولم يقل هو ولا الكسائي من أي المنصوبات هو، ولا شرحوه بأكثر من هذا.

وقال الخليل وجميع البصريين: إن هذا محمول على معنى، لأنك إذا قلت: ((انته خيراً)) فأنت تدفعه عن أمر وتدخله في غيره، كأنك قلت: ((انته وائت خير لك وادخل فيما هو خير لك)).

وأنشد الخليل وسيبويه قول عمر بن أبي ربيعة:

فَوَاعِدِيهِ سَرْحَتِي مَالِكٍ أَوْ الرِّبَا بَيْنَهُمَا أَسْهَلا[١]

كأنه قال: «إيتي مكاناً أسهلاً».

وقوله: -عز وجل-: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ معنى «سبحانه» تبرئته من أن يكون له ولد، وهذا قول أهل العربية. وجاء عن النبي ﷺ أن معنى «سبحان الله» تبرئة الله من السوء، وتفسير أهل العربية موافق لما جاء عن النبي ﷺ.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا﴾؛ الرفع لا غير، ورفعه بإضمار: لا تقولوا آلهتنا ثلاثة.

﴿إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾؛ أي: ما هو إلا إله واحد.

وقوله: ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ﴾؛ أي: فكيف يكون إلهاً وهو ابن مريم، وكيف يكون إلهاً وأمه قبله والله -عز وجل- القديم الذي لم يزل.

﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ﴾؛ الغلو: مجاوز القدر في الظلم.

وقوله: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ﴾؛ أي: ليس يستنكف الذي تزعمون أنه إله أن يكون عبداً لله.

﴿وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ﴾؛ والملائكة -والله أعلم- أكرم من النبيين، ألا ترى أن نوحاً عليه السلام قال: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، فقال -عز وجل-: لن يستنكف المسيح من العبودية لله.

ومعنى ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ أي: لن يأنف، وأصله في اللغة: من نكفت الدمع إذا نحيته بإصبعك من خدك، قال الشاعر:

فبانُوا فلولاً ما تذكَّر منهم من الحِلْفِ لم يُنْكَفْ لعَينيك مَدمَعُ[٢]

فتأويل ﴿لَن يَسْتَنكِفَ﴾ لن ينقبض، ولن يمتنع من عبودية الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾؛ يعنى به -والله أعلم-القرآن، لأن النور هو الذي يبين الأشياء حتى ترى. ومثل الله -عز وجل- لما يعلم بالقلب علماً واضحاً لما يرى بالعين رؤية منكشفة بينة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/٣٧١)، وتفسير القرطبي (٦/٢١)، وزاد المسير (٢/٢٥٩)، ولسان العرب (٣/ ٤٦١).

(٢) انظر: زاد المسير (٢/٢٦٣)، ولسان العرب (٩/٣٤٠).

والكلالة: قد بيناها أول السورة.

وقوله: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾؛ جاز مع «إن» تقديم الاسم قبل الفعل، لأن «إن» لا تعمل في الماضي، ولأنها أم الجزاء. والنحويون يذهبون إلى أن معها فعلاً مضمراً، الذي ظهر يفسره؛ والمعنى: إن هلك امرؤ هلك.

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾؛ قيل: فيها قولان:

قال بعضهم: المعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا فأضمرت لا. وقال البصريون: إن «لا» تضمر، وإن المعنى: يبين الله لكم كراهة أن تضلوا، ولكن حذفت «كراهة»، لأن في الكلام دليلاً عليها، وإنما جاز الحذف عندهم على حد قوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] والمعنى: واسأل أهل القرية، فحذف الأول جائز، ويبقى المضاف يدل على المحذوف، قالوا فأما حذف «لا» وهي حرف جاء لمعنى النفي فلا يجوز، ولكن «لا» تدخل في الكلام مؤكدة، وهي لغوكقوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ﴾[الحديد: ٢٩] ومثله قول الشاعر[١] [من الرجز]:

وَما أَلومُ البيضَ أَلا تَسخَرا لَمّا رَأَينَ الشَمِطَ القَفَندَرا[٢]

المعنى: وما ألوم البيض أن تسخر.

ومثل دخول «لا» توكيداً قوله -عز وجل-: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[القيامة: ١]، و﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[البلد: ١].

فإن قال قائل: أفيجوز أن تقول: «لا أحلف عليك، تريد أحلف عليك ؟». قيل: «لا» لأن: «لا»، إنما تلغى إذا مضى صدر الكلام على غير النفي، فإذا بنيت الكلام على النفي فقد نقضت الإيجاب، وإنما جاز أن تلغى «لا» في أول السورة، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ألا ترى أن جواب الشيء قد يقع وبينهما سور كما قال -جل وعز- جواباً لقوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦]، فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، ومثله في القرآن كثير.

---

(١) هو: أبو النجم العجلي.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧٣/٢).

سورة المائدة(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -جل وعز-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

خاطب الله -جل وعز- جميع المؤمنين بالوفاء بالعقود التي عقدها الله عليهم، والعقود التي يعقدها بعضهم على بعض على ما يوجبه الدين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة المائدة من سور القرآن الكريم المدنية. ترتيبها في المصحف الشريف الخامسة. عدد آياتها عشرون ومائة آية. وجاءت تسميتها المائدة لورود ذكر المائدة فيها حيث طلب الحواريون من عيسى عليه السلام آية تدل على صدق نبوته، وتكون لهم عيدًا، وقصتها أعجب ما ذكر فيها لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم من الله العلي الكبير.

سورة المائدة من السور المدنية الطويلة، وقد تناولت كسائر السور المدنية جانب التشريع بإسهاب، إلى جانب موضوع العقيدة وقصص أهل الكتاب، نزلت هذه السورة عند انصراف رسول الله ﷺ من الحديبية.

تتناول سورة المائدة الأحكام الشرعية، لأن الدولة الإسلامية كانت في بداية تكوينها بحاجة إلى المنهج الرباني الذي يعصمها من الزلل، ويرسم لها طريق البناء والاستقرار. أما الأحكام التي تناولتها السورة فتتمثل في: أحكام العقود، والذبائح، والصيد، والإحرام، ونكاح الكتابيات، والردة، وأحكام الطهارة، وحدّ السرقة، وحد البغي والإفساد في الأرض وهو ما يسميه الفقهاء حدّ الحرابة، وأحكام الخمر والميسر، وكفارة اليمين، وقتل الصيد أثناء الإحرام، والوصية عند الموت، والبحيرة والسائبة، والحكم على من ترك العمل بشريعة الله، إلى آخر ما هنالك من الأحكام الشرعية، وأشهرها عدم موالاة اليهود والنصارى.

وإلى جانب التشريع قصّ الله فيها بعض القصص للعظة والعبرة، فذكر قصة بني إسرائيل مع موسى، وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ممثلة في هذه الشرذمة من اليهود.

ثم قصة ابني آدم، وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين قوى الخير والشر ممثلة في قصة قابيل وهابيل، حيث قتل قابيل أخاه هابيل، وكانت أول جريمة نكراء تحدث في الأرض، أريق فيها الدم البريء الطاهر، والقصة تعرض لنموذجين من نماذج البشرية: نموذج النفس الشريرة الأثيمة، ونموذج النفس الخيرة الكريمة. كما ذكرت السورة قصة المائدة التي كانت معجزة لعيسى ابن مريم ظهرت على يديه أمام الحواريين. والسورة أيضًا تعرض لمناقشة اليهود والنصارى في عقائدهم الزائفة، حيث نسبوا إلى الله ما لا يليق من الذرية والبنين. ونقضوا العهود والمواثيق، وحرفوا التوراة والإنجيل، وكفروا برسالة محمد ﷺ.

وختمت السورة بالموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر حيث يُدعى السيد المسيح عيسى ابن مريم على رؤوس الأشهاد ويسأله ربه تبكيتًا للنصارى الذين عبدوه من دون الله ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[المائدة: ١١٦] ويا له من موقف مخز لأعداء الله، تشيب لهوله الرؤوس، وتتفطر من فزعه النفوس.

آمَنُوا﴾، أي: يا أيها الذين صدقوا النبي ﷺ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

والعقود: العهود، يقال: ((وَفَيْتُ بالعهد وأَوْفَيت)). والعقود: واحدها ((عقد))، وهي أوكد العهود يقال: ((عهدت إلى فلان في كذا وكذا))، تأويله: ألزمته ذلك، فإنما قلت: عاقدته أو عقدت عليه، فتأويله: أنك ألزمته ذلك باستيثاق.

وقال بعضهم: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أي: بما كان عقد بعضكم على بعض في الجاهلية، نحو الموالاة، ونحو قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾[النساء: ٣٣] والمواريث تنسخ العقود في باب المواريث.

يقال: عَقَدت الحبل والعَهْد فهو مَعْقُود. قال الحطيئة [من البسيط]:

قَومٌ إذا عَقَدوا عَقداً لِجارِهِم شَدّوا العِناجَ وَشَدّوا فَوقَهُ الكَرَبا[1]

تأويله: أنهم يوفون عهودهم بالوفاء بها، ويقال: ((أعقدت العسل)) ونحوه فهو مُعقد وعَقِيد، وروى بعضهم: ((عقدت العسل)) والكلام: ((أعقدت))، قال الشاعر[2] [من الكامل]:

وَكَأَنَّ رُبّاً أَو كُحَيلاً مُعقَدا حَشَّ الوَقودُ بِهِ جَوانِبَ قُمقُمِ[3]

وقوله -جل وعز-: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾.

قال بعضهم: ﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ الظباء والبقر الوحشية والحمر الوحشية. والأنعام في اللغة: تشتمل على الإبل والبقر والغنم.

فالتأويل -والله أعلم-أحلت لكم بهيمة الأنعام، أي: أحلت لكم الإبل والبقر والغنم والوحش. والدليل على أن الأنعام مشتملة على ما وصفنا قوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾[الأنعام: ١٤٢] فالحمولة: الإبل التي تحمل، والفرش: صغار الإبل، قال ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾[الأنعام: ١٤٣]. وهذا مردود على قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾[الأنعام: ١٤١]، وأنشأ ﴿مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾[الأنعام: ١٤٢] ثم ذكر ثمانية أزواج بدلاً من قوله: ﴿مِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٨٥/٤)، وتفسير القرطبي (٣١/٦)، وفتح القدير (١٠٤/٢)، وتفسير البيضاوي (١/ ٢٨٨)، وتفسير الثعالبي (٤٨٤/١)، والكشاف (٣٠٠/١)، وأدب الكاتب (١٥٣/١)، وإصلاح المنطق (١/ ٣٨)، ونفح الطيب (٥٤٥/٤)، ولسان العرب (٧١١/١)، وتاج العروس (٩٠٥/١).

(٢) هو: عنترة بن شداد.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٢/٣)، ولسان العرب (٤٩٣/١٢)، وتاج العروس (٧٤٧٤/١).

والسورة تدعى سورة الأنعام، فبهيمة الأنعام هذه. وإنما قيل لها: بهيمة الأنعام لأن كل حي لا يميز فهو بهيمة، وإنما قيل له: بهيمة لأنه أبهم عن أي: يميز.

فأعلم الله -عز وجل- أن الذي أحل لنا مما أبهم هذه الأشياء.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾؛ موضع «ما» نصب بـ«إلا»، وتأويله: أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴿إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ من الميتة والدم والموقوذة والمتردية والنطحية ﴿غير محلى الصيد إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحلت لكم هذه لا مُحِلين الصيد ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾.

وقال أبوالحسن الأخفش: انتصب ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، كأنه قيل: أوفوا بالعقود غير محلي الصيد، وقال بعضهم: يجوز أن تكون «ما» في موضع رفع على أنه يذهب إلى أنه يجوز: «جاء إخوتك إلا زيد»، وهذا عند البصريين باطل لأن المعنى: عند هذا القائل: جاء إخوتك وزيد. كأنه يعطف بها كما يعطف بـ«لا»، ويجوز عند البصريين: «جاء الرجال إلا زيد» على معنى: جاء الرجال غير زيد، على أن تكون صفة للنكرة أو ما قارب النكرة من الآجناس.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾؛ أي: محرمون. واحد «الْحُرُم»: «حَرام»، يقال: «رجل حَرامٌ وقوم حُرُم»، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

فقلتُ لها فيئي إليك فَإنَّني حَرامٌ وإنّي بعدَ ذاكَ لبيبُ[2]

أي: ملب.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾؛ أي: الخلق له وجل، يحل منه ما يشاء لمن يشاء، ويحرم ما يريد.

وقوله -عز وجل-:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلاَ الهَدْيَ وَلاَ القَلائِدَ﴾.

الشعائر: واحدتها شعيرة، و معناه ما أشعر أي: أعلم ليهدى إلى بيت الله الحرام. وقال قوم: «شعائر الله» يعنى به جميع متعبدات الله التي أشعرها الله، أي: جعلها أعلاماً لنا.

﴿وَلاَ الهَدْيَ﴾؛ الهدي: واحدته «هدية»، مثل: «جَدِية وجَدْيَ» يعني حدبة السرج.

---

(١) هو: عقبة الطويل.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٣١/٦)، وزاد المسير (٢٦٩/٢)، وسر صناعة الإعراب (٧٤٤/٢)، ولسان العرب (٧٢٩/١).

و﴿الْقَلاَئِدَ﴾؛ كانوا يقلدون بلحاء الشجر ويعتصمون بذلك وهذا كله كان للمشركين، وكان قد أمر المسلمون بأن لا يحلوا هذه الأشياء التي يتقرب بها المشركون إلى الله وكذلك ﴿وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ وهذا كله منسوخ، وكذلك ﴿وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، وهو: «المحرم»، لأن القتال كان مرفوعاً فيه، فنسخ جميع ذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة: ٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾؛ هذا اللفظ أمر ومعناه الإباحة، لأن الله -عز وجل- حرم الصيد على المحرم، وأباحه إذا حل من إحرامه، ليس أنه واجب عليه إذا حل أن يصطاد، ومثله قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[الجمعة: ١٠]، تأويله: أنه أبيح لكم بعد الفراغ من الصلاة، و مثل ذلك في الكلام: «لا تدخلن هذه الدار حتى تؤدي ثمنها، فإذا أديت فأدخلها»، تأويله: فإذا أديت فقد أبيح لك دخولها.

وقوله: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾؛ أي: لا يحملنكم بغض قوم، يقال: «شَنَئْتُه شَنَآناً»؛ معناه: أبغضته إبغاضاً، والشنآن: مصدر مثل: «غلى غلياناً»، و«نزا نزواناً».

فالمعنى: لا يكسبنكم بغض قوم أن تعتدوا.

وموضع «أن» نصب، أي: تعتدوا لأن صدوكم عن المسجد الحرام فموضع «أن» الأولى نصب مفعول له، و موضع «أن» الثانية نصب مفعول به؛ المعنى: لا يكسبنكم بغض قوم أي: بغضكم قوماً الاعتداء بصدهم إياكم عن المسجد الحرام يقال: «فلان جريمة أهله» أي: هوكاسبهم.

وقيل في التفسير: لا يحملنكم بغض قوم، والمعنى واحد، وقال الأخفش: لا يَجْنِفَنَّكُم بغض قوم. وهذه مختلفة والمعنى: واحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾؛ وهذا كله منسوخ إلا التعاون من المسلمين على البر.

وقوله -عز وجل-: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾؛ أصله: «الميّتة» بالتشديد، إلا أنه مخفف، ولو قرئت «الميّتة» لجاز، يقال: «مَيْت، ومَيّت»، والمعنى واحد.

وقال بعضهم: «الميّت» يقال لما لم يمت، و«الميْت» لما قد مات، وهذا خطأ إنما مَيّت يصلح لما قد مات، ولما سيموت، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: ٣٠].

وقال الشاعر في تصديق أن الميّت والميْت بمعنى واحد[1] [من الخفيف]:

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاستراحَ بِمَيْتٍ إنَّمَا المَيْتُ مَيّتُ الأحياءِ [2]

فجعل «المَيْتُ» مخففاً من «الْمَيّت».

وقوله: ﴿وَالدَّمُ﴾؛ قيل: إنهم كانوا يجعلون الدم في المباعر ويشوونها ويأكلونها، فأعلم الله -عز وجل- أن الدم المسفوح، أي: المصبوب حرام، فأما المتلطخ بالدم فهو كاللحم في الحل.

وقوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾؛ موضعه رفع.

والمعنى: وحرم عليكم ما أهل لغير الله به، ومعنى ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ ذكر عليه اسم غير الله، وقد فسرنا أن «الإهلال» رفع الصوت بالشيء فَمَا يتقرب به من الذبح لغير الله، أو ذكر غير اسمه فحرام، ﴿وَلَحْمُ الخِنزِيرِ﴾ حرام، حرم الله أكله، وملكه، والخنزير يشمل على الذكر والأنثى.

وقوله: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾؛ وهي التي تنخنق بربقتها أي: بالحبل الذي تشك به، وبأي جهة اختنقت فهي حرام.

وقوله: ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾؛ وهي التي تقتل ضرباً، يقال: «وَقَذْتُها أَوْقِذُها وَقْذا وأَوْقَذْتُهَا أَوقِذُها إِيقَاذَا»، إذا أثخنتها ضرباً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾؛ وهي التي تنطح أو تنطح فتموت.

وقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾؛ موضع «ما» أيضاً رفع عطف على ما قبلها.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾؛ أي: إلا ما أدركتم من هذه التي وصفنا، وموضع «ما» نصب أي: حرمت عليكم هذه الأشياء إلا الشيء الذي أدرك ذبحة منها، وكل ذبح ذكاة.

ومعنى التذكية: أن يدركها وفيها بقية تشخب معها الأوداج، وتضطرب اضطراب المذبوح الذي أدركت ذكاته، وأهل العلم يقولون: إن أخرج السبع الحشوة، أو قطع

---

(١) هو: عدي بن الرعلاء.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/٨٨)، وتفسير القرطبي (٢/٢١٠)، وفتح القدير (٤/٤٨٣)، وروح المعاني (٥/ ٩٨)، وزاد المسير (١/٣٧٠)، ومفردات القرآن (١/٣٨٠)، والأغاني (١٠/٣٠٨)، والبيان والتبيين (١/٧٨)، وقرى الضيف (٢/١٠٥)، ولسان العرب (٢/٩٠)، وتاج العروس (١/١١٧٩).

الجوف قطعاً خرج معه الحشوة فلا ذكاة لذلك، وتأويله: أنه يصير في حالة ما لا يؤثر في حياته الذبح.

وأصل الذكاء في اللغة كلها: تمام الشيء، فمن ذلك الذكاء في السن والفهم، وهو تمام السن، قال الخليل: الذكاء في السِّن أن تأتي على قُرُوحه سَنَة، وذلك تمام استكمال القوة قال زهير [من الوافر]:

يُفَضِّلُهُ إِذا اجتَهَدا عَلَيهِ تَمامُ السِنِّ مِنهُ وَالذَّكاءُ[1]

وقيل: جريء المذكيات غلاب أي: جرى المسان التي قد تأسنت..

وتأويل تمام السن: النهاية في الشباب فإذا نقص عن ذلك أو زاد فلا لها الذكاء.

والذكاء في الفهم: أن يكون فهماً تاماً سريع القبول، وذكيت النار إنما هو من هذا، تأويله: أتممت إشعالها.

﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾؛ ما أذكيتم ذبحة على التمام.

وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾؛ والنصب الحجارة التي كانوا يعبدونها، وهي الأوثان واحدها: «نصاب»، وجائز أن يكون واحداً، وجمعه أنصاب.

وقوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ﴾؛ موضع «أن» رفع.

والمعنى: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. وواحد «الأزلام: زَلَم، وزُلَم».

وهي سهام كانت في الجاهلية مكتوب على بعضها «أمرني ربي» وعلى بعضها: «نهاني ربي» فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به اهتماماً شديداً ضرب تلك القداح، فإن خرج السهم الذي عليه «أمرني ربي» مضى لحاجته، وإن خرج الذي عليه «نهاني ربي» لم يمض في أمرة، فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك حرام، ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجمين: «لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج من أجل طلوع نجم كذا»، لأن الله -جل وعز- قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً﴾[لقمان: ٣٤].

وروي عن النبي ﷺ: «خمس لا يعلمهن إلا الله» وذكر الآية التي في آخر سورة لقمان ﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان: ٣٤].

---

(١) انظر: معاني القرآن (٢/٢٥٨)، ولسان العرب (١٤/٢٨٧)، وتاج العروس (١/٨٣٩٢).

وهذا هو دخول في علم الله الذي هو غيب، وهو حرام كالأزلام التي ذكرها الله -جل وعز- أنها حرام.

والاستقسام بالأزلام فسق. «والفسق»: اسم لكل ما أعلم الله أنه مخرج عن الحلال إلى الحرام، فقد ذم الله به جميع الخارجين من متعبداته وأصله عند أهل اللغة: قد فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها.

ولو كان بعض هذه المرفوعات نصباً على المعنى: لجاز في غير القرآن. لو قلت: «حرمت على الناس الميتة والدم ولحم الخنزير»، وتحمله على معنى: وحرم الله الدم ولحم الخنزير لجاز ذلك، فأما القرآن فخطأ فيه أن نقرأ بما لم يقرأ به من هو قُدْوةٌ في القراءة، لأن القراءة سنة لا تتجاوز.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾؛ «اليوم» منصوب على الظرف، وليس يراد به -والله أعلم- يوماً بعينه.

معناه: الآن ييئس الذين كفروا من دينكم، وهذا كما تقول: «أنا اليوم قد كبرت». وهذا الشأن لا يصلح في اليوم. تريد أنا الآن، وفي هذا الزمان ومعناه: أن قد حوَّل الله الخوف الذي كاد يلحقكم منهم اليوم ويئسوا من بطلان الإسلام وجاءكم ما كنتم توعدون من قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣].

والدين: اسم لجميع ما تعبد الله خلقه، وأمرهم بالإقامة عليه، والذي به يجزون، والذي أمرهم أن يكون عادتهم. وقد بيناً ذلك في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة: ٤].

وقوله: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾؛ أي: فليكن خوفكم لله وحده، فقد أمنتم أن يظهر دين على الإسلام وكذلك -والله أعلم-.

قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ أي: الآن أكملت لكم الدين بأن كفيتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم، كما تقول: الآن كمل لنا الملك وكمل لنا ما نريد، بأن كفينا من كنا نخافه.

وقد قيل: أيضاً: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: أكملت لكم فرض ما تحتاجون إليه في دينكم. وذلك جائز حسن، فأما أن يكون دين الله في وقت من الأوقات غير كامل فلا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾؛ أي: فمن دعته الضرورة في مجاعة، لأن المخمصة شدة ضمور البطن.

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾؛ أي: غير مائل إلى إثم.

﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فإن الله أباح ذلك رحمة منه وتسهيلاً على خلقه، وكذلك ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾[البقرة: ١٧٣]، أي: غير آكل لها على جهة الاستحلال ولا عاد: أي: مجاوز لقدر الحاجة، وغير آكل لها على جهة التلذذ فإن الله غفور رحيم.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾؛ موضع «ما» رفع، إن شئت جعلتها وحدها اسماً، ويكون خبرها قوله: «ذا». ويكون ﴿أُحِلَّ﴾ من صلة «ما».

والتأويل: يسألونك أي: شيء أحل لهم، وجائز أن تكون «ما»، و«ذا»، اسماً واحداً، وهي أيضاً رفع بالابتداء والتأويل على هذا: يسألونك أي: شيء أحل لهم، و ﴿أُحِلَّ لَهُمْ﴾ خبر الابتداء.

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِنَ الجَوَارِحِ﴾؛ فالطيبات كل شيء لم يأت تحريمه في كتاب ولا سنة، والكلام يدل على أنهم سألوا عن الصيد فيما سألوا عنه، ولكن حذف ذكر صيد «ما علمتم» لأن في الكلام دليلاً عليه، كما قال: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢] والمعنى: واسأل أهل القرية.

وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾؛ أي: في هذه الحال يقال: «رجل مُكَلِّب، وكَلاَّب»، أي: صاحب صيد بالكلاب، وفي هذا دليل أن لحم صيد الكلب الذي لم يعلم حرام إذا لم تدرك ذكاته، فإذا أرسل المرسل كلب الصيد فصاد فقتل صيده، وقد ذكر الصائد اسم الله على الصيد فهو حلال بلا اختلاف بين الناس في ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾؛ فاختلف الفقهاء فيه إذا أكل من الصيد، فقال بعضهم: يؤكل منه وإن أكل منه.

وكل ذلك في اللغة غير ممتنع لأنه قد يمسك الصيد إذا قتله ولم يأكل منه، وقد يمسك وقد أكل منه.

ومعنى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾؛ أي: تؤدبونهن أن يمسكن الصيد عليكم، فإن غاب الصيد فمات فإنه غير ممسك.

وفي الحديث: «كل ما أصميت ولا تأكل ما أنميت». ومعنى: «كل ما أصميت» أي: إن صدت صيداً بكلب أو غيره فمات وأنت تراه مات بصيدك فهو ما أصميت، وأصل الصميات في اللغة: السرعة والخفية.

فالمعنى: كل ما أصميت أي: ما قتلته بصيدك وأنت تراه أسرع في الموت، فرأيته

وعلمت -لا محالة- أنه مات بصيدك، ومعنى: «ما أنميت»، أي: ما غاب عنك فمات ولم تره، فلست تدري أمات بصيدك أم عرض له عارض آخر فقتله، يقال: «نَمَتِ الرمية» إذا مضت والسهم فيها، و«أَنْمَيت الرمية» إذا رميتها فمضت والسهم فيها، قال أمرؤ القيس [من الرمل]:

فَهوَ لا تَنمى رَمِيَّتهُ مالُهُ لا عُدَّ مِن نَفَرِه[1]

وقال الحرث بن وعلة الشيباني:

قَالَتْ سُلَيْمَى قَدْ غَنيتَ فتىً فَالآنَ لاَ تَصِمِي وَلاَ تَنْمِي

وقوله -جل وعز-: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾؛ أي: ذبائح أهل الكتاب حل لكم، قد أجمع المسلمون على أن ذبائح أهل الكتاب حلال للمسلمين، واختلفوا فيما سواها من الأطعمة، والذبائح هي من الأطعمة، فالظاهر -والله أعلم- أن جميع طعامهم حلال كالذبائح.

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾؛ تأويله: حل لكم أن تطعموهم، لأن الحلال والحرام والفرائض بعد عقد التوحيد، إنما يعقد على أهل الشريعة والملة، فأما الكفار فالواجب فيهم القتل إلا من أدى الجزية من أهل الكتاب.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: وأحل لكم المحصنات وهن العفائف وقيل: الحرائر، والكتاب يدل على أن الأمة إذا كانت غير مؤمنة لم يجز التزويج بها، لقوله: ﴿وَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِن فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾[النساء: ٢٥].

﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: إذا أعطيتموهن الأجر على جهة التزويج لا على جهة السفاح وهو الزنا.

وقوله: ﴿وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾؛ وهن الصديقات والأصدقاء، فحرم الله -عز وجل- الجماع على جهة السفاح، أوعلى جهة اتخاذ الصديقة، وأحلة على جهة الإحصان، وهو التزويج، على ما عليه جماعة العلماء.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٦٤)، ومجمع الأمثال (٢/٢٨٠)، والفائق (٢/٣١٥).

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾؛ أي: من بدل شيئاً مما أحل الله فجعله حراماً، أو أحل شيئاً مما حرم الله فهوكافر بإجماع، وقد حبط عمله أي: حبط جميع ما تقرب به إلى الله -جل ثناؤه-، ومن غير ذلك.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾؛ المعنى: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وإنما جاز لأن في الكلام والاستعمال دليلاً على معنى الإرادة، مثل ذلك قول الله -عز وجل- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[النحل: ٩٨]؛ المعنى: إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾؛ القراءة بالنصب، وقد قرئت بالخفض، وكلا الوجهين جائز في العربية فمن قرأ بالنصب؛ فالمعنى: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير والواو جائز فيها ذلك كما قال -جل وعز-: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣]؛ والمعنى: واركعي واسجدي لأن الركوع قبل السجود.

ومن قرأ: «وأرجلِكُم» بالجر عطف على الرؤوس. وقال بعضهم: نزل جبريل بالمسح، والسنة في الغسل، وقال بعض أهل اللغة هو جر على الجوار، فأما الخفض على الجوار فلا يكون في كلمات الله، ولكن المسح على هذا التحديد في القرآن كالغسل لأن قوله: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ﴾، فذكر الحد في الغسل لليد إلى المرافق، ولليد من أطراف الأصابع إلى الكف، ففرض علينا أن نغسل بعض اليد من أطراف الأصابع إلى المرفق، فالمرفق منقطع مما لا يغسل ودخل فيما يُغْسل.

وقد قال بعض أهل اللغة؛ معناه: مع المرافق، واليد المرفق داخل فيها، فلو كان اغسلوا أيديكم مع المرفق، لم تكن في المرافق فائدة وكانت اليد كلها يجب أن تغسل، ولكنه لما قيل: «إلى المرافق» اقتطعت في الغسل من حد المرفق.

والمرفق في في اللغة: ما جاوز الأبره، وهو المكان الذي يرتفق به، أي: يتكأ عليه على المرفقة وغيرها. فالمرافق: حد ما ينتهي إليه في الغسل منها، وليس يحتاج إلى تأويل «مع».

ولما حَدَّ في الرِّجل إلى الكعبين، والرِّجل: من أصل الفخذ إلى القدم علم أن الغُسل من أطراف الأصابع إلى الكعبين، والكعبان: هما العظمان الناتئان في آخر الساق مع القدم، وكل مفصل من العظام فهو كعب، إلا أن هذين الكعبين ظاهران عن يَمْنَة فوق

القدم ويسرته، فلذلك لم يحتج إلى أن يقال: الكعبان اللذان صفتهما كذا وكذا.

فالدليل على أن الغسل هو الواجب في الرجل، والدليل على أن المسح على الرجل لا يجوز هو تحديد إلى الكعبين كما جاء في تحديد اليد إلى المرافق، ولم يجئ في شيء في المسح تحديد، قال: «فامسحوا برؤوسكم» بغير تحديد في القرآن وكذلك قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾. ويجوز «وأرجُلِكم» بالجر على معنى: واغسلوا، لأن قوله: ﴿إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾ قد دل على ذلك كما وصفنا، وينسق بالغسل على المسح كما قال الشاعر[1] [مجزوء الكامل]:

يَا لَيتَ زَوجَكِ قَد غَدا مُتَقَلِّداً سَيفَاً وَرُمحا[2]

المعنى: متقلداً سيفاً وحاملاً رمحاً، وكذلك قال الآخر[3] [الرجز]:

* عَلَفتُها تِبناً وَماءً بارِدا[4]*

المعنى: وسقيتها ماء بارداً.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾؛ يقال للواحد: «رجل جنب»، «ورجلان جنب، وقوم جنب وامرأة جنب»، كما يقال: «رجل رضى وقوم رضى» وإنما هو على تأويل ذووا جنب، لأنه مصدر، والمصدر يقوم مقام ما أضيف إليه، ومن العرب من يثني ويجمع ويجعل المصدر بمنزلة اسم الفاعل، وإذا جمع جنب، قلت في الرجال: «جنبون»، وفي النساء: «جنبات»، وللاثنين: «جنبان».

وقوله: ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾؛ معناه: فتطهروا، إلا أن التاء تدغم في الطاء لأنهما من مكان

---

(١) هو: عبد الله بن الزعبرى.

(٢) انظر: الخصائص (٢/٤٣١)، والواو المزيدة (ص: ٢٠٢)، ولسان العرب (٢/٢٨٥)، وتاج العروس (١/ ٢٢١٩).

(٣) هو : ذو الرمة.

(٤) انظر: تفسير الطبري (١/١٤٤)، وتفسير ابن كثير (١/٧٤)، وتفسير القرطبي (١/٢٣٢)، وفتح القدير (١/ ٦٣)، وتفسير البيضاوي (١/-٢٤)، وتفسير أبي السعود (٢/٢٦٣)، وتفسير النسفي (٢/١٤)، وروح المعاني (٧/١٢)، والكشاف (١/٣٩٧)، وأوضح المسالك (٢/٢٤٥)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٣١٣)، والخصائص (٢/٤٣١)، والواو المزيدة (١/٢٠٢)، وشرح ابن عقيل (٢/٢٠٧)، وشرح شذور الذهب (١/ ٣١٢)، ومغني اللبيب (١/٨٢٨)، وخزانة الأدب (٢/٢٧٥)، ولسان العرب (٢/٢٨٥)، وتاج العروس (١/ ٦٠٣٥).

واحد، وهما مع الدال من طرف اللسان، وأصول الثنايا العليا، فإذا أدغمت التاء في الطاء. وسقط أول الكلمة فزيد فيها ألف الوصل، فابتدأت فقلت اطهروا.

وبين -عز وجل- ما طهارة الجنب في سورة النساء بالغسل فقال: ﴿وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾[النساء: ٤٣].

والغائط: كناية عن مكان الحدث، والغيطان: ما انخفض من الأرض.

وقوله: -عز وجل-: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾؛ أي: اقصدوا، وقد بينا الصعيد في سورة النساء.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِن حَرَجٍ﴾؛ أي: من ضيق.

﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾؛ واللام دخلت لتبين الإرادة؛ المعنى: إرادته ليطهركم، قال الشاعر(١) [من الطويل]:

أُريدُ لأَنسى ذِكرَها فَكَأَنَّما   تَمَثَّلُ لي لَيلى بِكُلِّ سَبيلِ(٢)

وقوله -عز وجل-: ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل.

﴿شُهَدَاءَ﴾؛ أي: مبينين عن دين الله، لأن الشاهد يبين ما شهد عليه.

وقوله: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾؛ «فشنآن قوم»؛ معناه: بغض قوم أي: لا يحملنكم بغضكم المشركين على ترك العدل. ومن قال: «شنآن قوم»، فمعناه بغض قوم، ويقال: «أجرمني كذا وكذا، وجرمني، وجرمني، وأجرمت» بمعنى واحد، وقد قيل: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يدخلنكم في الجرم كما تقول أثمته أي: «أدخلته في الإثم».

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ هذا تمام الكلام، يقال: «وعدت الرجل» تريد وعدته خيراً، و«أوعدت الرجل» تريد أوعدته شراً، وإذا ذكرت الموعود قلت فيهما جميعاً: «واعدته». وإذا لم تذكر الموعود قلت في الخير: «وعدته»، وفي الشر: «أوعدته»، فقال -عز وجل-: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فدل على الخير.

ثم بين ذلك الخير فقال: ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾؛ أي: تغطية على ذنوبهم.

---

(١) هو: كثير عزة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤٣/٥)، وفتح القدير (٦٨١/١)، وروح المعاني (١٩٥/٢٧)، ومعاني القرآن (٤/ ٣٩٥)، وكتاب اللامات (١٣٨/١)، ومغني اللبيب (٢٨٥/١)، والأغاني (٢٦٢/٤)، ولسان العرب (١٨٧/٣).

﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ جزاء على إيمانهم.

وقوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

يروى في التفسير: أن بني قريظة وبني النضير كانوا عاهدوا النبي ﷺ ترك القتال وعلى أن يعينهم في دياتهم ويعينوه في ديات المسلمين، فأصيب رجلان من المسلمين فقال النبي ﷺ في دياتهما، فوعدوه لوقت يصير إليهم فيه، فصار النبي هو وأبو بكر وعمر وعلي، فلما صاروا إليهم هموا بالغدر وأن يقتلوا النبي ﷺ ومن معه، فأوحى الله إليه وأعلمه ما عزموا عليه، فخرجوا من المكان الذي كانوا فيه، فأعلمهم اليهود أن قدورهم تغلي، فأعلمهم ﷺ أنه قد نزل عليه الوحي بما عزموا عليه، وهذا من الآيات التي تدل على نبوته.

وقيل إن هذا مردود على قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾[المائدة: ٣] أي: قد أعطيتم الظفر عليهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.

وكلا الوجهين -والله أعلم- جائز، لأن الله -جل ثناؤه- قد أظهر الإسلام على سائر الأديان.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: أخذ الله منهم الميثاق على توحيده والإيمان برسله.

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾؛ النقيب: في اللغة: كالأمير، والكفيل، ونحن نبين حقيقته واشتقاقه إن شاء الله.

يقال: «نَقَب الرجل على القوم يَنْقُب» إذا صار نقيباً عليهم، «وما كان الرجل نَقِيبَاً، ولقد نَقُب»، «وصناعته النِّقَابة» وكذلك: «عَرَفَ عليهم» إذا صار عَرِيفاً، «ولقد عَرُفَ»، ويقال لأول ما يبدو من الجرب: «النُّقْبة»، ويجمع: «النُّقُب»، قال الشاعر[1] [من الكامل]:

مُتَبَذِّلاً تَبدو مَحاسِنُهُ يَضَعُ الهِناءَ مَواضِعَ النُقبِ[2]

و «النُّقْبَة» وجمعها: «نُقَب» سراويل تلبسه المرأة بلا رجلين، ويقال: «فلانة حسنة

---

(١) هو: دريد بن الصمة.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/٥٨٣)، وزاد المسير (٢/٣١١)، وإصلاح المنطق (١/١٢٧)، والأغاني (١٥/٧٣)، والبيان والتبيين (١/٧١)، وكتاب جمهرة الأمثال (٢/١٨٨)، ولسان العرب (١/٧٦٥)، وتاج العروس (١/٩٨١).

النُّقْبَة والنِّقَاب»، ويقال: «في فلان مَنَاقب جميلة»، وهو أن تنقب حنجرة الكلب لئلا يرتفع صوته في نباحه، وإنما يفعل ذلك البخلاء من العرب لئلا يطرقهم ضيف بسماع نباح الكلاب.

وهذا الباب كله يجمعه التأثير الذي له عمق ودخول، فمن ذلك: «نَقَبت الحائط»، أي: بلغت في الثقب آخره، ومن ذلك النُّقْبَة من الجرب لأنه داء شديد الدخول، والدليل على ذلك أن البعير يطلى بالْهَنَاء فيوجد طعم القطران في لحمه، و«النُّقْبَة» هذه السراويل التي لا رجلين لها، قد بولغ في فتحها ونقبها، و«نقاب المرأة» وهو ما ظهر من تَلَثُّمِها من العينين والمحاجر، و«النَّقْبُ والنُّقَبُ»، وهو الطريق إلى معرفة أمورهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾؛ قال أبوعبيدة: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ عظمتموهم. قال غيره: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: نصرتموهم. وهذا هو الحق -والله أعلم- وذلك أن العزر في اللغة: الرد، وتأويل: «عزرت فلاناً» أي: أدبته فعلت به ما يردعه عن القبيح كما أن نكلت به، فعلت به ما يجب أن ينكل معه عن المعاودة، فتأويل ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ نصرتموهم بأن تردوا عنهم أعداءهم.

وقال الله -عز وجل- ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح: ٩] فلو كان التعزير هو التوقير لكان الأجود في اللغة: الاستعانة والنصرة إذا وجبت، فالتعظيم داخل فيها، لأن نصرة الأنبياء هي المدافعة عنهم والذب عن دمهم وتعظيمهم وتوقيرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: فقد ضل قصد السبيل.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾؛ «ما» لغو.

المعنى: فبنقضهم ميثاقهم، ومعنى «ما» الملغاة في العمل توكيد القصة.

﴿لَعَنَّاهُمْ﴾؛ أي: باعدناهم من الرحمة، وجعلنا قلوبهم قاسية أي: يابسة، يقال للرجل الرحيم: «لين القلب»، وللرجل غير الرحيم: «قاسي القلب ويابس القلب»، والقاسي في اللغة والقاسح -بالحاء-: الشديد الصلابة.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ﴾؛ ﴿الكَلِمَ﴾ جمع كلمة، وتأويل ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: يغيرونه على غير ما أنزل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَسُوا حَظاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾؛ معنى «نسوا»: تركوا نصيباً مما ذكروا به.

وقوله: ﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾؛ «خائنة» في معنى خيانة.

المعنى: لا تزال تطلع على خيانة منهم، وفاعلة في أسماء المصادر كثيرة، نحو: «عافاه الله عافية»، وقوله: ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾[الحاقة: ٥]، وقد يقال: «رجل خائنة»، قال الشاعر:

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بالوَفاءِ ولم تكُنْ للغَدْرِ خائِنَةً مُغِلَّ الإِصْبَعِ[1]

قال: «خائنة» على المبالغة لأنه يخاطب رجلاً، يقول: لا تحملن فتغلل أصبعك في المتاع فتدخلها للخيانة، ومغل يدك من خائنة، ويجوز أن يكون -والله أعلم- «على خائنة» أن على فِرْقَة خائنة.

وقوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾؛ منصوب بالاستثناء.

وقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ يعنى به النصاري، ويعني بقوله: «أغرينا» الصقنا بهم ذلك.

يقال: «غَرَيت بالرجل غريً» مقصور؛ إذا لصقت به، وهذا قول الأصمعي، وقال غير الأصمعي: غَرَيت به غِرَاء، وهو الغِرَاء الذي يُغَرِّي إنما تلصق به الأشياء.

وتأويل ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أنهم صاروا فرقاً يكفر بعضهم بعضاً، منهم النسطورية، واليعقوبية والملكانية، وهم الروم، فكل فرقة منهم تعادي الأخرى.

وقوله -جل وعز-: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِن اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾؛ النور هو محمد ﷺ والهدى أو النور هو الذي يبين الأشياء، ويُري الأبصار حقيقتها، فمثل ما أتى به النبي ﷺ في القلوب في بيانه وكشفه الظلمات كمثل النور.

﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾؛ ورضوانه بالكسر والضم.

﴿سُبُلَ السَّلامِ﴾ جميع سبيل، والسبل: الطرق، فجائز أن يكون -والله أعلم- طرق السلام أي: طرق السلامة التي من ملكها سلم في دينه، وجائز أن يكون -والله أعلم- ﴿سُبُلَ السَّلامِ﴾، طرق الله، والسلام اسم من أسماء الله.

وقوله: ﴿عَلَى فَتْرَةٍ مِن الرُّسُلِ﴾؛ أي: على انقطاع، لأن النبي ﷺ بعث بعد انقطاع الرسل لأن الرسل كانت إلى وقت رفع عيسى تترى، أي: متواترة، يجيء بعضها في أثر بعض.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾؛ قال بعضهم: معناه: أن لا تقولوا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/٤٩٥)، وتفسير القرطبي (٦/١١٢)، والكشاف (١/٣٠٨)، وإصلاح المنطق (١/ ٢٦٦)، ولسان العرب (٨/١٩٢)، وتاج العروس (١/٧٣٨٢).

ما جاءنا من بشير، أي: بعث الله النبي ﷺ لئلا تقولوا ما جاءنا من بشير، ومثله قوله -عز وجل-: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[النساء: ١٧٦]؛ معناه: أن لا تضلوا، وقال بعضهم: أن تقولوا؛ معناه: كراهة أن تقولوا، وحذفت كراهة، كما قال -جل وعز-: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]؛ معناه: سل أهل القرية، وقد استقصينا شرح هذا في آخر سورة النساء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلَكُم مُلُوكاً﴾.

مثل جعلكم تملكون أمركم لا يغلبكم عليه غالب. وقال بعضهم: جعلكم ذوي منازل لا يدخل عليكم فيها إلا بإذن، والمعنى: راجع إلى ملك الأمر.

وقوله: ﴿وَآتَاكُم مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِن العَالَمِينَ﴾؛ وهو أن الله -جل وعز- أنزل عليهم المن والسلوى، وظلل عليهم الغمام.

وقوله: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾.

المقدسة: المطهرة، وقيل في التفسير دمشق، وفلسطين، وبعض الأردن وبيت المقدس، وإنما سمي «بالمقدس» لأن المقدس: المكان الذي يتطهر فيه. فتأويله البيت الذي يطهر الإنسان من العيوب، ومن هذا قيل:

القدس، أي: الذي يتطهر منه، كما قيل: مطهرة لما يتوضأ منه، إنما هي مفعلة من الطهر.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾؛ تأويل «الجبار من الآدميين»: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد، والله -عز وجل- الجبار العزيز، وهو الممتنع من أن يزل، والله -عز وجل- يأمر بما أراد، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

وإنما وصفوهم بالقدرة والتكبر، والمنعة.

و﴿قَوْماً﴾ منصوب بـ«إن»، و﴿جَبَّارِينَ﴾ من صفتهم، والخبر قوله: ﴿فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾؛ أي: أنعم الله عليهما بالإيمان.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ﴾؛ فكأنهما علما أن ذلك إذا دخل منه وقع الغلب.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا﴾؛ أي: لسنا نقبل مشورة في دخولها، ولا أمراً، وفيها هؤلاء الجبارون، فأعلم الله -جل ثناؤه- أن أهل الكتاب هؤلاء

غير قابلين من الأنبياء قبل النبي ﷺ، وأن الخلاف شأنهم.

وفي هذا الإعلام دليل على تصحيح نبوة النبي ﷺ لأنه أعلمهم ما لا يعلم إلا من قراءة كتاب أو إخبار، أو وحي، والنبي ﷺ منشؤه معروف بالخلو من ذكر أقاصيص بني إسرائيل، وبحيث لا يقرأ كتبهم، فلم يبق في علم ذلك إلا الوحي.

وقوله: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾؛ كلام العرب: «اذهب أنت وزيد»، والنحويون يستقبحون: «اذهب وزيد»، لأنه لا يعطف بالاسم الظاهر على المضمر، والمضمر في النية لا علامة له، فكان الاسم يصير معطوفاً على ما هو متصل بالفعل غير مفارق له.

فأما قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾[يونس: ٧١] فمن رفع فإنما يجوز ذلك لأن المفعول يقوي الكلام، وكذلك: «ضربت زيداً وعمرو» كما يقوي الكلام دخول «لا»، قال الله -جل ثناؤه-:﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾[الأنعام: ١٤٨].

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾؛ «أخي» في موضع رفع، وجائز أن يكون في موضع نصب.

المعنى: قال ربي إني لا أملك إلا نفسي، وأخي أيضاً لا يملك إلا نفسه، ورفعه جهتين؛ إحداهما: أن يكون نسقاً على موضع إني؛ المعنى: أنا لا أملك إلا نفسي وأخي كذلك، ومثله قوله: ﴿أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ وجائز أن يكون عطفاً على «ما» في قوله: ﴿أَمْلِكُ﴾؛ فالمعنى: أنا لا أملك أنا وأخي إلا أنفسنا.

وجائز أن يكون «أخي» في موضع نصب من جهتين؛ إحداهما: أن يكون نسقاً على الياء في «إني»؛ المعنى: إني وأخي لا نملك إلا أنفسنا، وإني لا أملك إلا نفسي، وإن أخي لا يملك إلا نفسه.

وجائز أن يكون معطوفاً على نفسي، وأن أخي لا يملك إلا نفسه، وجائز أن يكون معطوفاً على نفسي، فيكون المعنى: لا أملك إلا نفسي، ولا أملك إلا أخي، لأن أخاه إذا كان مطيعاً له فهو ملك طاعته.

وقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾؛ لا يصرف ﴿أَنْبِيَاءَ﴾ لأنه مبني على ألف التأنيث، وهو غير مصروف في المعرفة والنكرة لأن فيه علامة التأنيث، وهي مع أنها علامة التأنيث مبنية مع الاسم على غير خروج التأنيث عن التذكير نحو: «قائم، وقائمة».

وقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ يعني أن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها أي: هم ممنوعون من ذلك، قال بعض النحويين: ﴿أَرْبَعِينَ

سَنَةً﴾ يجوز أن تكون منصوبة بقوله: ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، ويجوز أن يكون منصوباً بقوله ﴿يَتِيهُونَ﴾، أما نصبه بمحرمة فخطأ، لأن التفسير جاء بأنها محرمة عليهم أبداً. فنصب ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ بقولهم ﴿يَتِيهُونَ﴾.

وقيل: عذبهم الله بأن مكثوا في التيه أربعين سنة سيارة لا يقرهم قرار إلى أن مات البالغون الذين عصوا الله ونشأ الصغار وولد من لم يدخل في جملتهم في المعصية.

وقيل: إن موسى وهارون كانا معهم في التيه.

قال بعضهم: لم يكن موسى وهارون في التيه لأن التيه عذاب، والأنبياء لا يعذبون. وجائز أن يكون كانا في التيه وأن الله -جل اسمه- سهل عليهما ذلك كما سهل على إبراهيم النار فجعلها عليه برداً وسلاماً وشأنها الإحراق.

وقوله: ﴿فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾؛ جائز أن يكون هذا خطاباً لموسى، وجائز أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ أي: لا تحزن على قوم لم يزيل شانهم المعاصي ومخالفة الرسل.

وقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً﴾؛ قيل: كانا رجلين من بني إسرائيل، لأن القربان كان تأكله النار في زمن بني إسرائيل، ومثل ذلك قوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[آل عمران: ١٨٣].

وقيل: ابنا آدم لصلبه، أحدهما هابيل والآخر قابيل، فقربا قربانا.

﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾؛ وكان الرجل إذا قرب قرباناً سجد وتنزل النار فتأكل قربانه فذلك علامة قبول القربان، فنزلت النار وأكلت قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل، فحسده قابيل وتوعده بالقتل فقال: ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

المعنى: قال الذي لم يتقبل منه لأقتلنك، وحذف ذكر الذي لم يتقبل منه، لأن في الكلام دليلاً عليه، ومثل ذلك في الكلام: «إذا رأيت الحاكم والمظلوم كنت معه»؛ المعنى: كنت مع المظلوم، ويقال: إن السيف كان ممنوعاً في ذلك الوقت كما كان حين كان النبى ﷺ بمكة، وكما كان ممنوعاً في زمن عيسى، فقال: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ما أنا بمجازيك ولا مقاتلك، ولا قاتلك: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾؛ أي: أن ترجع إلى الله بإثمي وإثمك.

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ معنى ﴿بِإِثْمِي﴾: بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك.

أي: إن قتلتني فإن ذلك جزاء الظالمين.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾؛ تابعته.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ «فعلت» من الطوع. والعرب تقول: «طاع لهذه الظبية أصول هذه الشجرة، وطاع له كذا وكذا» أي: أتاه طوعاً.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾؛ أي: ممن خسر حسناته. وكان حين قتله سلبه ثيابه وتركه عارياً بالأرض القفار.

﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾؛ قال بعضهم: بعث الله غراباً يبحث على غراب آخر ميت.

﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾؛ وقيل بل أكرمه الله بأن بعث غراباً حثا عليه التراب، ليريه كيف يواري.

﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ﴾؛ يقال: «عَجَزت عن الأمر أَعْجَز عَجْزاً ومَعْجِزة ومُعْجِزة».

ما ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ فالوقف عليها في غير القرآن: «يا ويلتا»، والنداء لغير الآدميين نحو: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى العِبَادِ﴾[يس: ٣٠]، و﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[هود: ٧٢]، وقال: «يا ويلتا أعجزت»، فإنما وقع في كلام العرب على تنبيه المخاطبين، وأن الوقت الذي تدعى له هذه الأشياء هو وقتها؛ فالمعنى: يا ويلتا تَعَالِي، فإنه من إبَّانِك، فإنه قد لزمني الويل، وكذلك: «يا عجبا»؛ المعنى: يا أيها العجب هذا وقتك فعلى هذا كلام العرب.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾.

الأجود أن يكون ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يقال: «أَجَلت الشيء أَأْجله أَجَلاً» إذا جنيته قال خوات بن جبير [من الطويل]:

وَأَهلِ خِباءٍ صالحٍ ذاتُ بَينِهِم   قَدِ احتَرَبوا في عاجِلٍ أَنا آجِلُه(١)

أي: أنا جانيه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٤٠/٤)، وتفسير القرطبي (١٣٩/٦)، وزاد المسير (٣٤٠/٢)، والكشاف (٣١٣/١)، وإصلاح المنطق (٩/١)، ولسان العرب (١١/١١)، وتاج العروس (٦٨٣٢/١).

وتأويل الويل في اللغة: قال سيبويه، والويل كلمة تقال عند الهلكة، وقيل: الويل واد في جهنم[١]، وهذا غير خارج من مذاهب أهل اللغة [٢]، لأن من وقع في ذلك فقد وقع في هلكة.

وقوله: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾.

«فساد» معطوف على «نفس»؛ المعنى: بغير فساد، فكأنما قتل الناس جميعاً، أي: المؤمنون كلهم خصماء القاتل، وقد وترهم وتر من قصد لقتلهم جميعاً.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾؛ أي: من استنقذها من غرق أوحرق أوهدم، أ، ما يميت لا محالة، أواستنقذها من ضلالة.

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾؛ أي: أجره على الله أجر من أحياهم أجمعين. وجائز أن يكونه في إسدائه إليهم المعروف بإحيائه أخاهم المؤمن بمنزلة من أحيا كل واحد منهم، فإن قال قائل: فكيف يكون ثوابه ثواب من أحياهم جميعاً، فالجواب في هذا كالجواب في قوله -تعالى-: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام: ١٦٠] فالتأويل: أن الثواب الذي إذا جعل للحسنة كان غاية ما يتمنى يعطى العامل لها عشرة أمثاله.

وقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا﴾؛ موضع «أن» رفع.

المعنى: إنما جزاؤهم القتل أو الصلب أو القطع للأيدي والأرجل من خلاف، لأن القائل إذا قال: إنما جزاؤك دينار؛ فالمعنى: ما جزاؤك إلا دينار.

وقول العلماء إن هذه الآية نزلت في الكفار خاصة.

وروي في التفسير أن أبا برزة الأسلمي كان عاهد النبي ﷺ ألا يعرض لما يريد النبي بسوء، وألا يمنع من ذلك، وأن النبي لا يمنع من يريد أبا برزة، فمر قوم يريدون النبي بأبي برزة، فعرض أصحابه لهم فقتلوا وأخذوا المال فأنرل الله تعالى على نبيه وأتاه جبريل فأعلمه أن الله يأمره أن من أدركه منهم قد قَتَل وأَخَذَ المال قَتَلَه وصَلَبه، ومن قتل ولم

---

(١) روي في ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره»أخرجه أحمد ٧٥/٣؛ والترمذي انظر: عارضة الأحوذي ٢١/١٢ كتاب التفسير، تفسير سورة الأنبياء، وإسناده ضعيف. وقال الترمذي: حديث غريب.

(٢) قال الأصمعي: «ويل»قبح، وقد يستعمل على التحسر. انظر مفردات الراغب «ويل».

يأخذ المال قتله، ومن أخذ المال ولم يقتل قطع يده لأخذه المال وقطع رجله لإخافة السبيل.

وقال بعضهم: المسلمون مخيرون في أمر المشركين، إن شاءوا قتلوهم وصلبوهم أو قطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف، ومعنى: ﴿يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ فيه قولان: قال بعضهم: من قتله فدمه هدر، أي: لا يطالب قاتله بدمه. وقيل: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ أن يقاتلوا حيث توجهوا منها، لا يتركوا فارين. يقال: «نَفَيت الشيء أَنْفِيه نَفْياً ونِفَاية» النُّفاية: ما يطرح ويُنفَى القليل. مثل: «البُراية والنُّحَاتة».

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ يقال: «خَزِي الرجل يَخْزى خِزْياً» [١] إذا افتضح وتحير فضيحة، وقد خزى يخزي خزاية، إذا استحا كأنه يتحير أن يفعل قبيحاً.

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾؛ جائز أن يكون موضع «الذين» رفعاً بالابتداء، وخبره ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ المعنى: غفور رحيم لهم.

المعنى: لكن التائبون من قبل القدرة عليهم، فالله غفور رحيم لهم. وجائز أن يكون ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ موضع «الذين» نصب، فيكون المعنى: جزاؤهم الذي وصفنا إلا التائبين.

ثم قال بعد: ﴿أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله -جل وعز-، جعل التوبة لك، فأدرأوا عنهم الحدود التي وجبت عليهم في كفرهم ليكون ذلك أدعى إلى الدخول في الإسلام، وجعل توبة المؤمنين من الزنا والقتل والسرق لا ترفع عنهم إقامة الحدود عليهم، وتدفع عنهم العذاب في الآخرة، لأن في إقامة الحدود الصلاح للمؤمنين، والحياة، وقال الله -جل ثناؤه-: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[البقرة: ١٧٩].

وقوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾؛ معناه: اطلبوا إليه القربة [٢].

---

(١) يقال: خزي الرجل: لحقه انكسار؛ إما من نفسه؛ وإما من غيره. فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط، ومصدره الخزاية ورجل خزيان، وامرأة خزيى وجمعه خزايا. وفي الحديث: ((اللهم احشرنا غير خزايا ولا نادمين)). انظر: النهاية (٣٠/٢).

وفي حديث مسلم ٤٧/١: ((مرحبا بالوفد غير خزايا ولا الندامى))والذي يلحقه من غيره يقال: هو ضرب من الاستخفاف، ومصدره الخزي. انظر مفردات الراغب ((خزي)).

(٢) الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوصيلة؛ لتضمنها لمعنى الرغبة. قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أي: لعلكم تظفرون بعدوكم، والمفلح: الفائز بما فيه غاية صلاح حاله (١).

وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾؛ اختلف النحويون في تفسير الرفع فيهما.

قال سيبويه وكثير من البصريين: إن هذا وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[النور: ٢]، وقوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾[النساء: ١٦]. هذه الأشياء مرفوعة على معنى: وفيما فرض الله عليكم. ومعنى قولهم هذا: فيما فرض عليكم حكم السارق والسارقة، والزانية والزاني، أو السارق والسارقة فيما فرض الله عليكم. ومعنى قولهم هذا: فيما فرض عليكم حكم السارق والسارقة، وقال سيبويه: الاختيار في هذا النصب في العربية، كما تقول زيداً أضربه، وقال: أبت العامة القراءة إلا بالرفع، -يعني بالعامة الجماعة-.

وقرأ عيسى ابن عمر: ((والسارقَ والسارقةَ فاقطعوا أيديهما))، وكذلك: ((الزانيةَ والزانيَ))، وهذه القراءة وإن كان القارئ بها مقدماً لا أحب أن يقرأ بها، لأن الجماعة أولى بالاتباع، إذ كانت القراءة سنة.

قال أبو إسحاق: ودليلي أن القراءة الجيدة بالرفع في ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾، وفي ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾.

=

مكارم الشريعة، وهي كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله تعالى، ويقال إن التوسل في غير هذا: السرقة، يقال: أخذ فلان إبل فلان توسلا. أي: سرقة. ((وسل)).

(١) والمفلح من ((الفلح)) وهو: الشق، وقيل: الحديد بالحديد يفلح أي: يشق. انظر: المجمل (٣/٧٠٥)، واللسان ((فلح))، والأمثال (ص: ٩٦).

والفلاح: الأكار لذلك، والفلاح: الظفر وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي؛ فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا، وهو البقاء والغنى والعز.

وفلاح أخروي، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل. ولذلك قيل: ((لا عيش إلا عيش الآخرة)) وهذا الحديث عن أنس بن مالك قال: قالت الأنصار يوم الخندق: ((نحن الذين بايعوا محمدا، على الجهاد ما بقينا أبدا))، فأجابهم النبي ﷺ : ((لا عيش إلا عيش الآخرة، فأكرم الأنصار والمهاجرة)) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٧/٩٠)؛ ومسلم برقم : (١٨٠٥)، وأحمد (٣/ ١٧٠). وانظر: مفردات الراغب ((فلح)).

وقال غير سيبويه من البصريين وهو محمد بن يزيد المبرد: أختار أن يكون ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ رفعاً بالابتداء، لأن القصد ليس إلى واحد بعينه، فليس هو مثل قولك: ((زيداً فأضربه))، إنما هو كقولك: ((من سرق فاقطع يده، ومن زنى فاجلده))، وهذا القول هو المختار، وهو مذهب بعض البصريين والكوفيين.

وقيل ((أيديهما)) يعني به أيمانهما. وفي قراءة ابن مسعود: ((والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهم)).

قال بعض النحويين: إنما جعلت تثنية ما في الإنسان منه واحد لأن أكثر أعضائه فيه منه اثنان، فحمل ما كان فيه الواحد على مثل ذلك. قال: لأن للإنسان عينين فإذا ثنيت قلت: ((عيونهما)) فجعلت: ((قلوبكما وظهورهما)) في القرآن، وكذلك أيديهما، وهذا خطأ، إنما ينبغي أن يفصل بين ما في الشيء منه واحد، وبين ما في الشيء منه اثنان.

وقال قوم: إنما فعلنا ذلك للفصل بين ما في الشيء منه واحد وبين ما في الشيء منه اثنان فجعل ما في الشيء منه واحد تثنيته جمعاً نحو قول الله -عز وجل-: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم: ٤].

قال أبو إسحاق: وحقيقة هذا الباب أن كل ما كان في الشيء منه واحد لم يثن، ولفظ به على لفظ الجمع، لأن الإضافة تبينه، فإذا قلت: ((أشبعت بطونهما)) علم أن للاثنين بطنين فقط، وأصل التثنية الجمع لأنك إذا ثنيت الواحد فقد جمعت واحداً إلى واحد، وكان الأصل أن يقال: أثنا رجال، ولكن ((رجلان)) يدل على جنس الشيء وعدده، فالتثنية يحتاج إليها للاختصار، فإذا لم يكن اختصار رد الشيء إلى أصله، وأصله الجمع.

فإذا قلت ((قلوبهما)) فالتثنية في ((هما)) قد أغنتك عن تثنية قلب فصار الاختصار ههنا ترك تثنية ((قلب))، وإن ثنى ما كان في الشيء منه واحد فذلك جائز عند النحويين. قال الشاعر [من الرجز]:

* ظَهراهما مِثلُ ظُهور التُّرْسَيْنْ[(١)] *

فجاء بالتثنية والجمع في بيت واحد. وحكى سيبويه أنه قد يجمع المفرد والذي ليس من شيء إذا أردت به التثنية. وحكي عن العرب: ((وضعا رحالهما)) يريد رحلي راحلتهما.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٦٢)، وتفسير البيضاوي (١/٧٦)، وتفسير أبي السعود (٦/٥٠)، وروح المعاني (١٦/٢٨٢)، والكشاف (١/٧٧٢)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/٢٣٣)، ولسان العرب (٢/٨٩).

وأجمعت الفقهاء أن السارق يقطع حرا كان أو عبداً وأن السارقة تقطع حرة كانت أو أمة، وأجمعوا أن القطع من الرسغ، والرسغ المفصل بين الكف والساعد، ويقال رسغ ورصغ والسنين أجود.

﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾؛ ﴿جَزَاءً﴾ نصب لأنه مفعول به.

المعنى: فاقطعوا بجزاء فعلهم، وكذلك ﴿نَكَالاً مِن اللَّهِ﴾، وإن شئت كانا منصوبين على المصدر الذي دل عليه فاقطعوا، لأن معنى فاقطعوا جازوهم ونكلوا بهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾؛ إن شئت قلت: «يحزُنك ويحزَنك» بالفتح والضم. أي: لا يحزنك مسارعتهم في الكفر إذ كنت موعوداً بالنصر عليهم، والله أعلم.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: لا تحزنك المسارعة في الكفر من المنافقين ومن الذين هادوا، ثم قال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾.

هذا تمام الكلام، ورفع ﴿سَمَّاعُونَ﴾ من جهتين؛ إحداهما: هم سماعون للكذب أي: منافقين، واليهود سماعون للكذب، و﴿سَمَّاعُونَ﴾ فيه وجهان -والله أعلم-؛ أحدهما: أنهم مسمعون للكذب، أي: قابلون للكذب، لأن الإنسان يسمع الحق والباطل، ولكن يقال: لا تسمع من فلان قوله أي: لا تقبل قوله، ومنه «سمع الله لمن حمده» أي: تقبل الله حمده، فتأويله: أنهم يقبلون الكذب، والوجه الآخر في «سماعون» أن معناه: يسمعون منك ليكذبوا عليك، وذلك أنهم إذا جالسوه تهيأ أن يقولوا سمعنا منه كذا، وكذا.

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾؛ أي: هم مستمعون منك لقوم آخرين ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: هم عيون لأولئك الغيب، ويجوز أن يكون رفع ﴿سَمَّاعُونَ﴾ على معنى: ومن الذين هادوا سماعون، فيكون الإخبار أن السماعين منهم، ويرتفع «منهم» كما تقول: «في قومك عقلاء». هذا مذهب الأخفش، وزعم سيبويه أن هذا يرتفع بالابتداء.

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾؛ أي: من بعد أن وضعه الله موضعه أي: فرض فروضه، وأحل حلاله وحرم حرامه.

وقوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾؛ إن أوتيتم هذا الحكم المحرف فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا، أي: احذروا إن أفتاكم النبي ﷺ بغير ما حددنا لكم، فاحذروا أن تعملوا به.

وكان السبب في هذا فيما روي أن الزنا كثر في أشراف اليهود وخيبر، وكان في التوراة أن على المحصنين الرجم فزنى رجل وامرأة، فطمعت اليهود أن يكون نزل على النبي ﷺ الجلد في المحصنين، وكانوا قد حرفوا وصاروا يجلدون المحصنين ويسودون وجوههما، فأوحى الله -جل ثناؤه- أنهم يستفتونه في أمر هاتين المرأتين، وأعلمه أن الله يأمرهم عن أعلمهم بالتوراة، فأعلموه أنه ليس بحاضر، فقال النبي ﷺ: «قد علمت»، وكان جبريل قد أعلمه مكانه فأمرهم أن يحضروه، فأحضروه، وأوحى الله إلى نبيه أن يستحلفهم ليصدقنه، فلما حضر عالمهم قال له النبي: «أسألك بالذي أنزل التوراة على موسى، ورفع فوقكم الطور، وفلق لكم البحر، هل في التوراة أن يرجم المحصنان إذا زنيا ؟» قال: نعم. فوثب عليه سفلة اليهود، فقال: خفت إن كذبته أن ينزل بنا عذاب.

ويقال إن الذي سأله النبي ﷺ ابن صوريا اليهودي، وكان حديث السن، فقال له النبي ﷺ: «أنت أعلم قومك بالتوراة»، قال: كذا يقولون، وكان هو المخبر له بأن الرجم فيها، وأنه ساءل النبي ﷺ عن أشياء كان يعرفها من أعلامه فلما أنبأه النبي ﷺ بها قال:«أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله الأمي العربي الذي بشر به المرسلون».

وهذا الذي ذكرناه من أمر الزانيين مشهور في رواية المفسرين وهو يبين قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾؛ ولقائل يقول ما تفسير هذا، فلذلك شرحناه، وبالله الحول والقوة.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ﴾؛ قيل: فضيحته وقيل: أيضاً كفره، ويجوز أن يكون اختباره بما يظهر به أمره، يقال: «فَتَنْتُ الحديد» إذا أحميته، و«فَتَنْت الرجل» إذا أزلته عما كان عليه[1]، ومنه قوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[الإسراء: ٧٣] أي: وإن كادوا ليزيلونك.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾؛ أي: أن يهينهم.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾؛ قيل: لهم في الدنيا فضيحة بما أظهر الله من كذبهم، وقيل:

---

(١) الفتنة من الفتن وأصله : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار. والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى، ومن العبد كالبلية والمصيبة، والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك، ولهذا يذم الله الإنسان بأنواع الفتنة في كل مكان. انظر: الراغب في مفرداته ((فتن)).

لهم في الدنيا خزي بأخذ الجزية بأخذ الجزية منهم، وضرب الذلة والمسكنة عليهم.

ثم عاد -عز وجل- في وصفهم فقال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾؛ ويقرأ: ((للسَّحت)) جميعاً، تأويله: أن الرشا التي يأكلونها يعاقبهم الله بها أن يسحتهم بعذاب(١)، كما قال -جل وعز-: ﴿لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ﴾[طه: ٦١]، ومثل هذا قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[النساء: ١٠]. أي: يأكلون ما عاقبته النار، يقال: ((سَحَته وأَسحَته)) إذا استأصله، وقال بعضهم: ((سَحَته)): أذهبه قليلاً قليلاً إلى أن استأصله ومثل أسحته قول الفرزدق [من الطويل].

وَعَضُّ زَمانٍ يا ابنَ مَروانَ لَم يَدَع مِنَ المالِ إلا مُسحَتاً أَو مُجَرَّفُ(٢)

ويجوز أن يكون ((سَحَته وأَسحَته)) إذا استأصله، كان ذلك شيئاً بعد شيء، أو كان دفعة واحدة.

وقوله: ﴿فَإِن جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾؛ أجمعت العلماء على أن هذه الآية تدل على أن النبي ﷺ مخير بها في الحكم بين أهل الذمة، وقيل في بعض الأقاويل: ((إن التخيير نسخ بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾[المائدة: ٤٩].

وقوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: العدل.

---

(١) قال الراغب في الآية : أي: لما يسحت دينهم. وقال عليه السلام: ((كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به)) وسمي الرشوة سحتا لذلك.

والحديث الذي ذكره الراغب يروى عن أبي بكر عن النبي قال: ((كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به)) أخرجه البيهقي وأبو نعيم، قال المناوي: وسنده ضعيف، والمشهور على الألسنة: ((كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به)) راجع: كشف الخفاء (١٢١/٢).

وروي ((كسب الحجام سحت)) وبلفظ آخر : ((كسب الحجام خبيث))أخرجه أحمد في المسند ٣٦٤/٣؛ وأبو داود برقم (٣٤٢١)؛ والترمذي عن رافع بن خديج. وخبثه لا يقتضي حرمته، فقد احتجم -عليه السلام- وأعطى الحجام أجرته. انظر: كشف الخفاء (١١٠/٢)، فهذا لكونه ساحتا للمروءة لا للدين، ألا ترى أنه أذن عليه السلام في إعلافه الناضح وإطعامه المماليك عن ابن محيصة أحد بني حارثة عن أبيه أنه استأذن رسول الله ﷺ في إجارة الحجام فنهاه، فلم يزل يسأله ويستأذنه حتى قال: ((اعلفه ناضحك، أو أطعمه رقيقك)) رواه الشافعي (١٤٧/٢)، ومالك في الموطأ (٩٧٤/٢)، والترمذي برقم (١٢٧٧)، وابن ماجه برقم (٢١٦٦)؛ وقال الحافظ في الفتح: رجاله ثقات، وانظر: شرح السنة (١٩/٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٧٩/٤)، وتفسير القرطبي (١٩٤/١١)، ومعاني القرآن (٣٠٩/٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٨٨/١)، وصبح الأعشى (١٥٣/١٤)، ولسان العرب (٤١/٢)، وتاج العروس (١١٠٣/١).

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾. فيها نور أي: بيان ان أمر رسول الله ﷺ حق، وفيها بيان الحكم الذي جاءوا يستفتون فيه النبي ﷺ، ويجوز أن يكون المعنى: على التقديم والتأخير، على معنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور للذين هادوا، يحكم بها النبيون الذين أسلموا والربانيون، ويجوز أن يكون «يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا» أي: يحكم النبي ﷺ فيما سألوه بما في التوراة، ويجوز أن يكون للذين هادوا للذين تابوا، أي: النبيون والربانيون هم العلماء والأحبار وهم العلماء الخيار يحكمون للتائبين من الكفر.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: استودعوا.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: من زعم أن حكماً من أحكام الله التي أتت بها الأنبياء عليهم السلام باطل فهو كافر، أجمعت الفقهاء أن من قال: إن المحصنين لا يجب أن يرجما إذا زنيا وكانا حرين كافر، وإنما كفر من رد حكماً من أحكام النبي، لأنه مكذب له، ومن كذب النبي فهو كافر.

وقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾؛ أي: في التوراة.

﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾؛ وروي أن النبي قرأ: «والعينُ بالعينِ» والقراءة: «والعينَ بالعينِ».

﴿وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾؛ بالرفع والنصب جميعاً لا اختلاف بين أهل العربية في ذلك، فمن قرأ ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ أراد أن العين بالعين، ومن قرأ: «والعينُ بالعينِ» فرفعه على وجهين، على العطف على موضع النفس بالنفس والعامل فيها؛ المعنى: وكتبنا عليهم النفس بالنفس، أي: قلنا لهم النفس بالنفس، ويجوز كسر إن، ولا أعلم أحداً قرأ بها فلا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية صحيحة، ويجوز أن تكون العين بالعين، ورفعه على الاستئناف، وفيها وجه آخر، ويجوز أن يكون عطفاً على المضمر في النفس، لأن المضمر في النفس في موضع رفع؛ المعنى: أن النفس مأخوذة هي بالنفس، والعين معطوفة على هي.

وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾؛ قال بعضهم: من تصدق به أي: بحقه فهو كفارة للجارح إذا ترك المجروح حقه، رفع القصاص عن الجارح، وقال بعضهم: هو كفارة للمجروح أي: يكفر الله عنه بعفوه ما سلف من ذنوبه.

وقوله: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾؛ رواها بعضهم «ومهيمَناً» بفتح الميم الثانية، وهي عربية ولا

أحب القراءة بها، لأن الإجماع في القراءة على كسر الميم في قوله: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾[الحشر: ٢٣].

واختلف الناس في تفسير قوله: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾، واختلف الناس في تفسير قوله: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾.

فقال بعضهم: معناه: وشاهداً عليه، وقال بعضهم: رقيباً عليه، وقال بعضهم: معناه: مؤتمناً عليه. وقال بعضهم: المهيمن اسم من أسماء الله في الكتب القديمة، وقال بعضهم: مهيمن في معنى مؤتمن، إلا أن الهاء بدل من الهمزة، والأصل: مؤتمناً عليه كما قالوا: هرقت الماء، وأرقت الماء، وكما قالوا: إياك وهياك، وهذا قول أبي العباس محمد بن يزيد، وهو على مذهب العربية حسن وموافق لبعض ما جاء في التفسير، لأن معناه: مؤتمن.

وقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ﴾؛ قرئت بإسكان اللام وجزم الميم على مذهب الأمر، وقرئت «ولِيحكمَ» بكسر اللام وفتح الميم على معنى: ولأن يحكم ويجوز كسر اللام مع الجزم «ولِيحكم أهْلُ الإنْجِيلِ»، ولكنه لم يقرأ به فيما علمت، والأصل كان كسر اللام، ولكن الكسرة حذفت استثقالاً. والإنجيل القراءة فيه بكسر الهمزة، ورويت عن الحسن «الأنجيل» بفتح الهمزة، وهذه قولة ضعيفة، لأن أنجيل أفعيل، وليس في كلام العرب هذا المثال.

وإنجيل إفعيل من النجل وهو الأصل، وللقائل أن يقول إن إنجيل اسم أعجمي فلا ينكر أن يقع بفتح الهمزة، لأن كثيراً من الأسماء الأعجمية تخالف أمثلة العرب نحو: «آجر وإبراهيم وهابيل وقابيل»، فلا ينكر أن يجيء «أنجيل» وإنما كرهت القراءة بها لأن إسنادها عن الحسن لا أدري هل هو من ناحية يوثق بها أم لا.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾؛ أي: تطلب اليهود في حكم الزانيين حكماً لم يأمر الله به وهو أهل الكتاب كما تفعل الجاهلية.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: من أيقن تبين عدل الله وحكمه، و ﴿حُكْماً﴾ منصوب على التفسير.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من عاضدهم على المسلمين فإنه من عاضده.

وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾؛ والمرض ههنا النفاق في

الدين، ومعنى ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾، أي: في معاونتهم على المسلمين.

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾؛ أي: نخشى ألا يتم الأمر للنبي ﷺ، ومعنى دائرة أي: يدور الأمر عن حاله التي يكون عليها.

وقوله: ﴿فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾؛ أي: فعسى الله أن يظهر المسلمين، و«عسى» من الله -جل وعز- واجبة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِن عِندِهِ﴾؛ أي: أو أن يؤمر النبي ﷺ بإظهار أمر المنافقين بقتلهم. ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: يقول المؤمنون الذين باطنهم وظاهرهم واحد: هؤلاء الذين حلفوا وأكدوا أيمانهم أنهم مؤمنون وإنهم معكم أعوانكم على من خالفكم.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: ذهب ما أظهروه من الإيمان، وبطل كل خير عملوه بكفرهم وصدهم عن سبيل الله كما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١].

المعنى: ويقول الذين آمنوا في ذلك الوقت، أي: في وقت يظهر الله نفاقهم فيه.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾؛ فيها من العربية ثلاثة أوجه؛ «من يرتدد»، «ومن يرتدَّ» بفتح الدال «ومن يرتدِ منكم»، بكسر الدال. ولا يجوز في القراءة الكسر لأنه لم يرو أنه قرئ به.

وأما «من يرتدد» فهو الأصل، لأن التضعيف إذا سكن الثاني من المضعفين ظهر التضعيف، نحو قوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ ولو قرئت: «إن يمسكم قرح» كان صواباً، ولكن لا تقرأن به لمخالفته المصحف، ولأن القراءة سنة. وقد ثبت عن نافع وأهل الشام «يرتدد» بدالين، وموضع «يرتد» جزم، والأصل كما قلنا:«يرتدد»، وأدغمت الدال الأولى في الثانية، وحركت الثانية بالفتح لالتقاء الساكنين.

قال أبوعبيد: إنهم كرهوا اجتماع حرفين متحركين وأحسبه غلط، لأن اجتماع حرفين متحركين من جنس واحد أكثر في الكلام من أن يحصي نحو: «شرر ومدد، وقدد، وجدد» والكسر في قوله: «من يرتد» يجوز لالتقاء الساكنين لأنه أصل. والفاء جواب للجزاء، أي: إن ارتد أحد عن دينه، أي: الذي هو الإيمان.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾؛ أي: بقوم مؤمنين غير منافقين.

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: جانبهم لين على المؤمنين، ليس أنهم أذلاء مهانون.

﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾؛ أي: جانبهم غليظ على الكافرين.

وقوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾؛ لأن المنافقين كانوا يراقبون الكفار ويظاهرونهم، ويخافون لومهم، فأعلم الله -عز وجل- أن الصحيح الإيمان لا يخاف في نصرة الدين بيده ولا لسانه لومة لائم.

ثم أعلم الله -عز وجل- أن ذلك لا يكون إلا بتسديده وتوفيقه فقال -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: محبتهم لله ولين جانبهم للمسلمين، وشدتهم على الكافرين فضل من الله -عز وجل- عليهم، لا توفيق لهم إلا به -عز وجل-.

وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ بين من هم المؤمنون فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾.

وإقامتها: تمامها بجميع فرضها، وأول فروضها صحة الإيمان بها وهذا كقولك: «فلان قائم بعلمه الذي وليه»، تأويله: أنه يوفي العمل حقوقه.

ومعنى ﴿يُقِيمُونَ﴾ من قولك: «هذا قِوام الأمر».

فأما قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فمخفوض على نعت «قوم»، وإن شئت كانت نصباً على وجهين؛ أحدهما: الحال، على معنى: يحبهم ويحبونه في حال تذللهم على المؤمنين وتعززهم على الكافرين، ويجوز أن يكون نصباً على المدح.

فأما قوله -عز وجل-: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ أي: قفينا على آثار الرسل بعيسى أي: جعلناه يقفوهم.

وقوله: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾؛ أي: لما تقدم من التوراة، ونصب ﴿مُصَدِّقاً﴾ على الحال وهو جائز أن يكون من صفة الإنجيل فهو منصوب بقوله: «آتيناه»؛ المعنى: آتيناه الإنجيل مستقراً فيه هدي ونور ومصدقاً، ويجوز أن يكون حالاً من عيسى؛ المعنى: وآتيناه الانجيل هادياً ومصدقاً، لأنه إذا قيل: آتيناه الإنجيل فيه هدى، فالذي أتى بالهدى هو هاد، والأحسن أن يكون على معنى: وقفينا بعيسى آتيا بالإنجيل وهادياً ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، والدليل على أنه من صفة عيسى قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[الصف: ٦].

وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾؛ قال بعضهم: «الشرعة»: الدين[1]، «والمنهاج»: الطريق[2]، وقيل: «الشرعة والمنهاج» جميعاً الطريق، والطريق ههنا الدين، ولكن اللفظ إذا اختلف أتي منه بألفاظ تؤكد بها القصة والأمر نحو قول الشاعر[3] [من الكامل]:

حُيِّيتَ مِن طَلَلٍ تَقادم عَهدُهُ ... أَقوى وَأَقفَرَ بَعدَ أُمِّ الهَيثَمِ[4]

فإن معنى «أقوى وأقفر» يدل على الخلوة، إلا أن اللفظين أوكد في الخلو من لفظ واحد. وقال أبو العباس محمد بن يزيد: «شرعة» معناها ابتداء الطريق، «والمناهج» الطريق المستمر، قال وهذة الألفاظ إذا تكررت في مثل هذا فالزيادة في الفائدة، قال: وكذلك قول الحطيئة [من الطويل]:

أَلا حَبَّذا هِندٌ وَأَرضٌ بِها هِندُ ... وَهِندٌ أَتَى مِن دونِها النَأيُ وَالبُعدُ[5]

قال: النَّأْيُ لكل ما قل بعده منك أو كثر، كأنه يقول: «النأي» المفارقة؛ قلت: أو كثرت، والبعد إنما يستعمل في الشيء البعيد، ومعنى البعيد عنده ما كثرت مسافة مفارقته، وكأنه يقول: لما قرب منه هو ناء عني، وكذلك لما بعد عنه، والنأي عنده المفارقة.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾.

هزءاً فيه لغات، إن شئت قلت: «هُزؤا» بضم الزاي وتحقيق الهمزة، وهو الأصل

---

(١) قال الراغب : الشرع: نهج الطريق الواضح. يقال: شرعت له طريقا، والشرع: مصدر، ثم جعل اسما للطريق النهج فقيل له: شرع، وشرع، وشريعة، واستعير ذلك للطريقة الإلهية. انظر مفردات الرغب : ((شرع)).

ونقل الراغب عن ابن عباس قوله في الآية فقال: قال ابن عباس: الشرعة: ما ورد به القرآن، والمنهاج : ما ورد به السنة. وانظر أيضاً: البصائر (٣/٣٠٩)، وتفسير الماوردي (١/٥١).

(٢) قال الراغب في مادة ((نهج)): النهج: الطريق الواضح، ونهج الأمر وأنهج: وضح، ومنهج الطريق ومهاجه. ومنه: نهج الثوب وأنهج: بان فيه أثر البلى، وقد أنهجه البلى.

(٣) هو: عنترة بن شداد.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٣٣)، وتفسير القرطبي (١/٤٣٩)، وفتح القدير (١/١٣٥)،، وروح المعاني (٦/١٥٣)، والأغاني (٨/٢٢٣)، والمثل السائر (٢/١٦٩).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٣٣)، وتفسير القرطبي (١/٤٥٤)، وروح المعاني (١/١٥٤)، وزاد المسير (٢/٣٧٢).

والأجود، وإن شئت قلت: «هُزُوا» وأبدلت من الهمزة واواً، لانضمام ما قبلها وأنها مفتوحة، وإن شئت قلت: «هُزْءا» بإسكان الزاي وتحقيق الهمزة. فهذه الأوجه الثلاثة جيدة يقرأ بهن، وفيها وجه آخر. ولا تجوز القراءة به لأنه لم يقرأ به، وهو أن يقول: «هُزَا» مثل: «هُدىً» وذلك يجوز إذا أردت تخفيف همزة: «هُزءٍ» فيمن أسكن الزاي أن يقول: «هُزَاً». تطرح حركتها على الزاي كما تقول: «رأيت وخَبَاً» تريد خَبْئاً [١].

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾؛ النصب فيه على العطف على قوله: ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً﴾ أي: ولا تتخذوا الكفار أولياء، ويجوز والكفار أولياء على العطف على الذين أوتوا الكتاب؛ المعنى: من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء.

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾؛ يقال: نقمت على الرجل أنقم، ونقمت عليه أنقم والأجود نقمت أنقم، وكذلك الأكثر في القراءة: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾، وأنشد بيت ابن قيس الرقيات.

ما نقموا من أمية إلا   أنهم يحملون إن غضبوا

بالفتح والكسر، نقموا ونقموا، ومعنى نقمت بالغت في كراهة الشيء[٢].

وقوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾؛ المعنى: هل تكرهون منا إلا إيماننا وفسقكم، أي: إنما كرهتم إيماننا وأنتم تعلمون أنا على حق لأنكم فسقتم، بأن أقمتم على دينكم لمحبتكم الرياسة، وكسبكم بها الأموال.

فإن قال قائل: وكيف يعلم عالم أن ديناً من الأديان حق فيؤثر الباطل على الحق ؟ فالجواب في هذا: أن أكثر ما نشاهده كذلك. ومن ذلك أن الإنسان يعلم أن القتل يورد النار فيقتل، إما إيثار لشفاء غيظه أو لأخذ مال. ومنها: أن إبليس قد علم أن الله يدخله النار بمعصيته فآثر هواه على قربه من الله، وعمل على دخول النار وهذا باب بين.

(١) الهزء: مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح، فمما قصد به المزح، يقال: هزئت به، واستهزأت، والاستهزاء: ارتياد الهزؤ وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهزؤ، كالاستجابة في كونها ارتيادا للإجابة، وإن كان قد يجري مجرى الإجابة. انظر مفردات الراغب ((هزؤ)).

(٢) يقال: نقمت الشيء ونقمته : إذا أنكرته؛ وإما باللسان؛ وإما بالعقوبة. انظر: المفردات ((نقم)). وكتاب الأفعال (٣/٢٢٠).

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: بشر مما نقمتم من إيماننا ثواباً، و﴿مَثُوبَةً﴾ منصوب على التمييز.

وقوله: ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ﴾؛ وضع «من» إن شئت كان رفعاً، وإن شئت كان جرا، فأما من جر فيجعله بدلاً من «شر».

المعنى: أؤنبئكم بمن لعنه الله، ومن رفع فبإضمار «هو»، كأن قائلاً قال: من ذلك ؟ فقيل: هو من لعنه الله، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكُمُ النَّارُ﴾[الحج: ٧٢] كأنه قال: هي النار.

وقوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾؛ الطاغوت: هو الشيطان.

وتأويل ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: أطاعه فيما سول له وأغراه به، وقد قرئت: ﴿وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ﴾. والذي اختار ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وروي عن ابن مسعود «وعبدوا الطاغوت»، وهذا يقوي ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، ومن قال: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ فضم الباء وجر الطاغوت، فإنه عند بعض أهل العربية ليس بالوجه من جهتين إحداهما، أن «عَبَدَ» على «فَعَلَ»، وليس هذا من أمثلة الجمع، لأنهم فسروه: خدم الطاغوت، والثاني: أن يكون محمولاً على: وجعل منهم عبد الطاغوت. فأما من قرأ «وعبدُ الطاغوتِ» فهوجمع: «عبيد وعُبُد»، مثل: «رغيف ورغف وسرير وسرر»، ويكون على معنى: وجعل منهم عبد الطاغوت على: «جعلت زيداً أخاك»، أي: نسبته إليك، ووجه: «وعَبُد الطاغوت» -بفتح العين وضم الباء- أن الاسم يبني على فعل كما قالوا: «علم زيد». وكما أقول: «رجل حذر»، تأويل: «حذر» أنه مبالغ في الحذر، فتأويل: «عبد» أنه بلغ الغاية في طاعة الشيطان، وكأن اللفظ لفظ واحد يدل على الجمع. كما تقول للقوم: «منكم عبد العصا»، تريد منكم عبيد العصا. ويجوز بعد هذه الثلاثة الأوجه الرفع في قوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، فيقول: «وعبد الطاغوت»، وكذلك «وعبد الطاغوت» بالرفع، ولا تقرأن بهذين الوجهين وإن كانا جائزين، لأن القراءة لا تبتدع على وجه يجوز، وإنما سبيل القراءة اتباع من تقدم، فيجوز رفع، «وعَبُدُ الطاغوتِ»، «وعُبُد الطاغوت»، على معنى الذم، والمعنى: وهم عبد الطاغوت، كأنه لما قال: ﴿مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾، دل الكلام على اتباعهم الشياطين، فقيل وهم عبد الطاغوت.

ويجوز أن يكون بدلاً من «مَن» في رفع «مَن» كأنه لما قيل: منهم من لعنه الله، وغضب عليه، قيل: هم عَبُدُ الطاغوت وعُبُدُ الطاغوت، ويجوز في الكلام أيضاً، وعبْدَ

الطاغوت -بإسكان الباء- وفتح الدال. ويكون على وجهين؛ أحدهما: أن يكون مخففاً من عَبُد -كما يقال: في «عَضُد عَضْد». وجائز أن يكون «عبد» اسماً واحداً يدل على الجنس، وكذلك يجوز في «عبد» الرفع والنصب من جهتين كما وصفنا في «عبد»، ويجوز أن يكون النصب من جهتين: إحداهما على: وجعل منهم عبد الطاغوت، ويجوز أن يكون منصوباً على الذم، على: أعني عبد الطاغوت. ويجوز في «وعَبْد وعُبُد وعَبُد» الجر على البدل من «مَن» ويكون؛ المعنى: هل أنبئكم بمن لعنه الله وعبد الطاغوت. ولا يجوز القراءة بشيء من هذه الأوجه إلا الثلاثة التي رويت وقرأ بها القراء، وهي: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وهي أجودها، ثم: ﴿وَعَبُدَ الطَّاغُوتِ﴾، ثم ﴿وَعُبُدَ الطَّاغُوتِ﴾.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾.؛ أي: هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عن قصد السبيل، و«مكاناً» منصوب على التفسير.

وقوله: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾. وهم علماؤهم ورؤساؤهم. والحبر العالم، والحبر المداد بالكسر، فأعلم الله أن رؤساءهم وسفلتهم مشتركون في الكفر.

ومعنى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ﴾. هلا ينهاهم.

ثم أخبر -عز وجل- بعظيم فريتهم فقال: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: قالوا يده ممسكة عن الاتساع علينا. كما قال الله -جل وعز-: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] تأويله: لا تمسكها عن الإنفاق قال بعضهم: معنى ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ نعمته مقبوضة عنا، وهذا القول خطأ ينقضه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾.

فيكون المعنى: بل نعمتاه مبسوطتان، ونعم الله أكثر من أن تحصى، وقال بعضهم: وقالوا يد الله مغلولة عن أعدائنا، أي: لا يعذبنا. وقال بعض أهل اللغة إنما أجيبوا على قدر كلامهم. كما قالوا يد الله مغلولة، يريدون به تبخيل الله.

فقيل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾؛ أي: هو جواد ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

ومعنى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أن جعلوا بخلاء. فهم أبخل قوم، وقيل ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أن غلت في نار جهنم.

وقوله ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾؛ أي: كلما نزل عليك شيء من القرآن وكفروا به فيزيد كفرهم، والطغيان: الغلو والكفر ههناك.

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ جعلهم الله مختلفين في دينهم متباغضين، كما قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ فألقى الله بينهم العداوة،

وهي أحد الأسباب التي أذهب الله بها جدهم وشوكتهم.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾؛ هذا مثل، أي: كلما جمعوا على النبي والمسلمين وأعدوا لحربهم فرق الله جمعهم وأفسد ذات بينهم.

وقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً﴾؛ أي: يجتهدون في دفع الإسلام ومحو ذكر النبي ﷺ من كتبهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾؛ أي: لو عملوا بما فيهما، ولم يكتموا ما علموا من ذكر النبي ﷺ فيهما.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِن رَبِّهِمْ﴾؛ وهو -والله أعلم- القرآن.

أي: لو عملوا بما في هذه الكتب من ذكر النبي، وأظهروا أمره، ﴿لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾.

قيل: إنه كان أصابهم جدب، فأعلم الله أنهم لو اتقوا لأوسع عليهم في رزقهم، ودل بهذا على ما أصابهم من الجدب فيما عاقبهم به.

ومعنى ﴿لأكلوا من فوقهم﴾؛ أي: لأكلوا من قطر السماء.

﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾؛ من نبات الأرض.

وقيل: قد يكون هذا من جهة التوسعة كما تقول فلان في خير من قرنه إلى قدمه، وقد أعلم الله -جل وعز- أن التُّقى سعة في الرزق فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾[المائدة: ٦٥]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢، ٣]، وقال في قصة نوح: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً﴾[نوح: ١٠-١٢] وهي البساتين. فوعدهم الله أتم الغني على الإيمان والاستغفار.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾؛ أي: من أهل الكتاب، قال بعضهم: يعني بهذا من أمن منهم، وقيل: يعني به طائفة لم تناصب النبي ﷺ مناصبة هؤلاء، والذي أظنه -والله أعلم- أنه لا يسمي الله من كان على شيء من الكفر مقتصداً.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾؛ المعنى: بئس شيئاً عملهم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾؛ وتقرأ ((رسالاته)).

والمعنى: بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، وإن تركت منه شيئا فما بلغت، أي: لا تراقبن أحداً ولا تتركن شيئاً من ذلك خوفاً من أن ينالك مكروه.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: يحول بينهم وبين أن ينالك منهم مكروه، فأعلمه الله -جل وعز- أنه يسلم منهم. وفي هذا آية للنبي ﷺ بينة.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

اختلف أهل العربية في تفسير رفع «الصابئين»، فقال بعضهم: نصب «إن» ضعف فنسق «بالصابئون» على «الذين» لأن الأصل فيهم الرفع. وهو قول الكسائي، وقال الفراء مثل ذلك، إلا أنه ذكر أن هذا يجوز في النسق على مثل «الذين» وعلى المضمر، يجوز: «إني وزيد قائمان»، وأنه لا يجيز: «إن زيداً وعمرو قائمان».

وهذا التفسير إقدام عظيم على كتاب الله وذلك أنهم زعموا أن نصب «إن» ضعيف لأنها إنما تغير الاسم ولا تغير الخبر، وهذا غلط لأن «إن» عملت عملين النصب، والرفع، وليس في العربية ناصب ليس معه مرفوع، لأن كل منصوب مشبه بالمفعول، والمفعول لا يكون بغير فاعل إلا فيما لم يسم فاعله، وكيف يكون نصب «إن» ضعيفاً وهي تتخطى الظروف فتنصب ما بعدها. نحو قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ﴾[المائدة: ٢٢] ونصب «إن» من أقوى المنصوبات.

وقال سيبويه والخليل، وجميع البصريين إن قوله: ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ محمول، على التأخير، مرفوع بالابتداء؛ المعنى: إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم، والصابئون والنصارى كذلك أيضاً، أي: من آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم، وأنشدوا في ذلك قول الشاعر[1] [من الوافر]:

وَإِلا فَاعلَموا أَنّا وَأَنتُم   بُغاةٌ ما حَيينا في شِقاقِ[2]

---

(١) هو: بشر بن أبي خازم.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٣٨/٢)، وفتح القدير (٢٢٩/١)، وتفسير أبي السعود (٦٢/٣)، وروح المعاني (٢٠١/٦)، وزاد المسير (٣٩٩/٢)، والكشاف (٣٢٨/١)، وأسرار العربية (١٤٧/١)، وأوضح المسالك (١/ ٣٦١)، والأصول في النحو (٢٥٣/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٩٠/١)، والمفصل في صنعة الإعراب (٣٩٤/١)، ودلائل الإعجاز (٤٥/١).

المعنى: وإلا فاعلموا أنا بغاة ما بقينا في شقاق، وأنتم أيضاً كذلك.

وزعم سيبويه أن قوماً من العرب يغلطون فيقولون: «أنهم أجمعون ذاهبون»، و«إنك وزيد ذاهبان». فجعل سيبويه هذا غلطاً وجعله كقول الشاعر[١] [من الطويل].

بَدا لِيَ أَنّي لَستُ مُدرِكَ ما مَضى وَلا سابِقاً شَيئاً إِذا كانَ جائِيا[٢]

فأما ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ وقد ذكر الذين آمنوا، فإنما يعني الذين آمنوا ههنا المنافقين الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم، ودل على أن المعنى هنا: ما تقدم من قوله: ﴿لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

ومعنى «الصابئ»: الخارج عن جملة الأديان لأنهم لا يدينون بالكتب، والعرب تقول: «قد صبأ ناب البعير»، و«صبأ سن الصبي» إذا خرج. فأما قولهم: «ضبأت» بالضاد المعجمة فمعناه: اختبأت في الأرض، ومنه اشتق اسم ضابئ.

وقال الكسائي، ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ نسق على ما في ﴿هَادُوا﴾، كأنه قال: «هادوا هم والصابئون». وهذا القول خطأ من جهتين؛ إحداهما: أن الصابئ يشارك اليهودي في اليهودية وإن ذكر أن هادوا في معنى تابوا فهذا خطأ في هذا الموضع أيضاً لأن معنى الذين آمنوا ههنا إنما هو إيمان بأفواههم، لأنه يعني به المنافقون، ألا ترى أنه قال: من آمن بالله، فلو كانوا مؤمنين لم يحتج أن يقال: إن آمنوا فلهم أجرهم.

وقوله: ﴿فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾؛ المعنى: كلما جاءهم رسول كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً.

أما التكذيب: فاليهود والنصارى مشتركة فيه، وأما القتل فكانت اليهود خاصة -دون النصارى- يقتلون الأنبياء، وكانت الرسل على ضربين، رسل تأتي بالشرائع والكتب نحو: «موسى وعيسى وإبراهيم ومحمد»، فهؤلاء معصومون من الخلق، لم يوصل إلى قتل واحد منهم، ورسل تأتي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحث على التمسك بالدين نحو: «يحيى وزكريا».

وقوله: ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ تقرأ ﴿أَلاَّ تَكُونَ﴾ بالنصب، و«ألا» تكون بالرفع،

---

(١) هو: زهير بن أبي سلمى.

(٢) انظر: فتح القدير (٣٢٧/٥)، وأسرار العربية (١٤٨/١)، والأصول في النحو (٢٥٢/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٩١/١)، ومغني اللبيب (١٣١/١)، ولسان العرب (٣٥٩/٦).

فمن قرأ بالرفع فالمعنى: أنه لا تكون فتنة، أي: حسبوا فعلهم غير فاتن لهم وذلك أنهم كانوا يقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه.

﴿فعَمُوا وَصَمُّوا﴾؛ هذا مثل، تأويله: أنهم لم يعملوا بما سمعوا ولا بما رأوا من الآيات، فصاروا كالعمى والصم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أرسل إليهم محمداً ﷺ يعلمهم أن الله -جل وعز- قد تاب عليهم إن آمنوا وصدقوا، فلم يؤمنوا أكثرهم، فقال -عز وجل-: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنهُمْ﴾؛ أي: بعد أن ازداد لهم الأمر وضوحاً بالنبي -عليه السلام-.

و﴿كَثِيرٌ مِنهُمْ﴾ يرتفع من ثلاثة أوجه؛ أحدها: أن تكون بدلاً من الواو، كأنه لما قال ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ أبدل الكثير منهم، أي: عمي وصم كثير منهم كما تقول: «جاءني قومك أكثرهم»، وجائز أن يكون جمع الفعل مقدماً كما حكى أهل اللغة: «أكلوني البراغيث»، والوجه أن يكون كثير منهم خبر ابتداء محذوف؛ المعنى: ذوو العمى والصمم كثير منهم.

وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾؛ معناه: أنهم قالوا الله أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، ولا يجوز في ثلاثة إلا الجر، لأن المعنى: أحد الثلاثة، فإن قلت: «زيد ثالث اثنين أو رابع ثلاثة» جاز الجر والنصب، فأما النصب فعلى قولك: «كان القوم ثلاثة فرابعهم، وأنا رابعهم غداً»، ومن جر فعلى حذف التنوين، كما قال -عز وجل-: ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾[المائدة: ٩٥].

وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾؛ دخلت «من» مؤكدة؛ والمعنى: ما إله إلا إله واحد.

وقوله: ﴿وَإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ معنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾، الذين أقاموا على هذا الدين وهذا القول.

وقوله: ﴿إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾؛ أي: إبراؤه الأكمه والأبرص وإتيانه بالآيات والمعجزات ليس بأنه إله، إنما أتى بالآيات كما أتى موسى بالآيات، وكما أتى إبراهيم بالآيات.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: مبالغة في الصدق والتصديق، إنما وقع عليها صديقة لأنه أرسل إليها جبريل، فقال الله -عز وجل-: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾[التحريم: ١٢].

وصديق «فعيل» من أبنية المبالغة كما تقول: «فلان سكيت» أي: مبالغ في السكوت.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾؛ هذا احتجاج بين، أي: إنما يعيشان بالغذاء كما يعيش

سائر الآدميين، فكيف يكون إلهاً من لا يقيمه إلا أكل الطعام.

وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾؛ أي: العلامات الواضحة.

﴿ثُمَّ انظُرْ﴾؛ أي: انظر بعد البيان.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: من أين يصرفون عن الحق الواضح.

وكل شيء صرفته عن شيء وقلبته عنه، تقول: «أَفَكْتُه آفِكُه أَفْكاً»، والإفك: الكذب، إنما سمي لأنه صرف عن الحق، و«المؤتفكات» الرياح التي تأتي من جهات على غير قصد واحد.

وقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾؛ ﴿أَهْوَاءَ﴾ جمع هوى، وهوى النفس مقصور لأنه مثل: «الفرق» و «فَعَل» جمعه «أَفْعَال»، تأويله: لا تتبعوا شهواتهم لأنهم آثروا الشهوات على البيان والبرهان. وما في القرآن من ذكر اتباع الهوى مذموم نحو قوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[ص: ٢٦]، وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[طه: ١٦]، وقوله﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى﴾[النجم: ٣].

ومعنى ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾ الكثير اتبعوهم.

﴿وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾؛ أي: ضلوا بإضلالهم عن قصد السبيل.

وقوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ تأويل «لعنوا» بوعدوا من رحمة الله.

﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ جاء في التفسير: أن قوماً اجتمعوا على منكر، فأتاهم داود -عليه السلام- ينهاهم عنه، فاستأذن عليهم فقالوا نحن قرود وما نفقه ما تقول، فقال: «كونوا قردة»، فمسخهم الله قردة، وأن قوماً اجتمعوا على عيسى يسبونه في أمه ويرجمونه فسأل الله أن يجعلهم خنازير، وذلك لعنهم على لسان داود وعيسى.

وجائز أن يكون داود وعيسى أُعلما أن محمداً ﷺ نبي وأنهما لعنا من كفر به.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾؛ أي: ذلك اللعن بمعصيتهم واعتدائهم.

و«ذلك» الكاف فيه للمخاطبة، واللام في «ذلك» كسرت لالتقاء الساكنين، ولم يذكر الكوفيون كسر هذه اللام في شيء من كتبهم ولا عرفوه، وهذه من الأشياء التي كان ينبغي أن يتكلموا فيها، إذ كان «ذلك» إشارة إلى كل متراخ عنك، إلا أن تركهم الكلام أعود عليهم من تكلمهم، إذ كان أول ما نطقوا به في فعل قد نقض سائر العربية، وقد بينا ذلك قديماً.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ أي: لبئس شيئاً فعلهم، واللام دخلت للقسم والتوكيد، وقد بينا لم فتحت، وسائر الحروف التي جاءت يعني لم فتحت وكسرت ولم يبين الكوفيون شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ «أن» يجوز أن يكون نصباً على تأويل: بئس الشيء ذلك لأن سَخِطَ الله عليهم، أي: لأن أكسبهم السخطة، ويجوز أن يكون «أن» في موضع رفع على إضمار «هو»، كأنه قيل: هو أن سخط الله عليهم، كما تقول: «نعم الرجل زيد».

وقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وذلك أن اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين، والمؤمنون يؤمنون بموسى والتوراة التي أتى بها، وكان ينبغي أن يكونوا إلى من وافقهم في الإيمان بنبيهم وكتابهم أقرب، فظاهروا المشركين حسداً للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ هذه اللام لام القسم، والنون دخلت تفصل بين الحال والاستقبال، هذا مذهب الخليل وسيبويه، ومن يوثق بعلمه.

وقوله: ﴿عَدَاوَةً﴾ منصوب على التمييز.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾؛ في هذه غير وجه:

جاء في التفسير: أن نيفاً وثلاثين من الحبش من النصارى جاؤوا وجماعة معهم، فأسلموا لما تلا عليهم النبي ﷺ القرآن.

وجائز أن يكون يعني به النصارى لأنهم كانوا أقل مظاهرة للمشركين من اليهود، ويكون قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ على معنى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً﴾، ومنهم قوم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول، يعني به ههنا مؤمنيهم.

والقُسُّ والقِسِّيسُ: من رؤساء النصارى، فأما القَسُّ في اللغة: فهي النميمة ونشر الحديث، يقال: قسَّ فلان الحديث قسّاً.

ومعنى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أي: مع من شهد من أنبيائك -عليهم السلام- ومؤمني عبادك بأنك لا إله غيرك.

وقوله: ﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾؛ موضع ﴿لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ نصب على الحال.

المعنى: أي شيء لنا تاركين للإيمان، أي: في حال تركنا للإيمان، وذلك أن قومهم عنفوهم على إيمانهم فأجابوهم بأن قالوا: ما لنا لا نؤمن بالله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ ﴿الْجَحِيمِ﴾ النار الشديدة الوقود، «وقد جَحَم فلان النار» إذا شدد وقودها، ويقال لعين الأسد: «جَحْمة» لشدة توقدها، ويقال لوقود الحرب، وهو شدة القتال فيها: «جَاحِم»، قال الشاعر[1] [من مجزوء الكامل]:

وَالحَربُ لا يَبقى لِجا حِمِها التَخَيُّلُ وَالمِراحُ

إِلا الفَتى الصَبّارُ في النَ نَجَداتِ وَالفَرَسُ الوَقّاحُ[2]

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا﴾؛ هذه قيل: نزلت لأن جماعة من أصحاب النبي كانوا هموا بأن يرفضوا الدنيا ويجتنبوا الطيبات ويخصوا أنفسهم.

فأعلم الله أن شريعة نبيه -عليه السلام- غير ذلك، والطيبات لا ينبغي أن تجتنب البتة، وسمي «الخصاءُ» اعتداء، فقال -عز وجل-: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ﴾.

اللغو في كلام العرب : ما أطرح ولم يعقد عليه أمر، ويسمى ما ليس معتداً به -وإن كان موجوداً -لغواً، قال الشاعر[3] [من السريع]:

أَو مِائَةٌ تُجعَلُ أَولادُها لَغواً وَعُرضُ المائَةِ الجَلمَدِ[4]

«الذي يعارضها في قوة الجلمد»، يعني بذلك نوقاً، يقول: مائة لا تجعل أولادها من عددها.

أعلم الله -عز وجل- أن اليمين التي يؤاخذ بها العبد وتجب في بعضها الكفارة ما جرى على عقد.

ومعنى ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾، أي: فكفارة المؤاخذة فيه إذا حنث أن يطعم عشرة مساكين إن كانوا ذكوراً أو إناثاً وذكوراً أجزاه ذلك، ولكن وقع لفظ التذكير لأنه المغلب في الكلام.

---

(١) هو: سعد بن مالك بن ضبيعة البكري وهو جد طرفة بن العبد.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/٢٤٣)، والجمل في النحو (١/٣١٦)، والأغاني (٥/٥١)، وديوان الحماسة (١/ ١٩٢)،، ولسان العرب (١٢/٨٤)، وتاج العروس (١/٧٦٤١).

(٣) هو: المثقب العبدي.

(٤) انظر: لسان العرب (٧/١٦٥)، وتاج العروس (١/٤٦٥٦).

ومعنى ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾؛ قال بعضهم: أعدله كما قال -جل وعز-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[البقرة: ١٤٣] أي: عدلاً.

و﴿أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ على ضربين؛ أحدهما: أوسطه في القدر والقيمة، والآخر: أوسطه في الشبع لا يكون المأكول يفرط في أكله فيؤكل منه فوق القصد وقدر الحاجة، ولا يكون دون المغني عن الجوع.

﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾؛ والكسوة أن يكسوهم نحو الإزار والعمامة أو ما أشبه ذلك.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ فخير الحالف أحد هذه الثلاثة، وأفضلها عند الله وأكثرها نفعاً، وأحسنها موقعاً من المساكين، أو من المعتق، فإن كان الناس في جدب لا يقدرون على المأكول إلا بما هو أشد تكلفاً من الكسوة أو الإعتاق، فالإطعام أفضل، لأن به قوام الحياة وإلا فالإعتاق أو الكسوة أفضل.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: من كان لا يقدر على شيء مما حد في الكفارة، فعليه صيام ثلاثة أيام.

و«صيام ثلاثة» مرتفع بالابتداء، وخبره «كفارته» أو «فكفارته صيام ثلاثة أيام». ويجوز فصيام ثلاثة أيام كما قال -عز وجل-: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً﴾[البلد: ١٤، ١٥]، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَاماً﴾[المائدة: ٩٥].

﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾؛ أي: ذلك الذي يغطي على آثامكم، يقال: «كفرت الشيء إذا غطيته»، ومنه قوله -عز وجل-:﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[الحديد: ٢٠]، والكفار الذين يغطون الزرع ويصلحون، والكافر: إنما سمي كافراً، لأنه ستر بكفره الإيمان.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾؛ فالخمر معروف وهو ما خامر العقل، وقد فسرناه، والميسر: القمار كله، وأصله أنه كان قماراً في الجزور، وكانوا يقسمون الجزور في قول الأصمعي على ثمانية وعشرين جزءاً، وفي قول أبي عمرو الشيباني على عشرة أجزاء، وقال أبو عبيدة لا أعرف عدد الأجزاء، وكانوا يضربون عليها بالقداح وهي سهام خشب. لها أسماء نبينها على حقيقتها في كتابنا إن شاء الله، فيحصل كل رجل من ذلك القمار على قدر إمكانه، فهذا أصل الميسر، القمار كله كالميسر وقد بينا الأنصاب والأزلام في أول السورة.

فأعلم الله أن القمار والخمر والاستقسام بالأزلام وعبادة الأوثان رجس. والرجس في اللغة: اسم لكل ما استقذر من عمل، فبالغ الله في ذم هذه الأشياء، وسماها رجساً، وأعلم

أن الشيطان يسول ذلك لبني آدم، يقال: «رَجِسَ الرجل يَرْجَسُ، ورجَسَ يَرْجُسُ» إذا عمل عملاً قبيحاً، و«الرَّجْسُ» بفتح الراء شدة الصوت، فكان «الرجس» العمل الذي يقبح ذكره، ويرتفع في القبح، ويقال: «سحاب ورعد رجَّاس» إذا كان شديد الصوت، قال الشاعر[1] [من الرجز]:

* وَكُلُّ رَجّاسٍ يَسوقُ الرُّجَّسا[2]*

وأما الرجز بالزاي فالعذاب، أو العمل الذي يؤدي إلى العذاب، قال الله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾[الأعراف: ١٣٤] أي: كشفت عنا العذاب، وقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[المدثر: ٥] قالوا: عبادة الأوثان.

وأصل «الرجز» في اللغة: تتابع الحركات، فمن ذلك قولهم: «رجزاء» إذا كانت ترتعد قوائمها عند قيامها، ومن هذا رجز الشعر لأنه أقصر أبيات الشعر، والانتقال فيه من بيت إلى بيت سريع نحو قوله [من مجزوء الرجز]:

يا لَيتَني فيها جَذَع   أَخُبُّ فيها وَأَضَع[3]

ونحو قولهم [من منهوك المنسرح]:

صبراً بني عبد الدار[4]

ونحو قولهم [من الرجز]:

ما هاجَ أَحزاناً وَشَجواً قَد شَجا[5]

وزعم الخليل أن الرجز ليس بشعر، وإنما هو أنصاف أبيات أو أثلاث، ودليل الخليل في ذلك ما روي عن النبي ﷺ [من الطويل][6]:

---

(١) هو: العجاج.

(٢) انظر: لسان العرب (٩٤/٦).

(٣) هو: دريد بن الصمة، والبيت وارد في: تفسير الطبري (٣٨٣/٦)، وتفسير القرطبي (١٤٢/٨)، وفتح القدير (٥٣٣/٢)، وتفسير البغوي (٤٧٧/١)، وزاد المسير (٢٥٢/٣)، والأغاني (١١٤/٣)، وجمهرة خطب العرب (١٧١/١)، ولسان العرب (٣٤٨/٤)، وتاج العروس (٥١٤٥/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٥٣/٢).

(٤) قالته هند بنت عتبة. انظر: لسان العرب (٣٤٨/٤).

(٥) هو: العجاج، انظر: تفسير الطبري (١١٨/١)، والخصائص (٩٨/٢)، ولسان العرب (٣٤٨/٤).

(٦) وهو: لطرفة بن العبد.

سَتُبدي لَكَ الأَيّامُ ما كُنتَ جاهِلاً وَيَأتيكَ بِالأَخبارِ مَن لَم تُزَوِّدِ(١)

قال الخليل: لو كان نصف البيت شعراً ما جرى على لسان النبي ﷺ.

«سَتُبدي لَكَ الأَيّامُ ما كُنتَ جاهِلاً»، وجاء النصف الثاني على غير تأليف الشعر، لأن نصف البيت لا يقال له: شعر ولا بيت، ولو جاز أن يقال: لنصف البيت شعر لقيل لجزء منه: شعر.

وجرى على لسان النبي ﷺ فيما روى: «أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب».

قال بعضهم: إنما هو لا كذب أنا ابن عبد المطلب، بفتح الباء على الوصل.

قال الخليل: فلو كان شعراً لم يجر على لسان النبي ﷺ، قال الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[يس: ٦٩]، أي: ما يسهل له، قال الأخفش: كأن قول الخليل إن هذه الأشياء شعر، وأنا أقول: إنها ليست بشعر، وذكر أنه ألزم الخليل أن الخليل اعتقده.

ومعنى «الرجز»: العذاب المقلقل لشدته، قلقلة شديدة متتابعة، ومعنى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اتركوه، واشتقاقه في اللغو كونوا جانباً منه أي: في ناحية.

وقوله: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ هذه اللام لام القسم، واللام مفتوحة لالتقاء الساكنين في قول بعضهم: «أغزون يا رجل»، فأما لام «لَتُبْلَوُنَّ»، فزعم سيبويه أنها مبنية على الفتح؛ وقد أحكمنا شرح هذا قبل هذا الموضع.

معنى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ ليختبرون طاعتكم من معصيتكم.

﴿بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾؛ فقال -عز وجل- بشيء من الصيد فبعض، وهو يتحمل وجهين؛ أحدهما: أنه على صيد البر دون صيد البحر، والثاني: أنه لما عنى الصيد ما داموا في الإحرام كان ذلك بعض الصيد. وجائز أن يكون على وجه ثالث، ويكون «من» هذه تبين جنساً من الأجناس، تقول: «لأمتحننك بشيء من الورق»، أي: لأمتحننك بالجنس الذي هو ورق، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠] والأوثان كلها رجس؛ المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧٦٣/٣)، وتفسير القرطبي (٤٨/١٥)، وفتح القدير (٥٣٩/٤)، وتفسير البغوي (١/ ٢٦)، وروح المعاني (٤٩/٢٣)، وتفسير الصنعاني (١٤٥/٣)، ومعاني القرآن (٥١٥/٥)، وشرح قطر الندى (١٠٨/١)، والأغاني (٢٥٨/٤)، والمستطرف (٣٦٨/٢)، وخزانة الأدب (٤٢٢/١)، وصبح الأعشى (١/ ٣٥٠)، وشرح كتاب الأمثال (٣٠١/١)، ولسان العرب (٣٤٨/٤)، وتاج العروس (٣٧٢٧/١).

ومعنى قوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ الذي تناله الأيدي نحو: «بيض النعام» وفراخه وما كان صغيراً ينهض من مجثمه من غير النعام وسائر ما يفوق اليد بحركته من سائر الوحش، فحرم جميع صيد البر الجراد وكل ما يصطاد فحرام صيده ما داموا حرماً. وبين رسول الله ﷺ أن كل ما اصطيد في الحرم حرام، كانوا أو غير محرمين.

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّداً﴾؛ أي: عمداً لقتله، كأنه ناس أنه محرم، ومتعمد للقتل، وجائز أن يقصد القتل وهو يعلم أنه محرم.

وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾؛ و«فجزاء مثلِ ما قتل» برفع مثل وجرها.

فمن رفعهما جميعاً فرفعه على معنى: فعليه جزاء مثل الذي قتل، فيكون «مثل» من نعت الجزاء، ويكون أن ترفع «جزاء» على الابتداء ويكون ﴿مِثْلُ مَا قَتَلَ﴾ خبر الابتداء، ويكون المعنى: فجزاء ذلك الفعل مثل ما قتل، ومن جر أراد فعليه جزاء مثل ذلك المقتول من النعم.

والنعم في اللغة: هي الإبل والبقر والغنم، وإن انفردت الإبل منها قيل: لها «نعم» وإن انفردت الغنم والبقر لم تسم نعماً.

فكان عليه بحذاء حمار الوحش وبقرة الوحش بدنة، وعليه بحذاء الظباء من الغنم شاة.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ﴾؛ أي: من أهل ملتكم، فعلى قاتل الصيد أن يسأل فقيهين عدلين عن جزاء ما قتل، ويقولان له: أقتلت صيداً قبل هذا وأنت محرم ؟ فإن اعترف بأنه قتل صيداً قبل ذلك لم يحكما عليه بشيء، لقول الله -عز وجل-: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ وإن لم يعترف نظراً فيما قتل. فإن كان كالإبل حكماً عليه بها ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾ وإن كان كالشاء حكماً عليه بمثل ذلك. وإن كانت القيمة لا تبلغ نظراً فقدراً قيمة ذلك، وأطعم بثمن ذلك المساكين، كل مسكين.

قال بعضهم: صاعاً من حنطة، وقال بعضهم: نصف صاع أو صام بعدل ذلك على ما توجبه السنة، ويجوز أن تكون «أو» هي الأجود في اللغة للتخيير، فإن شاء أهدى وإن شاء قوّم له الهدي وأطعم بدله على ما وصفنا، وجعل مثل ذلك صياماً لأن «أو» للتخيير.

وقال بعضهم: كأنه إن لم يقدر على الإبل والغنم فينبغي أن يطعم أو يصوم، والذي يوجبه اللفظ التخيير، وأهل الفقه أعلم بالسنة في ذلك، إلا أني أختار على مذهب اللغة أنه مخير.

وقوله: ﴿هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾؛ منصوب على الحال.

المعنى: يحكمان به مقدراً أن يهدي، و﴿بَالِغَ الكَعْبَةِ﴾ لفظه لفظ معرفة، ومعناه: النكرة؛ المعنى: بالغاً الكعبة، إلا أن التنوين حذف استخفافاً.

ومعنى قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾؛ أو مثل ذلك، قال بعضهم: عدل الشيء مثله من جنسه، وعدله مثله من غير جنسه بفتح العين، وقال إلا أن بعض العرب يغلط فيجعل «العَدْل والعِدْل» في معنى المثل، وإن كان من غير جنس الأول.

قال البصريون: العدل والعدل في معنى المثل، والمعنى واحد كان المثل من الجنس أو من غير الجنس، كما أن المثل ما كان من جنس الشيء ومن غير جنسه، مثل ولم يقولوا إن العرب غلطت، وليس إذا أخطأ مخطئ يوجب أن تقول: إن بعض العرب غلط.

وقوله: ﴿صِيَاماً﴾؛ منصوب على التمييز.

المعنى: أو مثل ذلك من الصيام.

﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾؛ «الوبال»: ثقل الشيء في المكروه، ومنه قولهم: «طعام وبيل، وماء وبيل» إذا كانا ثقيلين غيرناميين في المال، قال -عز وجل-: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾[المزمل: ١٦] أي: ثقيلاً شديداً، و«الوبيل»: خشبة القصار ومن هذا قيل لها: «وبيل»، قال طرفة بن العبد [من الطويل]:

* عَقيلَةُ شَيخٍ كَالوَبيلِ يَلَندَدِ(١)*

وقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾؛ الفاء جواب الجزاء.

والمعنى أنه -والله أعلم-: ومن عاد مستحلاً للصيد بعد أن حرمه الله منه فينتقم الله منه أي: فيعذبه الله.

وجائز أن يكون: من عاد مستخفاً بأمر الله فجزاؤه العذاب كجزاء قاتل النفس.

وقوله: ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾؛ أي: أحل لكم صيد البحر، وأحل لكم طعام البحر للسيارة، فأما صيده فمعروف، وأما «طَعَامُه» فقد اختلف فيه فقال بعضهم: ما نضب الماء عنه فأخذ بغير صيد فهو طعامه، وقال: «طعامه» هو كل ما سقاه الماء فأنبت فهو طعام البحر، لأنه نبت عن ماء البحر، فأعلمهم الله أن الذي أحل لهم كثير في البر والبحر، وأن الذي حرم عليهم إنما هو صيد البر في حال الإحرام.

---

(١) انظر: معاني القرآن (٢/٣٦٣)، ولسان العرب (١١/٧١٨)، وتاج العروس (١/٧٣٤٤).

وسن النبي ﷺ تحريم الصيد في الحرم ليكون قد أعذر إليهم من الانتقام ممن عاود ما حرم الله عليه مع كثرة ما أحل الله له.

و«متاعاً»: منصوب مصدر مؤكد، لأنه لما قال أحل لكم كان دليلاً على أنه قد متعهم به، كما أنه لما قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[النساء: ٢٣] كان دليلاً على أنه قد كتب عليهم ذلك، فقال: ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾.

وقوله -جل وعز-: ﴿جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾؛ قيل: إنما سميت الكعبة لتربيع أعلامها.

ومعنى ﴿قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ أي: مما أمروا به أن يقوموا بالفرض فيه. وكذلك: ﴿وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ﴾؛ فأما من قال: إنه آمن فلأن الله قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[آل عمران: ٩٧] ولم تزل العرب تترك القتال في الشهر الحرام، وكان يسمى رجب: «الأصم» لأنه لا يسمع فيه صوت السلاح.

وأما من قال: «جعلت هذه الأشياء ليقوم الناس بها» فإنما عنى متعبداتهم بالحج وأسبابه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الله لما آمن من الخوف البلد الحرام، والناس كان يقتل بعضهم بعضاً، وجعل الشهر الحرام يمتنع فيه من القتل، والقوم أهل جاهلية، فدل بذلك أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض، إذ جعل في أعظم الأوقات فساداً ما يؤمن به. وفيه قول آخر: وهو عندي أبين، وهو أن ذلك مردود على ما أنبأ الله به على لسان نبيه في هذه السورة من قوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[المائدة: ٤١].

فأخبر بنفاقهم الذي كان مستتراً عن المسلمين، وما أخبر به أنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾[المائدة: ٤١]. فأظهر الله ما كانوا أسروه من قصة الزانين، ومسألتهم إياه ﷺ وما شرحناه مما كانوا عليه في ذلك، فأظهر الله -جل وعز- نبيه والمؤمنين على جميع ما ستروا عنهم.

فالمعنى: -والله أعلم- ذلك لتعلموا الغيب الذي أنبأتكم به عن الله، يدلكم على أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض.

ودليل هذا القول وقوله -جل وعز-: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾.

﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ تظهر لكم، يقال: بدا لي الشي يبدو إذا ظهر.

جاء في التفسير أن النبي ﷺ خطب الناس فأعلمهم أن الله قد فرض عليهم الحج، فقام رجل من بني أسد فقال: يا رسول الله أفي كل عام، فأعرض عنه ﷺ فعاد الرجل ثانية، فأعرض عنه، ثم عاد ثالثة فقال ﷺ: «ما يؤمنك أن أقول نعم فتجب فلا تقومون بها فتكفرون».

تأويل «تكفرون» -والله أعلم- ههنا: أنكم تَدْفَعُونَ لِثِقْلِهَا وُجُوبَهَا فتكفرون. وقال ﷺ: «اتركوني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة اختلافهم على أنبيائهم».

وسأله ﷺ رجل كان يتنازعه اثنان يدعي كل واحد منهما أنه أبوه، فأخبر ﷺ بأبيه منهما، فأعلم الله -عز وجل- أن السؤال عن مثل هذا الجنس لا ينبغي أن يقع، فإنه إذا ظهر منه الجواب ساء ذلك. وخاصة في وقت سؤال النبي ﷺ عن جهة تبيين الآيات، فنهى الله عن ذلك، وأعلم أنه قد عفا عنها، ولا وجه عن مسألة ما نهى الله عنه، وفيه فضيحة على السائل إن ظهر.

و﴿أَشْيَاءَ﴾ في موضع جر إلا أنها فتحت لأنها لا تنصرف.

وقال الكسائي: أشبه آخرها آخر حمراء، ووزنها عنده أفعال، وكثر استعمالهم فلم تصرف.

وقد أجمع البصريون وأكثر الكوفيين على أن قول الكسائي خطأ في هذا، وألزموه ألا يصرف أبناء وأسماء.

وقال الأخفش -سعيد بن مسعدة- والفراء: أصلها «أفعلاء» كما تقول: «هين وأهوناء» إلا أنه كان الأصل أشيئاء على وزن «أشبعاع» فاجتمعت همزتان بينهما ألف، فحذفت الهمزة الأولى. وهذا غلط أيضاً. لأن «شيئاً» فَعْل، وفَعْل لا يجمع على: «أفعلاء»، مثل: «نصيب وأنصباء».

وقال الخليل: «أشياء» اسم للجميع كان أصله: «فعلاء»: شيئاء، فاستثقلت الهمزتان فقلبت الأولى إلى أول الكلمة فجعلت: «لفعاء» كما قالوا: «أنوق» فقلبوا: «أينق»، كما قلبوا: «قووس» فقالوا: «قسي».

ويصدق قول الخليل جمعهم «أشياء» على: «أشاوي، وأشاياه»، وقول الخليل هو

مذهب سيبويه وأبي عثمان المازني وجميع البصريين إلا الزيادى منهم، فإنه كان يميل إلى قول الأخفش.

وذكروا أن المازني ناظر الأخفش في هذا فقطع المازني الأخفش، وذلك أنه سأله: كيف تصغر «أشياء» فقال: «أُشَيَّاء»، فاعلم. ولو كانت «أفعلاء» لردت في التصغير إلى واحدها، فقيل: «شُيَيْئَات»، وإجماع البصريين أن تصغير: «أصدقاء» إذا كان للمؤنثات: «صُدَيِّقَات» وإن كان للمذكرين: «صُدَيِّقُون».

وقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾؛ أثبت ما روينا في تفسير هذه الأسماء عن أهل اللغة ما أذكره ههنا:

قال أهل اللغة: «البحيرة» ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً، نحروا أذنها -أي: شقوها- وامتنعوا من ركوبها وذبحها، ولا تطرد عن ماءٍ ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المعيي لم يركبها.

و«السائبة»: كان الرجل إذا نذر لقدوم من سفر أو برء من علة أو ما أشبه ذلك قال: «ناقتي هذه سائبة»، فكانت كالبحيرة في أن لا ينتفع بها وأن لا تجلى عن ماء، ولا تمنع من مرعى.

وكان الرجل إذا أعتق عبداً قال: «هو سائبة»، فلا عقل بينهما ولا ميراث.

وأما «الوصيلة»: ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا: «وصلت أخاها»، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

وأما «الحامي» فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن، حمي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. فأعلم الله أنه لم يحرم من هذه الأشياء شيئاً، وأن الذين كفروا افتروا على الله.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ معناه: إنما ألزمكم الله أمر أنفسكم.

﴿لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؛ أي: لا يؤاخذكم الله بذنوب غيركم، وليس يوجب لفظ هذه الآية ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلم الله أنه لا يضر المؤمن كفر الكافر، فإذا ترك المؤمن الأمر بالمعروف وهو مستطيع ذلك فهو ضال، وليس بمهتد.

وإعراب: ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ﴾ الأجود أن يكون رفعاً ويكون على جهة الخبر؛ المعنى: ليس يضركم من ضل إذا اهتديتم. ويجوز أن يكون موضعه جزماً، ويكون الأصل: «لا يضرركم» إلا أن الراء الأولى أدغمت في الثانية فضمنت الثانية لالتقاء الساكنين،

ويجوز في العربية على جهة النهي: و«لا يضرَّكم» بفتح الراء، و«لا يضرِّكم» بكسرها. ولكن القراءة لا تخالف، ولأن الضم أجود كان الموضع رفعاً أو جزماً.

فأما من ضم لالتقاء الساكنين فأتبع الضم الضم، وأما من كسر فلأن أصل التقاء الساكنين الكسر، وأما من فتح فلخفة الفتح، فتح لالتقاء الساكنين.

وهذا النهي للفظ غائب يراد به المخاطبون، إذا قلت: «ولا يضررك كفر الكافر»؛ فالمعنى: لا تعدن أنت كفره ضرراً، كما أنك إذا قلت: «لا أرنيك ههنا»، فالنهي في اللفظ لنفسك؛ معناه: «لمخاطبك»؛ معناه: لا تكونن ههنا.

وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ**﴾.

معناه: أن الشهادة في وقت الوصية هي للموت ليس أن الموت حاضرُه وهو يوصي بما يقول الموصي، صحيحاً كان أو غير صحيح: «إذا حضرني الموت»، أو«إذا مت فافعلوا واصنعوا».

والشهادة: ترتفع من جهتين؛ أحدهما: أن ترتفع بالابتداء ويكون خبرها «اثنان»؛ والمعنى: شهادة هذه الحال شهادة اثنين، فتحذف شهادة ويقوم اثنان مقامها.

ويجوز أن يكون رفع ﴿**شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ**﴾ على معنى: وفيها فرض الله عليكم في شهادتكم أن يشهد ﴿**اثْنَانِ**﴾، فيرتفع ﴿**اثْنَانِ**﴾ بـ﴿**شَهَادَةُ**﴾؛ والمعنى: أن يشهد اثنان ذوا عدل منكم.

معنى ﴿**مِنكُمْ**﴾ قيل: فيه قولان؛ قال بعضهم: ﴿**مِنكُمْ**﴾ من أهل دينكم.

﴿**أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**﴾ من غير أهل ملتكم.

وقال بعضهم: ﴿**ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ**﴾ من أهل الميت، ﴿**أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**﴾ من غير أهل الميت، واحتج هؤلاء بأن قوله: ﴿**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**﴾ يدل على أن ﴿**مِنكُمْ**﴾ من ذوي قراباتكم.

وقال: هؤلاء إذا كانوا أيضاً عدولاً من قرابات الميت، فهم أولى لأنهم أعلم بأحوال الأهل من الغرائب، وأعلم بما يصلحهم، واحتجوا أيضاً بأن «ذوي عدل» لا يكونان من غير أهل ملة الإسلام لأن الكفر قد باعد من العدالة.

فأعلم الله -عز وجل- أن الوصية ينبغي أن يكون شاهدها عدلين من أهل الميت أو

من غير أهله إن كان الموصي في حضر وكذلك إن كان في سفر.

فقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ المَوْتِ﴾؛ ذكر الموت في السفر بعد قوله: إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية، فكأن في الآية -والله أعلم- دليلاً على الشهادة في الحضر والسفر.

وقد جاء في التفسير: أن اثنين كانا شَهِدَا في السفر غير مسلمين، وللإجماع أن الشهود لا يجب أن يحلفوا. وقد أجاز قوم في السفر شهادة الذميين، وقال الله -عز وجل-: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾[الطلاق: ٢]، وقال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[البقرة: ٢٨٢]، والشاهد: إذا علم أنه كذاب لم تجر أن تقبل شهادته، وقد علمنا أن النصارى زعمت أن الله ثالث ثلاثة وأن اليهود قالت إن العزير ابن الله وعلمنا أنهم كاذبون، فكيف يجوز أن تقبل شهادة من هو مقيم على الكذب؟

ومعنى قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾[المائدة: ١٠٦]، كان الناس بالحجاز يحلفون بعد صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس.

وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾؛ إن وقع في أنفسكم منهم ريب، أي: ظننتم بهم ريبة.

وقوله: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً﴾؛ أي: فإن اطلع على أنهما قد خانا.

﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾، وقد قرئت «الأولين»، ويجوز: «من الذين استحق عليهم الأوليان» وهذا موضع من أصعب ما في القرآن في الإعراب.

«فأوليان» في قول أكثر البصريين يرتفعان على البدل مما في ﴿يَقُومَانِ﴾؛ المعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾؛ فإذا ارتفع ﴿الأَوْلَيَانِ﴾ على البدل، فاللذان في استحق من الضمير معنى الوصية؛ المعنى: فليقم الأوليان من الذين استحقت الوصية عليهم، أو استحق الإيصاء عليهم.

وقال بعضهم: معنى ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾؛ معناه: استحق فيهم، وقامت «على» مقام «في» كما قامت «في» مقام «على» في قوله: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[طه: ٧١] ومعناه: على جذوع النخل.

وقال بعضهم: معنى على ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾ كما قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾[المطففين: ٢] أي: إذا اكتالوا من الناس، وقيل: إن في

«استحق» ذكر الإثم، لأن قوله -عز وجل-: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾ كان؛ المعنى: الذين جنى الإثم عليهم. وقيل إن ﴿الأَوْلَيَانِ﴾ جائز أن يرتفعا باستحق، ويكون معناهما: الأوليان باليمين، أي: بأن يحلفا من يشهد بعدهما، فإن جاز شهادة النصرانيين كان ﴿الأَوْلَيَانِ﴾ على هذا القول النصرانيين، أو الآخران من غير بيت الميت. وأجود هذه الأقوال أن يكون ﴿الأَوْلَيَانِ﴾ بدلاً، على أن المعنى: ليقم الأوليان من الذين استحقت عليهم الإيصاء الأولين، واحتج من قرأ بهذا فقال: أرأيت إن كان الأوليان صغيرين ؟.

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾؛ أي: ذلك أقرب من الإتيان بالشهادة على وجهها، وأقرب إلى أن يخافوا.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾؛ أما نصب «يوم» فمحمول على قوله: ﴿... وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُوا﴾ أي: واتقوا يوم يجمع الله الرسل، كما قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً﴾[البقرة: ٤٨].

ومعنى المسألة من الله تعالى للرسل تكون على جهة التوبيخ الذين أرسلوا إليهم، كما قال -عز وجل-: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: ٨، ٩] فإنما تسأل ليوبخ قاتلوها، وأما إجابة الرسل وقولهم: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ فقد قال الناس في هذا غير قول:

جاء في بعض التفسير: أنه عزبت عنهم أفهامهم لهول يوم القيامة فقالوا: لا علم لنا مع علمك، وقال بعضهم: لو كانت عزبت أفهامهم لم يقولوا إنك أنت علام الغيوب، وقال بعضهم: معنى قول الرسل ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ أي: بما غاب عنا ممن أرسلنا إليه، أنت يا ربنا تعلم باطنهم ولسنا نعلم غيبهم إنك أنت علام الغيوب.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ أما نعمته على والدته فإنه اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وكان رزقها يأتيها من عنده وهي في محرابها.

وقوله: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾؛ أي: أيدتك بجبريل، جائز أن يكون قوله: «به[1]»، إذ حاولت بنو إسرائيل قتله، وجائز أن يكون أيده به في كل أحواله، لأن في الكلام دليلاً على ذلك.

---

(١) أي تأييده بروح القدس.

وقوله: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾؛ أي: أيدتك مكلماً الناس في المهد ﴿وَكَهْلاً﴾ أي: أيدتك كهلاً، وجائز أن يكون ﴿وَكَهْلاً﴾ محمولاً على تكلم، كأن المعنى: أيدتك مخاطباً للناس في صغرك ومخاطباً الناس كهلاً، وقرأ بعضهم: «أأيدتك» على أفعلتك من الأيد، وقرأ بعضهم: «آيدتك» على فاعلتك أي: عاونتك.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾؛ ﴿الأَكْمَهَ﴾ قال بعضهم: الذي يولد أعمى، قال الخليل: هو الذي يولد أعمى، وهو الذي يعمى بعد أن كان بصيراً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾.

قال بعضهم: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي: ألهمتهم كما قال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾[النحل: ٦٨]، أي: ألهمها.

وقال بعضهم: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾؛ أمرهم.

وأنشدوا قول الشاعر[1] [من الرجز]:

الحَمدُ للهِ الَّذي استَقَلَّتِ
بِإِذنِــهِ السَماءُ وَاطمَأَنَّتِ

قالوا؛ معناه: أمرها.

وقال بعضهم: معنى ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أتيتهم في الوحي إليك بالبراهين والآيات التي استدلوا بها على الإيمان فآمنوا بي.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ جائز أن يكون موضع «عيسى» نصباً، كما تقول: يا زيد بن عمرو، لأن ابنا إذا أضيف إلى اسم معروف علم أو أضيف إلى كنية معروفة جعل وما قبله كالشيء الواحد فجميع النحويين يختارون: «يا زيد بن عمرو»، وكلهم يجيزون: «يا زيد بن عمرو».

وعلى هذا جائز أن يكون موضع عيسى موضع اسم مبني على الضم.

قالوا كلهم: فإن قلت: «يا زيد بن أخينا، ويا زيدا ابن الرجل الصالح» فضممت «زيداً» لا غير. لأن النصب إنما يكون إذا أضيف «ابن» إلى علم كما وصفنا. وقد قرئ: «هل تستطيع ربك»، و﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾.

فمن قرأ: «هل تستطيع ربك»؛ فالمعنى: هل تستدعي إجابته وطاعته في أن ينزل

---

(١) هو: العجاج. وأورده الألوسي في روح المعاني (٥٨/٧) من إنشاد الزجاج.

علينا، ومن قرأها ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ كان معناه: هل يقدر ربك.

قال أبو إسحاق: وليس المعنى: عندي -والله أعلم- أنهم جهلوا أن الله يقدر على أن ينزل مائدة،ولكن وجه السؤال: «هل ترينا أنت أن ربك يرينا ما سألنا من أجلك من آياتك التي تدل على نبوتك ؟».

فأما المائدة فقال أبوعبيدة: إنها في المعنى: «مفعولة» ولفظها: «فاعلة»، قال: وهي مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[الحاقة: ٢١]، وقال: إن المائدة من العطاء، والممتاد المفتعل المطلوب منه العطاء، قال الشاعر(١) [من الرجز]:

* إِلَى أَمِير المُؤمِنِين المُمْتادْ *

و«ماد زيد عمراً» إذا أعطاه. والأصل عندي في «مائدة» أنها «فاعلة» من: «مَادَ يَمِيدُ» إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها.

وقيل في التفسير: إنها أنزلت عليهم في يوم الأحد وكان عليها خبز وسمك، فالنصارى تجعل الأحد عيداً -فيما قيل- لذلك، وقال بعضهم: إنها لم تُنزَّل للتَّهَوُّد الذي وقع في الكفر بعد نزولها، والأشبه: أن تكون؛ لأن نزولها قد جاء ذكره في هذه القصة.

قال الله -عز وجل-: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

وقال غير أهل الإسلام إنها نزلت، والأخبار أنها انتهت، فالتصديق بها واجب.

فأما وجه مسألة الحواريين عيسى المائدة فيحمل ضربين؛ أحدهما: أن يكونوا ازدادوا تثبيتاً، كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى﴾[البقرة: ٢٦٠]. وجائز أن تكون مسألتهم المائدة قبل علمهم أنه أبرأ الأكمه والأبرص وأنه أحيى الموتى. وأما قول عيسى للحواريين: ﴿اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فإنما أمرهم ألا يقترحوا هم الآيات، وألا يقوموا بين يدي الله ورسوله، لأن الله قد أراهم الآيات والبراهين بإحياء الموتى وهو أوكد فيما سألوا وطلبوا.

وقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾.

ذكر سيبويه أن «اللهم» كالصوت وأنه لا يوصف، وأن ﴿رَبَّنَا﴾ منصوب على نداء آخر، وقد شرحنا هذا قبل شرحاً تاماً.

ومعنى قوله: ﴿وَآيَةً مِنكَ﴾؛ أي: فتكون لنا علامة منك.

---

(١) هو: رؤبة بن العجاج.

وأما قوله: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِن العَالَمِينَ﴾ فجائز، أن يكون يعجل لهم العذاب في الدنيا،وجائز أن يكون في الآخرة لقوله: ﴿لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِن العَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ فالمسألة ههنا على وجه التوبيخ للذين ادعوا عليه لأنهم مجمعون أنه صادق الخبر وأنه لا يكذبهم وهو الصادق عندهم، فذلك أوكد في الحجة عليهم وأبلغ في توبيخهم، والتوبيخ ضرب من العقوبة.

قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾. أي: براء أنت من السوء ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

وأما قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾.

و﴿الغُيُوبِ﴾ بالكسر والضم.

قال أبو إسحاق: هذا موضع أعني ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ يلبس به أهل الإلحاد على من ضعف علمه باللغة ولا تعلم حقيقة هذا إلا من اللغة.

قال أهل اللغة: «النفس» في كلام العرب تجري على ضربين؛ أحدهما: قولك: «خرجت نفس فلان وفي نفس فلان أن يفعل كذا وكذا». والضرب الآخر معنى النفس فيه معنى جملة الشيء ومعنى حقيقة الشيء: «قتل فلان نفسه، وأهلك فلان نفسه» فليس معناه: أن الإهلاك وقع ببعضه، إنما الإهلاك وقع بذاته كلها، ووقع لحقيقته.

ومعنى ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، أي: تعلم ما أضمره، ولا أعلم ما في نفسك. لا أعلم ما في حقيقتك وما عندي علمه.

فالتأويل: إنك تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم، ويدل عليه: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾.

فإنما هو راجع إلى الفائدة في المعلوم والتوكيد أن الغيب لا يعلمه إلا الله -جل ثناؤه-.

وقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ جائز أن تكون في معنى «أي» مفسرة؛ المعنى: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أي: اعبدوا، ويجوز أن تكون «أن» في موضع جر على البدل من الهاء، وتكون «أن» موصولة بـ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ومعناه: إلا ما أمرتني به بأن يعبدوا الله، ويجوز أن يكون موضعها نصباً على البدل، من «ما»؛ المعنى: ما قلت لهم شيئاً إلا أن اعبدوا الله، أي: ما ذكرت لهم إلا عبادة الله.

وقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾.

معنى قول عيسى -عليه السلام- ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، اختلف أهل النظر في تفسير قول عيسى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، فقال بعضهم: معناه: إن تغفر لهم كذبهم علي، وقالوا: لا يجوز أن يقول عيسى -عليه السلام-: إن الله يجوز أن يغفر الكفر، وكأنه على هذا القول: إن تغفر لهم الحكاية فقط، هذا قول أبي العباس محمد بن يزيد، ولا أدري أشيء سمع أم استخرجه، والذي عندي -والله أعلم-، أن عيسى قد علم أن منهم من آمن ومنهم من أقام على الكفر، فقال عيسى في جملتهم: إن تعذبهم أي: إن تعذب من كفر منهم، ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وأنت العادل عليهم لأنك أوضحت لهم الحق وكفروا بعد وجوب الحجة عليهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ﴾ لمن أقلع منهم وآمن فذلك تفضل منك لأنه قد كان لك ألا تقبلهم، وألا تغفر لهم بعد عظيم فريتهم، وأنت في مغفرتك لهم عزيز لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم في ذلك.

وقال بعض الناس: جائز أن يكون الله لم يعلم عيسى أنه لا يغفر الشرك، وهذا قول لا يعرج عليه لأن قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء: ٤٨] لا يخص شيئاً من أمة محمد ﷺ دون غيرها، لأن هذا خبر والخبر لا ينسخ، وهذا القول دار في المناظرة وليس شيئاً يعتقده أحد يوثق بعلمه.

وقوله: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ القراءة برفع «اليوم» ونصب «اليوم» جميعاً، فأما من رفع «اليوم» فعلى خبر هذا اليوم، قال الله اليوم ذو منفعة صدق الصادقين، ومن نصب فعلى أن «يوم» منصوب على الظرف؛ المعنى: قال الله هذا لعيسى في يوم ينفع الصادقين صدقهم، أي: قال الله هذا في يوم القيامة، ويجوز أن يكون قال الله هذه الأشياء، وهذا الذي ذكرناه يقع في يوم ينفع الصادقين صدقهم.

وزعم بعضهم أن «يوم» منصوب لأنه مضاف إلى الفعل، وهو في موضع رفع بمنزلة يومئذ مبني على الفتح في كل حال، وهذا عند البصريين خطأ، لا يجيزون: «هذا اليوم آتيك» يريدون هذا يوم إتيانك، لأن «آتيك» فعل مضارع، فالإضافة إليه لا تزيل الإعراب عن جهته، ولكنهم يجيزون: «ذلك يوم نفع زيداً صدقه»، لأن الفعل الماضي غير مضارع، فهي إضافة إلى غير متمكن وإلى غير مضارع المتمكن.

وفيها وجه ثالث ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ بتنوين «يَوْمٌ» على إضمار ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنفَعُ

الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾، ويكون كقوله: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نفْسٍ شَيْئاً**﴾[البقرة: ٤٨].

ومثله قول الشاعر(١) [من الطويل]:

وما الدهر إلا تارتانِ فَمِنهُما أَموتُ وأُخرى أَبتغي العيشَ أكدَحُ(٢)

المعنى: فمنهما تارة أموت فيها.

* * *

---

(١) هو: العجير السلولي.

(٢) مر ذكره.

سورة الأنعام (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال أبو إسحاق: بلغني من حيث أثق به أن سورة الأنعام نزلت كلها جملة واحدة، نزل بها سبعون ألف ملك لهم زَجَلٌ بالتسبيح، وأن أكثرها احتجاج على مشركي العرب. على من كذب بالبعث والنشور، فابتدأ الله -عز وجل- بحمده فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

فذكر أعظم الأشياء المخلوقة لأن السماء بغير عمد ترونها والأرض غير مائدة بنا، ثم ذكر الظلمات والنور، وذكر أمر الليل والنهار، وهو مما به قوام الخلق، فأعلم الله -عز وجل- أن هذه خلق له، أن خالقها لا شيء مثله، وأعلم مع ذلك أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة الأنعام من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف السادسة. عدد آياتها خمس وستون ومائة آية. جاءت تسميتها الأنعام لورود ذكر الأنعام فيها.

وروي أن مشركي مكة قالوا للرسول ﷺ لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه ملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنّك رسوله، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[الأنعام: ٧].

وسورة الأنعام من السور المكية الطويلة يدور محورها على أهداف السور المكية فقد تناولت العقيدة وأصول الإيمان وتناولت خلال ذلك القضايا الأساسية: قضية الألوهية، وقضية الوحي والرسالة، وقضية البعث والجزاء.

وأفاضت السورة في الحديث حول الأصول الأساسية للدعوة الإسلامية وسلاحها في ذلك الحجج الدامغة والدلائل الباهرة، والبرهان القاطع في طريق الإلزام والإقناع لأن السورة نزلت في مكة على قوم مشركين. فاستخدمت أسلوب التقرير، وأسلوب التلقين. أما أسلوب التقرير فإن السورة تعرض الأدلة المتعلّقة بتوحيد الله، والدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته، وسلطانه وقهره، في صورة الشأن المسلّم، وتضع لذلك ضمير الغائب عن الحسّ الحاضر في القلب، الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾[الأنعام: ٦٠]، و﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[الأنعام: ١٨].

أما أسلوب التلقين فإنه يظهر جليًا في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، فلا يستطيع التخلّص أو التفلّت منها، ويأتي هذا بطريق السؤال والجواب ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[الأنعام: ١٩]. وتعرض لتوحيد الله في الخلق والإيجاد، والتشريع والعبادة مستعرضة قصص الأنبياء وأممهم للعظة والاعتبار.

﴿يَعْدِلُونَ﴾، أي: يجعلون لله عديلاً، فيعبدون الحجارة الموات، وهم يقرون أن الله خالق ما وصف.

ثم أعلمهم الله -عز وجل- أنهم خلقهم من طين، وذكر في غير هذا الموضع أحوال المخلوقين في النطف والعلق والمضغ المخلقة وغير المخلقة، وذلك أن المشركين شكوا في البعث وقالوا: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[يس: ٧٨] ؟ فأعلمهم -عز وجل- أن الذي أنشأهم وأنشأ العظام وخلق هذه الأشياء لا من شيء قادر على أن يخلق مثلها، وهو يحييهم بعد موتهم، فقال -عز وجل-: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾.

أي: جعل لحياتكم أجلاً أي: وقتاً تحيون فيه ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ يعني أمر الساعة والبعث، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ بعد هذا البيان. ﴿تَمْتَرُونَ﴾ أي تشكون.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾؛ «في» موصولة في المعنى: بما يدل عليه اسم الله؛ المعنى: هوالخالق العلم بما يصلح به أمر السماء والأرض.

المعنى: هو المتفرد بالتدبير في السماوات والأرض، ولو قلت: «هو زيد في البيت والدار» لم يجز إلا أن يكون في الكلام دليل على أن زيداً يدبر أمر البيت والدار، فيكون المعنى: هو المدبر في الدار والبيت، ولو قلت: «هو المعتضد الخليفة في الشرق والغرب»، أو قلت: «هو المعتضد في الشرق والغرب» جاز على هذا. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر كأنه قيل: «إنه هو الله، وهو في السماوات وفي الأرض، ومثل هذا القول الأول ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾[الزخرف: ٨٤] ويجوز أن يكون وهو الله في السماوات وفي الأرض، أي: هو المعبود فيهما، وهذا نحو القول الأول.

قوله -عز وجل-: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، دل بهذا أنهم كانوا يستهزئون، وقد ذكر استهزاؤهم في غير هذا المكان.

ومعنى إتيانه أي: تأويله؛ المعنى: سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِن قَرْنٍ﴾؛ موضع «كم» نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، إلا أن هذا الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

وقيل: «القرن» ثمانون سنة، وقيل: سبعون، والذي يقع عندي -والله أعلم-أن القرن أهل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلَّت السنون أو كثرت، والدليل على هذا قول النبي ﷺ: «خيركم قرني -أي أصحابي-، -رحمة الله عليهم- ثم الذين

يلونهم -يعني التابعين-، ثم الذين يلونهم» يعني الذين أخذوا عن التابعين. وجائز أن يكون القرن لجملة الأمة وهؤلاء قرون فيها.

وإنما اشتقاق القرن من الاقتران، فتأويله: أن القرن الذين كانوا مقترنين في ذلك الوقت، والذين يأتون بعدهم ذوو اقتران آخر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً﴾؛ أي: ذات غيث كثير، و«مفعال» من أسماء المبالغة يقال: «ديمة مدرار»، إذا كان مطرها غزيراً دائماً، وهذا كقولهم: «امرأة مذكار»، إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، وكذا «مئناث» في الإناث.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أعلم الله -عز وجل- أنهم قد أَصِلُوا في السيىء الباطل في دفع النبوة، لأنهم قد رأوا القمر انشق فأعرضوا، وقالوا سحر مستمر.

وكذلك يقولون في كل ما يعجز عنه المخلوقون: «سِحر»، هذا عين الدفع لغاية الحق والنور الساطع المبين، فلو رأوا الكتاب ينزل من السماء لقالوا: «سِحر» كما أنهم قالوا في انشقاق القمر: «سِحر».

﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾؛ يعنون على النبي ﷺ.

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾؛ يعني -والله أعلم- أن الآيات مما لا يقع معه إنظار.

ومعنى ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: لتم بإهلاكهم.

و«قضي» في اللغة على ضروب: كلها يرجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه، فمنه قوله -تعالى- : ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾؛ معناه: ثم حَتَمَ بعد ذلك فأتمه، ومنه «الأمر» وهو قوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٢٣]؛ معناه: أمر إلا أنه أمر قاطع حتم، ومنه «الإعلام» وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾[الإسراء: ٤] أي: أعلمناهم إعلاماً قاطعاً، ومنه «القضاء الفصل في الحكم»، وهو قوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ١٤]، ومثل ذلك قولك: «قد قضى القاضي بين الخصوم»، أي: قد قطع بينهم في الحكم، من ذلك: «قد قضى فلان دينه»، تأويله: قطع ما لغريمه عليه فأداه إليه وقطع ما بينه، وكل ما أحكم فقد قضي، تقول: «قد قضيت هذا الثوب، وقد قضيت هذه

الدار» إذا علمتها وأحكمت عملها، قال أبو ذؤيب الهذلي [من الكامل]:

وَعَلَيهِما مَسرودَتانِ قَضاهُما داودُ أَو صَنَعُ السَوابِغِ تُبَّعُ[(١)]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾؛ أي: لو أرسلنا إليهم ملكاً لم نرسله إلا في صورة إنسان، لأن الملك فيما قيل: لو نظر إليه ناظر على هيئته لصعق، وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس، فمن ذلك أن جبريل كان يأتي النبي -عليه السلام- إذا نزل بالوحي في صورة دحية الكلبي، ومنه «نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب»، لأنهما وردا على داود وهما ملكان في صورة رجلين يختصمان إليه، ومنه أن الملائكة أتت إبراهيم في صورة الضيفان وكذلك أتت لوطاً، فلذلك قيل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾؛ يقال: «لبست الأمر على القوم أَلْبِسَه» إذا شبهته عليهم، وأشكلته عليهم، وكانوا هم يلبسون على ضعفتهم في أمر النبي ﷺ فيقولون: إنما هذا بشر مثلكم، فقال: لو أنزلنا ملكاً فرأوا هم الملك رجلاً لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق ضعفتهم منهم.

وقوله: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

«الحيق» في اللغة : ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، ومنه قوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾[فاطر: ٤٣]، أي: لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾.

الله -عز وجل- تفضل على العباد بأن أمهلهم عند كفرهم وإقدامهم على كبائر ما نهاهم عنه بأن أنظرهم وعمرهم وفسح لهم ليتوبوا، فذلك كتبه الرحمة على نفسه.

فأما ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ فهو احتجاج على المشركين الذين دفعوا البعث، فقال -عز وجل-: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ﴾ أي: إلى اليوم الذي أنكرتموه، كما تقول: قد جمعت هؤلاء إلى هؤلاء، أي: ضممت بينهم في الجمع.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٥٥/١)، وتفسير ابن كثير (٦٩٥/٣)، وتفسير القرطبي (٨٤/٢)، وفتح القدير (٤/ ٤٤٨)، وتفسير النسفي (٦٢/٣)، وروح المعاني (١١٥/٢٢)، وزاد المسير (٢٤٦/٧)، وتفسير الثعالبي (٤/ ٨٤)، ومعاني القرآن (٢٥١/٦)، والمفصل في صنعة الإعراب (١٥٢/١)، وثمار القلوب (٥٦/١)، ولسان العرب (٢٠٨/٨)، وتاج العروس (٥٣٨٣/١)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١٨/٢).

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾؛ ذكر الأخفش أن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من الكاف والميم.

المعنى: ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم إلى هذا اليوم الذي يجحدونه ويكفرون به، والذي عندي أن قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ في موضع رفع على الابتداء، وخبره ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، لأن ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مشتمل على سائر الخلق، على الذين خسروا أنفسهم وغيرهم، وهذه اللام في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لام قسم، فجائز أن يكون تمام الكلام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، ثم استأنف فقال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، وكأن المعنى: والله ليجمعنكم، وجائز أن يكون ليجمعنكم بدلاً من الرحمة مفسراً لها، لأنه لما قال ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فسر رحمته بأنه يمهلهم إلى يوم القيامة، ويكون في الإمهال ما فسرنا آنفاً.

وقوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ هذا أيضاً احتجاج على المشركين لأنهم لم ينكروا أن ما استقر في الليل والنهار لله، أي: هو خالقه ومدبره، فالذي هو كذلك قادر على إحياء الموتى.

ثم زاد في الاحتجاج والبيان فقال -عز وجل-: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: خالق السماوات والأرض.

فإن قال قائل فقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[الانفطار: ١]؛ معناه: انشقت فكيف يكون الفطر في معنى الخلق والانفطار في معنى الانشقاق ؟ فإنهما يرجعان إلى شيء واحد، لأن معنى فطرهما خلقهما خلقاً قاطعاً، والانفطار والفطور تقطع وتشقق.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾؛ ويقرأ: ﴿وَلاَ يَطْعَمُ﴾، والاختيار عند البصراء بالعربية، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يَطْعَمُ﴾ بفتح الياء في الثاني.

قالوا معناه: وهو يرزق ويطعم ولا يأكل لأنه الحي الذي ليس كمثله شيء، ومن قرأ: ﴿وَلاَ يُطْعَمُ﴾ فالمعنى: أنه المولى الذي يرزق ولا يرزق، كما أن بعض العبيد يرزق مولاه.

والاختيار في ﴿فَاطِرِ﴾ الجر لأنه من صفة الله -جل وعز-، والرفع فعلى إضمار: ((هو))؛ المعنى: هو فاطر السماوات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم.

ومن نصب فعلى معنى أذكر وأعني بهذا الاحتجاج عليهم، لأن من فطر السماوات والأرض وأنشأهما فيهما وأحكم تدبيرهما وأطعم من فيهما فهو الذي ليس كمثله شيء.

وقوله: ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾؛ أي: من يصرف الله عنه العذاب يومئذ، يعني يوم القيامة الذي ذكر أنهم يجمعون فيه، وتقرأ أيضاً: ﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ

رَحِمَهُ﴾، أي: من يُصرف عنه العذاب يومئذ.

وقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ والشاهد هو المبين لدعوى المدعي.

فأمر الله جل ثناؤه نبيه بأن يحتج عليهم بالله الواحد الذي خلق السماوات الأرض وخلق الظلمات والنور، وخلقهم أطواراً على ما بين في كتابه، وأمر أن يعلمهم أن شهادة الله بأنه واحد، وإقامة البراهين في توحيده أكبر شهادة، وأن القرآن الذي أتى به يشهد له بأنه رسوله فقال: ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، الذي اعترفتم بأنه خالق هذه الأشياء، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾.

ففي الإنذار دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي بمثله لأن فيه أخبار الأمم السالفة، جاء بها -عليه السلام- وهو أمي لا يقرأ الكتب، وأنبأ بما سيكون، وكان ما أنبأ به حقاً.

ثم قال: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧] وكان ﷺ معصوماً منهم، قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فأظهر الله دين الإسلام على سائر الأديان بالحجة القاطعة، وغلبة المسلمين على أكثر أقطار الأرض، وقال في اليهود وكانوا في وقت مبعثه أعز قوم وأمتنه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾[البقرة: ٦١]، فهم أذلاء إلى يوم القيامة. فأنبأ الله في القرآن بما كان وما يكون، وأتى به مؤلفاً تأليفاً لم يقدر أحد من العرب أن يأتي بسورة مثله، وهو في الوقت الذي قيل لهم: ليأتوا بسورة من مثله خطباء شعراء لم يكن عندهم أوجز من الكلام المنثور والموزون، فعجزوا عن ذلك.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ أي: يعرفون محمداً ﷺ أنه نبي كما يعرفون أبناءهم.

ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبد الله بن سلام: يا أبا حمزة؛ هل عرفت محمداً كما عرفت ابنك ؟ قال: نعم، لأن الله بعث أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته فعرفته، فأما ابني فما أدري ما أحدثت أمه، فقال: صدقت يا حمزة.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾؛ رفع على نعت ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وجائز أن يكون على الابتداء ويكون ﴿فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ خبره.

و﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الأشبه أن يكون ههنا يعنى به أهل الكتاب، وجائز أن يكون يعنى به جملة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾؛ إن شئت نصبت ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ على خبر يكن، ويكون أن قالوا هوالاسم، وأنث ﴿تكُن﴾ وهو ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ لأن ﴿أَن قَالُوا﴾ ههنا هو الفتنة.

ويجوز أن يكون تأويل ﴿أَن قَالُوا﴾ إلا مقالتهم. ويجوز رفع «الفتنة» وتأنيث ﴿تكُن﴾ ويكون الخبر ﴿أَن قَالُوا﴾ والاسم فتنتهم، ويجوز ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا، فتذكر ﴿تكُن﴾ لأنه معلق بـ﴿أَن قَالُوا﴾، ويجوز: «ثم لم يكن فتنتهم» بالياء ورفع الفتنة، لأن الفتنة والافتتان في معنى واحد.

وتأويل هذه الآية تأويل حسن في اللغة لطيف لا يفهمه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك، والله -جل وعز- ذكر في هذه الأقاصيص التي جرت في أمر المشركين وهم مفتنون بشركهم. أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه إلا أن تبرأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين.

ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنساناً يحب غاوياً[1]، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه، فتقول له: «ما كانت محبتك لفلان» إلا إن انتفيت منه.

ويجوز ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾ على جر ﴿رَبِّنَا﴾ على النعت والثناء لقوله: ﴿وَاللهِ﴾. ويجوز﴿وَاللهِ رَبَّنا﴾ بنصب «ربنا»، ويكون النصب على وجهين؛ على الدعاء، قالوا: والله يا ربنا ما كنا مشركين. ويجوز نصبه على: «أعني»؛ المعنى: أعني ربنا، وأذكر ربنا، ويجوز رفعه على إضمار «هو»، ويكون مرفوعاً على المدح. والقراءة الجر والنصب، فأما الرفع فلا أعلم أحداً قرأ به.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كنان وهو الغطاء، مثل: «عنان وأعنة».

فأما ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ فمنصوب على أنه مفعول له، والمعنى: وجعلنا على قلوبهم أكنة، لكراهة أن يفقهوه فلما حذفت اللام نصبت الكراهة، ولما حذفت الكراهة انتقل نصبها إلى «أن».

وقوله: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾؛ الوقر: ثقل السمع وهو بالفتح، يقال: في أذنه وقر، وقد

---

(١) أي: شخصاً ضالاً.

وقرت الأذن توقر، قال الشاعر(١) [من الرمل]:

وَكلامٍ سَيِّئٍ قَد وَقَرَت عَنهُ أُذْنايَ وَما بي مِن صَمَم

والوِقر -بكسر الواو- أن يحمل البعير أو غيره مقدار ما يطيق، يقال: «عليه وِقر، ونخلة موقِر وموقِرة» بالكسر أكثر، و«موقِر مثل مرضع»، أي: ذات وِقر كما أن تلك ذات رضاع.

وإنما فعل بهم ذلك مجازاة لهم بإقامتهم على كفرهم، وليس المعنى: أنهم لم يفهموه ولم يسمعوه، ولكنهم لما عدلوا عنه وصرفوا فكرهم عما هم عليه، في سوء العاقبة كانوا بمنزلة من لم يعلم ولم يسمع.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾؛ أي: كل علامة تدلهم على نبوتك.

ثم أعلم الله -عز وجل- مقدار احتجاجهم وجدلهم وأنهم إنما يستعملون في الاحتجاج أن يقولوا ﴿هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، ويقولون: افترى على الله كذباً، فأعلم الله -عز وجل- أنهم ليس يعارضون ما احتج به عليهم من الحق، حيث قيل لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ﴾[البقرة: ٢٣]، وحيث شق لهم القمر، وحيث أنزل على نبيه -عليه السلام- ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، فما أتى أحدٌ بسورة ولا قدر على ضر النبي ﷺ ولا على قتله، وأنبأ -عز وجل- بما سيكون في كتابه فوجد ذلك أجمع، فقال الله -عز وجل-: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

واحدها «إسطار، وأسطورة».

وتأويل «السَّطر» في اللغة: أن تجعل شيئاً ممتداً مؤلفاً، فمن ذلك: «سَطَر الكتاب»، يقال: «سَطْر وسُطَر»، فمن قال «سطر» جمعه: «أَسطار»، قال رؤبة [من الرجز]:

إِنِّي وَأَسْطارٍ سُطِرْنَ سَطْرا لَقائِلٌ يا نَصْرُ نَصْراً نَصْرا(٢)

وجمع «أَسْطَار: أَسَاطِير»، فعلى هذا -عندي- ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

ومن قال «سَطَر». فجمعه: «أَسْطُر»، وجمع الجمع: «أَسَاطِرة، وأَسَاطِير» قال الشماخ

---

(١) هو: المثقب العبدي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٢/١٧٥)، تفسير القرطبي (١/٤١٩)، الكشاف (١/٨٢٢)، مفردات القرآن (١/٦٨٣)، الأصول في النحو (١/٣٣٤)، الخصائص (١/٣٤٠)، مغني اللبيب (١/٥٠٨)، لسان العرب (٤/٣٦٣).

في جمع سطر [من الطويل]:

كَما خَطَّ عِبرانِيَّةً بِيَمينِهِ   بِتَيماءَ حَبرٌ ثُمَّ عَرَّضَ أَسطُرا[(١)]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن النبي ﷺ أن يتبع.

و﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾، أي: يتباعدون عنه، يقال: «نَأَيت عن الشيء أَنْأَى نَأْياً»، إذا بعدت عنه، و«النُّؤَى» حاجز يجعل حول البيت لئلا يدخله الماء من خارج، تحفر حفيرة حول البيت فيجعل ترابها على شفير الحفيرة، فيمنع التراب الماء أن يدخل من خارج، وهو مأخوذ من «النَّأْي» أي: مباعد للماء من البيت.

وقال بعضهم: إنه يعنى به بعض أهل النبي ﷺ، أي: وهم ينهون عن أذى النبي ﷺ ويتباعدون عنه، أي: لا يتبعونه. والكلام متصل بذكر جماعة أهل الكتاب، والمشركين. والقول الأول أشبه بالمعنى.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾؛ القراءة -أكثرها- بالفتح والتفخيم، والإمالة حسنة جيدة، وهي مذهب أبي عمرو. أعني كسر الألف من ﴿النَّارِ﴾، وإنما حسنت الإمالة في قوله: ﴿كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[الجمعة: ٥]، وأصحاب النار، لأن الراء بعد الألف مكسورة وهي حرف كأنه مكرر في اللسان، فصارت الكسرة فيه كالكسرتين.

ومعنى ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه؛ جائز أن يكونوا عاينوها، وجائز أن يكونوا عليها وهي تحتهم، والأجود: أن يكون معنى: ﴿وَقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أُدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، كما تقول في الكلام: «قد وقفت على ما عند فلان»، تريد قد فهمته وتبينته.

﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أكثر القراء بالرفع في قوله: ﴿وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾.

ويكون المعنى: أنهم تمنوا الرد، وضمنوا أنهم لا يكذبون؛ المعنى: يا ليتنا نرد، ونحن لا نكذب بآيات ربنا رددنا أم لم نرد.

﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: قد عاينا وشاهدنا ما لا نكذب معه أبداً.

قال سيبويه: مثله: «دعني ولا أعود»، أي: وأنا لا أعود تركتني أو لم تتركني، ويجوز الرفع على وجه آخر، على معنى: يا ليتنا نرد، ويا ليتنا لا نكذب بآيات ربنا، كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الرفع والنصب أيضاً فيه جائزان، فأما

---

(١) انظر: لسان العرب (١٥٧/٤)، وتاج العروس (٢٦٤٦/١).

النصب فعلى يا ليتنا نرد وتكون يا ليتنا نرد ولا نكذب على الجواب بالواو في التمني كما تقول: «ليتك تصير إلينا ونكرمك»؛ المعنى: ليت مصيرك يقع وإكرامنا، ويكون المعنى: ليت ردنا وقع وأن لا نكذب، أي: إن رددنا لم نكذب.

وقوله -جل عز-: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بل ظهر للذين اتبعوا الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والنشور. لأن المتصل بهذا قوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ فأنكروا البعث ليجرؤوا على المعاصي.

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾؛ قال بعضهم: لو ردوا ولم يعاينوا العذاب لعادوا، كأنه يذهب إلى أنهم لم يشاهدوا ما يضطرهم إلى الارتداع، وهذا -عله- بين. لأن هذا القول منهم بعد أن بعثوا وعلموا أمر القيامة وعاينوا النار.

فالمعنى: أن أكثر من عاين من اليهود والمشركين قد علم أن أمر الله حق فركن إلى الرفاهية، وأن الشيء متأخر عنه إلى أمد كما فعل إبليس الذي قد شاهد من براهين الله ما لا غاية بعده، فأعلم الله -عز وجل- أنهم لو ردوا لعادوا لأنهم قد كفروا بعد وجوب الحجة عليهم.

وقال بعض المفسرين: إن النبي ﷺ سئل فقيل له: ما بال أهل النار عملوا في عمر قصير بعمل أهل النار فخلدوا في النار وأهل الجنة عملوا في عمر قصير بعمل أهل الجنة فخلدوا في الجنة، فقال: «إن الفريقين كان كل واحد منهما على أنه لو عاش أبداً عمل بذلك العمل».

وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ كل ما جاء فقد بغت، يقال:: «قد بَغَتَهُ الأمر يَبْغَتُه بَغْتاً وبَغْتَةً»، إذا أتاه فجاءة، قال الشاعر(١) [من الطويل]:

ولكنّهم بانوا ولـم أدر بغتةً وأفظع شيء حين يفجؤك البغت(٢)

وقوله: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ إن قال قائل: ما معنى دعاء الحسرة، وهي لا تعقل ولا تجيب ؟ فالجواب عن ذلك: أن العرب إذا اجتهدت في الإخبار عن عظيم

---

(١) هو: يزيد بن ضبة الثقفي.

(٢) انظر: تاج العروس (١٠٥٤/١).

تقع فيه جعلته نداء، فلفظه لفظ ما ينبه، والمنبه غيره، مثل قوله -عز وجل-: ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[الزمر: ٥٦]، وقوله: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[هود: ٧٢]، وقوله: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا﴾[يس: ٥٢] فهذا أبلغ من أن تقول: أنا حسر على العباد، وأبلغ من أن تقول: الحسرة علينا في تفريطنا.

قال سيبويه: إنك إذا قلت: «يا عجباه»، فكأنك قلت: «احضر وتعال يا عجب فإنه من أزمانك».

وتأويل «يا حسرتاه»: انتبهوا على أننا قد خسرنا، وهذا مثله في الكلام في أنك أدخلت عليه يا للتنبيه، وأنت تريد الناس قولك: «لا أرينك ههنا»، فلفظك لفظ الناهي نفسه، ولكنه لما علم أن الإنسان لا يحتاج أن لفظ ينهي نفسه دخل المخاطب في النهي فصار المعنى: لا تكونن ههنا، فإنك إذا كنت رأيتك، وكذلك يا حسرتنا، قد علم أن الحسرة لا تدعي، فوقع التنبيه للمخاطبين.

ومعنى: ﴿فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ قدمنا العجز.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾؛ أي: يحملون ثقل ذنوبهم.

وهذا مثل جائز أن يكون جعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يحمل، لأن الثقل قد يستعمل في الوزر، وفي الحال، فتقول في الحال: «قد ثقل عليَّ خطاب فلان»، تأويله: قد كرهت خطابه كراهة اشتدت عليَّ، فتأويل «الوزر» الثقل من هذه الجهة، واشتقاقه من «الوزر»، وهو الجبل الذي يعتصم به الملك والنبي، أي: يعينه، ومنه قوله -تعالى-: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾[الفرقان: ٣٥] سأل موسى ربه أن يجعل أخاه وزيراً له، وكذلك قوله -تعالى-: ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

أي: بئس الشيء شيئاً أي: يحملونه، وقد فسرنا عمل نعم وبئس فيما مضى من الكتاب، وكذلك ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ﴾[الأعراف: ١٧٧]، أي: مثل القوم.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ و﴿لاَ يُكَذِبُونَكَ﴾، ومعنى «كَذَّبته» قلت له: «كَذَبت»، ومعنى «أَكذبُته» ادعيت أن ما أتى به كذب، وتفسير قوله: ﴿لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾، أي: لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتبهم كذبت.

ووجه آخر: أنهم لا يكذبونك بقلوبهم، أي: يعلمون أنك صادق.

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ لأنهم إنما جحدوا براهين الله -جل وعز- وجائز أن يكون ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ﴾، أي: أنت عندهم صادق، لأنه ﷺ كان يسمى فيهم

الأمين قبل الرسالة، ولكنهم جحدوا بألسنتهم ما تشهد قلوبهم بكذبهم فيه.

ثم عزى الله نبيه وصبره بأن أخبره أن الرسل قبله قد كذبتهم أمم فقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾؛ أي: إذ قال لرسوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، وإذ قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣]، ﴿وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا يخلف الله وعده ولا يغلب أولياءه أحد.

ثم أعلم الله -عز وجل- رسوله أنه يأتي من الآيات بما أحب، وأنه ﷺ بشر لا يقدر على الإتيان بآية إلا بما شاء الله من الآيات فقال: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾.

أي: إن كان عظم عليك أن أعرضوا إذ طلبوا منك أن تنزل عليهم ملكاً، لأنهم قالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ثم أعلم الله -جل وعز- أنهم لو نزلت عليهم الملائكة وآتاهم عظيم من الآيات ما آمنوا.

وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ﴾؛ و«النفق»: الطريق النافذ في الأرض.

و«النافقاء» ممدود أحد جحرة اليربوع يخرقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض، فإذا بلغ الجلدة أرقها حتى إن رابه دبيب رفع برأسه هذا المكان وخرج منه، ومن هذا سمي المنافق منافقاً، لأنه أبطن غير ما أظهر، كالنافقاء الذي ظاهره غير بين، وباطنه حفر في الأرض.

وقوله ﴿أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ﴾؛ و«السلم» مشتق من السلامة، وهو الشيء الذي سلمك إلى مصعدك.

المعنى: فإن استطعت هذا فافعل، وليس في القرآن «فافعل» لأنه قد يحذف ما في الكلام دليل عليه، ومثل ذلك قولك: «إن رأيت تمضي معنا إلى فلان، ولا تذكر فافعل».

فأعلم الله نبيه ﷺ أنه لا يستطيع أن يأتي بآية إلا بإذن الله، وإعلامه النبي هذا هو إعلام الخلق أنهم إنما اقترحوا هم الآيات.

وأعلم الله -جل وعز- أنه قادر على أن ينزل آية آية، وأنه لو أنزلت الملائكة وكلمهم الموتى ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله.

وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾؛ فيه غير قول.

فأحدها: أنه لو شاء الله أن يطبعهم على الهدى لفعل ذلك. وقول آخر: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾ أي: لو شاء لأنزل عليهم آية تضطرهم إلى الإيمان كقوله -جل وعز-: ﴿إِن نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء: ٤] فإنما أنزل الله الآيات التي يفكر الناس معها، فيؤجر ذو البصر، ويثاب على الإيمان بالآيات، ولو كانت نار تنزل على من يكفر أو يرمى بحجر من السماء لان كل واحد.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: الذين يسمعون سماع قابلين، وجعل من لم يقبل بمنزلة الأصم، قال الشاعر:

* أَصَم عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ[1] *

﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾؛ أي: يحييهم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾؛ أي: آية تجمعهم على الهدى.

وقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾؛ يجوز «ولا طائر» بالرفع على العطف على موضع دابة.

التأويل: وما دابة في الأرض ولا طائر، والجر أجود وأكبر على معنى: وما من دابة ولا طائر.

وقال ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ على جهة التوكيد، لأنك قد تقول للرجل: «طرفي حاجتي» أي: أسرع، وجميع ما خلق الله -عز وجل- فليس يخلو من هاتين المنزلتين، إما أن يدب أو يطير.

﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾؛ أي: في الخلق والموت والبعث.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾؛ «الساعة»: اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد، واسم للوقت الذي يبعث فيه العباد.

والمعنى: إن أتتكم الساعة التي وعدتم فيها بالبعث والفناء، لأن قبل البعث موت الخلق كله.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾؛ أي: أتدعون هذه الأصنام والحجارة التي عبدتموها من دون الله، فاحتج الله عليهم بما لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله.

---

(١) مر ذكره.

وقال النحويون: في هذه الكاف التي في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ غير قول؛

قال الفراء: لفظها لفظ نصب، وتأويلها تأويل رفع، قال: ومثلها الكاف في قوله: «دونك زيداً»، قال: الكاف في موضع خفض، وتأويلها تأويل الرفع؛ لأن المعنى: خذ زيداً.

وهذا لم يقله من تقدم من النحويين، وهو خطأ لأن قولك: «أرأيتك زيداً ما شأنه» تصير «أرأيت» قد تعدت إلى الكاف وإلى زيد، فيصير لـ«رأيت» اسمان، فيصير المعنى: أرأيت نفسك زيداً ما حاله. وهذا محال.

والذي يذهب إليه النحويون الموثوق بعلمهم أن الكاف لا موضع لها، وإنما المعنى: أرأيت زيداً ما حاله. وإنما الكاف زيادة في بيان الخطاب. وهي المعتمد عليها في الخطاب، اعلم أنك تقول إذا كانت الكاف زائدة للخطاب، للواحد الذكر: «أرأيتك زيداً ما حاله» بفتح التاء والكاف، وتقول للمؤنث: «أرأيتك زيداً ما حاله يا امرأة»، وتفتح على أصل خطاب الذكر، وتكسر الكاف لأنها قد صارت آخر ما في الكلمة والمبينة عن الخطاب، وتقول للاثنين: «أرأيتكما زيداً ما حاله، وأرأيتكم زيداً ما حاله» للجماعة، فتوحد التاء، فكما وجب أن توحدها في التثنية والجمع وجب أن تذكرها مع المؤنث، فإذا سألت النسوة قلت: «أرأيتكن زيداً ما حاله». وتثنية المؤنث كتثنية المذكر في كل شيء، فإن عديت الفاعل إلى المفعول في هذا الباب، وصارت الكاف مفعوله، وتقول: «رأيتني عالماً بفلان»، فإذا سألت عن هذا الشرط قلت للرجل: «أرأيتك عالماً بفلان»، وتقول للاثنين على هذا: «أرأيتكما عالمين بفلان»، وللجميع: «أرأيتموكم عالمين بفلان»، لأن هذا في تأويل «أرأيتم أنفسكم». وتقول للمرأة: «أرأيتِك عالمة بفلان» بكسر التاء والكاف، وتقول للاثنين: «أرأيتماكما عالمين بفلان»، وللجماعة: «أرأيتكن عالمات بفلان» فعلى هذا قياس هذين البابين.

وقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾؛ «بل» استدراك، وإيجاب بعد نفي، وتقول: «ما جاء زيد بل عمرو».

فأعلمهم الله -جل وعز- أنهم لا يدعون في حال الشدائد إلا إياه، وفي ذلك أعظم الحجة عليهم، لأنهم قد عبدوا الأصنام.

وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾؛ المعنى: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم، وهذا على اتساع الكلام، مثل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]؛ معناه: سل أهل القرية.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾؛ ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ ههنا على ضربين: جائز أن يكون «تنسون» تتركون، وجائز أن يكون المعنى: إنكم في ترككم دعائهم بمنزلة من يسهون.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ قيل: «البأساء» الجوع، و«الضراء» النقص في الأموال والأنفس.

والمعنى: أن الله -جل ثناؤه- أعلم نبيه أنه قد أرسل الرسل قبله إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله، لأن القلوب تخشع، والنفوس تتضرع عند ما يكون من أمر الله في البأساء. فلم تخشع ولم تتضرع.

وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ ومعنى «لعل» ترج.

وهذا الترجي للعباد، أخذهم الله بذلك ليكون ما يرجوه العباد منه بالتضرع، كما قال -عز وجل- في قصة فرعون: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه: ٤٤] قال سيبويه: المعنى: اذهبا على رجائكما، والله عالم بما يكون وراء ذلك.

وقوله: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾؛ المعنى: فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا.

﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: أقاموا على كفرهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقاً عليهم من الخير.

﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾؛ أي: حتى إذا ظنوا أن كل ما نزل بهم لم يكن انتقاماً من الله -جل وعز-، وأنهم لما فتح عليهم ظنوا أن ذلك باستحقاقهم ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾؛ أي: فاجأهم عذابنا من حيث لا يشعرون.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ﴾؛ «المبلس» الشديد الحسرة، و«اليائس»: الحزين.

وقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

حمد الله -عز وجل- نفسه على أن قطع دابرهم، واستأصل شأفتهم، لأنه -جل وعز- أرسل إليهم الرسل، وأنظرهم بعد كفرهم، وأخذهم بالبأساء والضراء، فبالغ -جل وعز- في إنذارهم وإمهالهم، فحمد نفسه، لأنه محمود في إمهاله من كفر به وانتظاره توبته.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ

يأتيكم به﴾؛ أي: بسمعكم ويكون ما عطف على السمع داخلاً في القصة إذ كان معطوفاً على السمع.

وقوله: ﴿انظرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾؛ أي: «يعرضون».

أعلم الله -جل وعز- أنه يصرف لهم الآيات، وهي العلامات التي تدل على توحيده، وصحة نبوة نبيه ﷺ ثم هم يعرضون عما وضح لهم وظهر عندهم.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾؛ «البغتة»:المفاجأة، و«الجهر» أن يأتيهم وهم يرونه.

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أي: هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾؛ أي: ليس إرسالهم بأن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات وإنما يأتون من الآيات بما يبين الله به براهينهم، وإنما قصدهم التبشير والإنذار.

وقوله: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ﴾؛ هذا متصل بقوله: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾[الأنعام: ٣٧].

فأعلمهم النبي ﷺ أنه لا يملك خزائن الله التي بها يرزق ويعطي، وأنه لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى، وما سيكون إلا بوحي من الله -جل وعز-.

﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ أي: يملك يشاهد من أمور الله -عز وجل- ما لا يشاهده البشر، فأعلمهم أنه يتبع الوحي فقال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.

أي: ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى، وفيما سيكون فهو بوحي من الله، فأما الإنباء بما مضى، فإخبار بقصص الأمم السالفة، والإخبار بما سيكون كقوله: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[الروم: ٢-٤]

فوجد من ذلك ما أنبأ به، ونحو قوله: ﴿وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧] فاجتهدوا في قتله، فلم يصلوا إلى ذلك، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣] وما يروى من الأخبار عنه بما يكون أكثر من أن يحصى.

وقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾.

قوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾، أي: بالقرآن، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر، دون غيرهم وهو ﷺ منذر جميع الخلق، لأن الذين يخافون الحشر الحجة عليهم أوجب، لأنهم أفهم بالميعاد. فهم أحد رجلين، إما رجل مسلم فيؤدي حق الله في إسلامه، وإما رجل من أهل الكتاب، فأهل الكتاب أجمعون معترفون بأن الله -جل ثناؤه- خالقهم، وأنهم مبعوثون.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ﴾؛ لأن النصارى، واليهود ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم الله أنه لا ولي له إلا المؤمنون، وأن أهل الكفر ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع.

وقوله: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

كان قوم من المشركين أرادوا الحيلة على النبي فقالوا لو باعدت عنك هؤلاء السفلة والعبيد، لجلس إليك الكبراء والأشراف، وكانوا عنوا بالذين قدروا أن يباعدهم النبي ﷺ صهيباً وخباباً، وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وبلالاً، فأعلم الله -عز وجل-، أن أمر الدين هو المقدم، ونهاه أن يباعد هؤلاء، وأعلمه أنهم يريدون ما عند الله فشهد لهم بصحة النيات وأنهم مخلصون في ذلك لله، فقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، أي: يريدون الله ويقصدون الطرق التي أمرهم بقصدها وإنما قدروا بهذا أن يباعدهم فتكون لهم حجة عليه. والله قد أعلم في قصة نوح أنه اتبع نوحاً من كان عندهم من أراذلهم، فقال: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[الشعراء: ١١١]، وقالوا: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[هود: ٢٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ جواب ﴿وَلاَ تَطْرُدِ﴾، وقوله ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾.

ومعنى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: اختبرنا وابتلينا.

﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا﴾؛ أي: ليكون ذلك آية أنهم اتبعوا الرسول وصبروا على الشدة، وهم في حال شديدة.

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: الذين يصدقون بحججنا، وبراهيننا ﴿فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

سمعت أبا العباس محمد بن يزيد يذكر أن السلام في اللغة أربعة أشياء: فمنها «سَلَّمْتُ سَلاماً» مصدر: «سَلَّمْتُ»، ومنها: «السَّلام» جمع: «سَلاَمَة»، ومنها: «السَّلام»

اسم من أسماء الله تعالى، ومنها: «السلام» شجر، ومنه قوله [من الطويل]:

*إلا سَلامٌ وَحَرمَلُ (١) *

ومعنى «السلام» الذي هو مصدر سَلَّمت، أنه دعاء للإنسان أن يسلم من الآفات في دينه ونفسه، وتأويله: التخلص.

و«السلام اسم من أسماء الله» تأويله: -والله أعلم- ذو السلام أي: هو الذي يملك السلام الذي هو تخليص من المكروه.

فأما «السلام» الشجر فهو شجر عظام قوي أحسبه سمي بذلك لسلامته من الآفات.

و«السِّلام» الحجارة الصلبة سميت بذلك لسلامتها من الرخاوة، والصلح يسمى «السِّلْمَ والسَّلْم والسَّلَم»، وسمي بهذا لأن معناه: السلامة من الشر. و«السَّلْمُ» دلو له عروة واحدة نحو دلو السقائين، سمي الدلو: «سلماً» لأنه أقل عرى من سائر الدلاء، فهي أسلمها من الآفات.

و«السُّلَّم» الذي يُرتقى عليه سمي بهذا لأنه سلمك إلى حيث تريد، و«السُّلَّم» السبب إلى الشيء، سمي بهذا لأنه يؤدي إلى غيره، كما يؤدي السُّلَّم الذي يرتقي عليه.

وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بفتحهما جميعاً، ويجوز أن يكون «إنه - فإنه» بكسرهما جميعاً ويجوز فتح الأولى وكسر الثانية، ويجوز كسر الأولى وفتح الثانية. فأما فتح الأولى والثانية، فعلى أن موضع «أن» الأولى نصب؛ المعنى: كتب ربكم على نفسه المغفرة، وهي بدل من الرحمة، كأنه قال: كتب ربكم على نفسه الرحمة وهي المغفرة للمذنبين التائبين، لأن معنى أنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المغفرة منه، ويجوز أن تكون الثانية وقعت مؤكدة للأولى لأن المعنى: كتب ربكم أنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلما طال الكلام أعيد ذكر «إن». فأما كسرهما جميعاً فعلى مذهب الحكاية، كأنه لما قال ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ قال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالكسر.

وجعلت الفاء جواباً للجزاء وكسرت «إنَّ» دخلت على ابتداء وخبر، كأنك قلت:

---

(١) جزء من شطر بيت للأخطل وهو بتمامه :

فَرابِيَةُ السَّكرانِ قَفرٌ فَما بِها ... لَهُم شَبَحٌ إلا سَلامٌ وَحَرمَلُ

«فهو غفور رحيم». إلا أن الكلام بـ«إن» أوكد. ومن كسر الأولى فعل ما ذكرنا من الحكاية، وإذا فتح الثانية مع كسر الأولى. كان معناها المصدر، والخبر محذوف؛ المعنى: أنه من عمل كذا وكذا فمغفرة الله له، ومن فتح الأولى وكسر الثانية فالمعنى راجع إلى المصدر، وكأنك لم تذكر «إن» الثانية؛ المعنى: كتب ربكم على نفسه أنه غفور رحيم.

ومعنى ﴿كَتَبَ﴾ أوجب ذلك إيجاباً مؤكداً، وجائز أن يكون كتب ذلك في اللوح المحفوظ، وإنما خوطب الخلق بما يعقلون، فهم يعقلون أن توكيد الشيء المؤخر إنما يحفظ بالكتاب، ونحن نشرح ذلك في موضعه شرحاً أوكد من هذا -إن شاء الله.

ومعنى ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾، أن ليس بأنهم يجهلون أنه سوء. لو أتى المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءاً، ولم يوقع سوءاً.

وقوله: «عمل فلان كذا وكذا بجهالة» يحتمل أمرين؛ فأحدهما: أنه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه، أي: لم يعرف أن فيه مكروهاً، والآخر أقدم عليه على بصيرة، وعلم أن عاقبته مكروهة، فآثر العاجل فجعل جاهلاً، فإنه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة.

فهذا معنى: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾، يقرأ بالتاء والياء، فمن قرأ بالتاء فلأن السبيل الطريق، وهو يذكر ويؤنث، ويجوز وجه ثالث: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بنصب «السبيل»، لأن المعنى: ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين.

فإن قال قائل: أفلم يكن النبي ﷺ مستبيناً سبيل المجرمين ؟ فالجواب في هذا: أن جميع ما يخاطب به المؤمنون يخاطب به النبي ﷺ. فكأنه قال: ولتستبينوا المجرمين، أي: لتزدادوا استبانة لها، ولم يحتج أن يقول: ولتستبين سبيل المؤمنين مع ذكر سبيل المجرمين، لأن سبيل المجرمين إذا استبانت فقد بانت معها سبيل المؤمنين.

وجائز أن يكون المعنى: ولتستبين سبيل المجرمين لتستبين سبيل المؤمنين. إلا أن الذكر والخطاب ههنا في ذكر المجرمين فذكروا وترك ذكر سبيل المؤمنين، لأن في الكلام دليلاً عليها كما قال -عز وجل-: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾[النحل: ٨١] ولم يقل تقيكم البرد، لأن الساتر يستر من الحر والبرد، ولكن جرى ذكر الحر لأنهم كانوا في مكانهم أكثر معاناة له من البرد.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كانوا يعبدون الأصنام، قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾، فأعلم الله -عز وجل- أنه لا يعبد غيره.

وقوله: ﴿قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾، أي: إنما عبدتموها على طريق الهوى لا على طريق البينة والبرهان.

وقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً﴾؛ معنى «إذن» معنى الشرط.

المعنى: قد ضللت إن عبدتها.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: وما أنا من النبيين الذين سلكوا طريق الهدى.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي﴾؛ أي: على أمر بين، لا متبع هوى.

﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ هذه الهاء كناية عن البيان، أي: وكذبتم بالبيان، لأن البينة والبيان في معنى واحد، ويكون ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي: بما أتيتكم به، لأنه هو البيان.

وقوله: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾؛ والذي استعجلوا به الآيات التي اقترحوها عليه.

فأعلم ﷺ أن ذلك عند الله، فقال: ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾.

هذه كتبت ههنا بغير ياء على اللفظ، لأن الياء أسقطت لالتقاء الساكنين كما كتبوا ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[العلق: ١٨] بغير واو، وقرئت: ﴿يَقُصُّ الحَقَّ﴾، وقرأ ابن عباس: «يقضي بالحق»، إلا أن القراء لا يقرؤون «يقضي بالحق» لمخالفة المصحف.

و«يقضي بالحق» فيه وجهان: جائز أن يكون «الحق» صفة للمصدر؛ المعنى: يقضي القضاء الحق، ويجوز أن يكون يقضي الحق يصنع الحق، أي: كل ما صنعه -عز وجل- فهو حق وحكمة، إلا أن ﴿وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ يدل على معنى القضاء الذي هو الحكم، فأما قضى في معنى صنع فمثله قول الهذلي [من الكامل]:

وَعَلَيهِما مَسرودَتانِ قَضاهُما داودُ أَو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[1]

أي: صنعهما داود، ومن قرأ ﴿يَقُصُّ الحَقَّ﴾ فمعناه: أن جميع ما أنبأ به وأمر به فهو من أقاصيص الحق.

وقوله: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾؛ معنى ﴿مَفَاتِحُ الغَيْبِ﴾، أي: عنده

(١) مر ذكره.

الوصلة إلى علم الغيب، وكل ما لا يعلم إذا استعلم يقال فيه: افتح علي.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾؛ المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، وأنت تقول: وما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه، فليس معناه: إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه فقط.

ويجوز ﴿وَلاَ حَبَّةٍ﴾ ويجوز «وَلاَ حَبَّةٌ». فمن رفع فعلى ضربين؛ جائز أن يكون على معنى: ما تسقط ورقة ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

و﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ههنا على معنيين يَتَصرَّف، ويجوز أن يكون معنى ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أن يكون الله أثبت ذلك في كتاب من قبل أن يخلق كما قال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾[الحديد: ٢٢]، فأعلم أنه قد أثبت ما خلق من قبل خلقه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾؛ أي: ينيمكم فيتوفى نفوسكم التي بها تميزون كما قال -عز وجل-: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[الزمر: ٤٢].

ومعنى: ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾؛ أي: ينبهكم من نومكم فيه في النهار.

﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾؛ أي: يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم.

وقوله: ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾؛ «الحفظة» الملائكة، واحدهم: «حافظ» والجمع: «حفظة». مثل: «كاتب وكتبة»، و«فاعل وفعلة».

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾؛ أي: هؤلاء الحفظة لأنه قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

﴿وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾؛ أي: لا يغفلون ولا يتوانون.

ومعنى التفريط في اللغة: تقدمه العجز؛ فالمعنى: أنهم لا يعجزون.

وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

يجوز في القراءة ينجيكم بالتخفيف. لقوله: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾[يونس: ٢٢]. و﴿لَئِنْ أَنجَانَا﴾ والأجود: ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بالتشديد للكثرة.

ومعنى ﴿ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ شدائد البر والبحر، والعرب تقول لليوم الذي تلقى

فيه شدة: «يوم مظلم»، حتى أنهم يقولون يوم ذو كواكب أي: قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل، قال الشاعر[١] [من الطويل]:

بَني أَسَدٍ هَل تَعلَمونَ بَلاءَنا إِذا كانَ يَومٌ ذو كَواكِبَ أَشهَبُ[٢]

وأنشدوا:

فِدَى لبَني ذُهْلِ بنِ شَيْبَان نَاقَتِي إِذا كانَ يَوماً ذا كَواكِبَ أَشنَعا[٣]

المعنى: ﴿ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ شدائدهما.

وقوله: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾؛ بالضم والكسر في «خفية».

والمعنى: تدعونه مظهرين الضراعة، وهي شدة الفقر إلى الشيء والحاجة، وتدعونه خفية أي: تدعونه في أنفسكم تضمرون في فقركم وحاجاتكم إليه كما تضمرون.

وقوله: ﴿لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ أي: في أي شدة وقعتم قلتم: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين.

فأمر الله -عز وجل- أن سألهم على جهة التوبيخ لهم والتقرير بأنه ينجيهم ثم هم يشركون معه الأصنام التي علموا أنها من صنعتهم، أنها لا تنفع ولا تضر، وأنه قادر على تعذيبهم فقال: ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِن فَوْقِكُمْ﴾. نحوالحجارة التي أمطرها على قوم لوط، ونحو الطوفان الذي غرق به قوم نوح.

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾؛ نحوالخسف الذي نال قارون ومن خسف به.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾؛ معنى ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق يقال: «لَبَسْت الأمر أَلْبِسُه» لم أبينه، وخلطت بعضه ببعض ويقال: «لَبِسْت الثوب أَلْبَسُه».

ومعنى ﴿شِيَعاً﴾: أي: يجعلكم فرقاً، لا تكونون شيعة واحدة فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم، وهومعنى قوله ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

ويروى أن النبي ﷺ سأل الله -جل وعز- ألا يبتلي هذه الأمة بعذاب يستأصلها به،

---

(١) هو: عمرو بن شأس الأسدي.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١/٧)، فتح القدير (١٨٢/٢)، تفسير البيضاوي (٥٧٨/١)، روح المعاني (٧/ ١٧٩)، الكشاف (١٦١/١)، الجمل في النحو (١٤٩/١)، لسان العرب (٣٧٣/١٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٥٣/٣)، وفتح القدير (٤٥٠/١)، وزاد المسير (٥٧/٣)، والجمل في النحو (١/ ١٤٩)، والأغاني (٧٣/٢٤)، ولسان العرب (٥٠٨/١)، وتاج العروس (٦٤٤/١).

وألا يذيق بعضها بأس بعض، فأجابه في صرف العذاب، ولم يجبه في ألا يذيق بعضها بأس بعض وأن لا تختلف.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾؛ أي: إنما أدعوكم إلى الله إلى شريعته، ولم أؤمر بحربكم ولا أخذكم بالإيمان كما يؤخذ الموكل بالشيء يلزم بلوغ آخره.

وقوله -جل وعز-: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: لأخذكم بالإيمان على جهة الحرب، واضطراركم إليه ومقاتلتكم عليه مستقر، أي: وقت.

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، جائز أن يكون وعدهم بعذاب الآخرة، وجائز أن يكون وعدهم بالحرب، وأخذهم بالإيمان شاؤوا أو أبوا، إلا أن يعطي أهل الكتاب الجزية.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: وما عليك أيها النبي وعلى المؤمنين من حسابهم أي: من كفرهم، ومخالفتهم أمر الله.

﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾؛ أي: ولكن عليكم أن تذكروهم.

و﴿ذِكْرَىٰ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ونصب.

فمن نصب؛ فالمعنى: ولكن ذكروهم ذكرى، ومن رفع فعلى وجهين؛ أحدهما: ولكن عليكم أن تذكروهم، كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[الشورى: ٤٨]. وجائز أن يكون: ولكن الذين تأمرون به ذكرى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لترجى منهم التقوى.

وقوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ معنى تبسل بعملها تكون غير قادرة على التخلص.

والمستبسل: المستسلم الذي يعلم أنه لا يقدر على التخلص، قال الشاعر(١):

وإِبْسَالِي بَنِي بِغَيرِ جرمٍ بَعَوناهُ وَلاَ بِدمٍ مُراقِ(٢)

أي: إسلامي غياهم، وقيل «أن تبسل» ترهن، والمعنى واحد، ويقال: «أَسَد بَاسِل، وشجاع باسل»، وتأويله: أن معه من الأقدام ما يستبسل له قرنه. ويقال: «هذا بَسلُ عليك»

---

(١) هو: عوف بن الأحوص.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢٨/٥)، وتفسير القرطبي (١٥/٧)، وزاد المسير (٦٥/٣)، والكشاف (٣٦٤/١)، ومفردات القرآن (١١٨/١)، ولسان العرب (٥٣/١١)، وتاج العروس (٦٨٧٧/١).

أي: حرام عليك، فجائز أن يكون: «أسد باسل» من هذا، أي: لا يقدر عليه، ويقال: «أعط الرافي بُسْلَتَه»، أي: أجرته، وإنما تأويله أنه عمل الشيء الذي قد استبسل صاحبه معه.

وقوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾؛ أي: نرجع إلى الكفر، ويقال: لكل من أدبر قد رجع إلى خلف ورجع القهقرى.

وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: كالذي زينت له الشياطين هواه.

وقوله: ﴿حَيْرَانَ﴾؛ منصوب على الحال، أي: كالذي استهوته في حال حيرته.

وقوله: ﴿أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى﴾؛ قيل في التفسير: يعني بهذا عبد الرحمن بن أبي بكر.

﴿ائْتِنَا﴾ أي: تابعنا في إيماننا.

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ أي: يدعونه ويقولون له ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾.

العرب تقول: «أمرتك بأن تفعل، وأمرتك لتفعل، وأمرتك بأن تفعل» فمن قال: «أمرتك بأن تفعل» فالباء للإلصاق؛ المعنى: وقع الأمر بهذا الفعل، ومن قال: «أمرتك أن تفعل» فعلى حذف الباء، ومن قال: «أمرتك لتفعل» فقد أخبر بالعلة التي لها وقع الأمر؛ المعنى: أمرنا للإسلام.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾؛ فيه وجهان:

أحدهما: أن تكون أمرنا لأن نسلم ولأن نقيم الصلاة، ويجوز أن يكون محمولاً على معنى «لأن»؛ المعنى: أمرنا بالإسلام. وبإقامة الصلاة، وموضع «أن» نصب، لأن الباء لما سقطت أفضى الفعل فنصب.

وفيه وجه آخر: يجوز أن يكون محمولاً على قوله: ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا﴾.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾؛ أي: ويدعونه أن أقيموا الصلاة.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ نصب «يوم» على وجهين:

أحدهما: على معنى: واتقوه ويوم يقول كن فيكون نسقا على الهاء، كما قال -عز وجل-: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾[البقرة: ٤٨] والأجود أن يكون على معنى: واذكر يوم يقول كن فيكون، لأن بعده ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾.

وفيه وجه ثالث: وهو العطف على السماوات والأرض؛ المعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق وخلق يوم يقول كن فيكون.

فإن قال قائل: إن يوم القيامة لم يأت بعد ؟ [١] فإن ما أنبأنا الله بكونه فحقيقته واقعة لا محالة.

وقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ قال بعضهم: المخاطبة ههنا للصور؛ المعنى: ويوم يقول للصور كن فيكون، وما ذكر من الصور يدل عليه.

وقيل: إن قوله: ﴿كُن﴾ فيه أسماء جميع ما يخلق في ذلك الوقت؛ المعنى: ويوم يقول للشيء كن فيكون، وهذا ذكر ليدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: يوم يقول للخلق موتوا فيموتون وانتشروا فينتشرون. كأنه يأمر الحياة فتكون فيهم أولاً، ثم يأمر الموت فيحل فيفنى جميع الخلق.

وقيل ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحَقُّ﴾؛ ﴿قَوْلُهُ﴾ أي: يأمر فيقع أمره، و﴿الحَقُّ﴾ من نعت ﴿قَوْلُهُ﴾ كما تقول: قد قلت فكان قولك؛ فالمعنى: ليس أنك قلت فكان الكلام، إنما المعنى: أنه كان ما دل عليه القول. وعلى القول الأول قد رفع ﴿قَوْلُهُ﴾ بالابتداء و﴿الحَقُّ﴾ خبر الابتداء.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾؛ يجوز أن يكون نصب «يوم» على ﴿وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ مُبيناً عن قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾، ويجوز أن يكون منصوباً بقوله ﴿الحَقُّ﴾، المعنى:: وقوله الحق يوم ينفخ في الصور، فإن قال قائل: لله الملك في كل وقت، فلم خص يوم القيامة، ويوم ينفخ في الصور.؟ فالجواب في هذا: أنه في اليوم الذي لا يظهر فيه من أحد نفع لأحد ولا ضر. كما قال: ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾[الانفطار: ١٩]، والأمر في كل وقت لله -جل وعز-.

وقالوا في الصور قولين: قيل: في التفسير: إن الصور اسم لقرن ينفخ فيه، وقيل: الصور جمع صورة، وكلاهما جائز، وأثبتها في الحديث والرواية أن الصور قرن، والصور جمع صورة، أهل اللغة على هذا.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾؛ بالنصب والضم.

---

(١) هذا تمام السؤال وما أتى بعد ذلك الجواب.

فمن قرأ بالضم فعلى النداء؛ المعنى: يا آزر أتتخذ أصناماً آلهة. وليس بين النسابين خلاف أن اسم أبي إبراهيم «تارح» والذي في القرآن يدل على أن اسمه «آزر»، وقيل: «آزر» عندهم ذم في لغتهم، كأنه: وإذ قال إبراهيم لأبيه يا مخطىء أتتخذ أصناماً. وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع. وجائز أن يكون وصفاً له، كأنه قال: إذ قال إبراهيم لأبيه المخطىء، وقيل «آزر» اسم صنم، فإذا كان اسم صنم فموضعه نصب على إضمار الفعل كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ «آزر» إلهاً ؟ أتتخذ أصناماً الهة ؟.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: ومثل ما وصفنا من قصة إبراهيم من قوله لأبيه ما قال نريه ملكوت السماوات والأرض، أي: القدرة التي تقوى بها دلالته على توحيد الله -جل وعز-، وتقول في الكلام لمن فعل بك خيراً أو شراً: «كذلك أجزيك».

ومعنى قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾؛ أي: نريه ملكوت السماوات والأرض لما فعل، وليثبت على اليقين.

والملكوت بمنزلة الملك، إلا أن الملكوت أبلغ في اللغة من الملك، لأن الواو والتاء تزادان للمبالغة، و مثل «الملكوت»: «الرغبوت، والرهبوت» ووزنه من الفعل «فعلوت» وفي المثل: «رهبوتي خير من رغبوتي»، وهذا كقولهم: «أو فرقاً خيراً من حُبٍّ»، ومن روى: «رهبوتي خير من رحموتي» فمعنى صحيح. يحقق من اللسان أن تكون له هيبة ترهب بها خير من أن يرحم.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾؛ يقال: «جَنَّ عليه الليل وأَجنَّه الليل» إذا أظلم حتى يستتر بظلمته، ويقال لكل ما ستر: «قد جَنَّ»، ويقال: «جَنَّه الليل»، ولكن الاختيار: «جَنَّ عليه الليل وأَجَنَّه الليل».

وقيل: إن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فلما بلغ إبراهيم المبلغ الذي يجب معه النظر، وتجب به على العبد الحجة، نظر في الأشياء التي كان يعبدها قومه فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه، قال لهم: هذا ربي أي: في زعمكم، كما قال الله -جل وعز-: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[القصص: ٦٢] فأضافهم إلى نفسه حكاية لقولهم.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾؛ أي: فلما غاب، يقال: «أَفَلَ النجم يَأْفُل ويَأْفِل أُفُولاً»، إذا غاب.

﴿قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾؛ أي: لا أحب من كانت حالته أن يطلع ويسير على هيئة

يتبين معها أنه محدث منتقل من مكان إلى مكان، كما يفعل سائر الأشياء التي أجمعتم معي على أنها ليست بآلهة.

أي: لا اتخذ ما هذه حاله إلها، كما أنكم لا تتخذون كل ما جرى هذا من سائر الأشياء آلهة، وليس أنه جعل الحجة عليهم أن ما غاب ليس بإله، لأن السماء والأرض ظاهرتان غير غائبتين وليس يدعى فيهما هذه الدعوى. وإنما أراد التبيين لهم القريب، لأن غيبوبته أقرب ما تناظرون به فيما يظهر لهم، كما قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾.

وقد قيل: إنه قال هذا وهو ينظر لنفسه، فكأنه على هذا القول بمنزلة قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى﴾[الضحى: ٧]، وإبراهيم قد أنبأ الله عنه بقوله، ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الصافات: ٨٤]، فلا شك أنه سليم من أن يكون الشك دخله في أمر الله. -والله أعلم-.

وجائز أن يكون على إضمار القول، كأنه قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، كأنه قال: تقولون هذا ربي، أي: أنتم تقولون هذا ربي كما قال -جل وعز-: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾[البقرة: ١٢٧]؛ المعنى: يقولان تقبل منا، والله أعلم بحقيقة هذا.

والذي عندي في هذا القول أنه قال لهم: تقولون هذا ربي، أي: هذا يدبرني، لأنه فيما يروي: أنهم كانوا أصحاب نجوم، فاحتج عليهم بأن الذي تزعمون أنه مُدَبِّر إنما يرى فيه أثر مُدَبَّر لا غير.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ و﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً﴾؛ يقال: قد بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع، وكذلك الشمس.

والحجة في الشمس والقمر كالحجة في الكوكب. واحتج الذين قالوا: إنه قال ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على وجه الظن والتفكر بقوله: ﴿لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

وهذا لا يوجب ذلك. لأن الأنبياء تسأل الله أن يثبتها على الهدى وتعلم أنه لولا هداية الله ما اهتدت، وإبراهيم يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[إبراهيم: ٣٥].

وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً﴾ أي: مائلاً إلى الإسلام ميلاً لا رجوع معه.

والحنف: أن يكون في القدم ميل، وهو أن تميل إبهام القدم إلى إبهام القدم، فتقبل

هذه القدم على هذه القدم، ويكون ذلك خلقة. و«الحنيف» الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت فيه.

ومعنى ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: جعلت قصدي بعبادتي توحيدي الله -عز وجل-.

وقوله -جل وعلا-: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾؛ المعنى: حاجوه في الله، فقال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾.

وحاجتهم إياه كانت -والله أعلم- فيما عبدوا مع الله -عز وجل- من الكواكب والشمس والقمر والأصنام، فقال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾؛ أي: في توحيد الله.

﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾؛ وقد بين لي ما به اهتديت.

﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾؛ أي: هذه الأشياء التي تعبدونها لا تضر ولا تنفع، ولا أخافها.

﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾؛ إلا أن يشاء أن يعذبني بذنب إن كان مني.

موضع «أن» نصب، أي: لا أخاف إلا مشيئة الله.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ أي: حجة بينة.

﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾؛ أي: أحق بأن يأمن من العذاب، الموحد أم المشرك.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾؛ قالوا: جائز أن يكون هذا قول الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ غير حكاية عن إبراهيم، وجائز أن يكون إبراهيم قال ذلك.

وقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾؛ داود وسليمان نسق على نوح.

كأنه قال: وهدينا داود وسليمان، وجائز أن يكون من ذرية نوح، وجائز أن يكون من ذرية إبراهيم، لأن ذكرهما جميعاً قد جرى.

وأسماء الأنبياء التي جاءت بعد قوله: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ نسق على نوح، إلا أن اليسع يقال: فيه «الليسع واليسع» بتشديد اللام وتخفيفها.

وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ أي: هدينا هؤلاء، وهدينا بعض آبائهم وإخوانهم.

ومعنى قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾؛ مثل اخترناهم، وهو مأخوذ من: «جبيت الماء في الحوض» إذا جمعته.

وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾؛ أي: الذين قد كفروا، ويكفرون، ممن أرسلت إليه. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ أي: قد وكلنا بالإيمان بها، وقيل في هذه ثلاثة أقوال:

قيل: يعنى بذلك الأنبياء الذين جرى ذكرهم آمنوا بما أتى به النبي ﷺ في وقت مبعثهم، وقيل: يعنى به الملائكة، وقيل أيضاً: يعنى به من آمن من أصحاب النبي وأتباعه، وهو -والله أعلم- يعني به الأنبياء الذين تقدموا لقوله تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

أي: الأنبياء الذين ذكرناهم الذين هدى الله فبهداهم اقتده أي: اصبر كما صبروا، فإن قومهم كذبوهم فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، فاقتدي بهم.

وهذه الهاء التي في «اقتده» إنما تثبت في الوقف، تبين بها كسرة الدال، فإن وصلت قلت «اقتدِ».

قال أبو إسحاق: والذي اختار من أثق بعلمه أن يتوقف عند هذه الهاء، وكذلك في قوله ﴿هَاؤُم اقْرَؤُوا كِتَابِيَه﴾[الحاقة: ١٩] و﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[الحاقة: ٢٠] وكذلك ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[البقرة: ٢٥٩] وكذلك ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾[القارعة: ١٠] وقد بينا ما في ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ في سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾؛ معناه: ما عظموا الله حق عظمته إذ جحدوا تنزيله.

وذلك أن جماعة من اليهود -من منافقيهم- جاؤوا وهم يعاندون النبي ﷺ يجادلونه ويصدون عنه، وكان سمتهم سمة الأحبار، وكانوا يتنعمون ولا يتعبدون.

فأعلمهم النبي ﷺ أن في التوراة أن الله -جل وعز- لا يحب الحبر السمين، فجحدوا التوراة، وقالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ﴾، فقال الله -عز وجل-: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾. يظهرون ما يحبون من ذلك ويخفون كثيراً.

﴿وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾؛ أي: علمتم على لسان محمد ﷺ ﴿أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ يقال: لكل من كان في عمل لا يجدي: «إنما أنت لاعب».

وقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾؛ تقرأ بالتاء والياء جميعاً في ﴿وَلِتُنذِرَ﴾.

المعنى: أنزلناه للبركة والإنذار، ومعنى أم القرى أي: أهل أم القرى، و﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عطف عليهم.

وأم القرى: مكة سميت أم القرى لأنها كانت أعظم القرى شأناً.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

جاء في التفسير: أنه يعني به مسيلمة، وصاحب صنعاء، لأنهما ادعيا النبوة.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾؛ موضع ((من)) جر.

المعنى: ومن أظلم ممن افترى، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وهذا جواب لقولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾؛ جواب ((لو)) محذوف.

المعنى: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيماً، ويقال لكل من كان في شيء كثير: ((قد غمر فلاناً ذلك))، ويقال: ((قد غمرنا فلاناً الدين))، تأويله: قد كثر فصار فيما يعلم بمنزلة ما يبصر قد غمر وغطى من كثرته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: عليهم بالعذاب.

ومعنى ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم﴾؛ فيه وجهان -الله أعلم -:

يقولون ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم﴾ فجائز أن يكون كما تقول للذي تعذبه: ((لأزهقن نفسك، ولأخرجن نفسك)) فهم يقولون -والله أعلم- ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم﴾ على هذا المعنى:. وجائز أن يكون المعنى: خلصوا أنفسكم. أي: لستم تقدرون على الخلاص.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، أي: العذاب الذي يقع به العذاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. أما معنى ﴿فُرَادَى﴾ فكل واحد منفرد من شريكه في الغي وشقيقه.

ومعنى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ جاء في التفسير: عراة غُرْلاً، والغُرْل: هم الغلف. والذي تحتمله اللغة أيضاً. كما بدأناكم أول مرة، أي: كان بعثكم كخلقكم.

وقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ الرفع أجود، ومعناه: لقد تقطع وصلكم. والنصب جائز.

المعنى: لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾؛ أي: يشق الحبة اليابسة الميتة والنواة اليابسة فيخرج منها ورقاً أخضر، وهو معنى، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ أي: يخرج النبات الغض الطري الخضر من الحب اليابس، ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي.

احتج الله -جل ثناؤه- عليهم بما يشاهدون من خلقه لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء وأنه قادر على بعثهم.

وقوله: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فمن أين تصرفون عن الحق.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾؛ معنى ﴿الإِصْبَاحِ﴾ والصبح واحد.

وجائز أن يكون خالق الإصباح وجائز أن يكون معناه: شاق الصبح، وهو راجع إلى معنى خالق الصبح.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً﴾؛ النصب في الشمس والقمر هي القراءة. والجر جائز على معنى وجاعل الشمس والقمر حسباناً، لأن في جاعل معنى جعل، وبه نصبت ﴿سَكَناً﴾ ولا يجوز جاعل الليل سكناً، لأن أسماء الفاعلين إذا كان الفعل قد رفع أضيفت إلى ما بعدها لا غير، تقول: «هذا ضارب زيد أمس».

فإجماع النحويين أنه لا يجوز في زيد النصب، وعلى ذلك أكثر الكوفيين، وبعض الكوفيين يجيز النصب.

فإذا قلت: «هذا معطي زيد درهماً» فنصب «الدرهم» محمول على أعطى.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾؛ الأكثر في القراءة ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتح القاف، وقد قرئت بكسرها ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ بالفتح لا غير.

وأما رفع «مستقر» و«مستودع» فعلى معنى: لكم مستقر ولكم مستودع، ومن قرأ بالكسر، «فمستقرٍ ومستودعٍ» فعلى معنى: فمنكم مستقر ومنكم مستودع.

وتأويل «مستقر» أي: مستقر في الرحم ومستودع أي: منكم مستودع في أصلاب الرجال، وعلى هذا أيضاً ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتح القاف مستودع، أي: فلكم مستقر ولكم في الأصلاب مستودع، وجائز أن يكون «فمستقِر» بالكسر «ومستودِع» فمنكم مستقر في الأحياء ومنكم مستودع أي: مستقر في الدنيا موجود، ومستودع في الأصلاب لم يخلق بعد. وجائز أن يكون «فمستقِر» بالكسر، «ومستودِع» فمنكم مستقر في الأحياء ومنكم مستودع في الثرى.

وهذه الأقوال كلها قد قيلت -والله أعلم- بحقيقة ذلك.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ قال أهل اللغة أصل كلمة «ماء»: ماه؛ إلا أن الهمزة أبدلت من الهاء لخفاء الهاء، والدليل على ذلك قولهم في جمعه: «مياه»،

ويصغر: «مويه»، قال الشاعر [1]:

سَقى الله أَمْوَاهاً عَرَفت مَكَانَهَا   جُرَاباً ومَلْكُومَاً وبذَّر فَالغُمْرَا [2]

وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً﴾ معنى خضر كمعنى أخضر، يقال: اخْضَرَّ فهو أَخْضَر وخَضِر»، مثل: «اعْوَرَّ فهو أَعْوَر وعَوِر».

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾؛ ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع: «قنو» مثل: «صنو وصنوان»، وإذا ثنيت «القنو» فهما «قِنوانِ» يا هذا بكسر القاف، «والقِنو» العِذق بكسر العين وهي الكياسة، «والعَذَق» النخلة.

و﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المتناول، ولم يقل: «ومنها قنوان بعيدة» لأن في الكلام دليلاً أن البعيدة السحيقة من النخل قد كانت غير سحيقة، واجتزئ بذكر القريبة عن ذكر البعيدة، كما قال -عز وجل-: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾[النحل: ٨١] ولم يقل: تقيكم البرد، لأن في الكلام دليلاً على أنها تقي البرد لأن ما يستر من الحر يستر من البرد.

وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِن أَعْنَابٍ﴾؛ عطف على قوله: ﴿خَضِراً﴾، أي: فأخرجنا من الماء خضراً وجنات من أعناب.

و«الجنة» البستان، وإنما سمي البستان جنة، وكل نبت متكاثف يستر بعضه بعضاً فهو جنة، وهو مشتق من: «جننت الشيء» إذا سترته، ومن هذا قيل للترس «مَجَن» لأنه يستر.

وقوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾؛ أي: في الطعم وفيه ما يشبه طعم بعضه طعم بعض.

وقرن الزيتون بالرمان لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره، قال الشاعر [3] [من الخفيف]:

بورِكَ المَيّتُ الغريبُ كَما بو   رِكَ نَضرُ الرّيحانِ وَالزّيتُونُ [4]

ومعناه: أن البركة في ورقه واشتماله على عوده كله.

---

(١) هو: كثير عزة.

(٢) لسان العرب (٥٠/٤)، وتاج العروس (٢٤٩٧/١).

(٣) هو: أبو طالب عم النبي ﷺ.

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٣٣/١٢)، وفتح القدير (٤٧/٤)، وزاد المسير (٩٥/٣)، والأغاني (٦٤/٩)، ولسان العرب (٦١٨/٢)، وتاج العروس (١٧٧٥/١).

وقوله: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾؛ يقال: «ثَمَرة وثِمَار، وثُمُر جمع ثِمَار» فمن قرأ: «إلى ثُمُره» بالضم، أراد جمع الجمع، وإن شئت قلت: «إلى ثُمْره» فخففت لثقل الضمة.

﴿وَيَنْعِهِ﴾؛ «الينع»: النضج، ويقال: «يَنَع الشجر وأَيْنَع» إذا أدرك. قال الشاعر[1] [من المديد]:

في قِبابٍ حَولَ دَسكَرَةٍ حَولَها الزَّيتونُ قَد يَنَعا[2]

قال أبو عبيدة: البيت ليزيد بن معاوية أو للأحوص.

احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال إلى حال، بما يعلمون أنه لا يقدر عليه المخلوقون، وأنه كذلك يبعثهم لأنهم كانوا ينكرون البعث فقال لهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فأعلمهم أن فيما قص دليلاً لمن صدق.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ﴾؛ المعنى: أنهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم. فجعلوهم شركاء لله -عز وجل-، وكان بعضهم ينسب إلى الجن الأفعال التي لا تكون إلا لله -عز وجل- فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾.

فالهاء والميم إن شئت كانت عائدة عليهم، أي: فجعلوا لله الذي خلقهم شركاء لا يخلقون. وجائز أن تكون الهاء والميم تعودان على الجن، فيكون المعنى: وجعلوا لله شركاء الجن والله خلق الجن. وكيف يكون الشريك لله المحدث الذي لم يكن ثم كان.

فأما نصب ﴿الجِنَّ﴾ فمن وجهين؛ أحدهما: أن يكون الجن مفعولاً فيكون المعنى: وجعلوا لله الجن شركاء، ويكون الشركاء مفعولاً ثانياً كما قال: ﴿وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾[الزخرف: ١٩].

وجائز أن يكون ﴿الجِنَّ﴾ بدلاً من ﴿شُرَكَاءَ﴾، ومفسراً للشركاء.

وقوله: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ معنى «خرقوا» اختلفوا وكذبوا، وذلك لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله، وذكرت اليهود أن عزير ابن الله، فأعلم جل ثناؤه أنهم اختلقوا ذلك بغير علم، أي: لم يذكروه عن علم، وإنما ذكروه تكذباً.

---

(١) هو: الأحوص الأنصاري.

(٢) انظر: زاد المسير (٣/٩٥)، ونفح الطيب (١/٦٦٤)، ولسان العرب (٨/٤١٥)، وتاج العروس (١/٥٦٤٢).

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾؛ أي: براءته من السوء، ومعنى سبحانه التبرئة عن كل سوء، لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح أنه التبرئة لله -جل وعز-.

وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: هو خالق السماوات والأرض.

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ﴾؛ أي: من أين يكون له ولد، والوالد لا يكون إلا من صاحبة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ فاحتج -جل وعز- في نفي الولد بأنه خالق كل شيء فليس كمثله شيء، وكيف يكون الولد لمن لا مثل له، فإذا نسب إليه الولد فقد جهل له مثل.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾.

أعلم -عز وجل- أنه يدرك الأبصار، وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الأبصار، أي: لا يعرفون كيف حقيقة البصر، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر بعينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فأعلم أن خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه، ولا يحيطون بعلمه، فكيف به -عز وجل- فالأبصار لا تحيط به ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾.

فأما ما جاء من الأخبار في الرؤية وصح عن رسول الله فغير مدفوع.

وليس في هذه الآية دليل على دفعه، لأن معنى هذه الآية معنى إدراك الشيء، والإحاطة بحقيقته. وهذا مذهب أهل السنة والعلم والحديث.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ أي: قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾؛؛ المعنى: فلنفسه نفع ذلك.

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾؛ أي: فعلى نفسه ضرر ذلك، لأن الله -جل ثناؤه- غني عن خلقه.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ أي: لست آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ والوكيل، وهذا قبل الأمر بالقتال، فلما أمر النبي ﷺ بالقتال صار حفيظاً عليهم ومسيطراً على كل من تولى.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾؛ أي: ومثل ما بينا نبين الآيات.

وموضع الكاف نصب. التي في أول كذلك؛ المعنى: ونصرف الآيات في مثل ما

صرفناهما فيما تلي عليك.

وقوله: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾؛ فيها خمسة أوجه:

فالقراءة ﴿دَرَسْتَ﴾ بفتح الدال وفتح التاء ومعناه: وليقولوا قرأت كتب أهل الكتاب، وتقرأ أيضاً «دارست» أي: ذاكرت أهل الكتاب. وقال بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ﴾ أي: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة قد درست، أي: قد مضت وانمحت، وذكر الأخفش: «دَرُست» بضم الراء ومعناها «دَرَسَت» إلا أن «درُست» بضم الراء أشد مبالغة، وحكي «دُرِسَت» بكسر الراء -أي قرئت-.

وقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ إن قال قائل: إنما صرفت الآيات ليقولوا درست ؟

فالجواب في هذا: أن الذى أداهم إلى أن يقولوا درست هو تلاوة الآيات، وهذه اللام يسميها أهل اللغة لام الصيرورة، وهذا كقوله تعالى ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾[القصص: ٨] فهم لم يلتقطوه يطلبون بأخذه أن يعاديهم ولكن كانت عاقبة أمره أن صار لهم عدواً وحزناً.

وكما تقول: «كتب فلان هذا الكتاب لحتفه». فهولم يقصد بالكتاب أن يهلك نفسه، ولكن العاقبة كانت الهلاك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾؛ أي: لو شاء الله لجعلهم مؤمنين، وقيل: لو شاء الله لأنزل عليهم آية تضطرهم إلى الإيمان، وقال بعضهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾؛ أي: لو شاء لاستأصلهم فقطع سبب شركهم.

وقوله: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي يعبدها المشركون.

﴿فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: فيسبوا الله ظلماً، وقال بعضهم: فيسبوا الله عدواً، وعدوا ههنا في معنى جماعة كأنه قيل: فيسبوا الله أعداء.

و﴿عَدْواً﴾ منصوب في هذا القول على الحال. و﴿عَدْواً﴾ منصوب على المصدر على إرادة «لأن»؛ المعنى: فيعتدون عدواً أي: يظلمون ظلماً، ويكون بإرادة اللام أي: فيسبوا الله للظلم.

وفيها وجه آخر: «فيسبوا الله عَدُوا» بضم الدال، وهو في معنى عُدُوا، ويقال في الظلم: «عَدَا فلان عَدْواً وعُدُواً، وعُدْوَاناً، وعَدَاءً» أي: ظلماً جاوز فيه القدر.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾؛ فيه غير قول:

أنه بمنزلة ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة: ٩٣] فذلك تزيين أعمالهم، قال الله -عز وجل-: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[النساء: ١٥٥].

وقال بعضهم: ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: زين لكل أمة العمل الذي هو فرض عليهم. والقول الأول أجود. لأنه بمنزلة ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[التوبة: ٩٣]. والدليل على ذلك، ونقض هذا قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[فاطر: ٨].

وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾؛ أي: اجتهدوا في المبالغة في اليمين.

﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾؛ وإنما حلفوا على ما اقترحوا هم من الآيات، وإنما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾[الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾[الإسراء: ٩٢]. أي: يأتي بهم كفيلاً، أي: يكفلون.

فأعلم الله -عز وجل- أن الآيات عند الله.

ويروى أن المؤمنين قالوا: «لو أنزل عليهم آية لعلهم كانوا يؤمنون»، فقال الله -عز وجل-: ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: وما يدريكم، أي: لستم تعلمون الغيب، فلا تدرون أنهم يؤمنون، كما تقول للرجل إذا قال لك: «افعل بي كذا وكذا حتى أفعل كذا وكذا» مما لا تعلم أنه يفعله لا محالة: ما يدريك.

ثم استأنف فقال: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ وهذه هي القراءة، وقرئت أيضاً ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

وزعم سيبويه عن الخليل: أن معناها لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، وهي قراءة أهل المدينة، وقال الخليل: إنها كقولهم: «إيت السوق أنك تشتري شيئاً»، أي: لعلك.

وقد قال بعضهم: إنها «أن» التي على أصل الباب، وجعل «لا» لغواً، قال: والمعنى: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون كما قال -عز وجل-: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾.

والقول الأول أقوى وأجود في العربية والكسر أحسنها وأجودها. والذي ذكر أن «لا» لغو غالط، لأن ما كان لغواً لا يكون غير لغو.

من قرأ: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾ بكسر إن، فالإجماع أن «لا» غير لغو، فليس يجوز أن

يكون معنى لفظه مرة النفي ومرة الإيجاب. وقد أجمعوا أن معنى «أن» ههنا إذا فتحت معنى لعل، والإجماع أولى بالإتباع.

وقد بينت الحجة في دفع ما قاله من زعم أن «لا» لغو.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ هذا جواب قول المؤمنين: لعلهم يؤمنون.

فأعلم الله -عز وجل- أنهم لا يؤمنون، وهذا كإعلام نوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[هود: ٣٦].

ومعنى ﴿قُبُلاً﴾ جمع قبيل، و معناه الكفيل. ويكون المعنى: وحشرنا عليهم كل شيء قبيلا قبيلا. ويجوز أن يكون قبل جمع قبيل، و معناه الكفيل، ويكون المعنى: لو حشرنا عليهم كل شيء ونجعل لهم بصحة ما نقول ما كانوا ليؤمنوا، ويجوز أن يكون ﴿قُبُلاً﴾ في معنى ما يقابلهم، أي: لو حشرنا عليهم كل شيء فقابلهم.

ويجوز ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلاً﴾ أي: عياناً، ويجوز ﴿قُبْلاً﴾ على تخفيف «قُبُل» وكل ما كان على هذا المثال فتخفيفه جائز، نحو: «الصُحف والصُحُف والكتب والكُتُب، والرُسل والرُسُل».

ومعنى ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا أن يهديهم الله، وجائز أن يكون ننزل عليهم آية تضطرهم إلى الإيمان.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾. أي: وكما جعلنا لك ولأمتك شياطين الجن والإنس أعداء كذلك جعلنا لمن تقدمك من الأنبياء وأممهم.

و﴿عَدُوًّا﴾ في معنى أعداء.

و﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ منصوب على البدل من عدو، ومفسراً له، ويجوز أن يكون ﴿عَدُوًّا﴾ منصوباً على أنه مفعول ثان؛ المعنى: وكذلك شياطين الجن والإنس أعداء للأنبياء وأممهم.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾؛ الزخرف في اللغة: الزينة.

والمعنى: أن بعضهم يزين لبعض الأعمال القبيحة، و ﴿غُرُوراً﴾ منصوب على المصدر، وهذا المصدر محمول على معنى، لأن مبني إيحاء الزخرف من القول معنى الغرور، كأنه قال: «يغرون غروراً».

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾؛ أي: لو شاء الله لمنع الشياطين من الوسوسة للإنس والجن ولكن الله يمتحن ما يعلم أنه الأبلغ في الحكمة والأجزل في الثواب والأصلح للعباد.

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾؛ معنى «لتصغى» لتميل، أي: وليصير أمرهم إلى ذلك، ويجوز: ولتصغي إليه أفئدة.

يقال: «صَغَوت أُصغي مثل: مَحَوت أُمحي»، وإنما جاز أُصغي وكان ينبغي أن يكون: «أَصْغُو» لموضع الغين، لأنها تفتح هي وأخواتها. وهو أن «يفعُل ويفعِل» يصير معها في كثير من الكلام «يفعَل» نحو: «صبَغَ وأصله: يصْبَغُ»، وهو يقال مثل ذَهَبَ يَذْهَب، كأنه كان يَذْهَب، ويقال: «صَغَيْتُ أَصْغَى» أيضاً، «وصَغَيْتُ، أَصغَى» شاذ، «وأَصْغَيْتُ أُصْغِي» جيد بالغ كثير.

و﴿أَفْئِدَةُ﴾: جمع «فؤاد»، مثل: «غراب وأغربة».

ومعنى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُقْتَرِفُونَ﴾.

جائز أن يكون وليعملوا ما هم عاملون من الذنوب، يقال: «قد اقترف فلان ذنباً»، أي: قد عمل ذنباً.

ويجوز «وليقترفوا» أي: ليختلقوا وليكذبوا، وهذه لام «أن»؛ المعنى: ولأن يرضوه وليقترفوا على أن اللام لام أمر، ومعناه معنى التهدد والوعيد، كما تقول: «افعل ما شئت»، فلفظه: لفظ الأمر، ومعناه: معنى التهدد.

وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾.

أعلم الله -عز وجل- -أن أكثرهم من الذين اتبعوا أكابرهم ليس عند أنفسهم أنهم على بصائر، وأنهم إنما يظنون، ومنهم من عاند، ومن يعلم أن النبي حق.

فإن قال قائل: كيف يعذبون وهم ظانون، وهل يجوز أن يعذب من كفر وهو ظان، ومن لم يكفر وهو على يقين ؟ فالجواب في هذا: أن الله -جل ثناؤه- قد ذكر أنه يعذب على الظن، وذلك قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص: ٢٧].

والحجة في هذا أنهم عذبوا على هذا الظن، لأنهم اتبعوا أهواءهم وتركوا التماس البصيرة من حيث يجب واقتصروا على الظن والجهل.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

موضع «من» رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام.

المعنى: إن ربك هو أعلم أي الناس يضل عن سبيله، وهذا مثل قوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾[الكهف: ١٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾؛ معناه: كلوا مما أخلصتم ذبحه لله، والمنع من الميتة داخل في هذا.

وليس بين الناس اختلاف في أن المشركين ناظروا المسلمين، فقالوا لهم: «تتركون ما سبقكم الله إلى إماتته وتأكلون ما أمتم أنتم» فأعلم -جل وعز- أن الميتة حرام وأن ما قصد بتزكيته اتباع أمر الله -عز وجل- فذلك الحلال، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾.

موضع «أن» نصب لأن «في» سقطت فوصل المعنى: إلى «أن» فنصبها؛ المعنى: أي: شيء يقع لكم في أن تأكلوا.

وسيبويه يجيز أن يكون موضع «أن» جراً وإن سقطت «في»، والنصب عنده أجود.

قال إبو إسحاق: ولا اختلاف بين الناس في أن الموضع نصب.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾؛ و«حُرِّم» جميعاً، أي: فصل لكم الحلال من الحرام، وأحل لكم في الاضطرار ما حرم عليكم.

فموضع «ما» نصب في قوله: ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾؛ ومعنى ﴿مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾ دعتكم شدة الضرورة، أي: شدة المجاعة إلى أكله.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ أي: إن الذين يحلون الميتة ويناظرونكم في إحلالها، وكذلك كل ما يضلون فيه، إنما يتبعون فيه الهوى والشهوة ولا بصيرة ولا علم عندهم.

وقوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

جاء في التفسير: أن ظاهره الزنا، وباطنه اتخاذ الأخدان والأصدقاء على جهة الريبة. والذي يدل عليه الكلام أن المعنى: -والله أعلم-: اتركوا الإثم ظهراً، أو بطناً، أي: لا تقربوا ما حرم الله عليكم جهراً ولا سراً.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾؛ أي: مما لم يخلص

ذبحه لله -عز وجل-.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ومعنى الفسق الخروج عن الحق والدين، يقال: «فَسَقَت الرطبة» إذا خرجت عن قشرتها.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾؛ أي: يوسوس الشيطان لوليه فيلقي في قلبه الجدال بالباطل، وهو ما وصفنا من أن المشركين جادلوا المسلمين في الميتة.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ هذه الآية فيها دليل أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله عليه أو حرم شيئاً مما أحل الله له فهو مشرك. ولو أحل مُحِلٌّ الميتة في غير اضطرار، أو أحل الزنا لكان مشركاً بإجماع الأمة، وإن أطاع الله في جميع ما أمر به، وإنما سمي مشركاً لأنه اتبع غير الله، فأشرك بالله غيره.

وقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

جاء في التفسير أنه يعنى به النبي ﷺ وأبو جهل بن هشام، فالنبي ﷺ هُدي وأُعطي نور الإسلام والنبوة والحكمة، وأبو جهل في ظلمات الكفر.

ويجوز أن تكون هذه الآية عامة لكل من هداه الله ولكل من أضله الله. فأعلم الله -جل وعز- أن مثل المهتدي مثل الميت الذي أحيي وجعل مستضيئاً يمشي في الناس بنور الحكمة والإيمان، ومثل الكافر مثل من هو في الظلمات لا يتخلص منها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾؛ موضع الكاف نصب معطوفة على ما قبلها، وهو قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

المعنى: مثل ذلك الذي قصصنا عليك زين للكافرين عملهم. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا﴾، أي: ومثل ذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، لأن الأكابر ما هم فيه من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾[الشورى: ٢٧]، وقوله: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِن فِضَّةٍ﴾[الزخرف: ٣٣].

ومعنى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: ذلك المكر يحيق بهم، لأنهم بمكرهم يعذبون.

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾؛ هذه الهاء والميم تعودان على الأكابر الذين جرى ذكرهم لأنهم قالوا: لن نؤمن حتى نعطى من الآيات مثل ما أعطي الأنبياء، فأعلم الله -عز وجل- أنه أعلم من يصلح، فقال -جل وعز-: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الدخان: ٣٢].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾؛ أي: هو أعلم بمن يختص للرسالة.

وقال بعضهم: لا يبلغ في تصديق الرسل إلا أن يكونوا قبل مبعثهم مطاعين في قومهم، لأن الطعن كان يتسع عليهم، ويقال: إنما كانوا أكابر ورؤساء فاتُّبِعوا.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: هم وإن كانوا أكابر في الدنيا سيصيبهم صغار عند الله أي: مذلة.

و ﴿عِندَ﴾ متصلة بسيصيبهم عند الله صغار. وجائز أن تكون «عند» متصلة بصغار فيكون المعنى: سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت لهم عند الله.

ولا تصلح أن تكون «من» محذوفة من «عند» إنما المحذوف «في» من «عند» في المعنى: إذا قلت: «زيد عند عمرو»؛ والمعنى: زيد في حضرة عمرو.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾؛ يروي عن ابن مسعود أنه سأل النبي ﷺ: وهل ينشرح الصدر ؟ فقال: «نعم، يدخل القلب النور» فقال ابن مسعود: هل لذلك من علم ؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الموت».

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا﴾؛ يروى عن ابن عباس أنه قال: الحرج موضع الشجر الملتف، فكأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة، وكما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي يلتف فيه الشجر.

وأهل اللغة أيضاً يقولونه: الشجر الملتف يقال: له الحرج.

والحرج في اللغة: أضيق الضيق والذي قال ابن عباس صحيح حسن؛ فالمعنى: عند أهل اللغة أنه ضيق جداً.

ويجوز حرجاً -بكسر الراء- فمن قال حرج فهو بمنزلة قولهم: «رجل دنف»، لأن قولك: «دنف» ههنا وحرج ليس من أسماء الفاعلين. إنما هو بمنزلة قولهم: «رجل عدل» أي: ذو عدل.

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾؛ و«يَصَّاعَدُ» أيضاً، وأصله: «يتصاعد ويتصعد»، إلا أن التاء تدغم في الصاد لقربها منها.

ومعنى ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ -والله أعلم-: كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه، ويجوز أن يكون -والله أعلم-كأن قلبه يصعد في السماء نبوأ على الإسلام واستماع الحكمة.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: مثل قصصنا عليك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

والرجس: اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

وقوله -جل وعز-: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: للمؤمنين دار السلام، وقال بعضهم: السلام اسم من أسماء الله، ودليله: ﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾[الحشر: ٢٣]. ويجوز أن تكون سميت الجنة دار السلام لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- فيقال لهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِن الإِنسِ﴾.

المعنى: قد استكثرتم ممن أضللتموهم من الإنس.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِن الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

جاء في التفسير: أن استمتاع الإنس بالجن أن الرجل كان إذا سافر سفراً فخاف أو أصاب صيداً، قال: أعوذ برب هذا الوادي، وبصاحب هذا الوادي يعني به الجن، واستمتاع الجن بالإنس أن الإنسي قد اعترف له بأنه يقدر أن يدفع عنه.

والذي يدل عليه اللفظ -والله أعلم- هو قبول الإنس من الجن ما كانوا يغوونهم به به لقوله: ﴿اسْتَكْثَرْتُم مِن الإِنسِ﴾ فأما من كان يقول هذا أعني يستعيذ بالجن فقليل.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾؛ المثوي: المقام.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ منصوب على الحال؛ المعنى: النار مقامكم في حال خلود دائم.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؛ معنى الاستثناء عندي ههنا -والله أعلم- إنما هو من يوم القيامة، لأن قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ هو يوم القيامة، فقال: خالدين فيها مذ يبعثون إلا ما شاء ربك من مقدار حشرهم من قبورهم، ومقدار مدتهم في محاسبتهم.

وجائز أن يكون ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يعذبهم به من أصناف العذاب، كما قال -جل

وعز-: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[هود: ١٠٦، ١٠٧]، فيجوز -والله أعلم- إلا ما شاء ربك من مقدار حشرهم ومحاسبتهم.

ويجوز أن يكون ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما يزيدهم من العذاب.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: هو حكيم فيما جعله من جزائهم، وحكيم في غيره.

وقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾؛ فقال: ﴿رُسُلٌ مِنكُمْ﴾ وإنما المرسل من الإنس دون الجن، فإنما جاز ذلك لأن الجماعة تعقل وتخاطب، فالرسل هم بعض من يعقل، وهذا كقوله: -عز وجل-: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج ذلك من «الملح» أي: البحر الذي ليس بعذب، فقال: ﴿مِنْهُمَا﴾ لأن ذكرهما قد جمع، فهذا جائز في اللغة، في كل ما اتفق في أصله كما اتفقت الجن مع الإنس في باب التمييز.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُن رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى﴾. فزعم سيبويه أن موضع «ذلك» رفع.

المعنى: الأمر ذلك لأنه لم يكن ﴿رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ﴾.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون موضعها نصباً؛ المعنى: قيل ذلك لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم؛ المعنى: يخرج على جميع القولين، لأن المعنى: يدل على أمر الإرسال، فكأنه -والله أعلم-: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل أمر عذاب من كذب بها لأنه لم يكن مهلك القرى بظلم، أي: لا يهلكهم حتى يبعث إليهم رسولاً، كما قال -عز وجل-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥].

وقوله: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾؛ موضع الكاف نصب.

المعنى: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَا يَشَاءُ﴾ مثل ما أنشأكم.

يقال: أنشأ الله الخلق إذا خلقه وأبدأه، وكل من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه، ومن ذلك قولك: «فأنشأ الشاعر يقول»، أي: ابتدأ من نفسه، والنشئ: الصغار من الأولاد، قال نصيب(١) [من الوافر]:

---

(١) وهو : نصيب بن رباح.

وَلَوْلا أَن يُقالَ صَبا نُصَيبٌ   لَقُلتُ بِنَفسِيَ النَشءُ الصِغارُ(١)

ولهذا يقال للصغار: «نشء حسن، ونشوء حسن»، أي: قد ظهر له ابتداء حسن.

وقوله: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾؛ و«مكاناتكم».

المعنى: اعملوا على تمكنكم، ويجوز أن يكون المعنى: اعملوا على ما أنتم عليه، ويقال للرجل إذا أمرته أن يثبت على حال: «على مكانتك يا فلان»، أي: أثبت على ما أنت عليه.

فإن قال قائل: فكيف يجوز أن يأمرهم النبي ﷺ أن يقيموا على الكفر فيقول لهم: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ ؟

فإنما معنى هذا الإمر المبالغة في الوعيد، لأن قوله لهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

قد أعلمهم أن من عمل بعملهم فإلى النار مصيره، فقال لهم: أقيموا على ما أنتم عليه إن رضيتم العذاب بالنار.

وقوله -عز وجل- ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي حمي ظهرها، والحامي: الذي حمي ظهره أن يركب، ﴿وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا﴾.

فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك افتراء، أي: يفعلون ذلك افتراء عليه، وهو منصوب بقوله: ﴿لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ﴾.

وهذا يسميه سيبويه: «مفعول له». وحقيقته أن قوله: لا يذكرون بمعنى يفترون، فكأنه قال: يفترون افتراء.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾؛ وكأنه إذا جعلوا لأصنامهم مما في بطون الأنعام شيئاً جعلوه ما يكون ذكراً مولوداً حياً يأكله الذكران خاصة، ولا يجيزون أن يأكل النساء شيئاً، فإن كان ذكراً ميتاً اشترك فيه الرجال والنساء، وهو قوله -عز وجل-: ﴿وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

ثم قال: ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾؛ فهو على ضربين:

أجودهما: أن يكون أنث الخبر، وجعل معنى «ما» التأنيث لأنها في معنى الجماعة،

---

(١) انظر: فتح القدير (٤٤٤/٥)، وكتاب اللامات (١٣٠/١)، والأغاني (١٧١/١٦)، وثمار القلوب (٢٢٢/١)، ولسان العرب (١٧٠/١)، وتاج العروس (٢٤٠/١).

كأنهم قالوا: جماعة ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، ويرد ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ على لفظ «ما».

وقال بعضهم: أنثه لتأنيث الأنعام، والذي في بطون الأنعام ليس بمنزلة بعض الشيء، لأن قولك: «سقطت بعض أصابعه» بعض الأصابع: «إصبع» وهي واحدة منها، والذي في بطون الأنعام: ما في بطن كل واحدة غيرها.

ومن قال يجوز على أن الجملة أنعام فكأنه قال: وقالوا الأنعام التي في بطون الأنعام خالصة لذكورنا.

والقول الأول الذي شرحنا أبين، لقوله ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾، لأنه دليل على الحمل؛ المعنى: في «ما» على اللفظ.

وقرأ بعضهم ﴿خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾، فهو عندي -والله أعلم- ما خلص حياً، ويجوز ﴿وَإِن يَكُن مَيْتَةً﴾ بالياء والتاء، ونصب ﴿مَيْتَةً﴾.

المعنى: وإن تكن تلك الحمول التي في البطون ميتة، ومن قرأ: «وإن يكن» فعلى لفظ «ما»؛ المعنى: إن يكن ما في البطن ميتة، ويجوز «وإن تكن ميتة» بالتاء ورفع «الميتة»، ويكون «تكن» بمعنى الحدوث والوقوع كأنه وإن تقع ميتة وإن تحدث ميتة.

وقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- سيجزيهم جزاء وصفهم الذي كذب.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ﴿سَفَهاً﴾ منصوب على معنى اللام أي: للسفه، مثل: «فعلت ذلك حذر الشر»، ويجوز أن يكون منصوباً على تأويل المصدر، لأن قتلهم أولادهم قد سفهوا فيه، فكأنه قال: سفهوا سفهاً، فقال -عز وجل-: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ﴾.

وقد فسرنا نصب ﴿افْتِرَاءً﴾، ومعنى الافتراء ههنا: الكذب.

ثم احتج الله عليهم ونبه على عظم ما أتوه في أن أقدموا على الكذب على الله وأقدموا على أن شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

فكأنه قال: افتروا على الله وهو المحدث للأشياء الفاعل ما لا يقدر أحد على الإتيان بمثله، فقال -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: ابتدع جنات، والجنات: البساتين.

﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾؛ ومعنى المعروشات ههنا الكروم.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾؛ في حال اختلاف أكله.

وهذه مسألة شديدة في النحو إلا على من عرف حقيقتها، لأن للقائل أن يقول كيف أنشأه في حال اختلاف أكله، وهو قد نشأ من قبل وقوع أُكُله، وأُكُله ثمره؟

فالجواب في ذلك: أنه -عز وجل- قدر إنشاءه بقوله: ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام: ١٠٢].

فأعلم -عز وجل- أنه المنشئ له في حال اختلاف أكله، ويجوز أنشأه ولا أُكُل فيه مختلفاً أُكُله، لأن المعنى: مقدراً ذلك فيه، كما تقول: «لتدخلن منزل زيد آكلين شاربين»؛ المعنى: تدخلون مقدرين ذلك، سيبويه دل على ذلك وبينه في قوله: «مررت برجل معه صقر صائداً به غداً»، فنصب «صائداً» على الحال؛ المعنى: مقدراً الصيد.

ومعنى ﴿مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾؛ على ضربين:

أحدهما: أن بعضه يشبه بعضاً، وبعضه يخالف بعضاً، ويكون متشابها وغير متشابه: أن تكون الثمار يشبه بعضها بعضاً في النظر وتختلف في الطعوم.

وقوله: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾؛ ثَمَرَ جمع ثَمَرة، ويجوز: «من ثُمُره»، ويكون «الثُمُر» جمع: «ثِمَار» فيكون بمنزلة: «حُمُر جمع حِمَار». ويجوز: «من ثُمْره» بإسكان الميم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾؛ يجوز «الْحَصَاد والْحِصَاد»، تقرأ بهما جميعاً، ومثله: «الْجَدَاد والْجِدَاد» لِصِرام النخل.

اختلف الناس في تأويل: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، فقيل: إن الآية مكية.

وروي أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمارها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله، فأنزل الله -عز وجل-: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا﴾.

فيكون على هذا التأويل أن الإنسان إذا أعطي كل ماله ولم يوصل إلى عياله وأهله منه شيئاً فقد أسرف، لأنه جاء في الخبر: «ابدأ بمن تعول».

وقال قوم: إنها مدنية.

ومعنى ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، أدوا ما افترض عليكم في صدقته، ولا اختلاف بين المسلمين في أمر الزكوات أن الثمار إذا حصدت وجب إخراج ما يجب فيها من

الصدقة فيما فرض فيه الصدقة، فعل هذا التأويل يكون: ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تنفقوا أموالكم وصدقاتكم على غير الجهة التي افترضت عليكم، كما قال المشركون: «هذا ليس كائناً» وحرموا ما أحل الله، فلا يكون إسراف أبين من صرف الأموال فيما يسخط الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾؛ نسق على الجنات.

المعنى: وهو الذي أنشأ جنات، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، والحمولة: الإبل التي تحمل. وأجمع أهل اللغة على أن الفرش صغارها.

وقال بعض المفسرين: الفرش صغار الإبل، وإن البقر والغنم من الفرش. والذي جاء في التفسير يدل عليه قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِن الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ﴾؛ فلما جاء هذا بدلاً من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ جعله للبقر والغنم مع الإبل.

وقوله: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾؛ أي: لا تحرموا ما حرمتم مما جرى ذكره.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ في خطوات ثلاثة أوجه: ضم الطاء وفتحها وإسكانها.

ومعنى ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرق الشيطان، قال بعضهم: تخطي الشيطان الحلال إلى الحرام.

والذي تدل عليه اللغة أن المعنى: لا تسلكوا الطريق الذي يسوله لكم الشيطان.

وقوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾؛ بدل من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾.

والزوج في اللغة: الواحد الذي يكون معه آخر.

﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ والضأن جمع ضائن وضأن، مثل تاجر وتجر.

﴿وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾؛ هذا احتجاج عليهم.

وبين الله -عز وجل- به فريتهم وكذبهم فيما ادعوه من أن ما في بطون الأنعام حلال للذكور ومحرم على الإناث وما حرموا من سائر ما وصفنا، فقيل لهم: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ فإن كان حرم من الغنم ذكورها فكل ذكورها حرام، وإن كان حرم الأنثيين فكل الإناث حرام، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فقد حرم الأولاد، وكلها أولاد فكلها حرام.

وكذلك الاحتجاج في قوله: ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ فقيل لهم ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾؛ أي: فسروا ما حرمتم بعلم، أي: وأنتم لا علم لكم لأنكم لا تؤمنون بكتاب.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾؛ أي: هل شاهدتم الله قد حرم هذا إذ كنتم لا تؤمنون برسول.

ثم بين ظلمهم فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقد بين الاحتجاج أنهم لا يؤمنون بنبي ولا يدعون أن نبياً خبرهم عن الله أن هذا حرام، ولا أنهم شاهدوا الله قد حرم ذلك.

ثم قال: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً...﴾

فأعلمهم ﷺ أن التحريم والتحليل إنما يقبله بالوحي أوالتنزيل فقال: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾.

والمسفوح: المصبوب، فكأنه إذا ذبحوا أكلوا الدم كما يأكلون اللحم.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾: والرجس اسم لما يستقذر وللعذاب.

﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾؛ أي: رفع الصوت على ذبحه باسم غير الله، وكانوا يذكرون أسماء أوثانهم على ذبائحهم.

«ففسق» عطف على ﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾؛ المعنى: إلا أن يكون المأكول ميتة أو دماً مسفوحاً أولحم خنزير أو فسقاً. فسمي ما ذكر عليه غير اسم الله فسقاً، أي: خروجاً من الدين.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ أي: دعته الضرورة إلى أكله فأكله غير باغ، أي: غير قاصد لتحليل ما حرم الله.

﴿وَلاَ عَادٍ﴾؛ أي: ولا مجاوز للقصد وقدر الحاجة. و«العادي» الظالم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: يغفر لمن لم يتعد.

فأما إعراب ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ فالنصب بـ﴿حَرَّمَ﴾.

وتثبت ألف المعرفة مع ألف الاستفهام لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر، لأنه لو قيل: «الذكرين حرم» بألف واحدة لالتبس الاستفهام بالخبر، وقد يجوز مع «أم» حذف الألف لأن «أم» تدل على الاستفهام لأنه لو قيل: «الرجل ضربت أم الغلام» لدلت «أم» على أن الأول، داخل في الاستفهام.

وقد أجاز سيبويه أن يكون البيت على ذلك وهو قوله[١] [من الطويل]:

لَعَمرُكَ ما أدري وإِن كنتُ دارِيا شُعيثُ بن سَهمٍ أم شُعَيثُ بن مِنقرِ[٢]

فأجاز أن يكون على: «أشعيث بن سهم»، ولكن القراءة بتبيين الألف الثانية في قوله: ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾؛ يعني به الإبل والنعام، لأن النعام ذوات ظفر كالإبل.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾؛ فقال بعض الناس: حرمت عليهم الثروب، وأحل لهم ما سواها مما حملت الظهور.

﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ وهي المباعر واحدها حاوية حاوياء وحوية.

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾؛ نحوشحم الألية. وهذا أكثر القولين، وقال قوم: حرمت عليهم الثروب، وأحل لهم ما حملت الظهور وصارت الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرم.

و«أو» دخلت على طريق الإباحة، كما قال -جل وعز-: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾[الإنسان: ٢٤]؛ فالمعنى: كل هؤلاء أهل أن يعصى، فأعص هذا، وأعص هذا، و«أو» بليغة في هذا المعنى:، لأنك إذا قلت: «لا تطع زيداً وعمراً» فجائز أن تكون نهيتني عن طاعتهما معاً في حال إن أطعت زيداً على حدته لم أكن عصيتك، وإذا قلت: «لا تطع زيداً أو عمراً أو خالداً»؛ فالمعنى: أن هؤلاء كلهم أهل ألا يطاع فلا تطع واحداً منهم ولا تطع الجماعة.

ومثله: «جالس الحسن أو ابن سيرين أوالشعبي» فليس المعنى: أني آمرك بمجالسة واحد منهم، ولكن معنى «أو» الإباحة؛ المعنى: كلهم أهل أن يجالس، فإن جالست واحداً منهم فأنت مصيب وإن جالست الجماعة فأنت مصيب.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾.

زعم سيبويه أن العطف بالظاهر على المضمر المرفوع قبيح، يستقبح: «قمت وزيد،

---

(١) قاله : الأسود بن يعفر النهشلي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/٢٤٤)، وتفسير القرطبي (٧/٢٦)، وفتح القدير (٢/١٩٣)، ومغني اللبيب (١/٦٢)، ولسان العرب (٢/١٦٠)، وتاج العروس (١/١٢٧١).

وقام وزيد»، فإن جاءت «لا» حسن الكلام فقلت: لا قمت ولا زيد، كما إذا أكد: «قمت أنت وزيد» حسن، وهو جائز في الشعر.

فأما معنى الآية : فإن الله -جل ثناؤه- أخبر عنهم بما سيقولون، وقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ جعلوا هذا القول حجة في إقامتهم على شركهم، فأعلم الله -عز وجل- أن ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

والحجة عليهم في هذا أنهم إذا اعتقدوا أن كل من كان على شيء، والأشياء تجري بمشيئة الله تعالى فهوعلى صواب، فلا معنى إذن -على قولهم- للرسالة والأنبياء، فيقال لهم: فالذين على دين يخالفكم، أليس هو على ما شاء الله، فينبغي ألا تقولوا إنهم ضالون، وهو-عز وجل- يفعل ما يشاء وهو قادر على أن يهدي الخلق أجمعين، وليس للعباد على الله أن يفعل بهم كل ما يقدر عليه، فقال -عز وجل-: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فحجته البالغة تبيينه أنه الواحد وإرساله الأنبياء بالحجج التي يعجز عنها المخلوقون.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾؛ زعم سيبويه أنها «ها» ضمت إليها «لم» وجعلتا كالكلمة الواحدة. فأكثر اللغات أن يقال: «هلم» للواحد والاثنين والجماعة. بذلك جاء القرآن نحو قوله: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾[الأحزاب: ١٨].

ومعنى ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أي: فهاتوا شهداءكم، وقربوا شهداءكم، ومن العرب من يثني ويجمع ويؤنث، فيقول للذكر: «هلم»، للاثنين: «هلما»، وللجماعة: «هلموا»، وللمرأة: «هلمي»، وللاثنتين: «هلما»، وللنسوة: «هلممن».

وفتحت الميم لأنها مدغمة كما فتحت «رُد» في الأمر لالتقاء الساكنين، ولا يجوز: «هلم إلينا» للواحد بالضم. كما يجوز في «رُد» الفتح، والضم والكسر، لأنها لا تصرف.

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾؛ فـ«ما» في موضع نصب إن شئت بـ﴿أَتْلُ﴾، والمعنى: تعالوا أتل الذي حرم ربكم عليكم، وجائز أن تكون «ما» منصوبة بـ﴿حَرَّمَ﴾، لأن التلاوة بمنزلة القول، كأنه قال: أقول أي شيء حرم ربكم عليكم، أهذا أم هذا، فجائز أن يكون الذي تلاه عليهم قوله: ﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾، ويكون ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا﴾ منصوبة بمعنى طرح اللام أي: أبين لكم الحرام لئلا تشركوا به شيئاً، لأنهم إذا حرموا ما أحل الله فقد جعلوا غير الله في القبول منه بمنزلة الله -جل وعز- فصاروا بذلك مشركين.

ويجوز أن يكون ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا﴾ محمولاً على المعنى:، فيكون: أتلو عليكم ألا تشركوا به شيئاً؛ فالمعنى: أتلو عليكم تحريم الشرك به.

وجائز أن يكون على معنى «أوصيكم» ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ لأن قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ محمولاً على معنى أوصيكم بالوالدين إحساناً.

وقوله ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِن إِمْلاقٍ﴾؛ أي: لا تقتلوا أولادكم من فقر، أي: من خوف فقر.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾؛ بدل من الفواحش في موضع نصب.

المعنى: لا تقربوا ما ظهر من الفواحش وما بطن.

جاء في التفسير: أن ما بطن منها الزنا، وما ظهر اتخاذ الأخدان والأصدقاء على جهة الريبة، وظاهر الكلام أن الذي جرى من الشرك بالله -عز وجل- وقتل الأولاد وجميع ما حرموه مما أحل الله -عز وجل- فواحش، فقال: ولا تقربوا هذه الفواحش مظهرين ولا مبطنين، -والله أعلم-.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾؛ يدل على أن معنى ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ قال بعضهم: التي هي أحسن ركوب دابته واستخدام خادمه.

وليس في الظاهر أن هذا هو المراد، وإنما التي هي أحسن حفظ ماله عليه، وتثميره بما وجد إليه السبيل.

وقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾؛ «حتى» محمولة على المعنى:.

المعنى: احفظوه عليه حتى يبلغ أشده، أي: فإذا بلغ أشده فادفعوه إليه.

وبلوغ أشده أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً، وقال بعضهم: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يبلغ ثماني عشرة سنة، ولست أعرف ما وجه ذلك بأن يبلغ قبل الثماني عشرة وقد أُنس منه رشد فدفع ماله إليه واجب.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾؛ أي: إذا شهدتم أو حكمتم فاعدلوا، ولو كان المشهود عليه أو له ذا قربى.

وقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾؛ الأكثر في القراءة بفتح

النون، ويجوز «أحسنُ» على إضمار على الذي هو أحسن. فأما الفتح فعلى أن «أحسن» فعل ماض مبني على الفتح.

وأجاز الكوفيون أن يكون في موضع جر، وأن يكون صفة «الذي»، وهذا عند البصريين خطأ فاحش، زعم البصريون أنهم لا يعرفون «الذي» إلا موصولة، ولا توصف إلا بعد تمام صلتها، وقد أجمع الكوفيون معهم على أن الوجه صلتها، فيحتاجون أن يثبتوا أنها رفعت موصولة ولا صلة لها.

فأما دخول «ثم» في قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا﴾ وقد علمنا أن «ثم» لا يكون الذي بعدها أبداً معناه التقديم، وقد علمنا أن القرآن أنزل من بعد موسى، وبعد التوراة. فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ فإنما دخلت «ثم» في العطف على التلاوة.

والمعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، أتل عليكم إلا تقتلوا أولادكم، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله، ثم أتلو ما آتاه الله موسى.

ومعنى ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يكون على «تماماً على المحسن»؛ المعنى: تماماً من الله على المحسنين، ويكون ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: على الذي أحسنه موسى من طاعة الله واتباع أمره، ويجوز تماماً على الذي هوأحسن الأشياء.

و«تمام» منصوب مفعول له، وكذلك ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ المعنى: اتيناه لهذه العلة أي: للتمام والتفصيل.

وقوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾؛ والمبارك ما يأتي من قبله الخير الكثير، وهومن نعت كتاب.

ومن قرأ «أنزلناه مباركاً» جاز ذلك في غير القراءة، لأن المصحف لا يخالف البتة.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: لتكونوا راجين للرحمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾؛ قال بعضهم: معناه: أنزلناه لئلا تقولوا إنما أنزل الكتاب أي: أنزلناه لتنقطع حجتهم، وإن كانت الحجة لله -عز وجل-، لأن الكتب التي أنزلت قبل النبي ﷺ قد كانت فيها الحجة، ولم يكن الله -عز وجل-: ليترك خلقه سدى بغير حجة، ولكن في تنزيل الكتاب والنبي ﷺ غاية الحجة، والزيادة في الإبانة.

وقال البصريون: معناه: أنزلناه كراهة أن تقولوا، ولا يجيزون إضمار «لا» لا يقولون: «جئت أن أكرمك»، أي: لئلا أكرمك، ولكن يجوز: «فعلت ذلك أن أكرمك»، على

إضمار: «محبة أن أكرمك، وكراهة أن أكرمك»، وتكون الحال تنبئ عن الضمير.

فالمعنى: أنزل الكتاب كراهة أن تقولوا: إنما أنزلت الكتب على أصحاب موسى وعيسى.

﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ المعنى: وما كنا إلا غافلين عن تلاوة كتبهم.

﴿وَأَن تَقُولُوا﴾؛ المعنى: أو كراهة أن تقولوا.

﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾؛ وإنما كانوا يقولون ﴿لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ لأنهم كانوا مدلين بالأذهان وحسن الأفهام، وذلك أنهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم وآثارهم، وهم أميون لا يكتبون.

وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ أي: فقد جاءكم ما فيه البيان وقطع الشبهات عنكم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ﴾؛ أي: إلا أن تأتيهم ملائكة الموت.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾؛ أو يأتي إهلاك ربك إياهم وانتقامه منهم، إما بعذاب عاجل أوبالقيامة، وهذا كقولنا: «قد نزل فلان ببلد كذا وكذا»، وقد أتاهم فلان أي: قد أوقع بهم.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾؛ نحو: خروج الدابة، أو طلوع الشمس من مغربها.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: لا ينفعها الإيمان عند الآية التي تضطركم إلى الإيمان.

لأن الله جل ثناؤه قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٦] وبعث الرسل بالآيات التي تتدبر، فيكون للمؤمن بها ثواب ولو بعث الله على كل من لم يؤمن عذاباً، لاضطر الناس إلى الإيمان به، وسقط التكليف والجزاء.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

قال بعضهم: هذه نزلت قبل الحرب، أي: ليس عليك قتالهم إنما أمرهم إلى الله.

ومعنى ﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾ أي: كانوا متفرقين في دينهم.

يعنى به اليهود والنصارى، لأن النصارى بعضها يكفر بعضاً وكذلك اليهود، وهم أيضاً أهل التوراة، وبعضهم يكفر بعضاً، أعني اليهود تكفر النصارى، والنصارى تكفر اليهود.

وفي هذه الآية حث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة، وأن لا يتفرقوا في الدين وأن لا يبتدعوا البدع ما استطاعوا.

فقوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ يدل على أن من فرق دينه من أهل ملة الإسلام وابتدع البدع فقد صار به منهم.

ومعنى «شيعت» في اللغة: اتبعت. والعرب تقول: شَاعَكم السَّلم وأَشَاعَكم السَّلم، ومعناه: تبعكم السَّلم، قال الشاعر [من الوافر]:

ألا يا نخلةٌ مِنْ ذاتِ عرقٍ بـرود الظِّل شَايَعَكِ الظَّلاَمُ

وتقول: آتيتك غداً أو شيعة أي: أو اليوم الذي يتبعه، فمعنى الشيعة الذي يتبع بعضهم بعضاً، ومعنى «الشيع» الفرق التي كل فرقة منهم يتبع بعضهم بعضاً وليس كلهم متفقين.

وقوله -جل وعز-: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾؛ القراءة: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

والمعنى: فله عشر حسنات أمثالها، وكما يجوز عندي: «خمسة أثواباً»، ويجوز: «فله عشر مثلها» في غير القراءة فيكون المثل في لفظ الواحد وفي معنى الجميع، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾[النساء: ١٤٠]، ومن قال أمثالها فهوكقوله: ﴿ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[محمد: ٣٨] وإنما جاء على المثل التوحيد، وأن يكون في معنى الجميع، لأنه على قدر ما يشبه به، تقول: «مررت بقوم مثلكم، وبقوم أمثالكم».

فأما معنى الآية فإنه من غامض المعاني التي عند أهل اللغة؛ لأن المجازاة على الحسنة من الله -جل ثناؤه- بدخول الجنة شيء لا يبلغ وصف مقداره، فإذا قال: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، أو قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾[البقرة: ٢٦١].

مع قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[البقرة: ٢٤٥]، فمعنى هذا كله أن جزاء الله -جل ثناؤه- على الحسنات على التضعيف للمثل الواحد الذي هو النهاية في التقدير في النفوس، ويضاعف الله ذلك بما بين عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وأجمع المفسرون على قوله: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ لأن السيئة ههنا الشرك بالله.

وقالوا: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ هي قول لا إله إلا الله، وأصل الحسنات التوحيد، وأسوأ

السيئات الكفر بالله -جل وعز-.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ والصراط الدين الذي دلني على الدين الذي هو دين الحق.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿دِيناً قِيَماً﴾؛ والقيم هو المستقيم.

وقرئت ﴿دِيناً قَيِّماً﴾ وقيم مصدر كالصغر والكبر، إلا أنه لم يقل «قوم» مثل قوله: ﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[الكهف: ١٠٨] لأن قولك: «قام قيماً» كأنه على: «قَوُمَ أو قَوِمَ»، فلما اعتل فصار: «قَامَ» اعتل «قِيَم»، فأما «حِوَل» فهو على أنه جار على غير فَعِل.

وأما نصب ﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾. فمحمول على المعنى:، لأنه لما قال: هداني إلى صراط مستقيم، دل على عرفني ديناً قيماً.

ويجوز أن يكون على البدل من معنى ﴿هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ المعنى: هداني صراطاً مستقيماً ديناً قيماً، كما قال -جل وعز-: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ [الفتح: ٢].

و﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ بدل من ﴿دِيناً قِيَماً﴾ و﴿حَنِيفاً﴾ منصوب على الحال من ﴿حَنِيفاً﴾؛ المعنى: هداني وعرفني ملة إبراهيم في حال حنيفيته، وهو ههنا لإبراهيم حسن منه لغيره.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقد فسرنا معنى الحنيفية وأنها الميل إلى الإسلام ميلاً لا رجوع معه.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي﴾؛ قالوا: النسك الذبح، والنسك ما يقترب به إلى الله -جل وعز-.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾؛ الياء ياء الإضافة، فتحت لأن أصلها الفتح، ويجوز إسكانها إذا كان ما قبلها متحركاً. ويجوز ﴿وَمَمَاتِي﴾ وإن شئت قرأت ﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ بفتح الياء، وإن شئت أسكنت، فأما ياء ﴿وَمَحْيَايَ﴾ فلا بد من فتحها لأن قبلها ساكن.

ومعنى الآية : أنه يخبر بأنه إنما يتقرب بالصلاة وسائر المناسك إلى الله -جل وعز- لا إلى غيره، كما كان المشركون يذبحون لأصنامهم، فأعلم أنه الله وحده بقوله: ﴿لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: هو ابتدع الأشياء كلها لا يقدر أحد على ابتداع شيء منها.

وقوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ أي: لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى، لا يؤخذ أحد بذنب غيره.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾؛ قيل: خلائف الأرض أمة محمد ﷺ لأن النبي ﷺ خاتم النبيين فأمته قد خلفت سائر الأمم.

وقال بعضهم: ﴿خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾؛ فدل بهذا أنه فضل بعض الناس ليختبرهم فيما رزقهم، وهو -جل ثناؤه- عالم بما يكون منهم قبل ذلك، إلا أنه اختبرهم، منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ إن قال قائل: كيف قيل: سريع العقاب. وعقابه إنما يكون في القيامة، وإن كان بعضه قد وقع في الدنيا ؟

فإنما ذلك لأن أمر الساعة سريع، لأن كل ما زال وإن تطاول فهو بمنزله ما لم يحس سرعة.

وكذلك قوله -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[النحل: ٧٧]، وكذلك قوله -جل وعز-: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾[المعارج: ٦، ٧].

* * *

سورة الأعراف [1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة الأعراف من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف السابعة. عدد آياتها ست ومائتا آية. جاءت تسميتها الأعراف لورود ذكر اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلهما.

سورة الأعراف من أطول السور المكية، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء، ومهمتها كمهمة السور المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جلّ وعلا وتقرير البعث والجزاء وتقرير الوحي والرسالة.

تناولت السورة الكريمة في بدء آياتها القرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة، وقررت أن هذا القرآن نعمة من الرحمن على الإنسانية جمعاء، فعليهم أن يستمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين. ولفتت الأنظار إلى نعمة خلقهم من أب واحد، وإلى تكريم الله لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أبي البشر آدم عليه السلام، الذي أمر الملائكة بالسجود له، ثم حذرت من كيد الشيطان، ذلك العدو المتربص. ثم ذكر قصته مع إبليس وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض كنموذج للصراع بين الخير والشر، والحق والباطل ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٧].

كما تعرضت السورة الكريمة لمشهد من مشاهد الواقعة يوم القيامة، مشهد الفرق الثلاثة وما يدور بينهم من محاورة ومناظرة: فرقة المؤمنين أصحاب الجنة، وفرقة الكافرين أصحاب النار، وفرقة ثالثة لم يتحدث عنها القرآن إلا في هذه السورة، وهي الفرقة التي سميت بأصحاب الأعراف، وسميت باسمها السورة سورة الأعراف. والأعراف عند العرب، كل مرتفع من الأرض. وفي رواية لابن عباس قال: الأعراف تلّ بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب. وروى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار فوقفوا هنالك على السور حتى يقضي الله فيهم. وتناولت السورة قصص الأنبياء بإسهاب: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب وموسى.

وتناولت كذلك المثل المخزي لعلماء السوء وصورتهم بأشنع وأقبح ما يمكن للخيال أن يتصوره، صورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وختمت السورة الكريمة بإثبات التوحيد ثم بالتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع، ولا يبصر ولا يسمع، فختمت السورة الكريمة بالتوحيد كما بدأت بالتوحيد، فكانت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الرب المعبود في البدء والختام.

قوله -عز وجل-: ﴿المص﴾ قد فسرنا هذه الحروف في أول سورة البقرة، إلا أنا أعدنا ههنا شيئاً من تفسيرها لشيء في إعرابها، والذي اخترنا في تفسيرها. قول ابن عباس أن ﴿المص﴾؛ معناه: أنا الله أعلم وأفصل.

وقال بعض النحويين موضع هذه الحروف رفع بما بعدها، قال: ﴿المص * كِتَابٌ﴾.

﴿كِتَابٌ﴾ مرتفع بالمص، وكأن معناه: المص حروف كتاب أنزل إليك، وهذا لو كان كما وصف لكان بعد هذه الحروف أبداً ذكر الكتاب. فقوله: ﴿الم * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[آل عمران: ١، ٢] يدل على أن ﴿الم﴾ لا مرافع لها على قوله، كذلك: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾[يس: ١، ٢]، وكذلك: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾[الشورى: ١]، وقوله: ﴿حم * وَالْكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾[الدخان: ١-٣].

فهذه الأشياء تدل على أن الأمر على غير ما ذكر، ولو كان كذلك أيضاً لما كان ﴿الم﴾ مكرراً، ولا ﴿حم﴾ مكرراً.

وقد أجمع النحويون على أن قوله -عز وجل- ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مرفوع بغير هذه الحروف؛ المعنى: هذا كتاب أنزل إليك، وهو مجمع معهم على أن ما قالوه جائز فيجب اتباعهم من قوله وقولهم، ويجب على قائل هذا القول التثبيت على مخالفتهم، ولو كان كما يصف لكنا مضمراً اسمين فكان المعنى: الم بعض حروف كتاب أنزل إليك، فيكون قد أضمر المضاف وما أضيف إليه، وهذا ليس بجائز.

فإن قال قائل قد يقول: «ألف - با - تا - ثا» ثمانية وعشرون حرفاً، وإنما ذكرت أربعة فمن أين جاز ذلك، قيل: قد صار اسم هذه «ألف - با - تا - ثا»، كما أنك تقول: «الحمد سبع آيات» فالحمد اسم لجملة السورة، وليس اسم الكتاب «الم»، ولا اسم القرآن «طسم». وهذا فرق بين.

وهذه الحروف كما وصفنا حروف هجاء مبنية على الوقف، وهي في موضع جمل، والجملة إذا كانت ابتداء وخبراً فقط لا موضع لها. فإذا كان معنى ﴿كهيعص﴾، معنى «الكاف» كاف، ومعنى الهاء «هاد»، ومعنى «الياء والعين» من عليم ومعنى «الصاد» من صدوق، وكان معنى «الم» أنا أعلم، فإنما موضعها كموضع الشيء الذي هو تأويل لها. ولا موضع في الإعراب لقولك: أنا الله أعلم، ولا لقولك: «هو هاد، وهو كاف» إنما يرتفع بعض هذا ببعض، والجملة لا موضع لها.

وقوله: ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾؛ فمعنى الحرج الضيق، وفيه وجهان:

أحدهما: أن لا يضيق صدرك بالإبلاغ ولا تخافن، لأنه يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «رب إني أخاف أن يثلغوا رأسي فيجعلوه كالخبزة»، فأعلم الله -عز وجل- أنه في أمان منهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾؛ أي: فلا يضيقن صدرك من تأدية ما أرسلت به.

وقيل أيضاً: فلا تشكن فيه؛ وكلا التفسيرين له وجه.

فأما تأويل «فلا تشكن»، وتأويل ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[البقرة: ١٤٧]، وتأويل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾[يونس: ٩٤] فإن ما خوطب به ﷺ فهو خطاب لأمته، فكأنه بمنزلة فلا تشكوا ولا ترتابوا.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾؛ معناه: التقديم.

المعنى: -والله أعلم- كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين، فلا يكن في صدرك حرج منه.

﴿وَذِكْرَى﴾ يصلح أن يكون في موضع رفع ونصب وجر، فأما النصب فعلى قولك: «أنزل لتنذر به وذكرى للمؤمنين»، أي: ولتذكر به ذكرى، لأن في الإنذار معنى التذكير.

ويجوز أن يكون: وهو ذكرى للمؤمنين كقولك: «وهو ذكر للمؤمنين».

فأما الجر فعلى معنى ﴿لِتُنذِرَ﴾، لأن معنى ﴿لِتُنذِرَ﴾ لأن تنذر؛ فهو في موضع جر؛ المعنى: للإنذار والذكرى. فأما ذكرى فمصدر فيه ألف التأنيث بمنزلة «دعوت دعوى»، وبمنزلة «رجعت رجعى. واتقيت تقوى»، إلا أنه اسم في موضع المصدر.

وقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ﴾؛ أي: اتبعوا القرآن، وما أتي به عن النبي ﷺ لأنه مما أنزل عليه لقوله -جل وعز-: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: ٧].

﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾؛ أي: لا تتولوا من عدل عن دين الحق، ومن ارتضى مذهباً من المذاهب، فالمؤمن ولي المؤمن ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٧١].

وقوله -عز وجل-: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ «ما» زائدة مؤكدة، المعنى: قليلا تذكرون، وفي ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وجهان في القراءة:

﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالتشديد في الذال؛ والمعنى: قليلا ما تتذكرون، إلا أن التاء

تدغم في الذال لقرب مكان هذه من مكان هذه.

ومن قرأ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ فالأصل أيضاً: «تتذكرون»، إلا أنه حذف إحدى التاءين، وهي التاء الثانية لأنهما زائدتان، إلا أن الأولى تدل على معنى الاستقبال فلا يجوز حذفها، والثانية إنما دخلت على معنى فعلت الشيء على تمهل، نحو: «تفهمت وتعلمت»، أي: أحدثت الشيء على مهل، وتدخل على معنى إظهار الشيء والحقيقة غيره، كقولك: «تقيست» أي: أظهرت أني قيسي.

فإنما المحذوف من «تتفعلون» الثانية، لأن الباقي في الكلمة من تشديد العين من تفعل يدل على معنى الكلمة، ولو حذفت تاء «الاستقبال» لبطل معنى الاستقبال.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَكَم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ المعنى: وكم من أهل قرية أهلكناهم، إلا أن «أهل» حذف لأن في الكلام دليلاً عليه.

وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾؛ محمول على لفظ القرية، ولو قيل: فجاءهم لكان صواباً.

وقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ قال بعض النحويين: المعنى: وهم قائلون، والواو فيما ذكر محذوفة وهذا لا يحتاج إلى ضمير الواو، ولو قلت: «جاءني زيد راجلا أو وهو فارس، أو جاءني زيد هو فارس» لم تحتج إلى واو، لأن الذكر قد عاد إلى الأول.

ومعنى ﴿بَيَاتاً﴾: ليلاً، يقال: «بَاتَ بَيَاتاً حَسَناً، وبِيتَةً حسنة»، والمصدر في الإصابات «بَيْتاً». «والبَيْتُ» بيت الشعر وكذلك «بيت المدر»، وإنما أصل تسميته من أنه يصلح للمبيت، ويقال: «لفلان بِيتَة ليلة وبَيْتُ ليلة»، أي: ما يكفيه من القوت في ليلة.

ومعنى: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾؛ أي: أو جاءهم بأسنا نهاراً في وقت القائلة، يقال: قِلْتُ من القَائِلة.

فالمعنى: أنهم جاءهم بأسنا غفلة، وهم غير متوقعين له، إما ليلاً وهم نائمون، أو نهاراً وهم قائلون كأنهم غافلون.

و«أو» ههنا دخلت على جهة تصرف الشيء ووقوعه، إما مرة كذا، وإما مرة كذا، فهي في الخبر ههنا بمنزلة «أو» في الإباحة، تقول: «جالس زيداً أو عمراً»، أي: كل واحد منهما أهل أن يجالس، و«أو» ههنا أحسن من الواو، لأن الواو تتضمن اجتماع الشيئين، لو قلت: «ضربت القوم قياماً وقعوداً»، لأوجبت الواو أنك ضربتهم وهم على هاتين الحالتين، وإذا قلت: «ضربتهم قياماً أو ضربتهم

قعوداً))، ولم تكن شاكاً، فإنما المعنى: أنك ضربتهم مرة على هذه الحال، مرة على هذه الحال.

و موضع ﴿وَكَم﴾ رفع بالابتداء، وخبرها ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، وهو أحسن من أن تكون في موضع نصب، لأن قولك: ((زيد ضربته)) أجود من: ((زيداً ضربته)). والنصب جيد عربي أيضاً مثله قوله -جل وعز-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩].

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ المعنى: -الله أعلم -أنهم لم يحصلوا مما كانوا ينتحلونه من المذهب والدين ويدعونه إلا على اعتراف بأنهم كانوا ظالمين.

والدعوى : اسم لما يدعيه، والدعى يصلح أن تكون في معنى الدعاء لو قلت: ((اللهم أشركنا في صالح دعاء المسلمين، ودعوى المسلمين)) جاز، حكى سيبويه ذلك وأنشد:

* قَالَت ودَعْواها كثيرٌ صَخَبُهْ *

وموضع ((أن)) الأحسن أن يكون رفعاً، وأن تكون ((الدعوى)) في موضع نصب، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ ويجوز أن يكون في موضع نصب، ويكون ((الدعوى)) في موضع رفع إلا أن ((الدعوى)) إذا كانت في موضع رفع فالأكثر في اللفظ ((فما كانت دعواهم)) كذا وكذا، إلا أن، لأن الدعوى مؤنثة في اللفظ، ويجوز: ((كان دعواه باطلاً وباطلة)).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾؛ اختلف الناس في ذكر الميزان في القيامة.

وجاء في بعض التفسير: أنه ميزان له كفتان، وأن الميزان أنزل إلى الدنيا ليتعامل الناس بالعدل وتوزن به الأعمال. وقال بعضهم: ((الميزان)): العدل، وذهب إلى قولك هذا في وزن هذا، وإن لم يكن مما يوزن، وتأويله: أنه قد قام في النفس مساوياً لغيره كما يقوم الوزن في مرآة العين. وقال بعضهم: ((الميزان)): الكتاب الذي فيه أعمال الخلق.

وهذا كله في باب اللغة والاحتجاج سائغ، إلا أن الأولى من هذا أن يتبع ما جاء بالأسانيد الصحاح. فإن جاء في الخبر: ((أنه ميزان له كفتان))، من حيث ينقل العدل، -والله أعلم- بحقيقة ذلك، إلا أن جملة أعمال العباد موزونة على غاية العدل والحق، وهوقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾.

وقد فسرنا المفلح فيما يقدم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾؛ معنى التمكين في الأرض التمليك والقدرة.

ومعنى «المعايش» يحتمل أن يكون ما يعيشون به، ويمكن أن يكون الوصلة إلى ما يعيشون به.

وأكثر القراء على ترك الهمز في «معايش»، وقد رووها عن نافع مهموزة. وجميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ، وذكروا أن الهمز إنما يكون في هذه الياء إذا كانت زائدة نحو: «صحيفة» لأن الياء زائدة، وإنما همزت لأنه لا حظ لها في الحركة، وقد قربت من آخر الكلمة ولزمتها الحركة فأوجبوا فيها الهمز، وإذا جمعت: «مقاماً» قلت: «مقاوم».

وأنشد النحويون [من الطويل][1]:

وَإِنّي لَقَوّامٌ مَقاوِمُ لَم يَكُن جَريرٌ وَلا مَولى جَريرٍ يَقومُها[2]

وقد أجمع النحويون على أن حكوا مصائب في جمع مصيبة، بالهمز، وأجمعوا أن الاختيار «مصاوب»، وهذه عندهم من الشاذ، أعني «مصايب»، وهذا عندي إنما هو بدل من الواو المكسورة، كما قالوا في «وسادة: إسادة»، إلا أن هذا البدل في المكسورة يقع أولاً كما يقع في المضمومة، نحو: ﴿أُقِّتَتْ﴾ وإنما هو من الوقت، والمضمومة تبدل في غير أول نحو: «أدؤر»، يقولون: «أدور» فحملوا المكسورة على ذلك.

ولا أعلم أحداً فسر ذلك غيري، وهو أحسن من أن يجعل الشيء خطأ إذا نطقت به العرب وكان له وجه من القياس، إلا أنه من جنس البدل الذي إنما يتبع فيه السماع، ولا يجعل قياساً مستمراً.

فأما ما رواه نافع من «معائش» بالهمز فلا أعرف له وجهاً، إلا أن لفظ هذه الياء التي من نفس الكلمة أسكن في «معيشة» فصار على لفظ «صحيفة»، فحمل الجمع على ذلك، ولا أحب القراءة بالهمز إذ كان أكثر الناس إنما يقرؤون بترك الهمز، ولو كان مما يهمز لجاز تحقيقه وترك همزة، فكيف وهو مما لا أصل له في الهمز ؟ وهو كتاب الله -عز وجل- الذي ينبغي أن يمال فيه إلى ما عليه الأكثر لأن القراءة سنة فالأولى فيه الاتباع،

---

(١) البيت للأخطل.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥٠/٧)، والخصائص (١٤٥/٣).

والأولى اتباع الأكثر.

وزعم الأخفش أن «مصائب» إنما وقعت الهمزة فيها بدلاً من الواو أعلت في مصيبة، وهذا رديء. لا يلزم أن أقول في «مقام: مقائم» وفي «معونة: معائن».

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾؛ زعم الأخفش أن «ثم» ههنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعربيته، إنما «ثم» للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير، وإنما المعنى: في هذا الخطاب ذكر ابتداء خلق آدم أولاً، فإنما المعنى: إنا بدأنا خلق آدم ثم صورناه، فابتداء خلق آدم التراب، الدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾[آل عمران: ٥٩].

فبدأ الله خلق آدم تراباً، وبدأ خلق حواء من ضلع من أضلاعه، ثم وقعت الصورة بعد ذلك، فهذا معنى ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، أي: هذا أصل خلقكم. ثم خلق الله نطفاً ثم صوروا. «فثم» إنما هي لما بعد.

وقوله -جل وعز-: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾؛ أي: بعد الفراغ من خلق آدم أمرت الملائكة بالسجود.

وقوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ﴾؛ استثناء ليس من الأول، ولكنه ممن أمر بالسجود، والدليل على ذلك قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

فدل بقوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أن إبليس أمر بالسجود مع الملائكة.

ومعنى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ الغاء «لا»، وهي مؤكدة؛ المعنى: ما منعك أن تسجد فمسألته عن هذا والله قد علم ما منعه، توبيخ له وليظهر أنه معاند، وأنه ركب المعصية خلافاً لله، وكل من خالف الله في أمره فلم يره واجباً عليه كافر بإجماع، لو ترك تارك صلاة قال: «إنها لا تجب» كان كافراً بإجماع الأمة، فأعلم الله -جل ثناؤه- أن معصية إبليس معصية معاندة وكفر، وقد أعلم الله أنه من الكافرين فقال: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾[البقرة: ٣٤].

فالفصل بين معصية إبليس ومعصية آدم وحواء أن إبليس عاند وأقام ولم يتب، وأن آدم وحواء اعترفا بالذنب وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

و مثل «ألآ» في قوله: ﴿أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ قوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ﴾[الحديد: ٢٩]

أي: لأن يعلم أهل الكتاب، وقول الشاعر:

أَبَى جودُهُ لا البُخْلَ واستعجلَتْ به   نَعَمْ من فَتًى لا يَمنَعُ الجودَ قاتِلَهْ[١]

قالوا: معناه: أبى جوده البخل.

وقال أبوعمرو بن العلاء: الرواية: «أبى جوده البخل واستعجلت به نعم» والذي قاله أبوعمرو حسن؛ المعنى: أبى جوده «لا» التي تبخل الإنسان، كأنه إذا قيل: لا تسرف ولا تبذر مالك أبى جوده «لا» هذه، واستعجلت به «نعم»، فقال: «نعم أفعل ولا أترك الجود».

وهذان القولان في البيت هما قولا العلماء، وأرى فيه وجها آخر وهو عندي حسن. أرى أن تكون «لا» غير لغو، وأن يكون البخل منصوباً بدلا من «لا»؛ المعنى: أبي جوده البخل واستعجلت به «نعم».

و موضع «ما» في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ رفع؛ المعنى: أي: شيء منعك في السجود، فلم يقل منعني كذا وكذا فأتي بالشيء في منعي الجواب، ولفظه غير جواب، لأن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ في معنى منعني من السجود فضلي عليه.

ومثل هذا في الجواب أن يقول الرجل كيف كنت، فيقول: أنا صالح، إنما الجواب كنت صالحاً، ولكن المعنى: أنه قد أجابه بما احتاج إليه وزاده أنه في حال مسألته إياه صالح فقال الله -عز وجل-: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

لأنه قد استكبر بهذا الجواب فأعلمه الله أنه صاغر بهذا الفعل.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: أخرني إلى يوم البعث، فلم يجب إلى الإنظار إلى يوم البعث بعينه، وأعلم أنه منظور إلى يوم الوقت المعلوم.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ في قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ قولان:

قال بعضهم: فبما أضللتني. وقال بعضهم: فبما دعوتني إلى شيء غويت به، أي: غويت من أجل آدم.

﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ ولا اختلاف بين النحويين في أن «على» محذوفة، ومن ذلك قولك: «ضرب زيد الظهر والبطن».

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٣٨)، والخصائص (٢/٣٥)، واللباب علل البناء والإعراب (١/٢٤٥)، ومغني اللبيب (١/٣٢٧)، ولسان العرب (١٢/٥٧٩).

وقوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾؛ معناه: -والله أعلم- ثم لآتينهم في الضلال من جميع جهاتهم.

وقيل ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: لأضلنهم في جميع ما يتوقع، وقيل أيضاً: لأخوفنهم الفقر، والحقيقة -والله أعلم-أي: أنصرف لهم في الإضلال في جميع جهاتهم.

وقوله: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤوماً مَدْحُوراً﴾؛ معنى ((مذؤوم)) كمعنى مذموم، يقال: ((ذَأَمْتُه أَذْأَمه ذَأْمَاً))، إذا ذممته.

ومعنى ﴿مَّدْحُوراً﴾ مبعداً من رحمة الله.

وقوله: ﴿لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾؛ هذه اللام لام القسم تدخل توطئة للأمر.

﴿لأَمْلأَنَّ﴾؛ والكلام بمعنى الشرط والجزاء، كأنه قيل: من تبعك أعذبه، فدخلت اللام للمبالغة والتوكيد، ولام ﴿لأَمْلأَنَّ﴾ لام القسم ولام ((من تبعك)) توطئة لها، يجوز في الكلام: ((والله من جاءك لأضربنه))، ولا يجوز: ((والله لمن جاءك أضربه))، وأنت تريد لأضربنه، ولكن يجوز: ((والله لمن جاءك أضربه)) تريد لأضربنه، وقال بعضهم: في قوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: لأغوينهم فيما أمروا به.

وقوله: ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: لأغوينهم فيما نهوا عنه، والذي أظنه -والله أعلم- على هذا المذهب: أني أغويهم حتى يكذبوا بأمور الأمم السالفة وبالبعث، كما ذكر في هذا.

ومعنى: ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: لأضلنهم فيما يعملون، لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً، إلا أنه يقال لكل ما عمله عامل: ((كسبت يداك))، لأن اليدين الأصل في التصرف فجعلتا مثلا لجميع ما عمل بغيرهما، قال الله -عز وجل- ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[الحج: ١٠] (١)، وقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[آل عمران: ١٨٢]، وقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ ثم فسر فقال: ﴿مَا أَغْنَى

---

(١) في الأصل والمطبوعة : ((ذلك بما كسبت يداك))، وأشار المحقق إلى عدم وجودها في القرآن بهذا اللفظ وأشار إلى آية أخرى غير التي أثبتها ولعل ما أثبته الأنسب في هذا المقام فقال المحقق : ((لا توجد آية بهذا اللفظ ولكن يوجد : ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]))، فرأيت من الأولى أن نصححها في النص نفسه لأن القرآن هو الحجة، وكذا الآية التي عقبها كان مكانها في الأصل والمطبوعة : ((ذلك بما كسبت أيديكم))، فأثبت آية آل عمران ولعلها الأنسب أيضاً -والله أعلم-.

عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[المسد: ١، ٢].

وقوله: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾؛ هذا الاختيار، -أعني- ذكر «أنت»، وتقول: «اذهب أنت وزيد»، ولو قلت: «اذهب وزيد» كان قبيحاً. وقد فسرناه فيما سلف.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾، قال بعضهم: هي السنبلة، وقيل: هي الشجرة الكرم.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ الأجود أن يكون: «فتكونا» في موضع نصب على جواب الأمر بالفاء. أي: فإنكما إن قربتماها كنتما من الظالمين.

ويجوز أن يكون في موضع جزم عطفاً على قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا﴾، أي: فلا تكونا من الظالمين.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾؛ تدل والله أعلم على معنى قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾[الأعراف: ٢٠].

ويجوز ﴿مَلَكَيْنِ﴾، لأن قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾[طه: ١٢٠] يدل على ﴿مَلَكَيْنِ﴾ وأحسبه قد قرئ به.

فتدل -والله أعلم- على أن القول إنما كان وسوسة من إبليس. والأجود أن يكون خطاباً، لقوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾؛ أي: فحلف لهما

﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾؛ أي: دلاهما في المعصية بأن غرهما.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾؛ أي: ظهرت لهما فروجهما، وإنما السوءة كناية عن الفرج، إلا أن الأصل في التسمية السوءة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ﴾؛ معنى طفقا أخذا في الفعل، والأكثر: «طَفَقَ يَطْفَق» وقد رويت «طفِق يطفِق»، بكسر الفاء.

وقيل: كان ورق الجنة ذلك ورق التين.

ومعنى ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يجعلان ورقة على ورقة، ومنه قيل: للخصاف الذي يرقع النعل: هو يخصف، قال الشاعر[1] [من البسيط]:

* أَو يَخصِفُ النَّعلَ لَهفي أَيَّةَ صَنعا[2]*

---

(١) هو : الأعشى.

(٢) انظر: المستقصى في أمثال العرب (١/١٩)، وشرح كتاب الأمثال (١/١١٨).

ويجوز «يَخْصِفَان ويَخِصِّفان»، والأصل الكسر في الخاء، وفتحها وتشديد الصاد، ويكون المعنى: يختصفان.

وفي هذه الآية دليل على أن أمر التكشف وإظهار السوءة قبيح من لدن آدم، ألا ترى أنه ذكر عظيم شأنها في المعصية فقال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾.

وأنهما بادرا يستتران لقبح التكشف.

وقوله: ﴿وُورِيَ عَنْهُمَا﴾؛ يجوز فيه «أوري»، لأن الواو مضمومة، إن شئت أبدلت منها همزة، إلا أن القراءة تتبع في ذلك. والقراءة المشهورة وخط المصحف ﴿وُورِيَ﴾ بالواو.

ومعنى ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، وقوله: ﴿ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾؛ يدل على أنهما ذاقاها ذوقاً ولم يبالغا في الأكل.

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً﴾؛ ويقرأ «ورياشا».

و«الريش»: اللباس. العرب تقول: «أعطيته بريشته»، أي: بكسوته، والريش، كل ما ستر الرجل في جسمه ومعيشته، يقال: تريش فلان أي: صار له ما يعيش به، أنشد سيبويه وغيره [من الوافر].

وَريشي مِنكُمُ وَهَوايَ فيكُم ... وَإِن كانَت زِيارَتُكُم لِماما[1]

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾؛ برفع «اللباس»، فمن نصب عطف به على الريش يكون المعنى: أنزلنا عليكم لباس التقوى، ويرفع «خيراً» بذلك، ومن رفع اللباس فرفعه على ضربين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ ويكون ﴿ذَلِكَ﴾ من صفته، ويكون ﴿خَيْرٌ﴾ خبر الابتداء؛ المعنى: ولباس التقوى المشار إليه خير.

ويجوز أن يكون. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ مرفوعاً بإضمار «هو»؛ المعنى: هو لباس التقوى: أي: وستر العورة لباس المتقين، ثم قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ويكون على أن لباس التقوى مرفوع بالابتداء، ويكون ﴿ذَلِكَ﴾ خبر يرتفع به ﴿خَيْرٌ﴾ على أنه خير ذلك. ويكون ذلك بمنزلة «هو» كأنه -والله أعلم-: ولباس التقوى هو خير، لأن أسماء الإشارة تقرب فيما يعود من الذكر من المضمر، والوجهان الأولان أبين في العربية.

---

(١) البيت للراعي النميري. انظر: لسان العرب (٨/٣٤٠)، وتاج العروس (١/٥٥٤٨).

وقوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾؛ «حيث» في موضوع جر إلا أنها بنيت على الضم، وأصلها أن تكون موقوفة، لأنها ليست لمكان بعينه وأن ما بعدها صلة لها، ليست بمضافة إليه.

ومن العرب من يقول: «ومن حيثَ خرجت» فيفتح لالتقاء الساكنين، ومنهم من يقول: «من حَوْثُ خرجت». ولا تقرأ بهاتين اللغتين لأنهما لم يقرأ بواحد منهما ولا هما في جودة حيث المبينة على الضم.

وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ «جعلنا» في اللغة: على ضروب، ومنها: «جعلت بعض الشيء فوق بعض»، أي: عملته وهيأته على هذه الصيغة، ومنها: «جعل زيد فلاناً عاقلاً»، وتأويله:: سماه عاقلاً، ومنها: «جعل يقول كذا وكذا»، وتأويله: أنه أخذ في القول.

فأما معنى الآية فعلى ضربين -والله أعلم-:

أحدهما: أن يكون الكفار عوقبوا بأن سلطت عليهم الشياطين وتزيدهم في غبهم عقوبة على كفرهم كما قال -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاًّ﴾[مريم: ٨٣]، أي: تحملهم على المعاصي حملاً شديداً، وتزعجهم في شدة الغي.

ويجوز: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: سوينا بين الشياطين والكافرين في الذهاب عن الله. كما قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ﴾[التوبة: ٦٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾؛ معنى الفاحشة ما يشتد قبحه من الذنوب.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ فأعلم الله -عز وجل- أنه لا يأمر بالفحشاء لأن حكمته وجميع ما خلق تدل على أنه لا يفعل إلا المستحسن، فكيف يأمر بالفحشاء. وقد احتج عليهم في غير هذا الموضوع بما قد بيناه في سورة الأنعام.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾؛ أي: بالعدل.

فكيف يأمر بالفحشاء من يعلم أنه لا يفعل إلا الحكمة، ولا يثبت إلا العدل من أمره، فإذا كان يأمر بالعدل والعدل ما قام في النفوس أنه مستقيم لا ينكره مميز فكيف بالفحشاء، والفحشاء ما عظم قبحه.

ثم وبخهم فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أتكذبونه.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ أي: وقت كل صلاة اقصدوه بصلاتكم.

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: مخلصين له الطاعة. احتج عليهم في إنكارهم البعث، وهو متصل بقوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾. فقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾؛ أي: فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم.

وقوله: ﴿فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾؛ معناه: إنه أضل فريقاً حق عليهم الضلالة.

ثم قال: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ ولو قرئت أنهم اتخذوا الشياطين كانت تجوز، ولكن الإجماع على الكسر.

وقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ يدل على أن قوماً ينتحلون الإسلام ويزعمون أن من كان كافراً، وهو لا يعلم أنه كافر فليس بكافر مبطلون لأمر نحلتهم، لأن الله -جل ثناؤه- قد أعلمنا أنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولا اختلاف بين أهل اللغة في أن الحسبان ليس تأويله غير ما يعلم من معنى حسب.

والدليل على أن الله قد سماهم بظنهم كفرة قوله -عز وجل-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص: ٢٧] فأعلم أنهم بالظن كافرون، وأنهم معذبون.

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾؛ هذا أمر بالاستتار في الصلوات.

وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة، ويقولون: لا نطوف حول البيت في ثياب قد أذنبنا فيها، وكانت المرأة تطوف عريانة أيضاً إلا أنها كانت تشد في حقويها أشياء من سيور مقطعة، تسمي العرب ذلك الرهط، قالت امرأة تطوف وعليها رهط:

اليَومَ يَبْدُو بَعْضُه أو كلُّه ... وما بَدا منه فلا أُحِلُّهُ [1]

تعني الفرج، لأن السيور لا تستر ستراً تاماً.

فأمر الله بعد ذكره عقوبة آدم وحواء في أن بدت لهما سوءاتهما، بالاستتار في وقت

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٦٣)، وتفسير ابن كثير (٢/٢٧٩)، وتفسير القرطبي (٧/١٦٧)، وفتح القدير (٢/٢٩٢)، وتفسير البغوي (١/٢٢١)، والدر المنثور (٣/٤٣٩)، وزاد المسير (٣/١٨٦)، والتبيان تفسير غريب القرآن (١/٢٠٣)، ومفردات القرآن (١/٦٤١)، ولسان العرب (١٢/١١٩)، وتاج العروس (١/٥٣٩٣).

كل صلاة، بعد أن أعلم أن التعري وظهور السوءة مكروه من لدن آدم، وقوله بعقب الاستتار: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

لأنهم ادعوا أن الله -جل ثناؤه- قد حرم عليهم شيئا مما في بطون الأنعام، وحرم عليهم البحيرة والسائبة، وكانوا يزعمون فيما يأتون من الفحشاء كالتعري وما أشبه -أن الله جل ثناؤه- أمرهم بذلك فأمرهم الله بالاستتار، وأن يأكلوا ما زعموا أن الله -عز وجل- حرمه مما لم يحرمه، وأن يشربوا مما زعموا أن الله -جل وعز- عليهم شربه، لأن ألبان البحيرة والسائبة كانت عندهم حراماً.

وقوله: -جل وعز-: ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المُسْرِفِينَ﴾؛ والإسراف أن يأكل ما لا يحل أكله مما حرم الله تعالى أن يؤكل شيء منه، أو تأكل مما أحل لك فوق القصد ومقدار الحاجة، فأعلم الله -عز وجل- أنه لا يحب من أسرف، ومن لم يحببه الله -عز وجل- فهو في النار.

ثم قررهم ووبخهم فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾؛ أي: من حرم أن تلبسوا في طوافكم ما يستركم.

﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؛ أي: ومن حرم الطيبات مما رزق الله، أي: من حرم هذه الأشياء التي ذكرتم أنها حرام.

ثم قال -عز وجل-: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾.

وتقرأ خالصة وخالصة يوم القيامة؛؛ المعنى: أنها حلال للمؤمنين، وقد يشركهم فيها الكافرون.

أعلم -عز وجل- أن الطيبات تخلص للمؤمنين في الآخرة ولا يشركهم فيها كافر.

فأما إعراب ﴿خَالِصَةً﴾ فهوأنه خبر بعد خبر، كما تقول: «زيد عاقل لبيب»؛ فالمعنى: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، ومن قرأ خالصة جعل خالصة منصوباً على الحال، على أن العامل في قولك في الحياة الدنيا في تأويل الحال. كأنك قلت: هي ثابتة للمؤمنين مستقرة في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾؛ موضع «أن» نصب؛ المعنى: حرم الله الفواحش تحريم الشرك.

ومعنى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾؛ أي: لم ينزل به حجة.

وقوله -عز وجل- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ أي: وقت مؤقت.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ المعنى: ولا يستقدمون ساعة، ولا أقل من ساعة، ولكن ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات.

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾؛ آدم لا ينصرف لأنه على قدر أفعل وهو معرفة، وهو مشتق من آدمة الأرض، وهو وجهها، فسمي بما خلق منه، والله -عز وجل- أعلم.

وقوله: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ﴾؛ هذه «إن» التي للجزاء، ضمت إليها ما. والأصل في اللفظ «إن ما» مفصولة، ولكنها مدغمة، وكتبت على الإدغام، فإذا ضمت «إن» إلى «ما»، لزم الفعل النون الثقيلة أو الخفيفة، وجواب الجزاء في الفاء، أي: في قوله: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾.

فإنما تلزم «ما» النون لأن «ما» تدخل مؤكدة فتلزمها النون كما تلزم اللام النون في القسم إذا قلت: «والله لتفعلن»، فـ«ما» توكيد، كما أن اللام توكيد، فلزمت النون كما لزمت لام القسم.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾؛ أي: ظلم أشنع من الكذب على الله.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ الكِتَابِ﴾؛ أي: ما أخبر الله -جل ثناؤه- من جزائهم نحو قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾[الليل: ١٤] ونحو قوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[الجن: ١٧]، ونحو قوله: ﴿إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[النساء: ١٤٥]، ونحو: ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الحَمِيمِ﴾[غافر: ٧١، ٧٢]، فهذه أنصبتهم من الكتاب على قدر ذنوبهم في كفرهم.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾؛ زعم سيبويه -والخليل -أن «حتى» و«إما» و«إلا» لا تجوز فيهن الإمالة. لا يجيز: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ ولا يجيز «أما»، ولا «لا إله إلا الله»، هذا لحن كله، وزعم أن هذه ألفات الفتح لأنها أواخر حروف جاءت لمعنى، ففصل بينها وبين أواخر الأسماء التي فيها الألف نحو: «حبلى وهدى»، إلا أن «حتى» كتبت بالياء، لأنها على أربعة أحرف، فأشبهت سكرى. و«إما» التى للتخيير شبهت بإن التي ضمت إليها «ما» مثل قوله: ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾، كتبت بالألف لما وصفنا، و«إلا» أيضاً كتبت بالألف لأنها لو كتبت بالياء لأشبهت «إلى».

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾؛ فيه -والله أعلم- وجهان.

يكون: حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت يتوفونهم سألوهم عند المعاينة، فيعرفون عند

موتهم أنهم كانوا كافرين، لأنهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾؛ أي: بطلوا وذهبوا.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملائكة العذاب يتوفونهم، فيكون ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ في هذا الموضع على ضربين:

أحدهما: يتوفونهم عذاباً، وهذا كما تقول: قد قتلت فلاناً بالعذاب وإن لم يمت. ودليل هذا القول قوله -عز وجل-: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[إبراهيم: ١٧].

وجائز وهو أضعف الوجهين أنهم يتوفون عدتهم -والله أعلم-.

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾؛ لأنهم ضل بعضهم باتباع بعض.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾؛ أي: تداركوا، وأدغمت التاء في الدال، فإذا وقفت على قوله «حتى إذا» لم تبتدئ حتى تأتي بألف الوصل، فتقول: اداركوا فتأتي بألف الوصل لسكون الدال فيها.

ومعنى تداركوا اجتمعوا.

وقوله ﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: حتى إذا تداركوا فيها مجتمعين.

﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا﴾؛ أي: قالت أخراهم: دعتهم أولاهم فاتبع الآخر الأول. فأعلم التابعون أن المتبوعين أضلوهم بأن دعوهم إلى الضلال؛ والمعنى: قالت أخراهم يا ربنا هؤلاء أضلونا لأولاهم، تعني أولاهم.

وقوله: ﴿فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ﴾؛ أي: عذاباً مضاعفاً لأن الضعف في كلام العرب على ضربين؛ أحدهما: المثل، والآخر: أن يكون في معنى تضعيف الشيء.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾؛ أي: للتابع والمتبوع، لأنهم قد دخلوا في الكفر جميعاً، أي: لكل عذاب مضاعف، فمن قرأ: ﴿وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء.

أي: ولكن لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق منكم من العذاب، ومن قرأ «ولكن لا يعلمون» بالياء، أي: ولكن لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر.

ويجوز -والله أعلم- ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا مقدار ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾؛ أي: كذبوا بحججنا وأعلامنا التي تدل على نبوة الأنبياء وتوحيد الله.

﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾؛ أي: لا تصعد أرواحهم ولا أعمالهم، لأن أعمال المؤمنين وأرواحهم تصعد إلى السماء، قال الله -عز وجل-: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

ويجوز ﴿لاَ تُفَتَّحُ﴾ و ﴿لاَ تُفتَحُ﴾ بالتخفيف والتشديد، وبالياء والتاء.

وقال بعضهم: ﴿لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾، أي: أبواب الجنة، لأن الجنة في السماء والدليل على ذلك قوله: ﴿وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾؛ فكأنه لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها ﴿حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ﴾.

فالخياط الإبرة، وسمها ثقبها؛ المعنى: لا يدخلون الجنة أبداً.

وسئل ابن مسعود عن الجمل فقال: «هو زوج الناقة». كأنه استجهل من سأله عن الجمل.

وقرأ بعضهم «الْجُمل»، وفسروه فقالوا: «قَلس السفينة».

وقوله -عز وجل- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُجْرِمِينَ﴾، أي: ومثل ذلك الذي وصفنا نجزي المجرمين.

والمجرمون -والله أعلم- ههنا الكافرون، لأن الذي ذكر من قصتهم التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها.

﴿لَهُم مِن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ أي: فراش من نار.

﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾؛ أي: غاشية فوق غاشية من النار.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ والظالمون ههنا الكافرون.

وقوله ﴿غَوَاشٍ﴾ زعم سيبويه والخليل جميعاً أن النون ههنا عوض من الياء لأن غواشي لا تنصرف، والأصل فيها «غواشيٌ»، بإسكان الياء. فإذا ذهبت الضمة يذهب إلى التنوين عوضاً منها، كذلك فسر أصحاب سيبويه.

وكان سيبويه يذهب إلى أن التنوين عوض من ذهاب حركة الياء، والياء سقطت لسكونها وسكون التنوين. فإذا وقفت فالاختيار أن تقف بغير ياء فتقول: «غواش»، لتدل أن الياء كانت تحذف في الوصل.

وبعض العرب إذا وقف قال: «غواشي»، بإثبات الياء، ولا أرى ذلك في القرآن لأن الياء محذوفة في المصحف، والكتاب على الوقف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛

أي: عملوا الصالحات بقدر طاقتهم، لأن معنى الوسع ما يقدر عليه.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أولئك رفع بالابتداء، و﴿أَصْحَابُ﴾ خبر، وهم والجملة خبر «الذين»، ويرجع على الذين أسماء الإشارة، أعني أولئك.

قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِن غِلٍّ﴾؛ قال بعضهم: ذهبت الأحقاد التي كانت في قلوبهم، وحقيقته -والله أعلم- أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً في علو الرتبة، لأن الحسد غل.

وقوله تعالى ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾؛ في معنى الحال؛ المعنى: ونزعنا ما في صدورهم من غل في هذه الحال، ويجوز أن تكون «تجري» إخباراً عن صفة حالهم، فتكون تجري مستأنفة.

ومعنى ﴿هَدَانَا لِهَذَا﴾؛ أي: هدانا لما صيرنا إلى هذا، يقال: «هَدَيت الرجل هِدَاية وهُدًى وهَدْيَاً»، و«أَهْدَيت الْهَدية فهي مُهْدَاة»، و«أَهْدَيت العروس إلى زوجها وهَدَيْتُها».

وقوله -جل وعز-: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ﴾؛ في موضع نصب، ههنا أن مضمرة، وهي مخففة من الثقلية؛ المعنى: نودوا بأنه تلكم الجنة.

والأجود -عندي- أن تكون أن في موضع تفسير النداء، كأن المعنى: ونودوا أن تلكم الجنة، أي: قيل لهم: تلكم الجنة، وإنما قال: تلكم، لأنهم وعدوا بها في الدنيا، فكأنه قيل: هذه تلكم التي وعدتم بها. وجائز أن يكون عاينوها فقيل لهم من قبل دخولها إشارة إلى ما يرونه: ﴿تِلْكُمُ الجَنَّةُ﴾، كما تقول لما تراه: ذلك الرجل أخوك. ولو قلت: هذا الرجل لأنه يراك جاز، لأن هذا وهؤلاء لما قرب منك، وذاك وتلك لما بعد عنك، رأيته أو لم تره.

وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

معنى «أن» ههنا إن شئت كانت مفسرة لما نادى به أصحاب الجنة، والمعنى: أي: قد وجدنا، ويجوز أن تكون «أن» الشديدة وخففت؛ المعنى: أنه قد وجدنا، قال الشاعر [من البسيط]:

في فِتيَةٍ كَسُيوفِ الهِندِ قَد عَلِموا ... أَنْ هَالِكٌ كل مَن يَحْفِي ويَنْتَعِلُ[1]

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٩٢)، وزاد المسير (٣/٢٠٣)، وتفسير الثعالبي (٢/١٧٢)، ومعاني القرآن (٤/ =

وقوله: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾؛ وفي بعض اللغات قالوا: «نعم» في معنى «نعم» -موقوفة الآخر- لأنها حرف جاء لمعنى.

وقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ ويجوز: «أنَّ لعنة الله على الظالمين»، وقد قرئ بهما جميعاً والمخففة مخففة من الشديدة، ويجوز أن تكون المخففة في معنى «أي» الخفيفة التي هي تفسير، كأنها تفسير لما أذنوا فيه.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾؛ أي: نتركهم في عذابهم كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا.

ومعنى: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ و«كجحدهم» و«ما» نسق على «كما» في موضع جر.

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ هدى في موضع نصب، أي: فصلناه هادياً وذا رحمة. ويجوز هدى ورحمة لقوم يؤمنون على الاستئناف؛ المعنى: هو هدى ورحمة لقوم يؤمنون.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تأويله﴾؛ معناه: هل ينظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من البعث، وهذا التأويل والله أعلم هو قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تأويله إِلاَّ اللهُ﴾، أي: ما يعلم متى يكون البعث، وما يؤول إليه إلا الله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: آمنا بالبعث -والله أعلم-.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تأويله يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله: ﴿يَقُولُ﴾ و﴿الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ على ضربين:

جائز أن يكون صاروا في الإعراض عنه بمنزلة من نسي وجائز أن يكونوا نسوه وتركوا العمل له والإيمان به.

وقوله: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ «أو» نسق على قوله ﴿مِن شُفَعَاءَ﴾، كأنهم قالوا: هل يشفع لنا شافع أو هل نرد.

وقوله -عز وجل- ﴿فَنَعْمَلَ﴾ منصوب على جواب الفاء للاستفهام. ويجوز أن

=

٥٠٦)، والأصول في النحو (٢٣٩/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٩٩/١)، والمفصل في صنعة الإعراب (٣٩٦/١)، والأغاني (١٧٨/٩).

تنصب أو نرد فنعمل، أي: إنا رددنا استغنينا عن الشفاعة.

وقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾؛ و«يُغشِّي الليل والنهار»، جميعاً يقرأ بهما.

المعنى: أن الليل يأتي على النهار فيغطيه، ولم يقل يغشي النهار الليل، لأن في الكلام دليلاً عليه، وقد جاء في موضع آخر: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾[الزمر: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: خلق النجوم جاريات مجاريهن بأمره.

وقوله: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ﴾.

اختلف الناس في أصحاب الأعراف. فقال قوم: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يستحقوا الجنة بالحسنات، ولا النار بالسيئات، فكانوا على الحجاب الذي بين الجنة والنار، والأعراف أعلى السور، ويقال لكل عالٍ: «عرف»، وجمعه: «أعراف».

ويجوز أن يكون -والله أعلم- على الأعراف على معرفة أهل الجنة وأهل النار هؤلاء الرجال. فقال قوم ما ذكرنا، وإن الله يدخلهم الجنة. وقال قوم: أصحاب الأعراف أنبياء. وقال قوم: ملائكة.

ومعرفتهم كلا بسيماهم يعرفون أصحاب الجنة بأن سيماهم إسفار الوجوه والضحك والاستبشار كما قال -عز وجل-: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾[عبس: ٣٨، ٣٩]. ويعرفون أصحاب النار بسيماهم وسيماهم اسوداد الوجوه وغبرتها كما قال -جل وعز-: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ والقترة كالدخان.

وقوله: ﴿مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ هذا -والله أعلم-خطاب أصحاب الأعراف لأهل النار، وقرئت «تستكثرون» بالثاء.

وأما قوله: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾؛ يعني أهل الجنة كأنه قيل لهم: يا أهل النار أهؤلاء الذين حلفتم لا ينالهم الله برحمة.

﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ وإن شئت بالفتح لا خوف عليكم.

فجائز أن يكون ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ خطاباً من أصحاب الأعراف لأهل الجنة، لأن كل ما يقوله أصحاب الأعراف فعن الله تعالى. وجائز أن يكون خطاباً من الله -عز وجل-

لأهل الجنة.

وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؛ فأعلم الله -عز وجل-: أن ابن آدم غير مستغن عن الطعام والشراب وإن كان معذباً.

فأعلمهم أهل الجنة أن الله حرمها على الكافرين، يعنون أن الله حرم طعام أهل الجنة وشرابهم على أهل النار، لأنهم إنما يشربون الحميم الذي يصهر به ما في بطونهم.

وقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾؛ قال قوم: تضرعوا تملقاً، وحقيقته -والله أعلم- أن يدعوه خاضعين متعبدين.

﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: اعتقدوا عبادته في أنفسكم، لأن الدعاء معناه: العبادة.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ والمعتدون المجاوزون ما أمروا به، وهم الظالمون.

وقوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾؛ أي: ادعوه خائفين عذابه وطامعين في رحمته.

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «لن يدخل الجنة أحد بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته».

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ إنما قيل: قريب لأن الرحمة والغفران في معنى واحد، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي.

وقال الأخفش: جائز أن تكون الرحمة ههنا في معنى المطر.

وقال بعضهم: هذا ذكر ليفصل بين القريب من القرابة، والقريب من القرب، وهذا غلط، لأن كل ما قرب من مكان أو نسب فهو جار على ما يصيبه من التأنيث والتذكير.

وقوله: ﴿بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ و«نُشْرا» أيضاً بضم النون وفتحها وقرأ عاصم: «بشرى» بالياء.

فمن قرأ «نَشْراً»؛ فالمعنى: وهو الذي يَنْشِر الرياح مُنْشَرةً نَشْراً، ومن قال نشراً فهو جمع نشور ونشر. ومن قرأ «بُشْراً» فهو جمع بشيرةٍ وبُشُر كما قال -جل

وعز-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً﴾.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: بين يدي المطر الذي هو رحمة، ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً﴾ أي: حتى إذا أقلت الريح سحاباً، يقال: أَقَل فلان الشيء إذا هو حمله، وفلان لا يستقل بحمله.

فالمعنى: حتى إذا حملت سحاباً ثقالاً، والسحاب جمع سحابة، ﴿ثِقَالاً﴾ أي: ثقالاً بالماء.

﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾؛ و«مَيْت» جميعاً.

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ جائز أن يكون: فأنزلنا بالسحاب الماء، فأخرجنا به من كل الثمرات.

الأحسن -والله أعلم- فأخرجنا بالماء من كل الثمرات، وجائز أن يكون فأخرجنا بالبلد من كل الثمرات، لأن البلد ليس يخص به ههنا بلد سوى سائر البلدان.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى﴾؛ أي: مثل ذلك الإخراج الذي أشرنا إليه نخرج الموتى.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ «لعل» ترج، وإنما خوطب العباد على قدر علمهم، وما يرجوه بعضهم من بعض، والله يعلم أيتذكرون أم لا.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: لعلكم بما بيناه لكم تستدلون على توحيد الله وأنه يبعث الموتى.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾؛ وقرأها أهل المدينة «نكَدا» بفتح الكاف، ويجوز فيه وجهان آخران: إلا «نكدا ونكدا» بضم النون وإسكان الكاف ولا يقرأ بالمضمومة، لأنه لم تثبت به رواية في القرآن.

وقوله: ﴿قَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾؛ وهم الرؤساء والأشراف، وقال بعضهم: يعنى به الرجال.

وقد بينا الملأ فيما سبق من الكتاب.

وقوله: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ هذه الواو واو العطف. دخلت عليها ألف الاستفهام، فبقيت مفتوحة وقد بينا أمرها في الكتاب.

وقوله: ﴿فِي الفُلْكِ﴾؛ والفلك السفينة، يكون الفلك واحداً، ويكون جمعاً.

وقوله: ﴿قَوْماً عَمِينَ﴾؛ أي: قد عموا عن الحق والإيمان.

وقوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾؛ المعنى: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

وقيل للأنبياء: ((إخوانهم)) وإن كانوا كفرة، يعنى به أنه قد أتاهم بَشَر مثلهم من ولد أبيهم آدم، وهو أرجح عليهم. وجائز أن يكون أخاهم لأنه من قومهم ليكون أفهم لهم بأن يأخذوا عن رجل منهم.

وقوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾؛ السفاهة: خفة الحلم والرأي، يقال: ((ثوب سفيه)) إذا كان خفيفاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾؛ وكفروا به ظانين لا مستيقنين.

وقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾؛ هذا موضع أدب للخلق في حسن الجوار وفي المخاطبة، أنه دفع ما نسبوه إليه من السفاهة بأن قال: ليس بي سفاهة، فدفعهم بنفي ما قالوا فقط.

وقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ أي: الذي أنبئكم به عند الله، لأنه أمرهم بعبادة الله -جل وعز- وتوحيده.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً﴾.

و((خلفاء)) جمع خليفة على التذكير لا على اللفظ، مثل: ((ظريف وظرفاء)).

وجائز أن يجمع ((خلائف)) على اللفظ، مثل: ((طريفة وطرائف)).

وقوله -جل وعز-: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَصْطَةً﴾؛ في التفسير أنه كان أقصرهم، طوله ستون ذراعاً وأطولهم مائة ذراع.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ﴾؛ معناه: نعم الله، واحدها إلى، قال الشاعر[١] [من المنسرح]:

أَبيَضُ لا يَرهَبُ الهُزالَ وَلا ... يَقطَعُ رحماً وَلا يَخونُ إِلا[٢]

ويجوز أن يكون واحدها إِلْيٌ وإِلِيٌّ.

وقوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾؛ أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً.

---

(١) هو: الأعشى.

(٢) انظر: زاد المسير (٢٢٢/٣)، ولسان العرب (٢٣/١١)، وتاج العروس (٨٢٧٦/١).

وثمود في كتاب الله مصروف. فأما المصروف فقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ﴾[هود: ٦٨]، الثاني غير مصروف، فالذي صرفه جعله اسماً للحي، فيكون مذكراً سمي به مذكر ومن لم يصرفه جعله اسماً للقبيلة.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ وتقرأ «غَيْرِه» فمن رفع.

فالمعنى: ما لكم إله غيره، ودخلت «من» مؤكدة، ومَنْ جر جعله صفة لإله. وأجاز بعضهم النصب في «غيره» وهو جائز في غير القرآن، على النصب على الاستثناء وعلى الحال من النكرة، ولا يجوز في القرآن لأنه لم يقرأ به، وأجاز الفراء.: «ما جاءني غيرك» بنصب «غير»، وهذا خطأ بين، إنما أنشد الخليل وسيبويه بيتاً أجازا فيه نصب «غير»، فاستشهد هو بذلك البيت واستهواه اللفظ في قولهما: «إن الموضع موضع رفع». وإنما أضيفت «غير» في البيت إلى الشيء غير متمكن فبنيت على الفتح كما يبنى «يوم» إذا أضيف إلى «إذ» على الفتح.

والبيت قول الشاعر(١):

لَمْ يَمْنعَ الشُّرب مِنْهَا غَيْرَ أَن نَطَقَت حَمَامَة فِي غُصُون ذاتِ أَو قَال(٢)

وأكثرهم ينشده «غيرَ أن نطقت»، فلما أضاف «غير» إلى «أن» فتح «غير»، ولو قلت: «ما جاء في غيرك» لم يجز ولو جاز هذا لجاز: «ما جاءني زيداً».

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ دعاهم إلى التوحيد ودلهم على نبوّته بالناقة فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾؛ ﴿آيَةً﴾ انتصب على الحال، أي: انظروا إلى هذه الناقة ﴿آيَةً﴾؛ أي: علامة.

وقد اختلف في خبرها، فقيل في بعض التفسير: إن الملأ من قوم صالح كانوا بين يديه فسألوه آية وكانت بين يديه صفاةٌ -وهي الصخرة- فأخرج الله منها ناقة معها سَقْبُها أي: ولدها.

---

(١) هو: أبو قيس بن رفاعة.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٠٧)، وفتح القدير (٢/٣١٤)، وتفسير البيضاوي (١/-٢٥٥)، وتفسير أبي السعود (٤/٢٣٥)، وروح المعاني (١٢/١٢٢)، والكشاف (١/٨٧٠)، والأصول في النحو (١/٢٧٦)، والأصول في النحو (١/٢٩٨)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٢٨٧)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/ ١٦٣)، وسر صناعة الإعراب (٢/٥٠٧)، ومغني اللبيب (١/٢١١)، ولسان العرب (١٠/٣٥٤)، والقاموس المحيط (١/٥٨٣)، وتاج العروس (١/٣٣٢٥).

وجاء بعض التفسير: أنه أخذ ناقة من سائر النوق، وجعل الله لها شربَ يومٍ ولهم شرب يوم. وذكرت قصته في غير هذا الموضع فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فكانت تشرب يوماً ثم تُفْحِجُ يوماً آخر في واد فلا تزال تحتلب ولا ينقطع حلبها ذلك اليوم.

فجائز أن يكون أمر خروجها من الصخرة صحيحاً، وجائز أن يكون أمر حلبها صحيحاً. وكل منهما آية معجزة تدل على النبوة. وجائز أن تكون الروايتان صحيحتين، فيجمع أنها خرجت من صخرة وأن حلبها على ما ذكرنا.

ولم يكن ليقول: قد جاءتكم بينة من ربكم فتكون آية فيها لبس.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾؛ أي: لما أهلكهم وورثكم الأرض.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: أنزلكم، قال الشاعر[1] [من المنسرح]:

وَبَوَّأت في صَميم مَعشَرِها فَتَمَّ في قَومِها مُبَوَّؤُها

أي: أنزلت من الكرم في صميم النسب.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً﴾؛ يقال: «نَحَت يَنْحِت»، ويقال أيضاً: «نَحَت يَنْحَتُ»، لأن فيه حرفاً من حروف الحلق.

ويروى أنهم الطوال أعمارهم كانوا يحتاجون أن ينحتوا بيوتاً في الجبال، لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم.

وقوله: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: جاوزوا المقدار في الكفر.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ والرجفة: الزلزلة الشديدة.

ويروى أنه لما قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾[هود: ٦٥] أصبحوا في أول يوم مصفرة وجوههم، وفي اليوم الثاني محمرة وجوههم وفي اليوم الثالث مسودة وجوههم، وفي اليوم الرابع أتاهم العذاب.

ويقال: إن ابتداء عقرهم الناقة كان في يوم الأربعاء، وأخذهم العذاب في يوم السبت.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: في وقت لا ينفعهم الندم، وأصبحوا جاثمين في اليوم الذي أخذتهم الرجفة.

---

(١) هو: إبراهيم بن هرمة.

ومعنى ﴿جَاثِمِينَ﴾ قد خمدوا من شدة العذاب.

وقال بعضهم: أصبحوا كالرماد الجاثم.

وقوله: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾؛ أي: أرسلنا لوطاً إذ قال لقومه.

وقال الأخفش ويجوز أن يكون منصوباً على: واذكر لوطاً إذ قال لقومه. والوجه أن يكون معطوفاً على الإرسال.

وقال بعض أهل اللغة: «لوط» مشتق من «لُطتُ الحوض» إذا ملسته بالطين. وهذا غلط. لأن لوطاً من الأسماء الأعجمية ليس من العربية، فأما «لطت الحوض» و«هذا ألوط بقلبي من هذا»، فمعناه: ألصق بقلبي. والليط: القشر. وهذا صحيح في اللغة. ولكن الاسم أعجمي كإبراهيم وإسحق، لا نقول إنه مشتق من السحق وهو البعد. وهو كتاب الله الذي لا ينبغي أن يقدم على تفسيره إلا برواية صحيحة وحجة واضحة.

وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِن العَالَمِينَ﴾، هذا دليل أن فاحشة اللواط لم يفعلها أحد قبل قوم لوط.

وقد اختلف الناس في حد اللوطي، فقال بعضهم: هو كالزاني.

وروي أن أبا بكر حرق رجلاً يقال: له «الفجاءة» بالنار في اللواط.

وقال بعضهم: يجب أن يقتل محصناً أو غير محصن، لأن الله تبارك وتعالى قتل فاعليه بالحجارة.

فخاطبهم لوط فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾. وقال في موضع آخر : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ﴾[العنكبوت: ٢٨].

والفاحشة: الشيء الغليظ القبيح.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم﴾ يجوز أن يكون ﴿جَوَابَ﴾ مرفوعاً. ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾. والأجود النصب وعليه القراءة.

﴿إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ أي: يتطهرون عن عملكم.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ في التفسير: أن أهله ابنتاه.

﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ﴾؛ قيل: في ﴿الغَابِرِينَ﴾ ههنا قولان:

قال أهل اللغة: ﴿مِنَ الغَابِرِينَ﴾ من الباقين، أي: من الباقين في الموضع الذي عذبوا

فيه، وأنشد أبوعبيدة معمر بن المثنى [من الرجز].

فَما وَنى مُحَمَّدٌ مُذ أَن غَفَر لَهُ الإِلَهُ ما مَضى وَما غَبَر(١)

أي: ما بقي.

وقال بعضهم: ﴿مِنَ الغَابِرِينَ﴾ أي: من الغائبين عن النجاة. وكلاهما وجه. -والله أعلم-.

وقوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾؛ «مدين» لا ينصرف لأنه اسم للقبيلة أو البلدة، وجائز أن يكون أعجمياً.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾؛ قال بعض النحويين: لم يكن لشعيب آية إلا النبوة، وهذا غلط فاحش. قال ﴿قد جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ﴾ فجاء بالفاء جواباً للجزاء، فكيف يقول: قد جاءتكم بينة من ربكم ولم يكن له آية إلا النبوة، فإن كان مع النبوة آية فقد جاءهم بها. وقد أخطأ القائل بقوله: لم تكن له آية، ولو ادعى مدع النبوة بغير آية لم أقبل منه، ولكن القول في شعيب أن آيته كما قال ﴿بَيِّنَةٌ﴾. إلا أن الله -جل ثناؤه- ذكر بعض آيات الأنبياء في القرآن وبعضهم لم يذكر آياته، فمن لم تذكر آيته لا يقال: لا آية له. وآيات محمد النبي ﷺ لم تذكر كلها في القرآن ولا أكثرها.

وقوله: ﴿وَلاَ تَبخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾؛ البخس: النقص والقلة، ويقال: «بَخَست أَبْخَس» بالسين، و«بَخَصت عينه» بالصاد لا غير مثل فقأت عينيه.

﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾؛ أي: لا تعملوا فيها بالمعاصي وبخس الناس بعد أن أصلحها الله بالأمر بالعدل وإرسال الرسل.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾؛ أي: بكل طريق.

ومعنى ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: توعدون من آمن بشعيب بالعذاب والتهدد. يقال: «وَعَدته خيراً، ووعَدته شراً»، فإذا لم تذكر واحداً منهما. قلت في الخير: «وعدته» وفي الشر: «أوعدته».

وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: عن الطريق التي أَمَّنَ الله من آمن بها.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾؛ أي: وتريدون الإعواج والعدول عن القصد. يقال في الدين وفيما

(١) هو: العجاج. انظر: تفسير القرطبي (٢٢٠/٧)، وفتح القدير (٥٢٣/٣)، ومعاني القرآن (٥٢/٣)، وسر صناعة الإعراب (٨٣٠/٢)، ولسان العرب (١٩/٢).

يعلم إذا كان على غير استواء: «عِوج» بكسر العين وفي «الحائط والعود عَوج» بفتح العين.

وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾؛ جائز أن يكون ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ جعلكم أغنياء بعد أن كنتم فقراء، وجائز أن يكون كان عددهم قليلاً فكثرهم، وجائز أن يكونوا غير ذوي مقدرة وأقدار فكثرهم، إلا أنه ذكرهم بنعمة الله عليهم كما قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله.

وقوله: ﴿قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

المعنى:: ليكونن أحد الأمرين، ولا تُقَارُّ على مخالفتنا.

وقوله: ﴿قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾؛ أي: أتعيدوننا في ملتكم وإن كرهناها.

فإن قال قائل: كيف قالوا لشعيب: أو لتعودن في ملتنا، وشعيب نبي ؟

ففيه قولان؛ أحدهما: لما أشركوا الذين كانوا على ملتهم قالوا: أو لتعودن في ملتنا. وجائز أن يقال: قد عاد علي من فلان مكروه وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، وإنما تأويله: أنه قد لحقني منه مكروه.

وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ اختلف الناس في تأويل هذه، فأولى التأويلات باللفظ أن يكون: ما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله -عز وجل-: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الإنسان: ٣٠]. والمشيئة في اللغة بينة لا تحتاج إلى تأويل.

فالمعنى: ما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون الله -عز وجل- قد سبق في علمه ومشيئته أنا نعود فيها. وتصديق ذلك قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

ثم قال: ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ وفي موضع آخر : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

وقال قوم: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا﴾ أي: فالله لا يشاء الكفر ؟ قالوا: هذا مثل قولك: «لا أكلمك حتى يبيض الفأر ويشيب الغراب»، والفأر لا يبيض، والغراب لا يشيب. وقالوا: فكذلك تأويل الآية.

قال أبو إسحاق: وهذا خطأ لمخالفته أكثر من ألف موضع في القرآن لا تحتمل تأويلين، ولا يحدث شيء إلا بمشيئته وعن علمه. وإما أن يكون علمه حادثاً فشاءه حادثاً، أو علمه غير حادث فشاءه غير حادث. ولا يجوز لما مُكِّن الخلق من التصرف أن يحدث

الممتنع موجوداً، ولا يكون ما علمه أنه يوجد ممتنعاً. وسنة الرسول عليه السلام تشهد بذلك، ولكن الله تبارك وتعالى غيَّب عن الخلق علمه فيهم، ومشيئته من أعمالهم، فأمرهم ونهاهم، لأن الحجة إنما تثبت من جهة الأمر والنهي، وكل ذلك جائز على ما سبق في العلم وجرت به المشيئة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا....﴾ الآية. فسقوط الورقة منسوب إليها وهو خلقه فيها كما خلقها، وكذلك إلى آخر الآية.

وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾، وما في النفوس من الخواطر الجائلة والهم الجائل والعزم الجائل فيها. فلا يجوز عدم ما علمه كائناً فيها، ولا يجوز كون ما علمه معدوماً.

فحذرهم مخالفة ظاهر أمره ونهيه لأن عليهم السمع والطاعة للأمر إذا أمروا به، وهم جارون على ما علم منهم أنهم يختارون الطاعة، ويختارون المعصية، فلا سبيل إلى أن يختاروا خلاف ما علم أنهم يختارونه. وإن لم يكن الأمر على ما قلنا وجب أن يكون قولهم: «علم الله أفعال العباد قبل كونها إنما هو علم مجاز لا علم حقيقة».

والله تعالى عالم على حقيقة لا مجاز، والحمد لله.

وقال قوم: -وهو بعد القول الأول قريب-: إن المعنى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا﴾ أي: قد تبرأنا من جميع ملتكم فما يكون لنا أن نعود في شيء منها إلا أن يشاء الله وجهاً من وجوه البر الذي تتقربون به إلى الله، فيأمرنا به، فنكون بهذا قد عدنا.

قال أبو إسحاق: والذي عندي -وهو إن شاء الله الحق- القول الأول، لأن قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾، وإنما هو النجاة من الكفر وأعمال المعاصي لا من أعمال البر.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا﴾؛ «علماً» منصوب على التمييز.

وقوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أهل عمان يسمون القاضي «الفاتح والفتاح».

وجائز أن يكون ﴿افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: أظهر أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف، فجائز أن يكون يسألون بهذا أن ينزل بقومهم من العذاب والهلكة ما يظهر به أن الحق معهم.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ هي الزلزلة الشديدة.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ أي: أجساماً ملقاة في الأرض

كالرماد الجاثم.

وقوله: ﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ أي: كأن لم ينزلوا فيها.

قال الأصمعي: «المغاني» المنازل التي نزلوا بها، يقال: «غنينا بمكان كذا وكذا»، أي: نزلنا به. ويكون ﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم ينزلوا كأن لم يعيشوا فيها مستغنين، كما قال حاتم طي [من الطويل]:

غَنِينَا زَماناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنى فكُلاً سقاناه بكَأسَيْهما الدهرُ

فما زادنا بَغْياً على ذي قرابةٍ غِنانا ولا أَزْرَى بأَحْسابنا الفَقْرُ[1]

والعرب تقول للفقير: «الصعلوك».

وقوله: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾؛ أي: حين نزل بهم العذاب تولى عنهم.

﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾.

معنى ﴿آسَى﴾ أحزن؛ أي: كيف يشتد حزني. يقال: أَسَيت على الشيء آسَى أسىً إذا اشتد حزنك عليه.

قال الشاعر[2] [من الرجز]:

وانحَلَبَت عَيناهُ مِن فَرطِ الأَسى

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَبِيٍّ﴾؛ يقال: لكل مدينة قرية، وإنما سميت بأنه يجتمع فيها الناس، يقال: «قريت الماء في الحوض» إذا جمعته فيه، فسميت قرية لاجتماع الناس فيها، و«مكة»: أم القرى، لأن أهل القرى يؤمونها أي: يقصدونها.

وقوله: ﴿إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ قيل: «البأساء» كل ما نالهم من شدة في أموالهم، و«الضراء» ما نالهم من الأمراض، وقيل: «الضراء» ما نالهم في الأموال، و«البأساء» ما نالهم في أنفسهم.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ أي: يخضعون، والأصل يتضرعون، فأدغمت التاء في الضاد.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٢٤/٧)، وفتح القدير (٢/٣٢٩)، وروح المعاني (٩/٦)، وزاد المسير (٣/٢٣٢)، والأغاني (١٧/٣٨٣)، ولسان العرب (١٠/٤٥٥).

(٢) هو: العجاج.

وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾؛ أي: كثروا وكثرت أموالهم.

وقوله: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾؛ فأخذهم الله ليعتبروا ويقلعوا عن الكفر وتكذيب الأنبياء فقالوا: «مس آباءنا مثل هذا»، أي: قد جرت عادة الزمن بهذا، وليست هذه عقوبة، فبين الله تأولهم بخطئهم، وقد علموا أن الأمم قد أهلكت بكفرهم قبلهم.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾؛ فهذا ما أخبر الله تعالى به عن الأمم السالفة لتعتبر أمة محمد ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِن السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: آتاهم الغيث من السماء، والنبات من الأرض. وجعل ذلك زاكياً كثيراً.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾؛ أي: ليلاً، أي: أفأمنت الأمة التي كذبت النبي محمداً ﷺ ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾ أي: ليلاً.

﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؛ يقال: «نام الرجل ينام فهو نائم، وهو حسن النِّيمَة، ورجل نُومة» إذا كان خسيساً لا يؤبه له، «ورجل نُوَمة» إذا كان كثير النوم، «وفلان حسن النِّيمَة» أي: حسن هيئة النوم، «والنِّيم»: الفرو.

والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ﴾، والواو في قوله ﴿أَوَ أَمِنَ﴾، فتحت لأنها واو عطف وفاء عطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ يقال: لكل من كان في شيء لا يجدي أو في ضلال: «إنما أنت لاعب»، وإنما قيل: لهم: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: وهم في غير ما يجدي عليهم.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾؛ أي: أمنوا عذاب الله أن يأتيهم بغته وهم لا يشعرون.

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ وتقرأ «نهد» بالنون، فمن قرأ «نهد» بالنون فمعناه: أولم نبين. لأن قولك: «هديته الطريق»؛ معناه: بينت له الطريق.

ومن قرأ بالياء كان المعنى: أولم يبين الله لهم أنه لو يشاء أصابهم بذنوبهم.

وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ ليس بمحمول على ﴿أَصَبْنَاهُم﴾.

المعنى: ونحن نطبع على قلوبهم، لأنه لو حمل على ﴿أَصَبْنَاهُم﴾ لكان ولطبعنا، لأنه على لفظ الماضي، وفي معناه.

ويجوز أن يكون محمولاً على الماضي، ولفظه لفظ المستقبل كما أن لو نشاء؛ معناه: لو شئنا.

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾؛ وهذا إخبار عن قوم لا يؤمنون.

كما قال -جل وعز-: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾، كما قال للنبي ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾؛ فهذا إخبار من الله -جل وعز- أن هؤلاء لا يؤمنون.

وقال قوم: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ...﴾ أي: ليسوا مؤمنين بتكذيبهم، وهذا ليس بشيء لأن قوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ﴾ يدل على أنهم قد طبع على قلوبهم.

و موضع الكاف في «كذلك» نصب؛ المعنى: مثل ذلك يطبع الله على قلوب الكافرين.

وقوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾؛ هذه «إن» تدخل واللام على معنى التوكيد واليمين. وتدخل على الأخبار. وتقول: «إن ظننت زيداً لقائماً».

وقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾؛ أي: بالآيات التي جاءتهم، لأنهم إذا جاءتهم الآيات فكفروا بها فقد ظلموا أبين الظلم، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فجعلوا بدل وجوب الإيمان بها الكفر، فذلك معنى قوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

وقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَن لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ﴾؛ وتقرأ ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لا أَقُولَ﴾. ومن قرأ حقيق على أن لا أقول؛ فالمعنى: واجب على ترك القول على الله إلا بالحق.

وقوله: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ قد أوجب فرعون أنه ليس بآية كما ادعى، لأنه قد أوجب له الصدق إن أتى بآية يعجز عنها المخلوقون.

وقوله ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾؛ إن شئت قلت: «عصاهو» بالواو. والأجود حذفها، أعني الواو لسكونها وسكون الألف، والهاء ليست بحاجز.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾؛ قال أبو عبيدة وغيره: «الثعبان» الحية. وقال غيره: الحية الذكر. وقال الله في موضع آخر ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[طه: ٢٠].

ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾؛ أي: مبين أنها حية.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾؛ معنى ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أظهرها وأبانها، وقال في موضع آخر ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾[النمل: ١٢]، وفي موضع آخر ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[طه: ٢٢]. فهذا دليل أن معنى نزع يده إخراجها من جيبه. وإخراجها من جناحه، و«جناح الرجل»: عضده، وقيل: «جناح الرجل» عطفه.

وتأويل الجناحين من الإنسان أنهما كالجناحين من الطائر، وهما العضدان.

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي: تخرج لونها أبيض حُورياً، وكان موسى فيما يروى آدم.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي: تخرج بيضاء بياضاً ليس ببرص، بياضاً يدل على أنه آية. وكانت عصا موسى إنما تكون حية، عند إظهارها بها الآية، ثم تعود عصا، كما قال الله - عز وجل-: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾[طه: ٢١].

وقوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[الشعراء: ٣٤]؛ وفي هذا الموضع ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾. ﴿الْمَلَأُ﴾ هم الوجوه، وذوو الرأي، وإنما سموا «ملأ» لأنهم ملؤوا بما يحتاج إليه منهم، وقرئت «لسَحَّار عليم».

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾؛ قال فرعون مجيباً لهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

ويجوز أن يكون ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ من قول «الملأ»، كأنهم خاطبوا فرعون ومن يخصه، وجائز أن يكون الخطاب لفرعون وحده، لأنه يقال للرئيس المطاع: ما ترون في هذا، أي: ما ترى أنت وجندك.

و«ماذا»: يصلح أن تكون «ماذا» اسماً واحداً، ويكون في موضع نصب، ويكون المعنى: أي شيء تأمرون.

ويصلح أن تكون «ذا» في موضع الذي، تكون «ما» في معنى رفع، ويكون المعنى: ما الذي تأمرون.

وقوله ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ تفسير ﴿أَرْجِهْ﴾ آخره؛ معناه: آخر أمره ولا تعجل في أمره بحكم فتكون عجلتك حجة عليك.

وفي قوله ﴿أَرْجِهْ﴾ ثلاثة أوجه قد قرئ بها. قرأ أبو عمرو: «أرجئة وأخاه»، وقرأ جماعة من القراء: «أَرْجِهِ وأَخاه»، وقرأ بعضهم: «أَرْجِهْ وأَخاه» بإسكان الهاء.

وفيها أوجه لا أعلمه قرئ بها. ويجوز «أرجهو وأخاه، وأرجهي، وأرجئهي، وأرجئهو» بغير همز.

فأما من قرأ «أرجهْ» بإسكان الهاء فلا يعرفها الحذاق بالنحو، ويزعمون أن هاء الإضمار اسم لا يجوز إسكانها. وزعم بعض النحويين أن إسكانها جائز، وقد رويت لعمري في القراءة إلا أن التحريك أكثر وأجود، وزعم أيضاً هذا أن هاء التأنيث يجوز إسكانها وهذا لا يجوز. واستشهد في هذا بشعر مجهول، قال أنشدني بعضهم:

لَمَا رَأَى أَلا دَعَه وَلا شَبَعْ مَالَ إِلَـى أَرْطَاةِ حِقْف فَالطجع[1]

وهذا شعر لا يعرف قائله ولا هو بشيء، ولو قاله شاعر مذكور لقيل أخطأت، لأن الشاعر قد يجوز أن يخطيء.

وأنشد أيضاً آخر أجهل من هذا وهو قوله:

لَست إذن لزغبله إنْ لَم أُغَير بكلتي

إن لم أساو بالطول

فجزم الهاء في «زغبله»، وجعلها هاء، وإنما هي تاء في الوصل. وهذا مذهب لا يعرج عليه.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾. و«سَحَّار» جميعاً قد قرئ بهما.

وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾؛ أي: لكم مع الأجر المنزلة الرفيعة عندي.

وقوله: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾؛ أي: استدعوا رهبتهم حتى رهبهم الناس.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ و﴿تَلَقَّفُ﴾ مخففة ومثقلة، يقال: «لقفت الشيء أَلْقَفُه».

ومعنى قوله ﴿يَأْفِكُونَ﴾: أي: يأتون بالإفك وهو الكذب، وذلك أنهم زعموا أن حبالهم وعصيهم حيات فكذبوا في ذلك، وإنما قيل: أنهم جعلوا الزئبق وصورها بصور الحيات، فاضطرب الزئبق لأنه لا يستقر.

وقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، فلما ألقى موسى عصاه بلعت عصيهم وحبالهم، قال الشاعر.

---

(١) انظر: الخصائص (٦٣/١)، والمفصل في صنعة الإعراب (٥١٦/١)، وسر صناعة الإعراب (٣٢١/١)، ولسان العرب (٢١٨/٨)، وتاج العروس (٥٣٩٨/١).

أَنْتَ عَصَا مُوسَى التي لَم تَزَل تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُه السَّاحِرِ[1]

هذا البيت أنشد لأبي عبيدة، وزعم التَّوَّزي صاحب أبي عبيدة أنه لا يعرفه. وهوصحيح في المعنى:.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا﴾؛ يقال: «نَقِمت أَنْقِمُ، ونَقِمت أَنْقَم»، والأجود: «نَقِمت أَنْقِمُ» والقراءة ما تنقم وهي أفصح اللغتين.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً﴾؛ أي: يشتمل علينا.

وقوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾؛ ويقرأ و«إلاهتك»، ويجوز: «ويذرك وآلهتك».

فمن نصب ﴿وَيَذَرَكَ﴾ رده على جواب الاستفهام بالواو؛ المعنى: أيكون منك أن تذر موسى، وأن يذرك. ومن قال: «ويذَرُك» جعله مستأنفاً، يكون المعنى: أتذر موسى وهو يذرك وآلهتك، والأجود أن يكون معطوفاً على «أتذر» فيكون أتذر موسي وأيذرك موسي، أي: أتطلق هذا له.

وأما من قرأ ﴿وَآلِهَتَكَ﴾، فإن المعنى: أن فرعون كانت له أصنام يعبدها قومه تقرباً إليه.

قوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾؛ «عسى» طمع وإشفاق، إلا أن ما يطمع الله فيه فهو واجب.

وهو معنى قول المفسرين: أن «عسى» من الله واجب.

ومعنى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: يرى ذلك بوقوع منكم، لأن الله -جل وعز- لا يجازيهم على ما يعلمه منهم من خطيئاتهم التي يعلم أنهم عاملوها لا محالة، إنما يجازيهم على ما وقع منهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾؛ «السنين» في كلام العرب الجدوب، يقال: مستهم السنة، و معناه: «جدب السنة وشدة السنة ونقص الثمرات».

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ إنما أخذوا بالضراء لأن أحوال الشدة ترق القلوب وترغب فيما عند الله وفي الرجوع إليه، ألا ترى إلى قوله -جل وعز-: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقال -جل وعز-: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٣٠/٧)، وفتح القدير (٣٣٨/٢).

أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[فصلت: ٥١].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾؛ أي: إذا جاءهم الخصب قالوا أعطينا هذا باستحقاق.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: جدب أو ضر.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَعَهُ﴾؛ المعنى: يتطيروا. فأدغمت التاء في الطاء، لأنهما من مكان واحد من طرف اللسان وأصول الثنايا.

وتفسير قوله: ﴿يَطَّيَّرُوا﴾: يتشاءموا، وإنما قالت العرب «الطيرة ويتطير» فيما يكرهون، على ما اصطلحوا عليه بينهم، جعلوا ذلك أمراً يتشاءمون به فقال -عز وجل-: ﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾.

المعنى: ألا إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما ينالهم في الدنيا، وقال بعضهم: ﴿طَائِرُهُمْ﴾ حظهم، والمعنى واحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾؛ زعم بعض النحويين أن أصل «مهما»: «مَامًا»، ولكن أبدل من الألف الأولى الهاء، ليختلف اللفظ، فما الأولى هي ما الجزاء، وما الثانية هي التي تزاد تأكيداً للجزاء، ودليل النحويين على ذلك أنه ليس شيء من حروف الجزاء إلا و«ما» تزاد فيه، قال الله -جل ثناؤه-: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ كقولك: إن تثقفهم في الحرب فشردهم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾[الإسراء: ٢٨] أيضاً وهذا في كتاب الله كثير.

وقالوا: جائز أن تكون «مه» بمعنى الكف، كما تقول «مه» أي: أكفف، وتكون «ما» الثانية للشرط والجزاء، كأنهم قالوا -والله أعلم- أكفف ما تأتينا به من آية.

والتفسير الأول هو الكلام وعليه استعمال الناس. وهذا ليس فيما فيه من التفسير شيء لأنه يخل اختلاف هذين التفسيرين بمعنى الكلام.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾؛ قال الأخفش: الطوفان جمع طوفانه.

وقيل في التفسير: إن الطوفان المطر الذي يغرق من كثرته، قال الله -جل وعز- في قصة نوح: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ١٤]. وقيل: «الطوفان» الموت العظيم.

وقوله: ﴿وَالْقُمَّلَ﴾؛ قال فيه أبو عبيدة: هو الْحَنْمَان صغار القِرْدَان.

واختلف في تفسيره فقال بعضهم: هي دواب أصغر من القمل.

﴿وَالدَّمَ﴾ قيل: إن الله -جل وعز-: جعل ماءهم دماً، فكان الإسرائيلي يستقي الماء عذاباً صافياً، فإذا أخذه القبطي تحول دماً صافياً.

وقوله: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾؛ أي: إن بعضها منفصل من بعض، ويقال: إنه كان بين الآية والآية ثمانية أيام، وأرسلت عليهم الضفادع تدخل في ثيابهم وفي طعامهم.

و﴿آيَاتٍ﴾ منصوب على الحال، وهي العلامات.

وقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾؛ والرجز: اسم للعذاب.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ وكانوا قد أخذوا بني إسرائيل بالكد الشديد حتى قالوا لموسى:

﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾؛ يقال: إنهم كانوا يستعملون بني إسرائيل في تلبين اللبن، وكان فرعون وأصحابه من القبط يفعلون ذلك ببني إسرائيل، فلما بعث موسى اعطوهم اللبن يلبنونه ومنعوهم التبن ليكون ذلك أشق عليهم.

وقوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾؛ وهو البحر، وكذلك هو في الكُتب الأُول.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ اى كانوا لا يعتبرون بالآيات التى تنزل بهم.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾؛ يعنى بني إسرائيل، وكان منهم داود وسليمان ملكوا الأرض.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾؛ يعني ما وعدهم الله به من إهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾؛ و«يعْرُشون» جميعا.يقال: «عرَش يَعْرِش ويَعْرُش»، إذا هو بنى.

ومعنى: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾؛ أي: يواظبون عليها ويلازمونه أن يقال لكل من لزم شيئاً وواظب عليه: «عَكَف يَعْكُف ويعكِف»، ومن هذا قيل: للملازم للمسجد معتكف.

وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك ومدمر، ويقال لكل إناء مكسر «متبر»، وكسارته يقال له: «التبر».

وقوله: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً﴾؛ أي: أغير الله أطلب لكم إلهاً، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِن آلِ فِرْعَوْنَ﴾؛ المعنى: واذكروا ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِن آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ﴾؛ معنى «يسومونكم» يولونكم.

وقوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى﴾ و«وَعَدْنَا موسى».

﴿ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾؛ قيل: أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بما يقربه إلى الله، وفي العشر أنزلت عليه التوراة وكلم فيها.

وقال بعضهم: لما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف فِيهِ فاستاك بعود خروب، فقالت الملائكة إنا كنا نستنشيء من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. فزيدت عليه ليال. وقد قال في موضع آخر: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[البقرة: ٥١]، فهذا دليل أن المواعدة كانت أربعين ليلة كاملة، والله -جل وعز- أعلم.

وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾؛ يجوز «هارون» بالفتح، وهو في موضع جر بدلاً من «أخيه».

ويجوز «لأخيه هارونُ» بضم النون، ويكون المعنى: وقال موسى لأخيه يا هارون ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾؛ أي: للوقت الذي وقتنا له.

﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾؛ كلم الله موسى تكليماً. خصه الله أنه لم يكن بينه وبين الله -جل ثناؤه- وفيما سمع أحد، ولا ملك أسمعه الله كلامه.

فلما سمع الكلام ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ أي: قد خاطبتني من حيث لا أراك، والمعنى: أرني نفسك.

وقوله: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ﴾ مجزو م جواب الأمر.

﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾. ولن نفي لما يستقبل.

﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾؛ أي: ظهر وبان.

﴿جَعَلَهُ دَكاً﴾؛ يجوز «دكاً» بالتنوين، و«دكاء» بغير تنوين، أي: جعله مدقوقاً مع الأرض، يقال: «دَكَكْت الشيء إذا دقفته، أَدُكُه دَكاً»، و«الدَّكاء والدَّكَّاوات» الروابي التي مع الأرض ناشزة عنها، لا تبلغ أن تكون جبلاً.

وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾؛ «صعقاً» منصوب على الحال، وقيل: إنه خر ميتاً، وقيل: خر مغشياً عليه.

﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾؛ ولا يكاد يقال للميت: قد أفاق من موته، ولكن للذي غشي عليه والذي يذهب عقله قد أفاق من علته، لأن الله -جل ثناؤه- قال في الذين ماتوا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[البقرة: ٥٦].

وقوله: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً من السوء.

جاء عن النبي ﷺ، أن قوله «سبحانه الله» تنزيه لله من السوء. وأهل اللغة كذلك يقولون من غير معرفة بما فيه، عن النبي ﷺ ولكن تفسيره يجمعون عليه.

وقوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا.

هذا معنى ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ إلى آخره الآية، وهو قول أهل العلم وأهل السنة.

وقال قوم معنى ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، أرني أمراً عظيماً لا يرى مثله في الدنيا مما لا تحتمله بنية موسى، قالوا فأعلمه أنه لن يرى ذلك الأمر، وأن معنى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾.تجلى أمر ربه.

وهذا خطأ لا يعرفه أهل اللغة، ولا في الكلام دليل أن موسى أراد أن يرى أمراً عظيماً من أمر الله، وقد أراه الله من الآيات في نفسه ما لا غاية بعده. قد أراه عصاه ثعباناً مبيناً، وأراه يده تخرج بيضاء من غير سوء وكان آدم، وفرق البحر بعصاه. فأراه من الآيات العظام ما يستغني به عن أن يطلب أمراً من الله عظيماً، ولكن لما سمع كلام الله قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، وسمعت كلامك فأنا أحب أن أراك. فأعلمه الله -جل ثناؤه- أنه لن يراه.

ثم أمره الله أن يشكره، فقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾، أي: اتخذتك صفوة على الناس.

﴿بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾؛ ولو كان إنما تَبعَ كلام غير الله لما قال: ﴿بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ لأن الملائكة تنزل إلى الأنبياء بكلام الله.

وقوله: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ ثم أعلم الله -جل ثناؤه- أنه قد أعطاه من كل شيء يحتاج من أمر الدين مع ما أراه من الآيات فقال -جل وعز-: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقيل في التفسير: إنهما كانا لوحين. ويجوز في اللغة أن يقال للوحين: «ألواح». ويجوز أن يكون ألواح جمع أكثر من اثنين.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذها بقوة في دينك وحجتك.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾؛ في هذا وجهان:

وهونحو قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[الزمر: ١٨] ونحو قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم﴾[الزمر: ٥٥].

فيحتمل وجهين؛ أحدهما: أنهم أمروا بالخير ونهوا عن الشر، وعرفوا ما لهم في ذلك، فقيل ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ ويجوز أن يكون نحو ما أمرنا به من الانتصار بعد الظلم، ونحو القصاص في الجروح إذ قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣]، ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِن سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤١] فهذا كله حسن، والعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار.

وقوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي.

ومعنى ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم. وهذه الصفة لا تكون إلا لله -جل ثناؤه- خاصة لأن الله تبارك وتعالى هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس مثله. وذلك يستحق أن يقال له: «المتكبر»، وليس لأحد أن يتكبر لأن الناس في الحقوق سواء. فليس لأحد ما ليس لغيره والله -جل ثناؤه- المتكبر. أعلم الله أن هؤلاء يتكبرون في الأرض بغير الحق.

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾؛ وسبيل الغي هو سبيل الضلال.

يقال: «غَوَى الرجل يَغْوِي غَيًّا» و«هوغَاوٍ» إذا ضل.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾؛ «ذلك» يصلح أن يكون رفعاً، أي: أن أمرهم ذلك، ويجوز أن يكون نصباً على معنى: فعل الله بهم ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾؛ «غافلين» يصلح أن يكون -والله أعلم- كانوا في تركهم الإيمان بها والنظر فيها والتدبر لها بمنزلة الغافلين.

ويجوز أن يكون ﴿وَكَانُوا﴾ عن جوابها ﴿غَافِلِينَ﴾ كما تقول: ما أغفل فلاناً عما يراد به.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾؛ و﴿مِنْ حِلِيِّهِمْ﴾.

فمن قرأ من ﴿حِلِيِّهِمْ﴾ فالحلي اسم لما يحسن به من الذهب والفضة، ومن قرأ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء فهو جمع: «حَلْي» على «حُلِيّ» مثل: «حقو وحقي»، ومن كسر الحاء فقال: ﴿مِنْ حِلِيِّهِمْ﴾ اتبع الحاء كسر اللام.

ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ما جاء الميقات، وخلفه هارون في قومه، وكان لهم حلي يجمعونه في أيام زينتهم، وكان للقبة حلي عن بني إسرائيل.

فقال لهم السامري، وكان رجلاً مطاعاً فيهم ذا قدر، وكانوا قد سألوا موسى أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه كما رأوا قوم فرعون يعبدون الأصنام. فجمع السامري ذلك الحلي، وهو قولهم: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾[طه: ٨٧] أي: ألقيناها. ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾[طه: ٨٧] أي: وكذلك طرح السامري ما كان عنده من الحلي فصاغه في العجل.

فقال الله -تعالى- ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا﴾؛ والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، وإنما معنى الجسد معنى الجثة فقط.

﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ أي: له صوت.

وقيل: «له جوار» -بالحاء والجيم - وكلاهما من الصوت، وكان قد عمله كما تعمل هذه الآلات التي تصوت بالخيل، فجعله في بيت وأعلمهم أن إلههم وإله موسى عنده.

ويقال في التفسير: إنه سمع صوته مرة واحدة فقط، فقال الله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾؛ أي: لا يبين لهم طريقاً إلى حجة.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾؛ يقال: للرجل النادم على ما فعل الخسر على ما فرط منه: «قد سُقِطَ في يده وأُسْقِط»، وقد رويت: «سُقِطَ» في القراءة.

فالمعنى: ولما سقط الندم في أيديهم، كما تقول للذي يحصل على شيء -وإن كان مما لا يكون في اليد-: قد حصل في يده من هذا مكروه، تشبه ما يحصل في القلب وفي

النفس بما يرى بالعين.

وقوله: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً﴾.

﴿غَضْبَانَ﴾ منصوب على الحال، وهو على مثال «فعلان»، وله فعلى نحو: «غضبى» لم ينصرف، لأن فيه الألف والنون، كألفي «حمراء».

والأسف: الشديد الغضب، قال الله -جل وعز-: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[الزخرف: ٥٥]، أي: فلما أغضبونا.

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؛ يقال: «عَجِّلت الأمر والشيء» سبقته وأَعْجَلته واستحثثته.

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾؛ بالفتح وإن شئت: «ابن أم» بالكسر، فمن قال «ابن أم» بالفتح فإنه إنما فتحوا في «ابن أم وابن عم» لكثرة استعمالهم هذا الاسم. وأن النداء كلام محتمل للحذف فجعلوا «ابن» و«أم» شيئاً واحداً نحو: «خمسة عشر».

ومن قال «ابنِ أمِ» بالكسر فإنه أضافه إلى نفسه بعد أن جعله اسماً واحداً، ومن العرب من يقول: «يا ابن أمي» بإثبات الياء، قال الشاعر[1]:

يا ابنَ أُمِّي ويا شُقَيِّقَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدِ[2]

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾؛ المعنى: اتخذوا العجل إلهاً.

وقوله: ﴿وَذِلَّةٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ لحقتهم الذلة أنهم رأوا أنهم قد ضلوا وذلوا.

والذلة هو ما أمروا به من قتل أنفسهم، وقيل: إن الذلة أخذ الجزية، وأخذ الجزية لم يقع في الذين عبدوا العجل، لأن الله -جل وعز- تاب عليهم بقتلهم أنفسهم.

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الغَضَبُ﴾؛ يقال: «سَكَت يَسْكُت سَكْتاً» إذا هو سكن، «وسَكَت يَسْكُت سُكُوتاً وسَكْتًا» إذ قطع الكلام، ويقال: «رجل سِكِّيت» بين السكوت، «والسَّاكُوتة» إذا كان كثير السكوت، «وأصاب فلاناً سُكَات» إذا أصابه داء منه من الكلام، «والسِكِّيت» -بالتخفيف والتشديد - الذي يجيء آخر الخيل، وروى بعضهم:

---

(١) هو: أبو زبيد الطائي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦/٦٤)، وزاد المسير (٣/٢٦٥)، وأوضح المسالك (٤/٤٠)، ولسان العرب (١٠/ ١٨١)، وتاج العروس (١/٦٤٠٥).

«ولما سُكِتَ عن موسى الغضب» ولا تقرأن به لأنه خلاف المصحف.

وقول بعضهم: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الغَضَبُ﴾؛ معناه: ولما سكت موسى عن الغضب، على القلب، كما قالوا: أدخلت القلنسوة في رأسي؛ المعنى: أدخلت رأسي في القلنسوة، والقول الذي معناه: سكن قول أهل العربية.

وقوله: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾؛ معناه: واختار موسى من قومه، وكان موسى اختار من اثنى عشر سبطاً من كل سبط ستة رجال، فبلغوا اثنين وسبعين رجلاً فخلف منهم رجلين.

ومعنى «اختار قومه»، اختار من قومه فحذفت «من» ووصل الفعل فنصب، يقال: «اخترت من الرجال زيداً واخترت الرجال زيداً».

وأنشدوا:

ومِنَّا الذِي اخْتَارَ الرِّجَالَ سَمَاحَة وَجُوداً إِذَا هَبَّ الرِّيَاح الزَّعَارِعُ

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾؛ وهي الحركة الشديدة والزلزلة الشديدة.

يقال: إنه رجف بهم الجبل فماتوا فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾.

أي: لو شئت أمتهم من قبل أن تأتيهم بما أوجب عليهم الرجفة.

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾؛ معناه: تبنا إليك.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: كل ما خلقته فبرحمتي وفضلي يعيش، فمعناه: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾؛ في الآخرة، أي: أجازيهم بها في الآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾؛ «الأمي» هو على خلقة الأُمة، ولم يتعلم الكتاب فهو على جِبلته.

وقوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾؛ وهذا أبلغ في الاحتجاج عليهم لأنه إخبار بما في كتابهم، والنبي ﷺ لم يكن يكتب ولا قرأ التوراة والإنجيل، ولا عاشر أهلهما فإتيانه بما فيهما من آيات الله العظام. ومحال أن يجيء مدع إلى قوم فيقول لهم ذكري في كتابكم، وليس ذلك فيه. وذكره قد أنبأ من آمن من أهل الكتاب به.

وقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ يجوز أن يكون يأمرهم مستأنفاً.

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أي: يحل لهم ما حرَّم عليهم من طيبات الطعام. ويجوز ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: ما أخذ من وجهه طيباً.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ والإصر: ما عقدته من عقد ثقيل.

والأغلال: تمثيل، ألا ترى أنك تقول: «جعلت هذا طويقاً في عنقك»، وليس هناك طوق، وإنما تأويله: أني قد وليتك هذا وألزمتك القيام به، فجعلت لزومه لك كالطوق في عنقك.

والأغلال التي كانت عليهم: كان عليهم أنه من قتل قتل، لا يقبل في ذلك دية، وكان عليهم إذا أصاب جلودهم شيء من البول أن يقرصوه، وكان عليهم ألا يعملوا في السبت. فهذه الأغلال التي كانت عليهم.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ.

﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾؛ اختلف أهل اللغة في معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقوله: «عَزَّرت فلاناً أُعزِّره وأَعْزُره عزراً»، قال بعضهم: معنى «عَزَّرته» رددته، وقال بعضهم: معنى «عَزَّرته» أغثته، وقال بعضهم: يقال: «عَزَرْت الرجل أَعْزِرْه» إذا لمته، ويقال: «عَزَّرْتُ فلاناً»، قال بعضهم: «عَزَّرْتُ فلاناً» نصرته، وقال بعضهم: منعت منه؛

فالمعنى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ معنى «عزروه» منعوا أعداءه من الكفر به، وقال بعضهم: «عزروه» بمعنى نصروه، والمعنى قريب، لأن منع الأعداء منه نصرته.

ومعنى «عَزَّرْتُ فلاناً» إذا ضربته ضرباً دون الحد، يمنعه بضربه إياه عن معاودة مثل عمله.

وقوله: «عَزَّرته» رددته، يجوز أن يكون منه التعزير، أي: فعلت به ما يرده عن المعصية.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾؛ أي: اتبعوا الحق الذي بيانه في القلوب، بيان النور في العيون.

وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: يدعون الناس إلى الهداية.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: يدعون الناس إلى الهداية بالحق.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: بالحق يحكمون.

وقوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً﴾؛ ويجوز عشرة -بكسر الشين -.

المعنى: قطعناهم اثنتي عشرة فرقة، ﴿أَسْبَاطاً﴾ من نعت «فرقه» كأنه قال: جعلناهم أسباطاً وفرقناهم أسباطاً، فيكون ﴿أَسْبَاطاً﴾ بدلاً من ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾. وهو الوجه.

وقوله: ﴿أُمَماً﴾ من نعت أسباطاً.

قال بعضهم: السبط القرن الذي يجيء بعد قرن، والصحيح: أن الأسباط في ولد إسحاق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل، فولد كل من ولد من أولاد يعقوب سبط وولد كل من ولده من ولد إسماعيل وولد إسحاق.

ومعنى القبيلة من ولد إسماعيل معنى الجماعة يقال لكل جماعة من ولد: قبيلة، وكذلك يقال لكل جمع على شيء واحد: قبيل، قال الله -جل وعز-: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف: ٢٧].

فأما الأسباط غهو مشتق من «السَّبَط» و«السُّبَط» ضرب من ضروب الشجر تعلفه الإبل، ويقال للشجرة لها: «القبائل». فكذلك الأسباط من «السَّبَط». كأنه جعل إسحاق بمنزلة شجرة، وجعل إسماعيل بمنزلة شجرة.

وكذلك يفعل النسابون في النسب يجعلون الوالد بمنزلة الشجرة ويجعلون الأولاد بمنزلة أغصانها، ويقال: «طوبى لطرح فلان، وفلان من شجرة صالحة» فهذا -والله أعلم- معنى الأسباط والسَّبَط.

وقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾؛ السؤال على ضربين:

أحد الضربين أن تسأل لتستخبر عما لا تعلم لتعلم، والضرب الثاني أن تسأل مستخبراً على وجه التقرير، فتقول للرجل: «أأنا فعلت كذا ؟» وأنت تعلم أنك لم تفعل، فإنما تسأله لتقرره وتوبخه.

فمعنى أمر النبي ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن أهل هذه القرية، وقد أخبر الله -جل ثناؤه- بقصتها ليقررهم بقديم كفرهم، وأن يعلمهم ما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾؛ أي: إذ يظلمون في السبت، يقال: «عَدَا فلان يَعْدُو عُدْوَاناً، وعَدَاء وعَدْواً، وعُدُواً» إذا ظلم.

وقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾؛ «حيتان» جمع: «حوت»، وأكثر ما تسمي العرب

السمك: ((الحيتان والنينان)).

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾؛ موضع ((إذ)) نصب؛ المعنى: سلهم عن عدوهم في السبت أي: سلهم عن وقت ذلك.

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾؛ في موضع نصب أيضاً بـ((يعدون))؛ المعنى: سلهم إذ عدوا في وقت الإتيان.

﴿شُرَّعاً﴾؛ أي: ظاهرة، وكانت الحيتان تأتي ظاهرة فكانوا يحتالون بحسبها في يوم السبت، ثم يأخذونها في يوم الأحد، ويقال: إنهم جاهروا بأخذها في يوم السبت.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم﴾؛ أي: مثل هذا الاختبار الشديد نختبرهم.

وموضع الكاف نصب بقوله: ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: شددت عليهم المحنة بفسقهم. ويحتمل -على بعد- أن يكون: ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ﴾ أي: لا تأتيهم شرعاً، ويكون نبلوهم مستأنفه، وذلك القول الأول قول الناس وهو الجيد.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً﴾؛ الأصل ((لما))، ولكن الألف تحذف مع حروف الجر نحو: ((لم وعم وبم))، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[النبأ: ١].

ومعنى الآية : أنهم لاموهم في عظة قوم يعلمون أنهم غير مقلعين. هذا الأغلب عليهم في العلم بهم.

﴿اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾؛ ومعنى ((أو)) -والله أعلم- أنهم أخبروهم على قدر ما رأوا من أعمالهم أنهم مهلكون في الدنيا، أو معذبون في الآخرة لا محالة.

وقوله: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾؛ المعنى: قالوا موعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون.

فالمعنى: أنهم قالوا: الأمر بالمعروف واجب علينا، فعلينا موعظة هؤلاء لعلهم يتقون، أي: وجائز عندنا أن ينتفعوا بالمعذرة.

ويجوز النصب في ((معذرة)) فيكون؛ المعنى: في قوله: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ على معنى: يعتذرون معذرة.

وقوله -جل وعز-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾.

﴿نَسُوا﴾ يجوز أن يكون في معنى تركوا، ويجوز أن يكون تركهم بمنزلة من نسي.

وقوله: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾؛ أي: شديد، يقال: «بَئِس يَبْؤُس بَأْساً إذا اشْتَدّ»، وقيل: إن القوم كانوا ثلاث فرق، فرقة عملت بالسوء، وفرقة نهت عن السوء، فرقة أمسكت عن النهي.

وقيل: كانوا فرقتين، فرقة نهت عن السوء وفرقة عملت بالسوء، وبعض الفرقة التي فيها من نهى عن السوء مؤمن غير راض بما فعل أهل السوء فدخلوا في النجاة مع الذين ينهون عن السوء، ونزل العذاب بالذين عدوا في السبت.

وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ﴾؛ العاتي: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظة.

وقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ جائز أن يكونوا أمروا بأن يكونوا كذلك بقول سُمِعَ، فيكون أبلغ في الآية والنازلة بهم، وجائز أن يكون ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ من قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومعنى ﴿خَاسِئِينَ﴾: أي: مبعدين.

وقال قوم: جائز أن تكون هذه القردة المتولدة أصلها منهم، وقال قوم: «المسخ» لا يبقى ولا يتولد، والجملة: أَنَّا أُخبرنا بأنهم جعلوا قردة، والقردة هي التي نعرفها. وهي أكثر شيء في الحيوان شبهاً بابن آدم، والله أعلم كيف كان أمرهم بعد كونهم قردة.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾؛ قال بعضهم: تأذن: تَأَلّى ربك ليبعثن عليهم، وقيل: إن تأذن أعلم، والعرب تقول: تعلم أن هذا كذا، في معنى أعلم، قال زهير [من الوافر]:

تَعَلَّم أَنَّ شَرَّ الناسِ حَيٌّ   يُنادى في شِعارِهِمْ يَسارُ

وقال زهير أيضاً [من الطويل]:

وَقُلتُ تَعَلَّم أَنَّ لِلصَّيدِ غِرَّةً   وَإِلا تُضَيِّعها فَإِنَّكَ قاتِلُه

وقوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي: من يوليهم سوء العذاب.

فإن قال قائل: قد جعلوا قردة فكيف يبقون إلى يوم القيامة؛ فالمعنى: أن الذكر لليهود، فمنهم من مسخ، وجعل منهم القردة والخنازير ومن بقي فمعاند لأمر الله، فهم مذلون بالقتل، إلا أن يعطوا الجزية، فهم مذلون بها وهم في كل مكان أذل أهله، قال الله عزل وجل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾[آل

عمران: ١١٢] أي: إلا أن يعطوا الذمة والعهد.

وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ﴾؛ يقال للذي يجيء في أثر قرن: «خلف». والخلف: ما أخلف عليك بدلاً مما أخذ منك، ويقال: في هذا خلف أيضاً، فأما ما أخلف عليك بدلاً مما ذهب منك فهو «الخلف» بفتح اللام.

وقوله: ﴿وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾؛ قيل: إنهم كانوا يرتشون على الحكم، ويحكمون بجور، وقيل: إنهم كانوا يرتشون ويحكمون بحق، وكل ذلك عرض خسيس.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ﴾؛ فالفائدة أنهم كانوا يذنبون بأخذهم الرشى، ويقولوا: سيغفر لنا من غير أن يتوبوا، لأن قوله ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ دليل على إصرارهم على الذنب، والله -عز وجل- وعد بالمغفرة في العظائم التي توجب النار مع التوبة. فقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

أي: فهم ذاكرون لما أخذ عليهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ﴾؛ «الذين» في موضع رفع، وفيها قولان؛ أعني في ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ﴾.

وقال قوم: إنا لا نضيع أجر المصلحين منهم، وهو الذي نختار لأن كل من كان غير مؤمن وأصلح فأجره ساقط، قال الله -جل وعز-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١]، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾[الغاشية: ٢ - ٤].

فالمعنى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: يؤمنون به، ويحكمون بما فيه إنا لا نضيع أجر المصلح منهم. والمصلح: المقيم على الإيمان المؤدي فرائضه اعتقاداً وعملاً، ومثله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[الكهف: ٣٠] أي: لا نضيع أجر من أحسن منهم عملاً.

وقال قوم: «المصلحون» لفظ يخالف لفظ الأول، ومعناه معنى الأول فعاد الذكر في المعنى: وإن لم يكن عائدة في اللفظ، ولا يجيز: «هؤلاء زيد قام أبو عمرو». لأن أبا عمرو لا يوجبه لفظ زيد.

فإن قال قائل: «المؤمن أنا أكرم من اتقى الله» جاز، لأن معنى من اتقى الله ومعنى

المؤمن، فقد صار بمنزلة قولك: «زيد ضربته»، لأن الذكر إذا تقدم فالهاء عائدة عليه لا محالة، وإن كان لفظها غير لفظه، لأن ضمير الغائب لا يكون إلا هاء في النصب.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾؛ موضع «إذ» نصب.

المعنى: ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾.

﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من قوله: ﴿مِن بَنِي آدَمَ﴾؛ المعنى: وإذ أخذ ربك ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ و«ذُرِّيَاتِهِم» جميعاً.

وقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾؛ قال بعضهم: خلق الله الناس كالذر من صلب آدم، وأشهدهم على توحيده، وهذا جائز أن يكون جعل لأمثال الذر فهما تعقل به أمره، كما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨]، وكما قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾[الأنبياء: ٧٩].

و «كل مولود يولد على الفطرة»؛ معناه: أنه يولد وفي قلبه توحيد الله، حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه.

وقال قوم: معناه: أن الله -جل ثناؤه-، أخرج بني آدم بعضهم من ظهور بعض.

ومعنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾: أن كل بالغ يعلم أن الله واحد، لأن كل ما خلق الله تعالى دليل على توحيده، وقالوا: لولا ذلك لم تكن على الكافر حجة.

وقالوا: فمعنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ دلهم بخلقه على توحيده.

وقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ هذا نسق على ما قبله.

المعنى: اتل عليهم إذ أخذ ربك من بني آدم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾؛ هذا فيه غير قول.

قيل: إنه كان عنده اسم الله الأعظم فدعا به على موسى وأصحابه، وقيل: إنه أمية بن أبي الصلت، وكان عنده علم من الكتب، وقيل: إنه يعني به منافقو أهل الكتاب.

وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾؛ أي: الفاسدين الهالكين.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾؛ أي: لو شئنا أن نحول بينه وبين المعصية لفعلنا.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾؛ معناه: ولكنه سكن إلى الدنيا، يقال: «أَخْلَد فلان إلى كذا وكذا، وخَلَدَ إلى كذا وكذا»، وأَخْلَد: أكثر في اللغة.

المعنى: أنه سكن إلى لذات الأرض.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾؛ أي: لم يرفعه بها لاتباعه هواه.

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ﴾؛ ضرب الله -عز وجل-: بالتارك لآياته والعادل عنها. أحسن مثل في أخس أحواله، فقال -عز وجل-: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ﴾ إذا كان الكلب لهثان، وذلك أن الكلب إذا كان يلهث فهو لا يقدر لنفسه على ضر ولا نفع، لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال حملت عليه أو تركته؛ فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثاً.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وقال: ﴿سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ﴾؛ المعنى: ساء مثلاً مثل القوم.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ وضفهم بأنهم لا يبصرون بعيونهم ولا يعقلون بقلوبهم. جعلهم في تركهم الحق وإعراضهم عنه، بمنزلة من لا يبصر ولا يعقل.

ثم قال -جل وعز- ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾؛ وذلك أن الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما لا تبصره وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند فيقدم على النار.

وقال -جل وعز-: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[البقرة: ١٧٥] أي: على عمل أهل النار.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾؛ لا ينبغي أن يْدعوه أحد بما لم يصف نفسه به، أولم يسم به نفسه فيقول في الدعاء: ((يا الله يا رحمن يا جواد))، ولا ينبغي أن يقول: ((يا سبحان)) لأنه لم يصف نفسه بهذه اللفظة. وتقول: ((يا رحيم))، ولا يقول: ((يا رفيق))، وتقول: ((يا قوي))، ولا تقول: ((يا جلد)).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾؛ أي: ألم يستدلوا بما أنبأهم به من ملكوت السموات والأرض.

﴿وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: إن كانوا يسوفون بالتوبة فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم.

فالمعنى: أولم ينظروا فيما دلهم الله -جل ثناؤه- على توحيده فكفروا به بذلك فلعلهم قد قربت آجالهم فيموتون على الكفر ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، الطغيان: الغلو في الكفر. و﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتحيرون.

ويجوز الجزم والرفع في ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ فمن جزم عطف على موضع الفاء؛ المعنى: من

يضلل الله يذره في طغيانه. ومن قرأ ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ فهو رفع على الاستئناف.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ والساعة: ههنا التي يموت فيها الخلق.

ومعنى ﴿مُرْسَاهَا﴾ مثبتها، يقال: «رَسَا الشيء يَرْسُو» إذا ثبت «فهو رَاسٍ» وكذلك: «جبال راسِيات»، أي: ثابتات. و«أَرْسَيْتُه» إذا أثبته.

فالمعنى: يسألونك عن الساعة متى وقوعها.

وقوله: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾؛ أي: لا يظهرها في وقتها إلا هو.

ومعنى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ قيل: فيه قولان:

قال قوم: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثقل وقوعها على أهل السماوات والأرض.

ثم أعلم -جل ثناؤه- كيف وقوعها فقال -جل وعز-: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾؛ أي: إلا فجأة.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ المعنى: -والله أعلم- يسألونك كأنك فرح بسؤالهم.

يقال: تَحَفَيت بفلان في المسألة» إذا سألت سؤالاً أظهرت فيه المحبة، وأَحْفَى فلان بفلان في المسألة، وإنما تأويله: الكثرة ويقال: «حَفت الدآبة تَحْفِي حَفًى»، مقصور إذا كثر المشي حتى يؤلمها، و«الحفاء» ممدود أن يمشي الرجل بغير نعل.

وقيل: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، كأنك أكثرت المسألة عنها.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾؛ معنى ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ لا يعلمها إلا هو.

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ﴾؛ أي: لادخرت زمن الخصب لزمن الجدب.

وقيل ﴿لَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ أي: لوكنت أعلم ما أسأل عنه من الغيب في الساعة وغيرها.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾؛ أي: لم يلحقني تكذيب.

وقيل أيضاً: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: ما بي من جنون، لأنهم نسبوا النبي ﷺ إلى الجنون، فقال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم بين لهم ما دلهم على توحيد الله -عز وجل- فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ﴾؛ يعني آدم.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾؛ كناية عن الجماع أحسن كناية.

﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾؛ يعني المني، والحَمل ما كان في البطن -بفتح الحاء – أو أخرجته الشجرة، والحِمل بكسر الحاء ما يحمل.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾؛ معنى «مرت به» استمرت، قعدت وقامت لم يثقلها.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾؛ أي: دنت ولادتها، لأنه أول أمره كان خفيفاً، فلما جعل إنساناً ودنت الولادة أثقلت.

وقوله: ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا﴾؛ أي: دعا آدم وحواء ربهما.

﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾.

يروى في التفسير: أن إبليس -عليه اللعنة -جاء إلى حواء فقال: أتدرين ما في بطنك، فقالت: لا أدري، قال: فلعله بهيمة، ثم قال: إن دعوت الله أن يجعله إنساناً أتسمينه باسمي؟ فقالت نعم فسمته عبد الحارث، وهو الحارث.

وهذا يروي في التفسير.

وقيل: إن آدم وحواء أصل. فضرب هذا مثلاً لمشركي العرب وعرفوا كيف بدأ الخلق، فقيل: فلما آتاهما الله -لكل ذكر وأنثى- آتاه الله ولداً ذكراً أو أنثى هو خلقه وصوره.

﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ﴾. يعني الذين عبدوا الأصنام.

﴿فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ الأول هو الذي عليه التفسير، ومن قرأ «شِرْكاً» فهو مصدر: «شَرَكت الرجل أُشركه شِركاً».

قال بعضهم: كان ينبغي أن يكون على قراءة من قرأ: «شِرْكاً» جعلا لغيره شركاً، يقول: لأنهما لا ينكران أن الأصل الله -عز وجل- فالشرك إنما يجعل لغيره، وهذا على معنى: جعلا له ذا شرك فحذف ذا مثل ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢].

وقوله: ﴿خُذِ العَفْوَ﴾؛ والعفو: الفضل، والعفو: ما أتى بغير كلفة.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، أي: بالمعروف ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾؛ لأدنى حركة تكون، تقول: قد نَزَغته إذا

حركته؛ فالمعنى: إن نالك من الشيطان أدنى نزغ أي: وسوسة.

وقوله: ﴿مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِن الشَّيْطَانِ﴾؛ يقال: طُفْتُ أَطُوف، وطَافَ الخيال يَطِيفُ.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾؛ أي: تفكروا فيما هو أوضح لهم من الحجة.

﴿فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ﴾؛ على بصيرة.

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ﴾؛ هذا معناه: التقديم؛ المعنى: لا يستطيعون لهم نصراً، ولا أنفسهم ينصرون.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾؛ يعني الشياطين، لأن الكفار إخوان الشياطين، والغي: الجهل، والوقوع في الحركة. ويقال: «أَقْصَر يُقْصِر، وقَصَّرَ، ويُقَصِّرُ».

وقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾؛ أي: هلا اختلقتها، أي: هلا أتيت بها من نفسك، فأعلمهم ﷺ أن الآيات من قبل الله -جل ثناؤه-.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ أي: هذا القرآن الذي أتيت به بصائر من ربكم.

واحدة البصائر: بصيرة، والبصيرة والبصائر طرائق الدم، قال الأشعر الجعفي [من الكامل].

راحوا بَصائِرُهُم عَلى أَكتافِهِم وَبَصيرَتي يَعدو بِها عَتَدٌ وَأى[(١)]

والبصيرة: الترس، وجمعها «بصائر». وجميع هذا أيضاً؛ معناه: ظهور الشيء وبيانه.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾؛ يروي أن الكلام في الصلاة كان جائزاً، فكان يدخل الرجل فيقول: كم صليتم فيقال: صلينا كذا. فلما نزلت ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ حرم الكلام في الصلاة، إلا ما كان مما يتقرب به إلى الله -جل ثناؤه-.

ومما ذكرته الفقهاء نحو: التسبيح والتهليل والتكبير والاستغفار وما أشبه ذلك. ومن ذكر الله -جل وعز- ومسألته العفو.

ويجوز أن يكون ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ واعملوا بما فيه ولا تجاوزوا لأن معنى قول القائل: «سمع الله دعاءك». تأويله: أجاب الله دعاءك، لأن الله -جل ثناؤه- سميع عليم.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٨/٧)، والمزهر في علوم اللغة (٤٦٧/١)، ولسان العرب (٢٧٥/٣)، وتاج العروس (٢٥٢٥/١).

وقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾؛ الآصال: جمع «أصل». والأصل جمع «أصيل»، فالآصال جمع الجمع، والآصال: العشيات.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾؛ يعني به الملائكة.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ينزهونه عن السوء.

فإن قال قائل: الله -جل ثناؤه- في كل مكان، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾[الأنعام: ٣] فمن أين قيل للملائكة: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ؟

فتأويله: إنه من قرب من رحمة الله من تفضله وإحسانه.

* * *

سورة الأنفال(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -جل وعز-: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة:** سورة الأنفال من سور القرآن الكريم المدنية، ترتيبها في المصحف الشريف الثامنة. عدد آياتها خمس وسبعون آية. جاءت تسميتها الأنفال لسبب نزولها ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾ [الأنفال: ١].

سورة الأنفال من السور التي عنيت بجانب التشريع، وبخاصة فيما يتعلّق بالغزوات والجهاد في سبيل الله، فقد عالجت بعض النواحي الحربية التي ظهرت عقب بعض الغزوات وتضمنت كثيرًا من التشريعات الحربية.

كان نزول هذه السورة عقب غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد، وبداية النصر لجند الرحمن، حتى سمّاها بعض الصحابة سورة بدر لأنها فصّلت في أحداث الموقعة بإسهاب. ومن المعلوم أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت هي الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل، وردّ البغي والطغيان، فكانت غزوة بدر نصرًا للمؤمنين، وهزيمة للمشركين.

وخلال استعراضها لأحداث بدر، وجهت المؤمنين إلى قواعد الجهاد والقتال داعية إيّاهم لاتباعها. التوجيه الأول : جاء فيه التحذير من الفرار من المعركة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[الأنفال: ١٥].

أما التوجيه الثاني : فقد جاء فيه الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال ٢٠].

كما صورت الآيات الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ولا تعي ولا تستجيب لدعوة الحق. أما التوجيه الثالث : فقد بيّن فيه أن ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ فيه حياتهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أما التوجيه الرابع : فقد نبههم إلى أنّ إفشاء سر الأمة للأعداء خيانة لله ولرسوله وللأمة أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٢٧].

أما التوجيه الخامس : فقد لفت نظرهم فيه إلى ثمرة التقوى، وذكّرهم بأنها أساس الخير ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أما التوجيه السادس : فقد وضّح لهم فيه طريق العزة وأسس النصر وذلك بالثبات أمام الأعداء، والصبر عند اللقاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]. وختمت السورة بالولاية الكاملة بين المؤمنين، وأنه مهما تناءت ديارهم، واختلفت أجناسهم فهم أمة واحدة. ولا ولاية بين المؤمنين والكافرين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[الأنفال: ٧٣].

﴿الأَنفَالُ﴾. الغنائم، واحدها «نفل»، قال لبيد [من الرمل]:

إنَّ تَقوى رَبِّنا خَيرُ نَفَل وَبِإذنِ الله رَيثي وَعَجَل[١]

وإنما يسألوا عنها لأنها فيما روي كانت حراماً على من كان قبلهم، ويروى أن الناس في غزوة بدر كانوا قليلين، فجعل النبي ﷺ لمن جاء بأسير غنماً ومن جاء بأسيرين على حسب ذلك، وقيل أيضاً: إنه نفل في السرايا فقال الله -جل وعز-: ﴿الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: بالحق الواجب.

ويكون تأويله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِن الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ كذلك ننفل من رأينا وإن كرهوا. لأن بعض الصحابة قال للنبي ﷺ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئاً، قال: «يبقي أكثر الناس بغير شيء».

فموضع الكاف في «كما» نصب؛ المعنى: الأنفال ثابتة لك مثل إخراج ربك إياك من بيتك بالحق.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ معنى ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ حقيقة وصلكم، والبين: الوصل، قال تعالى: ﴿لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: وصلكم.

فالمعنى: اتقوا الله كونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله، وكذلك اللهم أصلح ذات البين، أي: أصلح الحال التي بها يجتمع المسلمون.

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ تأويله: إذا ذكرت عظمة الله وقدرته، وما خوف به من عصاه، ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فزعت لذلك قال الشاعر[٢] [من الطويل]:

لَعَمرُكَ ما أَدري وَإِنّي لأَوجَلُ عَلى أَيِّنا تَغدو المَنِيَةِ أَوَّلُ[٣]

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/١٦٨)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٧٥)، وتفسير القرطبي (٧/٣١٦)، وروح المعاني (٩/١٦٠)، وزاد المسير (٣/٣١٨)، والكشاف (١/٤٤٤)، ومفردات القرآن (١/٣٤٧)، والأغاني (١٥/٣٦١)، وكتاب جمهرة الأمثال (١/٥٧)، وفقه اللغة (١/١٢٤٤)، ولسان العرب (١١/٦٧٠).

(٢) هو : معن بن أوس المزني.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٧٩)، وتفسير القرطبي (١/٣١٧)، وزاد المسير (٣/٣٢٠)، ومعاني القرآن (٣ =

يقال: «وَجَل يُوْجَل وجلاً»، ويقال في معنى «يوجل»: «ياجَلُ ييجل ويَيْجَل»، هذه أربع لغات حكاها سيبويه وأجودها: «يوْجَل»، قال الله -عز وجل-: ﴿لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾[الحجر: ٥٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾؛ تأويل: الإيمان التصديق، وكل ما تلي عليهم من عند الله صدقوا به فزاد تصديقهم بذلك زيادة إيمانهم.

وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ «حقاً» منصوب بمعنى دلت عليه الجملة، والجملة هي: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حقاً.

فالمعنى: أحق ذلك حقاً.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: لهم منازل في الرفعة على قدر منازلهم.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾؛ وعدهم الله -جل وعز- في غزوة بدر أنهم يظفرون بأهل مكة وبالعير وهي الإبل لكراهتهم القتال، فجادلوا النبي ﷺ وقالوا: «إنما خرجنا إلى العير».

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ﴾؛ أي: وهم كانوا في خروجهم للقتال كأنهم يساقون إلى الموت لقلة عددهم وأنهم رجالة، يروى أنهم إنما كان فيهم فارسان فخافوا.

وقوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾؛ المعنى: واذكروا إذ يعدكم الله أن لكم إحدى الطائفتين.

﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿إِحْدَى﴾ ومثله قوله: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ﴾؛ المعنى: ولولا أن تطؤوهم.

وقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾؛ أي: تودون أن الطائفة التي ليست فيها حرب ولا سلاح، وهي الإبل تكون لكم، وذات الشوكة ذات السلاح.

يقال: «فلان شَاك في السلاح، وشَائِك في السلاح وشاكٌ في السلاح» بتشديد الكاف من «الشِّكَة»، ومثل شاكي قول الشاعر [1] [من الكامل]:

/١٢٩)، والجمل في النحو (٣٠٩/١)، وشرح شذور الذهب (١٣٣/١)، وأدب الكاتب (٤٥٢/١)، والأغاني (٢٧/١٠)، والإيضاح في علوم البلاغة (٣٧٠/١)، وديوان الحماسة (٨/٢)، وروضة العقلاء (١٨٠/١)، وشرح كتاب الأمثال (٤٥٩/١)، ولسان العرب (١٢٥/٥)، وتاج العروس (٦٠٣٨/١).

(١) هو: طريف العنبري.

فتوسَّمُونِي إنَّني أنَا ذَاكُمُ شاكٍ سِلاحي في الحوادثِ مُعْلَمُ[1]

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ﴾؛ أي: ظفركم بذات الشوكة أقطع لدابرهم.

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾؛ لما رأوا أنفسهم في قلة عدد استغاثوا فأمدهم الله بالملائكة.

قال الله -عز وجل-: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِن المَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ يقال: «رَدَفت الرجل» إذا ركبت خلفه، «وأَرْدَفته» إذا أركبته خلفي، ويقال: «هذه دآبة لا تُرَادِف»، ولا يقال: «لا تُرْدَف»، ويقال: «أَرْدَفت الرجل» إذا جئت بعده.

فمعنى ﴿مُرْدِفِينَ﴾ يأتون فرقة بعد فرقة، ويقرأ «مُرْدَفِين»، ويجوز في اللغة: «مُرِدِّفين»، ويجوز: «مُرِدِّفين ومُرَدِّفين». ويجوز في الراء مع تشديد الدال: كسرها وفتحها وضمها، والدال مشددة مكسورة على كل حال.

قال سيبويه: الأصل «مرتدفين» فأدغمت التاء في الدال فصارت «مردفين»، لأنك طرحت حركة التاء على الراء، قال: وإن شئت لم تطرح حركة التاء وكسرت الراء لالتقاء الساكنين، والذين ضموا الراء جعلوها تابعة لضمة الميم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى﴾؛ أي: ما جعل الله المدد إلا بشرى.

وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾؛ «إذ» موضعها نصب على معنى وما جعله الله إلا بشرى في ذلك الوقت، ويجوز على أن يكون: اذكروا إذ يغشيكم النعاس.

يقال: «نَعَس الرجل يَنْعَس نُعَاساً وهو نَاعِس»، وبعضهم يقول: «نَعْسان» ولكن لا أشتهيها.

و﴿أَمَنَةً﴾ منصوب مفعول له كقولك: فعلت ذلك حذر الشر.

والتأويل أن الله أمنهم أمنا حتى غشيهم النعاس لما وعدهم من النصر، يقال: «وقد أَمِنْتُ آمَنُ أَمْنَاً -بفتح الألف - وأَمَانا وأَمَنَةً».

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِن السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾؛ كان المشركون قد نزلوا على الماء وسبقوا المسلمين، ونزل المسلمون في رمل تسوخ فيه الأرجل، وأصابت بعضهم الجنابة، فوسوس لهم الشيطان بأن عدوهم يقدرون على الماء وهم لا يقدرون على الماء،

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/٣٣٦).

وخيل إليهم أن ذلك عون من الله لعدوهم، فأمطر الله المكان الذي كانوا فيه فتطهروا من الماء، واستوت الأرض التي كانوا عليها حتى أمكن الوقوف فيها والتصرف، وهذا من آيات الله -جل ثناؤه- التي تدل على النبوة للنبي ﷺ.

وأمر بدر كان من أعظم الآيات لأن عدد المسلمين كان قليلاً جداً، وكانوا رجالة فأيدهم الله، وكان المشركون أضعافهم، وأمدهم الله بالملائكة، قال بعضهم: كان الملائكة خمسة الآف، وقال بعضهم: تسعة الآف.

وقوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾؛ أي: وساوسه وخطاياه.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾؛ أي: يثبت بالماء الذي أنزله على الرمل حتى استوى، وجائز أن يكون زين به للربط على قلوبهم، فيكون المعنى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ﴾ بالربط ﴿الأَقْدَامَ﴾.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾؛ «إذ» في موضع نصب على «وليربط إذ يوحي» ويجوز أن يكون على «اذكروا».

﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ جائز أن يكون أنهم يثبتوهم بأشياء يلقونها في قلوبهم تقوى بها، وجائز أن يكونوا يرونهم مدداً، فإذا عاينوا نصر الملائكة ثبتوا.

وقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ أباحهم الله قتلهم بكل نوع في الحرب ؟ واحد «البنان»: «بنانة»، ومعناه: ههنا الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء.

وإنما اشتقاق «البنان» من قولهم: «أبن بالمكان» إذا أقام به، فالبناء به يعتمل كل ما يكون للإقامة والحياة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾.

﴿شَاقُّوا﴾ جانبوا، صاروا في شق غير شق المؤمنين، مثل شاقوا جانبوا وحازبوا وحاربوا.

معنى حازبوا صار هؤلاء حزباً وهؤلاء حزباً.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾؛ «يُشَاقِقِ ويُشَاقِ» جميعاً، إلا أنها ههنا ﴿يُشَاقِقِ﴾، بإظهار التضعيف مع الجزم وهي لغة أهل الحجاز، وغيرهم يدغم، فإذا أدغمت قلت: «من يشاق زيداً أهنه»، بفتح القاف، لأن القافين ساكنتان فحركت الثانية بالفتح لالتقاء الساكنين، ولأن قبلها ألفاً، وإن شئت كسرت فقلت: «يشاق زيداً»، كسرت

القاف لأن أصل التقاء الساكنين الكسر. فإذا استقبلتها ألف ولام اخترت الكسر فقلت: ((ومن يشاق الله)). ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً﴾؛ يقال: ((أَزْحَفْتُ للقوم)) إذا ثبت لهم؛ فالمعنى: إذا واقفتموهم للقتال.

﴿فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾؛أي: لا تهزموا حتى تدبروا.

وقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً﴾؛ يعني يوم حربهم.

﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفاً﴾ منصوب على الحال، ويجوز أن يكون النصب في ((متحرف، ومتحيز)) على الاستثناء، أي: إلا رجلاً متحيزاً، أي: يكون منفرداً فينحاز ليكون مع المقاتلة.

وأصل ((متحيز)): ((مُتَحَيوز)) فأدغمت الياء في الواو.

وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾؛ ويقرأ: ﴿وَلَكِنْ اللهُ قَتَلَهُمْ﴾ فمن شدد نصب لنصب ((إن))، ومن خفف أبطل عملها ورفع قوله: ﴿اللهُ﴾ بالابتداء.

أضاف الله قتلهم إليه، لأنه هو الذي تولى نصرهم، وأظهر في ذلك الآيات المعجزات.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾؛ ليس هذا نفي رمي النبي ﷺ ولكن العرب خوطبت بما تعقل.

ويروى أن النبي ﷺ قال لأبي بكر الصديق: ((ناولني كفاً من بطحاء))، فناوله كفاً فرمي بها فلم يبق منهم أحد -أعني من العدو- إلا شغل بعينه فأعلم الله -جل وعز- أن كفاً من تراب أو حصى لا يملأ عيون ذلك الجيش الكثير برمية بشر، وأنه -عز وجل- تولى إيصال ذلك إلى أبصارهم، فقال -عز وجل-: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أي: لم يصب رميك ذاك ويبلغ ذلك المبلغ بك، إنما الله -عز وجل- تولى ذلك، فهذا مجاز ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾؛ أي: لينصرهم نصراً جميلاً، ويختبرهم بالتي هي أحسن.

ومعنى ((يبليهم ههنا)): يسدي إليهم.

وقوله -جل وعز-: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ﴾؛ بتشديد الهاء والنصب في ((كيد)) ويجوز الجر في ﴿كَيْدِ﴾ وإضافة ﴿مُوهِنُ﴾ إليه؛ ففيه أربعة أوجه: في النصب

وجهان، وفي الجر وجهان.

وموضع ﴿ذَلِكُمْ﴾ رفع؛ المعنى: الأمر ذلكم وأن الله، والأمر أن الله موهن.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾؛ موضع ﴿ذَلِكُمْ﴾ رفع على إضمار الأمر.

المعنى: الأمر ذلكم فذوقوه، فمن قال: إنه يرفع ﴿ذَلِكُمْ﴾ بما عاد عليه من الهاء أو بالابتداء وجعل الخبر ﴿فَذُوقُوهُ﴾، فقد أخطأ من قال إن ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدأ. لا يجوز: «زيد فمنطلق، ولا زيد فأضربه»، إلا أن تضمر «هذا» تريد هذا زيد فاضربه، قال الشاعر:

وقَائِلَة خَوْلانُ فَانْكِح فَتَاتَهُم وَأَكْرُومَةُ الْحَيَّينِ خَلْوٌ كَمَا هِيَا[1]

وذكر بعضهم: أن تكون في موضع نصب على إضمار واعلموا أن للكافرين عذاب النار. ويلزم على هذا أن يقال: «زيد منطلق وعمراً قائماً»، على معنى: واعلم عمراً قائماً، بل يلزمه أن يقول: «عمراً منطلقاً»، لأن المخبر معلم، ولكنه لم يجز إضمار أعلم ههنا، لأن كل كلام يخبر به أو يستخبر فيه فأنت معلم به. فاستغني عن إظهار العلم وإضماره.

وهذا القول لم يقله أحد من النحويين.

وقوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾؛ معناه: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، ويجوز أن يكون معناه: إن تستحكموا فقد جاءكم الحكم. وقد أتى التفسير بالمعنيين جميعاً.

رووا أن أبا جهل قال يوم بدر: «اللهم أقطعنا للرحم، وأفسدنا للجماعة فأحنه اليوم» فسأل الله أن يحكم بحين من كان كذلك، فنصر النبي ﷺ ونال الحين أبا جهل وأصحابه، فقال الله -جل وعز-: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ أي: إن استقاضوا فقد جاءكم القضاء.

وقيل إنه قال: «اللهم انصر أحب الفئتين إليك»، فهذا يدل على أن معناه: إن تستنصروا. وكلا الوجهين جيد.

وقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾؛ يعنى به الذين قالوا: قد

---

(١) انظر: فتح القدير (١٢١/٤)، وروح المعاني (٧٦/١٨)، والكشاف (٧٣٧/١)، والتحرير والتنوير (٣٠٩/١)، وأوضح المسالك (١٦٣/٢)، ومغني اللبيب (٦٢٨/١)، والمستقصى في أمثال العرب (٣٤٣/٢)، ولسان العرب (٢٣٧/١٤).

سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا.

فسماهم الله -جل ثناؤه- لا يسمعون، لأنهم استمعوا استماع عداوة وبغضاء، فلم يتفهموا، ولم يتفكروا، فكانوا بمنزلة من لم يسمع.

وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾؛ يعنى به هؤلاء الذين يسمعون ويفهمون فيكونون في ترك القبول بمنزلة من لم يسمع ولم يعقل.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾؛ أي: لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم جواب كل ما يسألون عنه.

ثم قال -جل وعز-: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ أي: لو بين لهم كل ما يعتلج في نفوسهم لتولوا وهم معرضون لمعاداتهم.

وقوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؛ أي: لما يكون سبباً للحياة وهو العلم. وجائز أن يكون لما يكون سبباً للحياة الدائمة، في نعيم الآخرة.

ومعنى ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ في معنى: «أجيبوا». قال الشاعر[1] [من الطويل]:

وَداعٍ دعا هَل مَن يُجيبُ إِلى النَّدى   فَلَم يَستَجِبهُ عِندَ ذاكَ مُجيبُ

أي: فلم يجبه.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ قيل فيه ثلاثة أقوال:

قال بعضهم: يحول بين المؤمن والكفر، ويحول بين الكافر والإيمان بالموت، أي: يحول بين الإنسان وما يسوف به نفسه بالموت، وقيل: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾؛ معناه: واعلموا أن الله مع المرء في القرب بهذه المنزلة. كما قال: -جل وعز-: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦]، وقيل: إنهم كانوا يفكرون في كثرة عدوهم وقلة عددهم فيدخل في قلوبهم الخوف، فأعلم الله -جل ثناؤه- أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله بالخوف الأمن، ويبدل عدوهم -بظنهم أنهم قادرون عليه- الجبن والخور.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾؛ أي: اتقوا أن يبدل الظالمون بنقمة من الله.

يعني بهذا مردة المنافقين الذين كانوا يصدون عن الإيمان بالله.

وزعم بعض النحويين: أن الكلام جزاء، فيه طرف من النهي، فإذا قلت: انزل عن

(١) هو: كعب بن سعد الغنوي.

الدابة لا تطرحك ولا تطرحنك، فهذا جواب الأمر بلفظ النهي؛ فالمعنى: إن تنزل عنها لا تطرحك فإذا أتيت بالنون الخفيفة أو الثقيلة كان أوكد للكلام، ومثله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ إنها أمرت بالدخول ثم نهتهم أن يحطمهم سليمان فقالت: ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[النمل: ١٨]. فلفظ النهي لنفسك ومعناه: «لا تكونن ههنا فإني أراك».

وقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾؛ المعنى: واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا.

فأذكره الله -جل ثناؤه- نعمة ما أنعم عليه من النصر والظفر يوم بدر ذلك فقال ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: اذكر تلك الخلال.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾؛ لأن مكر الله إنما هو مجازاة ونصر للمؤمنين، فالله خير الماكرين.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ وقد دعوا بأن يأتوا بسورة واحدة من مثل القرآن فلم يأتوا.

وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ واحدتها «أُسطورة»، يعنون ما سطره الأولون من الأكاذيب.

ثم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾؛ القراءة على نصب «الحق» على خبر «كان» ودخلت «هو» للفصل. وقد شرحنا هذا فيما سلف من الكتاب.

واعلم أن «هو» لا موضع لها في قولنا، وأنها بمنزلة «ما» المؤكدة، ودخلت ليعلم أن الحق ليس بصفة لهذا أو أنه خبر، ويجوز: «هو الحقُّ من عندك» ولا أعلم أحداً قرأ بها. ولا اختلاف بين النحويين في إجازتها، ولكن القراءة سنة لا يقرأ فيها إلا القراءة المروية.

وقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِن السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ المعنى: واذكر إذ قالوا هذا القول، وقالوا على وجه الدفع له وقالوه، والنبي ﷺ بين أظهرهم. فأعلم الله أنه لم يكن ليعذبهم ورسوله بين أظهرهم.

فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: ما كان الله ليعذبهم ومنهم من يؤول أمره إلى الإسلام.

قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾؛ المعنى: أي شيء لهم في ترك العذاب، أي: في دفعه عنهم.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾؛ المعنى: وهم يصدون عن المسجد الحرام أولياءه وما كانوا أولياءه.

﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ المُتَّقُونَ﴾؛ المعنى: ما أولياؤه إلا المتقون.

فأعلم الله النبي ﷺ أنه لم يكن ليعذبهم بالعذاب الذي وقع بهم من القتل والسبي وهو بين أظهرهم، ولا ليوقع ذلك العذاب بمن يؤول أمره إلى الإسلام منهم، وأعلمه أنه لا يدفع العذاب عن جملتهم الذي أوقعه بهم، ثم أعلم أنهم ما كانوا مع صدهم أولياء المسجد الحرام وأولياء الله، أنهم إنما كان تقربهم إلى الله -جل وعز- بالصفير والتصفيق فقال -جل وعز-: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ البَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

فالمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾؛ أي: ليميز ما أنفقه المؤمنون في طاعة الله مما أنفقه المشركون في معصية الله.

﴿وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً﴾؛ والرَّكْمُ: أن يجعل بعض الشيء على بعض، ويقال: «رَكَمتُ الشيء أَرْكُمه رَكْماً»، والركام الاسم.

﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾؛ أي: يجعل بعض ما أنفقه المشركون على بعض، ويجعل عليهم في النار، فيكون مما يعذبون به، كما قال -جل وعز-: ﴿فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: حتى لا يفتن الناس فتنة كفر، ويدل على معنى فتنة كفر قوله -عز وجل-: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ﴾؛ المعنى: فإن أقاموا على كفرهم وعدوانهم فاعلموا أن الله مولاكم، أي: هو المولى لكم، فلا تضركم معاداتهم.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

كثر اختلاف الناس في تأويل هذه الآية والعمل بها وجملتها أنها مالٌ من الأموال التي فرض الله -جل ثناؤه- فيها الفروض، والأموال التي جرى فيها ذكر الفروض للفقراء والمساكين ومن أشبههم ثلاثة أصناف، سمى الله كل صنف منها.

فسمى ما كان من الأموال التي يأخذها المسلمون من المشركين في حال الحرب «أنفالاً وغنائم».

وسمى ما صار إلى المسلمين مما لم يؤخذ في الحرب من الخراج والجزية «فيئاً».

وسمى ما خرج من أموال المسلمين كالزكاة، وما نذروا من نذر، وتقربوا به إلى الله -جل وعز- «صدقة».

فهذه جملة تسمية الأموال.

ونحن نبين في هذه الآية ما قاله جمهور الفقهاء وما توجبه اللغة إن شاء الله.

قال أبو إسحاق: أجمعت الفقهاء أن أربعة أخماس الغنيمة لأهل الحرب خاصة، والخمس الذي سمي في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى آخر الآية في الاختلاف.

فأما الشافعي فذكر أن هذا الخمس مقسوم على ما سمى الله -جل وعز- من أهل قسمته وجعل قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ افتتاح كلام.

قال أبو إسحاق: وأحسب معنى «افتتاح كلام» عنده في هذا أن الأشياء كلها لله -عز وجل-، فابتدأ وافتتح الكلام.

فإن قال قائل: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ كما قال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[الأنفال: ١].

ثم قسم هذا الخمس على خمسة أنصباء، خمس للنبي ﷺ، وخمس ليتامى المسلمين لا ليتامى آل النبي ﷺ، وخمس في المساكين، مساكين المسلمين لا مساكين النبي ﷺ، وخمس لابن السبيل، ولا يرى الشافعي أن يترك صنفاً من هذه الأصناف بغير حظ في القسمة.

قال أبو إسحاق: وبلغني أنه يرى أن يفضل بعضهم على بعض على قدر الحاجة، ويرى في سهم الرسول أن يصرف إلى ما كان النبي ﷺ يصرفه فيه، والذي روي أنه كان يصرف الخمس في عدد للمسلمين نحو: اتخاذ السلاح الذي تقوى به شوكتهم. فهذا مذهب الشافعي وهو على لفظ ما في الكتاب.

فأما أبو حنيفة ومن قال بقوله فيقسم هذا الخمس على ثلاثة أصناف، يسقط ما للرسول من القسمة، وما لذوي القربى، وحجته في هذا أن أبا بكر وعمر لم يعطيا سهم ذوي القربى، وأن سهم النبي ﷺ ذهب بوفاته، لأن الأنبياء لا تورث. فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل على قدر حاجة كل فريق منهم يعطي بعضاً دون بعض منهم خاصة، إلا أنه لا يخرج القسم عن هؤلاء الثلاثة.

وأما مذهب مالك فيُروى أن قوله في هذا الخمس، وفي الفيء أنه إنما ذكر هؤلاء المسمون لأنهم من أهم من يدفع إليهم، فهو يجيز أن يقسم بينهم، ويجيز أن يعطي بعضاً دون بعض، ويجوز أن يخرجهم من القسم إن كان أمر غيرهم أهم من أمرهم، فيفعل هذا على قدر الحاجة.

وحجته في هذا أن أمر الصدقات لم يزل يجري في الاستعمال على ما يراه الناس. وقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[التوبة: ٦٠]. فلو أن رجلاً وجبت عليه خمسة دراهم لأخرجها إلى صنف من هذه، أو إلى ما شاء من هذه الأصناف، ولو كان ذكر التسمية يوجب الحق للجماعة لما جاز أن يخص واحد دون غيره، ولا أن ينقص واحد مما يعطي غيره.

قال أبو إسحاق: من حجج مالك في أن ذكر هؤلاء إنما وقع للخصوص قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[البقرة: ٩٨]. فذكر جملة الملائكة، فقد دخل جبريل وميكال في الجملة وذكرا بأسمائهم لخصوصها، وكذلك ذكر هؤلاء في القسمة والفيء والصدقة، لأنهم من أهم من يصرف إليه الأموال من البر والصدقة.

قال أبو إسحاق: ومن الحجة لمالك أيضاً قول الله -عز وجل-: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم من خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥]، فللرجل أن ينفق في البر على هذه الأصناف وعلى صنف منها، وله أن يخرج عن هذه الأصناف، لا اختلاف بين الناس في ذلك.

قال أبو إسحاق: هذا جملة ما علمناه من أقوال الفقهاء في هذه الآية.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾؛ يجوز أن يكون ﴿إِن كُنتُمْ﴾ معلقة بقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.... ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ فأيقنوا أن الله نصركم إذ كنتم قد شاهدتم من نصره ما شاهدتم.

ويجوز أن يكون ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ معناها: اعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول يأمران فيه بما يريدان إن كنتم آمنتم بالله فاقبلوا ما أمرتم به في الغنيمة.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؛ هو يوم بدر، لأن الله -عز وجل- أظهر فيه من نصره بإرداف الملائكة والإمداد بهم للمسلمين ما كان فيه فرقان بين الحق والباطل.

ثم أكد التبين في ذلك فقال -عز وجل-: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾؛ أي: الدنيا منكم، والعُدوة شفير الوادي، يقال: عِدوة، وعُدوة وعدى الوادي -مقصور-.

فالمعنى: إذ أنتم بالعدوة الدنيا، أي: بشفير الوادي الذي يلي المدينة.

﴿وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾؛ بشفير الوادي الذي يلي مكة.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ الركب العير التي كان فيها أبو سفيان على شاطئ البحر.

فأعلم الله -جل وعز- أن نصر المؤمنين وهم في هذا الموضع فرقان.

قال أبو إسحاق: قد بينا أنه كان رملاً تسوخ فيه الأرجل، ولم يكونوا على ماء، وكان المشركون نازلين على موضع فيه الماء، وهم مع ذلك يُحَامُونَ عن العير فهو أشد لشوكتهم، فجعل الله -جل وعز- النصر في هذه الحال، مع قلة عدد المسلمين وكثرة عدد المشركين وشدة شوكتهم، فرقاناً.

ويجوز في قوله: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وجهان:

الوجه أن تنصب ﴿أَسْفَلَ﴾، وعليه القراءة، ويجوز أن ترفع «أسفل» على أنك تريد والركب أسفل منكم أي: أشد تسفلاً. ومن نصب أراد والركب مكاناً أسفل منكم.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾؛ جعل الله -عز وجل- القاصد للحق بمنزلة الحي، وجعل الضال بمنزلة الهالك، ويجوز «حيي» بياءين، و«حي» بياء مشددة مدغمة، وقد قرئ بهما جميعاً.

فأما الخليل وسيبويه فيجيزان الإدغام والإظهار إذا كانت الحركة في الثاني لازمة، فأما من أدغم فلاجتماع حرفين من جنس واحد. وأما من أظهر فلأن الحرف الثاني ينتقل عن لفظ الياء، تقول: «حيي يحيا، والمحيا والممات» فعلى هذا يجوز الإظهار.

فأما قوله -عز وجل-: ﴿هُو يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[القيامة: ٤٠] فلا يجوز فيه عند جميع البصريين إلا: «يحيي» بياءين ظاهرتين وأجاز بعضهم. «يحي» بياء واحدة مشددة مدغمة، وذكر أن بعضهم أنشد:

وكأنها بين النساء سبيكة   تمشي بسدة بيتها فتعي

ولو كان هذا المنشد المستشهد أعلمنا من هذا الشاعر، ومن أي القبائل هو وهل هو ممن يؤخذ بشعره أم لا ؟ ما كان يضره ذلك. وليس ينبغي أن يحمل كتاب الله على «أنشدني بعضهم» ولا على بيت شاذ لو عرف قائله وكان ممن يؤخذ بقوله لم يجز.

وهذا عندنا لا يجوز في كلام ولا شعر، لأن الحرف الثاني إذا كان يسكن من غير المعتل نحو: «لم يود» فالاختيار إظهار التضعيف، فكيف إذا كان من المعتل.

وقوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾؛ رويت عن الحسن أن معناها في عينك التي تنام بها.

وكثير من أصحاب النحو يذهبون إلى هذا المذهب، ومعناه عندهم: إذ يريكهم الله في موضع منامك أي: نعينك ثم حذف الموضع، وأقام المقام مكانه، وهذا مذهب حسن.

ولكنه قد جاء في التفسير أن النبي ﷺ رآهم في النوم قليلاً، وقص الرؤيا على أصحابه فقالوا: «صدقت رؤياك يا رسول الله»، وهذا المذهب أسوغ في العربية، لأنه قد جاء: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾[الأنفال: ٤٤]، فدل بهذا أن هذا رؤية الالتقاء، وأن تلك رؤية النوم.

ويجوز على هذا المذهب الأول أن يكون الخطاب الأول للنبي ﷺ وأن الخطاب الثاني لجميع من شاهد الحرب وللنبي ﷺ.

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾؛ أي: لتأخرتم عن حربهم وَكِعْتُم وجبنتم، يقال: «فشِل فَشَلاً» إذا جبن وهاب أن يتقدم.

وقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ عنى أن هؤلاء لا يؤمنون أبداً، كما قال لنوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[هود: ٣٦].

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ معناه: افعل بهم فعلا من القتل تفرق به من خلفهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾؛ معناه: تصادفنهم وتلقينهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾؛ أي: نقضاً للعهد.

﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ أي: انبذ عهدهم الذي عاهدتهم عليه أي: ارم به.

﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ أي: لتكون وهم سواء في العداوة.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾؛ أي: الذين يخونون في عهدهم وغيره.

وقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ معناه: عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون في كفرهم، فجوزي هؤلاء بالقتل والسبي كما جوزي آل فرعون بالإغراق والإهلاك، كذا قال بعض أهل اللغة في «الدأب» أنه العادة.

وقال أبو إسحاق: وحقيقة «الدأب»: إدامة العمل، تقول: «فلان يدأب في كذا وكذا» أي: يداوم عليه ويواظب ويتعب نفسه فيه. هذا التفسير معنى العادة إلا أن هذا أبين وأكشف.

وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ موضع «إذ» نصب.

المعنى: اذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم.

﴿وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾؛ تمثل لهم إبليس في صورة رجل يقال له سراقة بن مالك بن جعشم من كنانة، وقال لهم: لن يغلبكم أحد، وأنا جار لكم من بني كنانة.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ﴾؛ توافقت حتى رأت كل واحدة الأخرى، فبصر إبليس بالملائكة تنزل من السماء فنكص على عقبيه.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ﴾؛ وذلك أنه عنف لهربه، فقال:

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾.

ومعنى «نكَص» رجع بخزي، فإن قال قائل: كيف يقول إبليس: إني أخاف الله وهو كافر ؟ فالجواب في ذلك: أنه ظن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر.

وقوله: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾؛ معناها: لا يحسبن من أفلت من هذه الحرب قد سبق إلى الحياة. والقراءة الجيدة: «لا تحسبن» بالتاء على مخاطبة النبي ﷺ وتكون «تحسبن» عاملة في الذين، ويكون «سبقوا» الخبر.

ويجوز فتح السين وكسرها.

وقد قرأ بعض القراء، ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالياء ووجهها ضعيف عند أهل العربية إلا أنها جائزة على أن يكون المعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، لأنها في حرف ابن مسعود أنهم سبقوا، فإذا كانت كذلك فهو بمنزلة قولك: «حسبت أن أقوم وحسبت أقوم» على حذف «أن»، وتكون «أقوم وقام» تنوب عن الاسم والخبر كما أنك إذا قلت: «ظننت لزيد خير منك». فقد نابت الجملة عن اسم الظن وخبره وفيها وجه آخر : ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا.

ويجوز فيها أوجه لم يقرأ بها، يجوز «ولا يُحسَبن الذين كفروا سبقوا» و«لا يَحسُبُن الذين كفروا»، أي: لا يحسب المؤمنون الذين كفروا سبقوا.

ولكن القراءة سنة، لا يقرأ إلا بما قرأت به القراء.

ويجوز: «إنهم» بكسر «إن»، ويجوز «أنهم»، فيكون المعنى: ولا يحسبن الذين كفروا أنهم يعجزون، ويكون «أن» بدلاً من «سبقوا».

قال أبو إسحاق: هذا الوجه ضعيف، لأن «لا» لا تكون لغواً في موضع يجوز أن تقع فيه غير لغو.

وقوله: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ فتح النون الاختيار، ويجوز كسرها على أن يكون المعنى: أنهم لا يعجزونني، بحذف النون الأولى لاجتماع النون. قال الشاعر[١] [من الوافر]:

تَراه كالثغام يعلّ مسكا يَسوء الفاليات إذا فليني[٢]

يريد: فلينني.

وقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾. «آخرين» عطف على قوله ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أي: وترهبون آخرين من دونهم.

وقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾؛ السَّلْم: الصلح والمسالمة، يقال: «سِلْم وسَلْم وسَلَم» في معنى واحد، أي: أن مالوا إلى الصلح فمل إليه.

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾؛ أي: إن أرادوا بإظهار الصلح خديعتك.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾؛ أي: فإن الذي يتولى كفايتك الله.

﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ موضع «من» نصب ورفع، أما من نصب فعلى تأويل الكاف.

المعنى: فإن الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين، ومن رفع فعلى العطف على «الله»؛ والمعنى: فإن حسبك الله وتباعك من المؤمنين.

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾؛ ومعنى «أيدك» قواك.

﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: جمعهم على المودة على الإيمان.

وقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أعلم الله -جل وعز- أن تأليف قلوب المؤمنين من الآيات العظام وذلك أن النبي ﷺ بعث إلى قوم أنفتهم شديدة، ونصرة بعضهم بعضاً ومعاونته أبلغ نصرة ومعاونة، وكان يلطم من القبيلة لطمة

---

(١) هو: عمرو الزبيدي.

(٢) مر ذكره.

فيقاتل عنه حتى يدرك ثاره، فألف الإيمان بين قلوبهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه وابنه، فأعلم الله -عز وجل- أن هذا ما تولاه منهم إلا هو.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾؛ تأويله: حثهم على القتال.

وتأويل «التحريض» في اللغة : أن يحث الإنسان على الشيء حثاً يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، والحارض الذي قد قارب الهلاك، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي: حتى تذوب غمًّا فتقارب الهلاك فتكون من الهالكين.

وقوله: ﴿إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾؛ لا يجوز إلا الكسر في العين.

وزعم أهل اللغة: أن «أول عشرين» كُسر كما كُسر «أول اثنين»، لأن عشرين من عشرة مثل اثنين من واحد. ودليلهم على ذلك فتحهم «ثلاثين» كفتح «ثلاثة»، وكسرة «تسعين» ككسرة «تسعة».

وقوله: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾؛ قرئت على ثلاثة أوجه:

قرئت «ضَعفاً» بفتح الضاد، و «ضُعفا» بضم الضاد؛ والمعنى واحد، يقال: «هو الضَعف والضُّعف، والْمَكْث والْمُكث، والفَقْر والفُقْر» وباب «فَعْل وفُعْل» بمعنى واحد في اللغة كثير.

وقرأ بعض الشيخة: «وعلم أن فيكم ضعفاء» على «فعلاء»، على جمع: «ضعيف وضعفاء» ولم يصرف ولم ينون لأن فعلاء في آخرها ألف التأنيث.

﴿فَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾؛ وقرئت «فإن تكن» بالتاء، فمن أنث فلأن لفظ المائة مؤنث، ومن ذكر فلأن المائة وقعت على عدد مذكر.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾؛ ويقرأ «أُسَارى»، فمن قرأ ﴿أَسْرَى﴾ فهو جمع: «أسير وأسرى».

وفعلى جمع لكل ما أصيبوا به في أبدانهم وعقولهم، يقال: «هالك وهلكى، ومريض ومرضى، وأحمق وحمقى، وسكران وسكرى».

ومن قرأ «أُسَارى» فهو جمع الجمع، تقول: «أسير وأُسَارى».

قال أبو إسحاق: ولا أعلم أحداً قرأها «أسارى». وهي جائزة ولا تقرأن بها إلا أن تثبت رواية صحيحة.

﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾؛ معناه: حتى يبالغ في قتل أعدائه، ويجوز أن يكون حتى

يتمكن في الأرض.

والإثخان في كل شيء: قوة الشيء وشدته، يقال: قد أثخنته.

معنى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾؛ أي: بعضهم في المواريث أولى ببعض.

وهذه المواريث في الولاية بالهجرة منسوخة، ونسخها ما في سورة النساء من الفرائض.

وقوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ معناه: تذهب صولتكم وقوتكم، ويقال في الدُّوَلِ: «الرِّيح مع فلان»، أي: الدولة.

* * *

سورة براءة (١)

قوله -جل وعز- ﴿بَرَاءَةٌ مِن اللهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ سئل أبي بن كعب: «ما بال براءة لم تفتح ببسم الله الرحمن الرحيم ؟».

فقال: لأنها نزلت في آخر ما نزل من القرآن، وكان رسول الله ﷺ يأمر في أول كل سورة بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، ولم يأمر في سورة براءة بذلك فضمت إلى سورة

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة براءة أو التوبة من سور القرآن الكريم المدنية، ترتيبها في المصحف الشريف التاسعة. عدد آياتها تسع وعشرون ومائة آية. جاءت تسميتها التوبة لأنّ فيها التوبة على المؤمنين.

هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تُعنَى بجانب التشريع، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، روى البخاري عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت سورة براءة.

اهتمت هذه السورة ببيان التشريع الإسلامي في معاملة المشركين، وأهل الكتاب، حيث عرضت إلى عهود المشركين فوضعت حدًا، ومنعت حجّ المشركين لبيت الله الحرام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾[التوبة: ٢٨].

وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في الجزيرة العربية، وإباحة التعامل معهم، وقد كان بين النبي ﷺ، والمشركين عهود ومواثيق، كما كان بينه وبين أهل الكتاب عهود أيضًا، ولكن المشركين نقضوا العهود وتآمروا مع اليهود عدة مرات على حرب المسلمين، وخانت طوائف اليهود: بنو النضير وبنو قريظة، وبنو قينقاع، ماعاهدوا عليه رسول الله ﷺ، ونقضوا عهودهم مرات ومرات، فنزلت السورة الكريمة بإلغاء تلك العهود ونبذها إليهم على وضوح وبصيرة، لأن الناكثين لا يتورعون عن الخيانة كلّما سنحت لهم الفرصة.

ثم أمر بقتالهم ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩].

ثم تعرضت السورة لشرح نفسيات المسلمين، وتحدثت عن المتثاقلين منهم والمتخلفين، والمثبّطين حين دعاهم الرسول ﷺ لغزو الروم في غزوة تبوك، وكشفت السورة الغطاء عن فتن المنافقين، باعتبارهم خطرًا داهمًا على الإسلام والمسلمين، وفضحت أساليب نفاقهم، وألوان فتنتهم وتخذيلهم للمؤمنين. حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته، ولا دخيلة إلا كشفتها، وتركتهم بعد هذا الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين. وقد استغرق الحديث عنهم معظم السورة من الآية الثانية والأربعين حتى الآية العاشرة والمائة ولهذا سمّاها بعض الصحابة الفاضحة. روي عن حذيفة ابن اليمان أنه قال إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب والله ما تركت أحدًا من المنافقين إلا نالت منه، وهذا هو السر في عدم وجود البسملة فيها، وهناك تفسيرات أخرى كثيرة غير ذلك. وقد أفاضت هذه السورة في تناول هؤلاء الأعداء المندسين بين صفوف المسلمين؛ ألا وهم المنافقون الذين هم أشدّ خطرًا من المشركين.

الأنفال لشبهها بها.

يعني أن أمر العهود مذكور في سورة الأنفال وهذه نزلت بنقض العهود فكانت ملتبسة بالأنفال في الشبه.

قال أبو إسحاق: أخبرنا بعض أصحابنا عن صاحبنا أبي العباس محمد بن يزيد المبرد أنه قال: لم تفتتح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، لأن «بسم الله» افتتاح للخير. وأول «براءة» وعيد ونقض عهود، فلذلك لم تفتتح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم».

و«براءة» في سنة تسع من الهجرة، وافتتحت مكة في سنة ثمان. وولي رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد للوقوف بالناس في الموسم، فاجتمع في تلك السنة في الموقف ومعالم الحج وأسبابه المسلمون والمشركون، فلما كان في سنة تسع ولى رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق الوقوف بالناس وأمر بتلاوة «براءة»، وولي تلاوتها عليا، وقال في ذلك: «لن يبلغ عني إلا رجل مني»، وذلك لأن العرب جرت عادتها في عقد عقودها ونقضها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها، فكان جائزاً أن يقول العرب إذا تلى عليها نقض العهد من الرسول: هذا خلاف ما نعرف فينا في نقض العهود، فأزاح رسول الله ﷺ هذه العلة، فتليت براءة في الموقف.

﴿بَرَاءَةٌ مِن اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِن الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قد برئ من إعطائهم العهود والوفاء لهم، ذلك أن نكثوا.

﴿بَرَاءَةٌ﴾ مرتفعة على وجهين؛ أحدهما: على خبر الابتداء، على معنى هذه الآيات براءة من الله ورسوله، وعلى الابتداء ويكون الخبر ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم﴾ لأن براءة موصولة بـ«مِن»، وصار كقولك: «القصد إلى زيد، والتبرؤ إليك»، وكلاهما جائز حسن، يقال: «بَرِئت من الرجل والدين بَراءة، وبرئت من المرض وبرأت أيضاً بُرْءًا».

وقد رووا: «برأت أَبْرُؤ بُرُوءًا»، ولم نجد فيما لامه همزة «فَعَلْت أَفْعُل»، نحو: «قَرَأت أَقْرَأ، وهَنَأت البعير أَهْنَؤ».

وقد استقصى العلماء باللغة هذا فلم يجدوه إلا في هذا الحرف.

ويقال: «بَرَيت القلم -وكل شيء نحته- أَبرِيه بَرْيًا»، غير مهموز، وكذلك: «بَرَاة السير» غير مهموز، و «البُرة»: حلقة من حديد في أنف الناقة، فإذا كانت من شعر فهي «خزامة».

والذي في أنف البعير من خشب يقال له: «الخشاش»، يقال: «أَبْرَيت الناقة أَبْريها

بَرَاء)) إذا جعلت لها بُرَة.

ولا يقال: إلا بالألف: ((أَبْرَيت))، ومن ((الخزامة: خَزَمْت)) بغير ألف، وكذلك من ((الْخِشاش: خَشَشْتُ))، و((البُرَة)): الخلخال من هذا، وتجمع ((البُرَة)) : ((بُرين والبُرِيّ)).

وقوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾؛ أي: اذهبوا، وأقبلوا وأدبروا أربعة أشهر.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾؛ أي: وإن أجلتم هذه الأربعة الأشهر فلن تفوتوا الله ﴿وَأَنَّ الله مُخْزِي الكَافِرِينَ﴾.

الأجود فتح ((أَ))[1] على معنى: اعلموا أن الله مخزي الكافرين، ويجوز كسرها على معنى الاستئناف، وهذا ضمان من الله -عز وجل- بنصره المؤمنين على الكافرين.

﴿وَأَذَانٌ مِن الله وَرَسُولِهِ﴾؛ عطف على ﴿بَرَاءَةٌ﴾ ومعناه: وإعلان من الله ورسوله، يقال: ((آذنته بالشيء)) إذا أعلمته به.

﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ الله بَرِيءٌ مِن المُشْرِكِينَ﴾؛ قيل: يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة، ((والحج الأكبر)): الوقوف بعرفة، وقيل ((الحج الأصغر)): العمرة.

والإجماع أنه من فاته عرفة فقد فاته الحج، وقال بعضهم: إنما سمي يوم الحج الأكبر لأنه اتفقت فيه أعياد أهل الملة، كان اتفق في ذلك اليوم عيد النصارى واليهود والمجوس، وهذا لا يسمي به يوم الحج الأكبر، لأنه أعياد غير المسلمين، إنما فيها تعظم كفر بالله، فليست من الحج الأكبر في شيء.

إجماع المسلمين على أن الوقوف بعرفة أكبر الحج.

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِن المُشْرِكِينَ﴾؛ ((الذين)) في موضع نصب، أي: وقعت البراءة من المعاهدين الناقضين للعهود.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِن المُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾؛ أي: ليسوا داخلين في البراءة ما لم ينقضوا العهود.

وقوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾؛

أي: اقتلوا هؤلاء الذين نقضوا العهد، ونقض عهدهم وأحلوا هذه المدة.

ويقال: إن الأربعة الأشهر كانت عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيعاً

---

(١) كذا بالأصل وهي همزة {أَنَّكُم}.

الأول، وعشراً من ربيع الآخر، لأن البراءة وقعت في يوم عرفة، فكان هذا الوقت ابتداء الأجل.

﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾؛ قال أبوعبيدة: المعنى: كل طريق.

قال أبوالحسن الأخفش: «على» محذوفة؛ المعنى: اقعدوا لهم على كل مرصد وأنشد:

نُغالي اللَّحمَ للأَضْيافِ نِيئاً ... ونُرْخِصُهُ إذا نَضِجَ القَدورُ[1]

المعنى: نغالي باللحم، فحذف الباء ههنا، وكذلك حذف «على».

قال أبو إسحاق: ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ ظرف، كقولك: «ذهبت مذهباً، وذهبت طريقاً، وذهبت كل طريق». فلست تحتاج أن تقول في هذا إلا ما تقوله في الظروف مثل: «خلف وأمام وقدام».

وقوله: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾؛ أي: إن تابوا وآمنوا فهم مثلكم، قد درأ عنهم إيمانهم وتوبتهم إثم كفرهم ونكثهم العهود.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾؛ المعنى: إن طلب منك أحد منهم أن تجيره من القتل إلى أن يسمع كلام الله، فأجره ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الأمر ذلك، أي: وجب أن يعرفوا وأن يجازوا وبجهلهم وبما يتبينون الإسلام.

وأما الإعراب في ﴿أَحَدٌ﴾ مع «إن» فالرفع بفعل مضمر الذي ظهر يفسره؛ المعنى: وإن استجارك أحد.

ومن زعم أنه يرفع «أحداً» بالابتداء فخطأ؛ لأن الجزاء لا يتخطى ما يرفع بالابتداء ويعمل فيما بعده.

فلو أظهرت المستقبل لقلت: «إن أحد يقم أكرمه» ولا يجوز: «إن يقم أحد زيد يقم». لا يجوز أن ترفع «زيداً» بفعل مضمر الذي ظهر يفسره ويجزم، وإنما جاز في «إن» لأن «إن» يلزمها الفعل، وجواب الجزاء يكون بالفعل وغيره، ولا يجوز أن تضمره وتجزم بعد المبتدأ، لأنك تقول ههنا: «إن تأتني فزيد يقوم»،

---

(١) مر ذكره.

فالموضع موضع ابتداء.

وإنما يجوز الفصل في باب «إن» لأن «إن» أم الجزاء، ولا تزول عنه إلى غيره، فأما أخواتها فلا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر.

قال عدي بن زيد:

فَمَتى وَاغل يَزرهم يحيُوه تعطِفُ عَليه كَأْس السَّاقِي[١]

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أي: ليس العهد إلا لهؤلاء الذين لم ينكثوا.

﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾؛ أي: ما أقاموا على الوفاء بعهدهم، وموضع «الذين» نصب بالاستثناء.

وقوله: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾؛ وحذف مع «كيف» جملة «يكون لهم عهد» لأنه قد ذكر قبل ذلك.

قال الشاعر[٢] يرثي أخا له مات:

وخَبَّرْتُمانِي أَنَّما المَوْتُ بالقُرَى فكَيْفَ وهاتا هَضْبَةٌ وقَلِيبُ[٣]

أي: فكيف مات وليس بقرية. ومثله قول الحطيئة [من الطويل]:

وَكَيفَ وَلَم أَعلَمهُمُ خَذَلوكُمُ عَلى مُعظَمٍ وَلا أَديمَكُمُ قَدّوا[٤]

أي: فكيف تلومونني على مدح قوم، وتذمونهم، واستغنى عن ذكر «ذلك» مع ذكر «فكيف»، لأنه قد جرى في القصيدة ما يدل على ما أضمر.

قال أبوعبيدة «الإِلُّ»: العهد، و«الذمة» ما يتذمم منه، وقال غيره: «الذمة»: العهد، وقيل في «الإلّ» غير قول:

قيل: «الإِلُّ» القرابة، وقيل: «الإِلُّ»: الحلف، وقيل: «الإِلُّ»: العهد، وقيل: «الإِلُّ»

---

(١) انظر: الأصول في النحو (٢/٢٣٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٦١٧)، واللباب علل البناء والإعراب (٢/٥٨)، ولسان العرب (١١/٧٣١).

(٢) هو: كعب بن سعد بن عقبة الغنوي.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٦/٣٢٤)، وتفسير البيضاوي (١/-١٣١)، وتفسير أبي السعود (٤/٤٦)، وزاد المسير (٣/٤٠١).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/٤٠١).

اسم من أسماء الله، وهذا عندنا ليس بالوجه لأن أسماء الله -جل وعز- معروفة معلومة كما سمعت في القرآن وتليت في الأخبار قال الله -جل وعز-: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠].

فالداعي يقول: يا الله، يا رحمن، يا رب، يا مؤمن، يا مهيمن.

ولم يسمع «يا إل» في الدعاء.

وحقيقة «الإل» عندي على ما توجبه اللغة تحديد الشيء فمن ذلك: «الإِلَّة»: الحربة لأنها محددة، ومن ذلك: «إذن مُؤَلَّلَة» إذا كانت محددة.

والأَل يُخرَجُ في جميع ما فسر من العهد والجوار على هذا، كذلك القرابة، فإذا قلت في العهد بينهما «إِلٌّ» فمعناه جوار يحاد الإنسان، وإذا قلته في القرابة فتأويله: القرابة الدانية التي تحاد الإنسان.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾؛ أي: رؤساء الكافرين وقادتهم، لأن الإمام متبع.

وهذه الآية توجب قتل الذمي إذا أظهر الطعن في الإسلام لأن العهد معقود عليه بألا يطعن، فإذا طعن فقد نكث.

وقوله: ﴿أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ فيها عند النحويين لغة واحدة: «أيمة» بهمزة وياء، والقراء يقرأون «أئمة» بهمزتين، و«أيمة» بهمزة وياء، فأما النحويون فلا يجيزون اجتماع الهمزتين ههنا، لأنهما لا يجتمعان في كلمة، ومن قرأ «أئمة» بهمزتين؛ فينبغي أن يقرأ: «يا بني أأدم»، والاجتماع أن آدم فيه همزة واحدة، فالاختلاف راجع إلى الإجماع، إلا أن النحويين بستصعبون هذه المسألة، ولهم فيها غير قول:

يقولون: إذا فضلنا رجلاً في الإمامة: «هذا أَوَمُّ من هذا»، ويقول بعضهم: «أَيَمُّ من هذا».

فالأصل في اللغة : «أأممة» لأنه جمع إمام، مثل: «مثال وأمثلة»، ولكن الميمين لما اجتمعتا ادغمت الأولى في الثانية وألغيت حركتها على الهمزة، فصار «أئمة»، فأبدل النحويون من الهمزة الياء.

ومن قال: «هذا أَيَمُّ من هذا» جعل هذه الهمزة كلما تحركت أبدل منها ياء.

قال أبو إسحاق: والذي قال: «هذا أَوَمُّ من هذا» كانت عنده أصلها «أأم»، فلم يمكنه

أن يبدل منها ألفاً لاجتماع الساكنين، فجعلها واواً مفتوحة، لأنه قال: إذا جمعت «آدم» قلت: «أوآدم».

وهذا هو القياس الذي جعلها ياء.

قال: قد صارت الياء في «أئمة» بدلاً لازماً.

وهذا مذهب الأخفش، والأول مذهب المازني.

قال أبو إسحاق: وأظنه أقيس الوجهين، أعني: هذا أَوَمُّ من هذا، فأما «أئمة» باجتماع الهمزتين، فليس من مذاهب أصحابنا، إلا ما يحكى عن ابن إسحاق فإنه كان يحب اجتماعهما وليس ذلك عندي جائزاً، لأن هذا الحرف في «أئمة» قد وقع فيه التضعيف والإدغام، فلما أدغم وقعت علة في الحرف، وطرحت حركته على الهمزة، فكان تركها دليلاً على أنها همزة قد وقع عليها حركة ما بعدها، وعلى هذا القياس يجوز: «هذا أَأَمُّ من هذا» والذي بدأنا به هو الاختيار من أن لا تجتمع همزتان.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾؛ وتقرأ: «لا إيمان لهم»، فمن قرأ: ﴿لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ بالفتح فقد وصفهم بالنكث في العهد، وهو أجود القراءتين، ومن قرأ «لا إيمان لهم» فقد وصفهم بالردة، أي: لا إسلام لهم.

ويجوز أن يكون نفي عنهم الإيمان لأنهم لم يؤمنوا، كما تقول: «لا علم لفلان».

ويجوز أن يكون ﴿لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ إذا كنتم أنتم أمنتموهم، فنقضوا هم عهدكم، فقد بطل الأمان الذي أعطيتموهم، أي: لا إيمان لهم: على «أمنته إيماناً» على المصدر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾؛ أي: ليرجي منهم الانتهاء، والنكث: النقض في كل شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً﴾؛ هذا على وجه التوبيخ، ومعناه: الحض على قتالهم.

وقيل في قوله: ﴿وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أنهم كانوا قاتلوا حلفاء الرسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؛ معناه: أتخشون أن ينالكم من قتالهم مكروه.

﴿فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾؛ أي: فمكروه عذاب الله أحق أن يخشى.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ أي: مصدقين بعقاب الله وثوابه.

وقوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ فيه دليل أنه اشتد غضبهم لله -عز وجل-، فوعد الله في هذه الآية النصر.

وفيها دليل على تثبيت النبوة، لأنه قال -عز وجل-: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

فوعدهم الله النصر ووفى به، ودل على صدق ما أتى به النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَن يَشَاءُ﴾؛ ليس بجواب لقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ ولكنه مستأنف، لأن «يتوب» ليس من جنس ما يجاب به ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾؛ الله -جل وعز- قد علم قبل أمرهم بالقتال من يقاتل ممن لا يقاتل ولكنه كان يعلم ذلك غيبا، فأراد العلم الذي يجازي عليه لأنه -جل وعز- إنما يجازي على ما عملوا.

وسورة «براءة» كانت تسمى «الحافرة»، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، وذلك أنه لما فرض القتال تبين المنافق من غيره، ومن يوالي المؤمنين ممن يوالي أعداءهم فقال -جل وعز-: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

والوليجة: البطانة، وهي مأخوذة من وَلَج الشيء، يَلِج إذا دخل. أي: ولم يتخذوا بينهم وبين الكافرين دخيلة مودة.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾.

﴿شَاهِدِينَ﴾ حال؛ المعنى: ما كانت لهم عمارة المسجد الحرام في حال إقرارهم بالكفر.

﴿أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ أي: كفرهم قد أذهب ثواب أعمالهم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾.

ولم يذكر الرسول في هذا، لأن فيه دليلا بقوله: ﴿وَأَقَامَ الصَّلاَةَ﴾ التي أتى بتحديدها الرسول.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ﴾؛ تأويله: لم يخف في باب الدين إلا الله.

﴿فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ عسى واجبة من الله.

وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ﴾؛المعنى: أجعلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة

المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد.

واختلف الناس في تفسير هذه الآية :

فقيل: إنه سأل المشركون اليهود فقالوا نحن سقاة الحاج وعمار المسجد الحرام. أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟. فقالت لهم اليهود عناداً للنبي ﷺ: أنتم أفضل.

وقيل: إنه تفاخر المسلمون المجاهدون والذين لم يهاجروا ولم يجاهدوا، فأعلم الله -جل وعز- أن المجاهدين والمهاجرين أعظم درجة عند الله، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ﴾.

﴿دَرَجَةً﴾ منصوب على التمييز؛ المعنى: أعظم من غيرهم درجة.

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ﴾؛ والفائز الذي يظفر بأمنيته من الخير.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾؛ أي: يعلمهم في الدنيا ما لهم في الآخرة.

وقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾؛ أي: وفي حنين، أي: ونصركم في يوم حنين، وحنين: اسم واد بين مكة والطائف.

وقوله: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في أمكنة، كقولك: «في مقامات».

تقول: «استوطن فلان بالمكان» إذا أقام فيه.

وزعم بعض النحويين أن ﴿مَوَاطِنَ﴾ لم ينصرف ههنا لأنه جمع؛ وأنها لا تجمع.

قال أبو إسحاق: وإنما لم تجمع لأنها لا تدخل عليها الألف والتاء، لا تقول «مواطنات»، ولا «حَدَائدات» إلا في شعر، وإنما سمع قول الخليل أنه جمع لا يكون على مثال الواحد، وتأويله عند الخليل أن الجموع أبداً تتناهى إليه فليس بعده جمع، لو كسرت أي: جمعت على التكسير «أقوال» فقلت: «أقاويل» لم يتهيأ لك أن تكسر «أقاويل»، ولكنك قد تقول: «أقاويلات» قال الشاعر:

* فَهُنَّ يَعْلُكْنَ حَدَائِدَاتِها *

وإنما لم ينصرف ﴿مَوَاطِنَ﴾ عند الخليل لأنه جمع وأنه ليس على مثال الواحد، ومعنى ليس على مثال الواحد، أي: ليس ألفاظ الواحد ما جاء على لفظه وأنه لا يجمع كما يجمع جمع تكسير.

ومعنى الآية : أن الله -جل وعز- أعلمهم أنه ليس بكثرتهم يغلبون وأنهم إنما يغلبون بنصر الله إياهم فقال -جل وعز-: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً﴾.

يروى أنهم كانوا اثني عشر ألفاً في ذلك اليوم، وقال بعضهم: كانوا عشرة ألآف فأعجبوا بكثرتهم، فجعل الله عقوبتهم على إعجابهم بالكثرة وقولهم: «لن نغلب اليوم من قلة» بان رعبهم حتى ولوا مدبرين، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب.

ثم أنزل الله عليهم السكينة حتى عادوا وظفروا فأراهم الله في ذلك اليوم من آياته ما زادهم تبيينا بنبوة النبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾؛ وقرئت: «مسجد الله»، فمن قرأ «مسجد الله» عني به المسجد الحرام ودخل معه غيره، كما تقول: ما أسهل على فلان إنفاق الدرهم والدينار، أي: هذ الجنس سهل عليه إنفاقه.

ويجوز أن يكون «مساجد الله» يعنى به المسجد الحرام، كما تقول إذا ركب الرجل الفرس، قد صار فلان يركب الخيل، فعلى هذا تجري الأسماء التي تعبر عن الأجناس.

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

يقال: لكل مستقذر نجس، فإذا ذكرت الرجس قلت: هو رجس نجس.

وهذا وقع في سنة تسع من الهجرة، أمر المسلمون بمنع المشركين من الحج وبقتلهم حيث ثقفوهم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾؛ كان لأهل مكة مكسبة، ورفق ممن كان يحج من المشركين، فأعلمهم الله أنه يعوضهم من ذلك.

و«العيلة»: الفقر، قال الشاعر(١) [من الوافر]:

وَما يَدري الفَقيرُ مَتى غِناهُ وَما يَدري الغَنِيُّ مَتى يُعيلُ(٢)

وقوله -جل وعز-: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ معناه: الذين لا يؤمنون بالله إيمان الموحدين، لأنهم أقروا بأن الله خالقهم، وأنه ولد. وأشرك المشركون معه الأصنام، فأعلم الله -عز وجل- أن هذا غير إيمان بالله، وأن إيمانهم بالبعث ليس على جهة إيماننا لأنهم لا يقرون بأن أهل الجنة

---

(١) هو: أحيحة بن الجلاح.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/٥٧٣)، وتفسير القرطبي (٨/٩٥)، وفتح القدير (١/٦٣١)، وزاد المسير (٣/٤١٨)، ولسان العرب (١١/٤٨٨)، وتاج العروس (١/٧٣٦٧).

يأكلون ويشربون وليس يقرون باليوم الآخر كما أعلم الله -جل وعز- وليس يدينون بدين الحق، فأمر الله بقتل الكافرين كافة إلا أن يعطوا الجزية عن يد، وفرض قبول الجزية من أهل الكتاب وهم النصارى واليهود.

وسن رسول الله ﷺ في المجوس والصابئين أن يجروا مجرى أهل الكتاب في قبول الجزية. فأما عبدة الأوثان من العرب فليس فيهم إلا القتل. وكذلك من غيرهم.

وقوله: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ قيل: معنى ﴿عَن يَدٍ﴾، عن ذل.

وقيل: ﴿عَن يَدٍ﴾ عن قهر وذل، كما تقول: «اليد في هذا لفلان». أي: الأمر النافذ لفلان.

وقيل ﴿عَن يَدٍ﴾ أي: عن إنعام عليهم بذلك، لأن قبول الجزية منهم وترك أنفسهم نعمة عليهم، ويد من المعروف جزيلة.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾؛ قرئت ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين وبغير تنوين، والوجه إثبات التنوين لأن «ابنا» خبر، وإنما يحذف التنوين في الصفة نحو قولك: «جاءني زيد بن عمرو»، فيحذف التنوين لالتقاء الساكنين وأن مضاف إلى علم وأن النعت والمنعوت كالشيء الواحد. فإذا كان خبراً فالتنوين، وقد يجوز حذف التنوين على ضعف لالتقاء الساكنين.

وقد قرئت: ﴿قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ * الله الصَّمَدُ﴾[الإخلاص: ١، ٢]، وبحذف التنوين، لسكونها وسكون الباء في قوله: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾.

وفيه وجه آخر : أن يكون الخبر محذوفاً، فيكون معناها: عزير ابن الله معبودنا، فيكون «ابن» نعتاً.

ولا اختلاف بين النحويين أن إثبات التنوين أجود.

وقوله: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ إن قال قائل: كل قول هو بالفم فما الفائدة في قوله بأفواههم ؟ فالفائدة فيه عظيمة بينة؛ المعنى: أنه ليس فيه بيان ولا برهان إنما هو قول بالفم لا معنى تحته صحيح، لأنهم معترفون بأن الله لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون له ولداً، فإنما هو تكذيب وقول فقط.

وقوله: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: يشابهون في قولهم هذا ما تقدم من كفرتهم.

أي: إنما قالوه اتباعاً لمن تقدم من كفرتهم. والدليل على ذلك قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

أي: قبلوا منهم أن العزير والمسيح ابنا الله تعالى. وهذا معنى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ وقرئ «يُضَاهِيُونَ».

وأصل المضاهاة في اللغة: المشابهة، والأكثر ترك الهمزة، واشتقاقه من قولهم: «امرأة ضيهاء». وهي التي لا ينبت لها ثدي، وقيل: هي التي لا تحيض. وإنما معناها أنها أشبهت الرجال في أنها لا ثدي لها، وكذلك إذا لم تحض. وضيهاء فعلاء.

الهمزة زائدة كما زيدت في «شمأل، وغرقيء البيضة»، ولا نعلم أنها زيدت غير أول، إلا في هذه الأشياء.

ويجوز أن تكون «فعيل» وإن كانت بينة ليس لها في الكلام نظير، فإنا قد نعرف كثيراً مما لا ثاني له. ومن ذلك قولهم «كَنَهْبَل» وهوالشجر العظام، وتقديره «فَنَعْلَل»، وكذلك: «قرنفل»، ولا نظير له وتقديره «فعنلل». وقد قيل: «إبل» لا نظير له وإن كان قد جاء: «إطل» وهو الخصر، وقالوا: «إيطل» ثم حذفوا فقالوا: «إطل».

فيجوز أن يكون «يضاهئون» من هذا بالهمز، وتكون همزة «ضهياء» أصلاً في الهمز.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ معناها تنزيها له عن شركهم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أكثر التفسير: إنما هو للمشركين، وقد قيل: إنها فيمن منع الزكاة من أهل القبلة لأن من أدى من ماله زكاته فقد أنفق في سبيل الله ما يجب من ماله.

وقوله: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾؛ دخلت إلا، ولا جحد في الكلام، وأنت لا تقول: «ضربت إلا زيداً»، لأن الكلام غير دال على المحذوف، وإذا قلت: «ويأبى الله إلا أن يتم نوره»؛ فالمعنى: يأبى الله كل شيء إلا أن يتم نوره.

وزعم بعض النحويين: أن في «يأبى» طرفاً من الجحد، والجحد والتحقيق ليسا بذي أطراف، وآلة الجحد «لا، وما، ولم، ولن، وليس» فهذه لا أطراف لها. ينطق بها على جمالها، ولا يكون الإيجاب جحداً، ولو جاز هذا على أن فيه طرفاً من الجحد لجاز: «كرهت إلا أخاك»، ولا دليل ههنا على المكروه، ما هو ولا من هو، فكرهت مثل: «أبيت»، إلا أن أبيت الحذف مستعمل معها.

وقوله: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ فقال: ﴿الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ ولم يقل «ولا ينفقونهما في سبيل الله»، فإنما جاز ذلك لأن المعنى: يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقون المكنوز في سبيل الله، ويجوز أن يكون محمولاً على الأموال، فيكون: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾، ولا ينفقون الأموال، ويجوز أن يكون: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ ولا ينفقون الفضة، وحذف الذهب لأنه داخل في الفضة كما قال الشاعر[1] [من المنسرح]:

نَحنُ بِما عِندِنا وَأَنتَ بِما عِندَكَ راضٍ وَالرَأيُ مُختَلِفُ[2]

يريد نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راض، فحذف «راضون».

فكذلك يكون المعنى: والذين يكنزون الذهب ولا ينفقونه في سبيل الله، والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله.

وقوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾؛ أعلم الله –جل وعز-: أن عدة شهور المسلمين، الذين تعبدوا بأن يجعلوا لسنتهم اثنا عشر شهراً، على منازل القمر، فجعل حجهم وأعيادهم وصلاتهم في أعبادهم هذا العدد، فالحج والصوم يكون مرة في الشتاء ومرة في الصيف، وفي فصول الأزمان على قدر الشهور ودوران السنين، وكانت أعياد أهل الكتاب ومتعبداتهم في سنتهم يعملون فيها على أن السنة ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وبعض يوم، على هذا يجري أمر النصارى واليهود. فأعلم الله -جل وعز- أن سنى المسلمين على الأهلة.

وقوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾؛ الأربعة الحرم: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة.

﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ قيل: في الأربعة، وقيل: في الاثنى عشر.

فمن قال: «في الأربعة» قال: أراد تعظيم شأن المعاصي كما قال -جل وعز-: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَجِّ﴾[البقرة: ١٩٧] فالفسوق لا يجوز في حج ولا غيره، ولكنه -عز وجل- عرف الأيام التي تكون فيها المعاصي أكثر إثما وعقاباً.

---

(١) هو: أحيحة بن الجلاح.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٥٧/٦)، وتفسير القرطبي (١١٢/٨)، وفتح القدير (٤٣٨/١)، وتفسير أبي السعود (٢٦٣/١)، وروح المعاني (١٢٨/١٠)، وزاد المسير (٤٢٩/٣)، ومعاني القرآن (٢٢٩/٣)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٩٥/١)، واللباب علل البناء والإعراب (٢١٣/١)، وشرح ابن عقيل (٢٤٤/١)، ومغني اللبيب (٨١٠/١)، والإيضاح في علوم البلاغة (٨١/١)، والبيان والتبيين (٤٣٦/١)، ولسان العرب (٣٥٧/٣).

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾؛ فـ «كافة» منصوب على الحال، وهو مصدر على فاعله كما قالوا العاقبة والعافية. وهو في موضع: قاتلوا المشركين محيطين بهم باعتقاد مقاتلتهم.

وهذا مشتق من «كفة الشيء»، وهي حرفة، وإنما أخذ من أن الشيء إذا انتهى إلى ذلك؛ كف عن الزيادة، ولا يجوز أن يثنى ولا يجمع، ولا يقال: قاتلوهم كافات، ولا كافين، كما أنك لو قلت: قاتلوهم عامة لم يثن ولم تجمع، وكذلك خاصة.

هذا مذهب النحويين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ تأويله: أنه ضامن لهم النصر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾؛ النسيء -هذا- تأخير الشيء، وكانوا يحرمون القتال في المحرم فإذا عزموا على أن يقاتلوا فيه جعلوا صفراً كالمحرم، وقاتلوا في المحرم وأبدلوا صفراً منه، فأعلم الله -جل وعز- أن بذلك زيادة في الكفر.

﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾؛ فيجعلوا صفراً كالمحرم في العدة، ويقولوا: إن هذه أربعة بمنزلة أربعة.

والمواطأة: المماثلة والاتفاق على الشيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾؛ الإجماع في الروايات أن هذا كان في غزوة تبوك، وذلك أن الناس خرجوا فيه على ضيقة شديدة شاقة.

وقوله -عز وجل-: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾؛ المعنى: تثاقلتم، إلا أن التاء أدغمت في التاء، فصارت ثاء ساكنة، فابتدئت بألف الوصل -الابتداء -.

وفي ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ عندي غير وجه. منها أن معناه: تثاقلتم إلى الإقامة بأرضكم، ومنها: اثاقلتم إلى الشهوات الدنيا.

وقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾؛ أي: أرضيتم بنعيم الحياة الدنيا من نعيم الآخرة.

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾؛ أي: ما يتمتع به في الدنيا قليل عندما يتمتع به أولياء الله في الجنة.

وقوله: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾؛ هذا وعيد شديد في

التخلف عن الجهاد.

وأعلم أنه يستبدل لنصر دينه ونبيه قوماً غير متاقلين عن النصر إلى أعدائه، إذ أعلمهم الله -عز وجل- أنهم إن تركوا نصره فلن يضره ذلك شيئا كما لم يضرره إذ كان بمكة لا ناصرين له، فقال -عز وجل-: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ﴾؛ وكان المشركون قد أجمعوا على قتله ﷺ.

فمضى هو وأبو بكر الصديق هارباً منهم في الليل، وترك علياً على فراشه ليروا شخصه على الفراش، فلا يعلمون وقت مضيه، وأطلعا أسماء بنت أبي بكر على مكانهما في الغار، ومر رسول الله ﷺ على ثمامة، وهي شجرة صغيرة ضعيفة فأمر أبا بكر أن يأخذها معه، فلما صارا إلى الغار، أمر أبا بكر فجعلها على باب الغار، ثم سبق أبو بكر إلى الدخول الغار فانبطح فيه، وألقى نفسه، فقال رسول الله: «لم فعلت ذلك» فقال: لأن هذه الغيران تكون فيها الهوام المؤذية والسباع فأحببت إن كان فيها شيء أن أقيك بنفسي يا رسول الله. ونظر أبو بكر إلى جحر في الغار فسده برجله، وقال: إن خرج منه ما يؤذي وقيتك منه.

فلما أصبح المشركون اجتازوا بالغار فبكى أبو بكر الصديق فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك ؟»، فقال: أخاف أن تقتل فلا يعبد الله بعد اليوم، فقال له رسول الله: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾، أي: إن الله تعالى يمنعهم منا وينصرنا، فقال: أهكذا يا رسول الله: قال: «نعم» فَرَقَأَ دَمْعُ أبو بكر وسكن، وقال المشركون حين اجتازوا بالغار: لو كان فيه أحد لم تكن ببابه هذه الثمامة.

﴿فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾؛ أيده بملائكة يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه.

وقوله: ﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾؛ يجوز أن تكون الهاء التي في عليه لأبي بكر، وجائز أن تكون ترجع على النبي ﷺ لأن الله -جل ثناؤه- ألقى في قلبه ما سكن به وعلم أنهم غير واصلين إليه.

فأعلم الله أنهم إن تركوا نصره، نصره كما نصره في هذه الحال.

و «ثاني اثنين» منصوب على الحال؛ المعنى: فقد نصره الله أحد اثنين، أي: نصره منفرداً إلا من أبي بكر رضي الله عنه.

وقال -جل وعز-: ﴿انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾؛ فقيل

﴿خِفَافاً وَثِقَالاً﴾، أي: موسرين ومعسرين.

وقيل ﴿خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ خفت عليكم الحركة أو ثقلت.

وقيل: ركبانا ومشاة، وقيل أيضاً: شباباً وشيوخاً.

ويروى أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ فقال: أعلي أن أنفر، فقال: «نعم»، حتى أنزل الله -عز وجل-: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾[النور: ٦١].

﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَتَبَعُوكَ﴾؛ العرض: كل ما عرض لك من منافع الدنيا.

فالمعنى: لو كانت غنيمة قريبة، أي: لو كان ما دعوا إليه غنيماً، وسفراً قاصداً أي: سهلاً قريباً لاتبعوك ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

أي: بعدت عليهم الغاية التي تقصدها. وكان هذا حين دعوا إلى غزوة تبوك، فثقل عليهم الخروج إلى نواحي الشام.

وقوله: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ﴾؛ أي: حتى يتبين لك من ينافق ممن يصحح.

ثم أعلمه -جل وعلا- أن علامة النفاق في ذلك الوقت الاستئذان في التخلف عن الجهاد فقال: ﴿لاَ يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.

موضع «أن» نصب؛ المعنى: لا يستأذنك هؤلاء في أن يجاهدوا، ولكن «في» حذفت فأفضى الفعل فنصب «أن».

قال سيبويه: ويجوز أن يكون موضعها جراً، لأن حذفها ههنا إنما جاز مع ظهور «أن» فلو أظهرت المصدر لم تحذف في «لا يستأذنك القوم الجهاد» حتى تقول في الجهاد ويجوز لا يستأذنك القوم أن يجاهدوا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ وأعلم الله -جل ثناؤه- أن من ارتاب وشك في الله وفي البعث فهوكافر.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾؛ أي: فتركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف.

﴿وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ والتثبيط: ردك الإنسان عن الشيء يفعله.

أي: كره الله أن يخرجوا معكم فردهم عن الخروج.

ثم اعلم -عز وجل-: لم كره ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ والخبال: الفساد، وذهاب الشيء. قال الشاعر:

أَبَني لُبَيْنَى لَسْتُم بِيَدٍ إِلاَّ يداً مَخْبُولة العَضُد (١)

أي: فاسدة العضد.

﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾؛ يقال: «أوضعت في السير» إذا أسرعت، ولأسرعوا فيما يخل بكم.

﴿يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾؛ أي: فيكم من يسمع ويؤدي إليهم ما يريدون.

وجائز أن يكون ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ من يقبل منهم.

وفي المصحف مكتوب ﴿وَلأَوْضَعُوا﴾ ولا أوضعوا، ومثله في القرآن: ﴿أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾[النمل: ٢١] بزيادة ألف أيضاً، وهذا إنما حقه على اللفظ: «ولأوضعوا». ولكن الفتحة كانت تكتب قبل العربي ألفاً. والكتاب أبتدئ به في العربي بقرب نزول القرآن، فوقع فيه زيادات في أمكنة واتباع الشيء بنقص عن الحروف. فكتبت «ولا أوضعوا» بلام وألف، بدلاً من الفتحة، وبهمزة. فهذا مجاز ما وقع من هذا النحو في الكتاب.

﴿وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ائْذَن لِي وَلاَ تَفْتِنِّي﴾؛ أي: لا تؤثمني بأمرك إياي بالخروج، وذلك غير متيسر لي فآثم.

وقيل: إن المنافقين هزئوا بالمسلمين في غزوة تبوك، فقالوا أتريدون بنات الأصفر: فقال: «لا تفتني» أي: لا تفتني ببنات الأصفر. فأعلم الله تعالى أنهم قد سقطوا في الفتنة أي: سقطوا في الأثم.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾؛ أي: قد علمنا بالحزم في التخلف عنك.

فأعلم الله -جل وعز- أن المسلمين لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم فقال -جل وعز-: ﴿قُل لَن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا﴾؛ أي: ما قدر علينا كما قال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧٤/٤)، ولسان العرب (١٩٦/١١)، وتاج العروس (٧٠١٨/١)، والفائق (١/ ٣٤٩).

الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾، ثم أكد ذلك فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: ٢٢].

وفيه وجه آخر أنه ﴿لَن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا﴾ ما بين لنا في كتابه، من أنا نظفر، فتكون تلك حسنى لنا، أو نقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضاً، أي: فقد كتب الله لنا ما يصيبنا أو عملنا ما لنا فيه حظ.

ثم بين -جل ثناؤه- فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ﴾؛ إلا الظفر أو الشهادة.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِن عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾؛ فأنتم تربصون بنا إحدى الحسنيين، ونحن نتربص بكم إحدى الشرتين، فبين ما تنتظرونه وننتظره فرق عظيم.

وقوله -جل وعز-: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً﴾؛ وإن شئت «كُرها» بالضم، هذا لفظ أمر ومعناه معنى الشرط والجزاء.

والمعنى: أنفقوا طائعين أو مكرهين لن يتقبل منكم.

مثل هذا من الشعر قول كثير [من الطويل]:

أَسِيئي بِنا أَو أَحسِني لا مَلومَةً لَدينا وَلا مَقلِيةً إِن تَقَلَّتِ[1]

فلم يأمرها بالإساءة، ولكن أعلمها أنها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدها.

فإن قال قائل: كيف الخبر في معنى الأمر؟ قلنا: هو كقولك: «غفر الله لزيد»، «ورحم الله زيداً»، فمعناه: اللهم ارحم زيداً.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾؛ موضع «أن» الأولى نصب، موضع «أن» الثانية رفع.

المعنى: ما منعهم من قبول نفقاتهم إلا كفرهم، ويجوز «أن يقبل منهم نفقاتهم» لأن النفقات في معنى الإنفاق، ويجوز: وما منعهم من أن يقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا، وهذا لا يجوز أن يقرأ به لأنه لم يرو في القراءة.

وقوله: ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى﴾؛ و «كَسالى» بالضم والفتح.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦/٣٨٩)، وتفسير القرطبي (٨/١٤٥)، وروح المعاني (١٠/١٤٧)، وزاد المسير (٣/ ٤٥١)، والكشاف (١/٤٨٨)، والأغاني (٩/٣٨)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/١٤٢)، ولسان العرب (١/ ٩٥)، وتاج العروس (١/١٤٠).

جمع «كسلان»، وكقولك: «سكران وسُكارى وسَكَارى». ويجوز: ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا يجوز ذلك في القرآن.

﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾؛ القراءة على فتح الكاف، ويجوز الكسر: «إلا وهم كارهون»، ولم يرو في القرآن.

وقوله: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ معناه: -والله أعلم- فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

ويجوز -والله أعلم-: إنما يريد الله يعذبهم بها في الدنيا أي: هم ينفقونها في الدنيا، وهم منافقون فهم متعذبون بإنفاقها إذ كانوا ينفقونها على كره.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾؛ معناه: وتخرج أنفسهم أي: يغلظ عليهم المكروه حتى تزهق أنفسهم.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِنكُمْ﴾؛ أي: يحلفون بالله أنهم مؤمنون كما أنتم مؤمنون، وما هم منكم لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾، أي: يفرقون أن يظهروا ما هم عليه فيقتلوا.

ثم أعلم -جل وعز- أنهم لو وجدوا مخلصاً فيه لفارقوكم، فقال -جل وعز-: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ﴾؛ «والملجأ واللَّجأ» مقصور ومهموز، وهو المكان الذي يتحصن فيه.

و«مغارات» جمع مغارة، وهو الموضع يغور فيه الإنسان، أي: يستتر فيه. ويقرأ: «أو مُغارات» بضم الميم، لأنه يقال: أَغَرت وغُرْت، إذا دخلت الغَوْر.

وقوله: ﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾؛ ويقرأ: «أو مَدخلاً» بالتخفيف، ويقرأ: «أو مُدْخلاً».

فأما «مُدخل» فأصله: «مدتخل»، ولكن التاء والدال من مكان واحد فكان الكلام من وجه واحد أخف، ومن قال: «مَدخلا» فهو من «دَخَل يَدْخُل مَدْخلاً»، ومن قال: «مُدْخلاً» فهو من: «أَدْخَلْته مُدْخَلاً».

قال الشاعر[1] [من البسيط]:

---

(١) هو: أمية بن الصلت.

الحَمدُ للهِ مَمسانا وَمَصبَحَنا بِالخَيرِ صَبَّحنا رَبي وَمَسّانا[١]

ومعنى «مُدَّخل ومُدْخل» أنهم لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم أو يدخلونهم في جملتهم: ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ المعنى: لو وجدوا هذه الأشياء ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

أي: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء. ومن هذا قيل: «فرس جموح» للذي إذا حمل لم يرده اللجام.

﴿وَمِنْهُم مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾؛ وتقرأ: «يلمزونك»: يقال: لَمَزت الرجل أَلْمِزة» بكسر الميم، و«أَلْمُزة» بضم الميم إذ عبته، وكذلك «هَمَزته أهمزُه» إذا عبته، قال الشاعر[٢] [من البسيط]:

إذا لَقَيتكَ تُبدي لي مُكاشَرَة وَإِن أَغِب فَلأَنتَ الهامِزُ اللُّمزَه[٣]

واللُّمزة: الكثير العيب للناس، وقال بعضهم: اللُّمزة: العيْب بكسر العين؛ أي: بكسر عينه إذا عاب. يراد به عيب صاحبه، وقالوا: اللُّمزة: العيب بالمسارة. وهذا كله يرجع إلى العيب.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؛ وهم قوم كانوا يُعْطَونَ: يتألفون على أن يسلموا. وهذا غير مستعمل اليوم لظهور الإسلام.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾؛ كأن يعاون المكاتب حتى يفك رقبته.

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾؛ وهم الذين لزمهم الدين في الحمالة والحمالة، والإعطاء في الذمة، ويجوز أن يكون الغارم الذي لزمه الدين في غير معصية، فالأولى أن يكون الدين الذي يقضى عنه في غير معصية، لأن ذا المعصية إن أدى عنه الدين كان ذلك تقوية على المعاصي.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ أي: وللمجاهدين حق في الصدقة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٩/٤)، وتفسير القرطبي (١٤٩/٨)، وزاد المسير (٤٥٤/٣)، والمفصل في صنعة الإعراب (٢٧٧/١)، وإصلاح المنطق (١٦٦/١)، والأغاني (١٣٦/٤)، ولسان العرب (٢٨٠/١٥).

(٢) هو: زياد الأعجم.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣٩٣/٦)، وزاد المسير (٤٥٥/٣)، وتفسير الثعالبي (١٣٥/٢).

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ ابن الطريق. وتأويله: الذي قطع عليه الطريق.

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾؛ منصوب على التوكيد، لأن قوله: إنما الصدقات لهؤلاء كقولك: فرض الله الصدقات لهؤلاء.

وقد بينا في أول الأنفال ما قيل: في جميع الأموال، واستقصيناه.

ويجوز «فريضة من الله على ذلك» ولا أعلمه قرئ به.

وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾؛ وتفسير الآية:

أن من المنافقين من كان يعيب النبي ﷺ ويقول: إن بلغه عني حلفت له قبل مني لأنه أذن. فأعلم الله تعالي أنه أذن خير لكم؛ أي: مستمع خير لكم.

ثم بين ممن يقبل فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: هو أذن خير لا أذن شر، يسمع ما ينزله الله عليه، فيصدق به، ويصدق المؤمنين فيما يخبرونه به.

﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾؛ أي: هو رحمة، لأنه كان سبب المؤمنين في إيمانهم.

ومن قرأ: «أُذُنٌ خير لكم»؛ فالمعنى: فإن من يسمع منكم ويكون قريباً منكم قابلاً للعذر خير لكم.

ويروى في هذه الآية: أن رجلاً من المنافقين قال: لو كان ما أتى به محمد حقاً فنحن حمير، فقال له ابن امرأته إن ما أتى به لحق، وإنك لشر من دآبتك هذه وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال بعض من حضره: نعتذر إليه ونحلف له فإنه أذن.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾؛ قال بعض النحويين، إن هذه اللام بمعنى القسم، أي: يحلفون بالله لكم ليرضنكم وهذا خطأ، لأنهم إنما حلفوا أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ليرضوكم باليمين، ولم يحلفوا أنهم يرضون فيما يستقبل.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾؛ وقوله: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إن كانوا على ما يظهرون فكان ينبغي ألا يعيبوا النبي فيكونون بتوليهم النبي ﷺ وترك عيبه مؤمنين.

ويجوز في قوله ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ الجر على العطف على ﴿خَيْرٌ﴾. فيكون؛ المعنى: قل أذن خير لكم وأذن رحمة للمؤمنين.

وقوله: ﴿أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾، ولم يقل: «يرضوهما»، لأن المعنى: يدل عليه فحذف

استخفافاً؛ المعنى: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، كما قال الشاعر(١) [من المنسرح]:

نَحنُ بِما عِندِنا وَأَنتَ بِما عِندَكَ راضٍ وَالرَأيُ مُختَلِفُ(٢)

المعنى: نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ معناه: من يعادي الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله.

واشتقاقه من اللغة: كقولك: «من يجانب الله ورسوله»، أي: من يكون في حد، والله ورسوله في حد.

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ والقراءة بالفتح والكسر: ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾، فمن كسر فعلى الاستئناف بعد الفاء، كما تقول: «فله نار جهنم»، ودخلت «إن» مؤكدة، ومن قال: «فإن له»، فإنما أعاد «فإن» توكيداً، لأنه لما طال الكلام كان إعادتها أوكد.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لفظ يحذر لفظ الخبر، ومعناه الأمر، لأنه لا لبس في الكلام في أنه أمر، فهوكقولك: «ليحذر المنافقون»، وعلى هذا يجوز في كل ما يؤمر به أن تقول: «يُفعل ذلك»، فينوب عن قولك: «لِيُفعل ذلك».

ويجوز أن يكون خبراً عنهم لأنهم كانوا يكفرون عناداً وحسداً. ودليل هذا القول: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ وذلك أنهم قالوا: إنما كنا نخوض كما يخوض الركب.

وقوله: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ تأويله أنه قد ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾؛ والقراءة ﴿إِن نَعْفُ﴾ و«إن يُعْف، وإن يَعْف» جيدة، ولا أعلم أحداً من المشهورين قرأ بها.

ويروى أن هاتين الطائفتين إنما كانوا ثلاثة نفر فهزئ اثنان وضحك واحد، فجعل طائفة للواحد.

---

(١) هو: أحيحة بن الجلاح.

(٢) مر ذكره.

وكذلك قالوا في قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يراد به نفس طائفة.

والطائفة في اللغة: أصلها «الجماعة»، لأنها المقدار الذي يطيف بالشيء.

وقد يجوز أن يقال للواحد: «طائفة» يراد به نفس طائفة.

وقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ﴾؛ هذا يتلو قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾.

أي: ليس المنافقون من المؤمنين، لأن المنافقين، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ أي: يأمرون بالكفر بالنبي ﷺ.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: ينهون عن الإيمان به.

﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ أي: لا يصدقون ولا يزكون.

﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؛ أي: تركوا أمر الله فتركهم الله من رحمته وتوفيقه.

وقوله: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾؛ أي: كفاية ذنوبهم كما تقول: «عذبتك حسب فعلك، وحسب فلان ما نزل به»، أي: ذلك على قدر فعله.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ موضع الكاف نصب، أي: وعدهم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلهم.

وقوله: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾؛ قيل: فاستمتعوا بحظهم من الدنيا، وقيل: فاستمتعوا بدينهم.

والخلاق: النصيب الذي هو عند صاحبه وافر الحظ.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾؛ ألم يأتهم خبر الذين هلكوا في الدنيا بذنوبهم فيتعظوا.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾؛ جمع «مؤتفكة»، و«ائتفكت بهم الأرض» أي: انقلبت.

يقال: إنهم قوم لوط، ويقال: إنهم جميع من أهلك، كما تقول للهالك انقلبت عليه الدنيا.

﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أعلم الله جل ثناؤه أن تعذيبه إياهم باستحقاقهم، وأن ذلك عدل منه.

وقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ﴾؛ وتقرأ ورُضوان ورِضوان، وهما جميعاً عن عاصم.

ومعنى ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾، أي: أكبر مما هم فيه من النعيم.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أمر بجهادهم، والمعنى: جاهدهم بالقتل والحجة، فالحجة على المنافقين جهاد لهم.

وقوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾؛ قيل: إنهم كانوا هموا بقتل رسول الله ﷺ وأنهم كانوا اثنى عشر رجلاً عزموا على أن يقفوا له بعقبة على طريقه ويغتالوه، فأعلمه الله ذلك. فلما بلغ إليهم أمر من نحاهم عن طريقه، وسماهم رجلاً رجلاً.

فهذه من أعظم آياته، لأن الأمر إنما علم في قصتهم بالوحي.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ وإنما قيل: أغناهم الله ورسوله، لأن أموالهم كثرت من الغنائم، فكان سبب ذلك رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾؛ معناه: مؤلماً.

وإنما قال في الدنيا لأنهم أمر بقتلهم.

ويجوز: ﴿وَمَا نَقِمُوا﴾.

﴿وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾؛ الأصل: لنتصدقن، ولكن التاء أدغمت في الصاد لقربها منها.

وقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ يجوز أن يكون «فلما أتاهم من فضله بخلوا به»، قال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً﴾ أي: أضلهم الله بفعلهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾؛ «يلمِزون، ويلمُزون» بكسر الميم وضمها.

ومعناه: يعيبون وكانوا عابوا أصحاب رسل الله ﷺ في صدقات أتوبها النبي ﷺ.

يروى أن عبد الرحمن أتى بصرة تملأ الكف، وأن رجلاً كان يقال له: أبو عقيل، أتى بصاع من تمر، فعابوه بذلك وقالوا: إن محمداً غني عن صاع هذا إنما أتى بهذا ليذكر بنفسه.

فهو معنى ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ و«جهدُهم»، بالفتح والضم.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ﴾؛ والسخرى من الله المجازاة على فعلهم وقد بينا ذلك.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ﴾؛ فيروى أن النبي ﷺ قال: أستغفر لهم أكثر من سبعين مرة فنزلت ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[المنافقون: ٦].

وقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾؛ بمعنى مخالفة رسول الله. وهو منصوب لأنه مفعول له.

المعنى: بأن قعدوا لمخالفة رسول الله، ويقرأ: «خلف رسول الله»، ويكون ههنا أنهم تأخروا عن الجهاد في سبيل الله.

﴿وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾؛ وهذا وعيد في ترك الجهاد. ويجوز «لا تنفُروا» بضم الفاء.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ ﴿جَزَاءً﴾ مفعول له.

المعنى: وليبكوا جزاء لهذا الفعل.

وقوله: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾؛ يروى أنها نزلت في عبد الله بن أبي، وكان رأس المنافقين فلما حضرته الوفاة بعث إلى رسول الله ﷺ يسأله أحد ثوبيه وليكفن به، فبعث إليه رسول الله بأحدهما، فأرسل المنافق إلى رسول الله أريد الذي كان يلي جلدك من ثيابك، فوجه إليه رسول الله ﷺ بذلك.

فقيل له فيه: لم وجهت إليه بقميصك يكفن فيه وهو كافر، فقال: «إن قميصي لن يغني عنه شيئاً من الله، وإني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام خلق كثير بهذا السبب».

فيروى أنه أسلم من الخزرج ألف لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله، وأراد الصلاة عليه.

فنزل الوحي عليه ﷺ: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم﴾.

ويروى أنه ﷺ صلى عليه وإنما مجاز الصلاة عليه أنه كان ظاهره ظاهر الإسلام، فأعلمه الله -جل وعز- أنه إذا علم منه النفاق فلا صلاة عليه ﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له.

وقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾؛ «المعذِّرون» تشديد الذال وتقرأ: «المعذِرون».

فمن قرأ: «المعذِرون»، فتأويله: الذين أعذروا أي: جاؤوا بعذر، ومن قرأ: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذال فتأويله: المعتذرون، إلا أن التاء أدغمت في الذال لقرب مخرجهما.

ومعنى المعتذرين الذين يعتذرون، كان لهم عذر أو لم يكن لهم.

وهو ههنا أشبه بأن يكون لهم عذر، وأنشدوا[١] [من الطويل]:

إِلى الحَولِ ثُمَّ اِسمُ السَلامِ عَلَيكُما ... وَمَن يَبكِ حَولاً كامِلاً فَقَدِ اِعتَذَر[٢]

المعنى: فقد جاء بعذر، ويجوز المعِذرون -بكسر العين- لأن الأصل المعتذرون، فأسكنت التاء وأدغمت في الذال ونقلت حركتها إلى العين فصار الفتح أولى الأشياء، ومن كسر العين حرك لالتقاء الساكنين، ويجوز «المعُذرون»، باتباع الضمة التي قبلها وهذان الوجهان -كسر العين وضمها- لم يقرأ بهما، وإنما يجوز في النحو، وهما جهتان يثقل اللفظ بهما، فالقراءة بهما مطروحة.

ويجوز أن يكون ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾: الذين يعذرون، يوهمون أن لهم عذار ولا عذر لهم.

وقوله: ﴿اسْتَئْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾؛ قيل: ﴿أُوْلُو الطَّوْلِ﴾ هم أولو الغنى، وقيل: أولو الفضل في الغنى والرأي والجاه.

والطول: الفضل في القدرة على هذه الأشياء.

وقوله: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾؛ الخوالف: النساء، وقد يجوز أن يكون جمع «خالفة» في الرجال. والخالف: الذي هو غير منجب. ولم يأت في فاعل فواعل إلا في حرفين، «فارس وفوارس، وهالك وهوالك».

وقوله: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾؛ هؤلاء أعراب كانوا حول المدينة، فكفرهم أشد لأنهم أقسى وأجفى من أهل المدر، وهم أيضاً أبعد من سماع التنزيل وإنذار الرسول.

وقوله: ﴿وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾؛ «أن» في موضع نصب، لأن الباء محذوفة من «أن».

المعنى: أجدرك بترك العلم، تقول: «أنت جدير أن تفعل كذا، وبأن تفعل كذا»، كما تقول: «أنت خليق أن تفعل»، أي: هذا الفعل ميسر فيك، فإذا حذفت الباء، لم يصلح إلا

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة العامري.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٧٨)، وتفسير القرطبي (١/١٢٧)، وفتح القدير (٢/٥٦٨)، وزاد المسير (٣/٤٨٣)، ومعاني القرآن (٣/٢٤٢)، والخصائص (٣/٢٩)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/١٢٤)، والأغاني (١٣/٤٥)، وثمار القلوب (١/٢١٥)، وديوان الحماسة (١/٣٧٠)، وشرح كتاب الأمثال (١/٣٢٦)، وكتاب جمهرة الأمثال (١/١٦٢)، ولسان العرب (٤/٥٤٥)، وتاج العروس (١/٣١٦٩).

بـ«أن»، قلت: «أنت جدير القيام»، كان خطأ، وإنما صلح مع «أن» لأن أن تدل على الاستقبال، فكأنها عوض من المحذوف.

وقوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾؛ أي: الموت والقتل.

وقوله: ﴿قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾؛ فيها ثلاثة أوجه:

«قرُبات» بضم الراء، «وقرْبات» بإسكانها، «وقرَبات» بفتح الراء.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾؛ وكذلك: وصل عليهم؛ معناه: دعاء الرسول، قال الأعشى [من البسيط]:

تَقولُ بِنتي وَقَد قَرَّبتُ مُرتَحَلاً   يا رَبِّ جَنِّب أَبي الأَوصابَ وَالوَجَعا

عَلَيكِ مِثلُ الَّذي صَلَّيتِ فَاغتَمِضي   يَوماً فَإِنَّ لِجَنبِ المَرءِ مُضطَجَعا

إن شئت قلت: «عليك مثلُ الذي، ومثلَ الذي»، فمن قال:

«عليك مثل الذي صليت» فقد أمرها بالدعاء، كأنه قال ادعى مثلَ الذي دعوت، ومن قال «مثلُ»؛ فالمعنى: عليك مثل هذا الدعاء. أي: ثبت عليك مثل هذا.

وقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾؛ ويجوز «والأنصارُ»، فمن قال: «والأنصارِ» نسق على المهاجرين.

المعنى: والسابقون الأولون من المهاجرين ومن الأنصار، ومن قال: «والأنصارُ» نسق به على «والسابقون» كأنه قال: «والسابقونَ والأنصارَ».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾؛ أي: من اتبعهم إلى يوم القيامة.

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؛ تأويله: -والله اعلم- أن الله رضي أفعالهم، وأنهم رضوا ما جازاهم الله به.

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾؛ مقدم و مؤخر، ﴿مَرَدُوا﴾ متصل بقوله: ﴿مُنَافِقُونَ﴾.

﴿سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: سنعذبهم بالإنفاق وبالفعل، وقيل: بالقتل وعذاب القبر.

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: يعذبون في الآخرة.

وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾؛ يصلح أن تكون تطهرهم بها نعتاً للصدقة، كأنه قال: خذ من أموالهم صدقة مطهرة، والأجود أن يكون تطهرهم للنبي ﷺ.

المعنى: خذ من أموالهم صدقة فإنك تطهرهم بها، ويجوز «تطهرهم» بالجزم على جواب الأمر؛ المعنى: إن تأخذ من أموالهم تطهرهم وتزكهم. ولا يجوز في القراءة إلا بإثبات الياء في «تزكيهم»، اتباعاً للمصحف.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾؛ أي: ادع لهم. و«سكن»؛ أي: يسكنون بها.

وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾؛ تأويله: ويقبل الصدقات، وكذلك ما يروى «إن الصدقة تقع في يد الله -جل وعز-» تأويله: أن الصدقة يتقبلها الله -جل ثناؤه- ويضاعف عليها.

وقوله -جل وعز- ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾؛ معنى ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون. يقال: «أرجأت الأمر»، إذا أخرته.

ويقرأ ﴿مُرْجَوْنَ﴾ على أرجيت. و«آخرون» عطف على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ﴾.

المعنى: من أهل المدينة منافقون ومنهم آخرون مرجون.

ويقال: إنهم الثلاثة الذين خلفوا.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾؛ «إما» لوقوع أحد الشيئين، والله -عز وجل- عالم بما يصير إليه أمرهم، إلا أن هذا للعباد، خوطبوا بما يعلمون.

فالمعنى: لكن أمرهم عندكم على هذا في الخوف والرجاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً﴾؛ «الذين» في وضع رفع.

المعنى: اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد. فلما حذفت اللام أفضى الفعل فنصب، ويجوز أن يكون مصدراً محمولاً على المعنى:، لأن اتخاذهم المسجد على غير التقوى معناه: ضاروا به ضراراً.

وتفسير الآية: أن قوما من منافقي الأمصار أرادوا أن يفرقوا عن النبي ﷺ من يصلي معه من المؤمنين، فاتخذوا مسجداً يقطعون به المؤمنين والنبي ﷺ عن مسجد قباء.

﴿وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾؛ كان رجل يقال له: «أبوعمرو الراهب» حارب النبي ﷺ ومضى إلى هرقل، وكان أحد المنافقين، فقالوا نبني هذا المسجد وننتظر أبا عامر حتى يجيء، فيصلي فيه.

فالإرصاد: الانتظار.

واتخذوا هذا المسجد مضارة وكفراً، لأن عناد النبي ﷺ كفر وأطلع الله نبيه ﷺ على طويتهم، على أنهم سيحلفون كاذبين، فقال -جل وعز-: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وكانوا دعوا النبي ﷺ ليصلي فيه فأنزل الله -جل ثناؤه-: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾.

ثم بين الله -عز وجل-: أي: المسجدين أحق بالقيام فيه فقال:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾؛ يعني به مسجد قباء.

﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾؛ «وأن» في موضع نصب؛ المعنى: لمسجد أسس على التقوي أحق بأن تقوم فيه.

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾؛ يروى أن النبي ﷺ وقف بباب المسجد فقال: «إن الله أحسن عليكم الثناء في طهوركم فبم تطهرون ؟» فقالوا نغسل أثر الغائط بالماء. وهؤلاء قوم من الأنصار.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾؛ ويجوز: «أفمن أُسِّس بنيانه»، ويجوز: «أفمن آساس بنيانه» ويجوز: «أفمن أُسُس بنيانه».

فأما «أَسَّسَ بنيانه»، و«أُسِّس بنيانه»، فقراءتان جيدتان، والذي ذكر غير هاتين جائز في العربية، غير جائز في القراءة، إلا أن تثبت به رواية.

المعنى: أن من أسس بنيانه على التقوى خير ممن أسس بنيانه على الكفر فقال: ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾؛ وشفا الشيء حرفه وحده، الشفا: مقصور يكتب الألف ويثنى: «شفوين».

ومعنى ﴿هَارٍ﴾ هائر، وهذا من المقلوب، كما قالوا في لاث الشيء إذا دار فهو لاث والأصل: «لاثث» وكما قالوا: «شاك السلاح وشائك»، قال الشاعر[1] [من الكامل]:

فتوسَّمُونِي إنّني أنَا ذَاكُمُ شاكٍ سِلاحي في الحوادثِ مُعْلَمُ[2]

وكما قال العجاج [من الرجز]:

لاثٍ بِهِ الأَشاءُ وَالعُبرِيُّ[3]

---

(١) هو: طريف العنبري.

(٢) مر ذكره.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨/٢٤٠)، ولسان العرب (٢/١٨٥)، وتاج العروس (١/٣١٤٨).

الأشاء: النخل، والعبري: السدر الذي على شاطيء الأنهار ومعنى «لاث به» مطيف به.

﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ وهذا مثل؛ المعنى: أن بناء هذا المسجد الذي بني ضراراً وكفراً كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها.

وقوله: ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾؛ قال بعضهم: لا يزال كفراً، وقال بعضهم: لا يزال شكاً. والريبة: من الريب، والريب: الشك.

فأعلم الله -جل وعز- أن بناءهم لا يزالون شاكين فيه، وجائز أن يكون الله -جل ثناؤه- وجعل عقوبتهم أن ألزمهم الضلال بركوبهم هذا الأمر الغليظ.

﴿إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾؛ ويجوز: «إلا أن يَقْطِع قلوبهم».

معناه: إلا أن يموتوا، وقال بعضهم: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾؛ يروى: أنه تاجرهم فأغلى لهم الثمن، وهذا كما قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[البقرة: ١٦].

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾؛ بالمعنى[(١)] لأن معنى قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، وعدهم الجنة وعداً عليه حقاً.

ولو كانت في غير القرآن جاز الرفع على معنى: ذلك وعد عليه حق.

وقوله: ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾.

يدل أن أهل كل ملة أمروا بالقتال وأوعدوا عليه الجنة.

وقوله: ﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ﴾؛ يصلح أن يكون رفعه على وجوه:

أحدها: المدح؛ كأنه قال هؤلاء التائبون، أو هم التائبون. ويجوز أن يكون على البدل؛ المعنى: يقاتل التائبون، وهذا مذهب أهل اللغة.

قال أبو إسحاق: والذي عندي -والله أعلم- أن قوله: التائبون العابدون رفع بالابتداء، وخبره مضمر؛ المعنى: التائبون العابدون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً، أي: من لم يجاهده غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأن بعض المسلمين يجزي عن بعض في

---

(١) أي أن ((وعداً))مفعول مطبق بالمعنى.

الجهاد. فمن كانت هذه صفته فله الجنة أيضاً.

التائبون: الذين تابوا من الكفر، العابدون: الذين عبدوا الله وحده، والراكعون الساجدون: الذين أدوا ما افترض الله عليهم في الركوع والسجود.

﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾: الآمرون بالإيمان بالله.

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ عن الكفر بالله.

ويجوز الآمرون بجميع المعروف، الناهون عن جميع المنكر.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾؛ القائمون بما أمر الله به.

وقوله: ﴿السَّائِحُونَ﴾؛ في قول أهل اللغة والتفسير جميعا: الصائمون. ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض، وقد قيل: إنهم الذين يديمون الصيام، قول الحسن في هذا أبين.

وكذلك ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ عند الحسن هم الذين يؤدون ما افترض عليهم في ركوعهم وسجودهم.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾؛ يروى أن النبي ﷺ عرض على عمه أبي طالب الإسلام عند وفاته، وذكر له وجوب حقه عليه، فأبى أبو طالب فقال النبي ﷺ: «لأستغفر لك» حتى نهي عن ذلك.

يروى أنه استغفر لأمه، ويروى أنه استغفر لأبيه، وأن المؤمنين ذكروا محاسن آبائهم في الجاهلية وسألوا أن يسغفروا لآبائهم لما كان من محاسن كانت لهم، فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك لا يجوز فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾؛ أي: من بعد ما تبين لهم أنهم ماتوا كافرين.

ثم أعلم -جل وعز- كيف استغفار إبراهيم لأبيه فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾.

فيروى أنه كان وعده أن يستغفر له أيام حياته.

ويروى أن أبا إبراهيم كان وعد إبراهيم أن يسلم إن استغفر له، فلما تبين له إقامته على الكفر تبرأ منه.

وقال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤].

أي: تأسوا بإبراهيم في هذا القول.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾؛ يروى أن عمر سأل النبي ﷺ عن الأواه، فقال: «الأواه الدَّعَّاء»، والأواه في أكثر الرواية الدعاء، ويروى أن «الأواه» الفقيه، ويروى أن «الأواه» المؤمن بلغة الحبشة، ويروى أن «الأواه» الرحيم الرفيق.

قال أبوعبيدة: «الأواه» المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع يقيناً، يريد أن يكون تضرعه على يقين بالإجابة ولزوماً للطاعة، وقد انتظم قول أبي عبيدة أكثر ما روي في «الأواه» وأنشد أبوعبيدة [من الوافر]:

إِذا ما قُمتُ أَرحَلُها بِلَيلٍ   تَأَوَّهُ آهَةَ الرَجُلِ الحَزينِ[1]

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَا يَتَّقُونَ﴾؛ يروى أنه لما نزل تحريم الخمر ووقعت الحدود قال المسلمون فيمن مات قبل ذلك ولم يدرك التحريم اسألوا عن حالهم، فأعلم الله -جل وعز- أنه لا يؤاخذهم بما حرم مما لم يحرم عليهم.

وجائز أن يكون: إذا وفق الله للهداية فلا إضلال بعدها، لأن من يهد الله فلا مضل له.

وقوله: ﴿لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾؛ معناها في وقت العسرة لأن الساعة تقع على كل زمان.

وكان في ذلك الوقت حر شديد، وكان القوم في ضيقة شديدة، وكان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه، وكانوا من الشدة والفقر ربما اقتسم الثمرة اثنان وربما مص الثمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر.

فأعلم الله -عز وجل- أنه قد تاب عليهم من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، أي: من بعد ما كادوا يَقْفِلون من غزوتهم للشدة، ليس أنه يزيغ عن الإيمان، إنما هو أن كادوا يرجعون فتاب الله عليهم بأن أَقْفَلهم من غزوتهم.

---

(١) البيت للمثقب العبدي. انظر: تفسير الطبري (٦/٤٩٠)، وتفسير القرطبي (٨/٢٤٩)، وفتح القدير (٢/٥٩٦)، وزاد المسير (٣/٥١٠)، وتفسير الثعالبي (٢/١٦٠)، والخصائص (٣/٣٨)، وإصلاح المنطق (١/٣٢١)، ومجمع الأمثال (١/٤٧)، ولسان العرب (١١/٢٦٥)، وتاج العروس (١/٧٠٩٧).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؛ على نسق الكلام يدل على أنهم أمروا بأن يكونوا مع النبي ﷺ في الشدة والرخاء، ويجوز -والله أعلم- على هذا قوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾[الأحزاب: ٢٣].

وقد رويت عن بعضهم «من الصادقين» والمعنى واحد، ويجوز أن يكون ممن يصدق ولا يكذب في قول ولا فعل.

وقوله: ﴿لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ﴾؛ الظمأ العطش، والنصب: التعب.

﴿وَلاَ مَخْمَصَةٌ﴾. المخمصة: المجاعة، فأعلم الله أنه يجازيهم على جميع ذلك، وأنه يكتب لهم عملاً صالحاً.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾؛ هذا لفظ خبر فيه معنى أمر كما كان ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾.

والمعنى: أنهم كانوا إذا كانت سرية نفروا فيها بأجمعهم، فأعلم الله -جل وعز- أنه ينبغي أن ينفر بعضهم ويبقى مع النبي ﷺ بعض لئلا يبقى وحده، ولئلا يخلو من خرج منهم من فائدة منه، فقال -جل وعز-: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

المعنى: أنهم إذا بقيت منهم بحضرة النبي ﷺ بقية فسمعوا منه وحياً أعلموا الذين نفروا ما علموا فاستووا في العلم، ولم يخلوا منه.

وجائز - والله أعلم - أن يكون هذا دليلاً على فرض الجهاد يجزي الجماعة فيه عن الجماعة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ ﴿غِلْظَةً﴾ فيها ثلاث لغات: «غِلْظة، وغُلْظة، وغَلْظة».

فهذا دليل أنه ينبغي أن يقاتل أهل كل ثغر الذين يلونهم، وقيل: إن هذا يعني به العرب، وقيل: إن النبي ﷺ كان ربما تخطى في حربه الذين يلونه من الأعداء ليكون ذلك أهيب له فأمر بقتال من يليه ليستن بذلك.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الله أمر من نصره بالحرب.

قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾؛ المعنى: وتاب على الثلاثة الذين خلفوا. ويقال: إنهم هم المرجون لأمر الله.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾؛ وأضاف الإيمان إلى السورة لأنه يزيد بسببها.

وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ﴾؛ أي: شك ونفاق.

﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾؛ أي: زادتهم كفروا إلى كفرهم، لأنهم كلما كفروا بسورة ازداد كفرهم.

وقوله: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾؛ معناه: يختبرون في كل عام، وقيل: يختبرون بالدعاء إلى الجهاد، وقيل: يختبرون أنه ينزل عليهم العذاب والمكروه.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾؛ يقولون ذلك إيماء لأنهم منافقون لا يظهرون ذلك.

﴿هَلْ يَرَاكُم مِن أَحَدٍ﴾؛ يقولون ذلك استسراراً وتحذراً من أن يعلم بهم الله -عز وجل- وهو أعلم.

﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾؛ أي: يفعلون ذلك وينصرفون، فجائز أن يكون ينصرفون عن المكان الذي استحقوا فيه، وجائز أن يكون ينصرفون عن العمل بشيء مما يستمعون.

﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم﴾؛ أي: أضلهم الله مجازاة على فعلهم.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنفُسِكُمْ﴾؛ أي: هو بشر مثلكم. أي: فهو أوكد للحجة عليكم لأنكم تفهمون عمن هو مثلكم.

وجائز أن يكون عني به أنه عربي كما أنكم عرب، فأنتم تخبرونه وقد وقفتم على مذهبه.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾؛ أي: عزيز عليه عنتكم، والعنت: لقاء الشدة.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾؛ أي: حريص على إيمانكم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي: الذي يكفيني الله.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾؛ و«العظيمُ» ههنا جائزان.

* * *

وقوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾[1]؛ دخلت «مِن» في الزمان، والأصل: «منذ ومذ»، هذا أكثر الاستعمال في الزمان، و«مِن» جائز أدخلوها لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعيض. ومثل هذا قول زهير [من الكامل]:

لِمَنِ الدِيارُ بِقُنَّةِ الحِجرِ أَقوَينَ مِن حِجَجٍ وَمِن شَهرِ[2]

وقيل: إن معنى هذا: من مَرِّ حجج ومن مَرِّ شهرٍ.

* * *

---

(١) عاد المصنف في نهاية السورة إلى قوله تعالى : ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾[التوبة: ١٠٨].

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨/٢٣٥)، وتفسير البيضاوي (١/١٧٢)، وزاد المسير (٣/٥٠٠)، ومفردات القرآن (١/٤٣٣)، وأسرار العربية (١/٢٤٦)، والجمل في النحو (١/١٦١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/٣٧١)، والأغاني (٦/١٠٠)، والبيان والتبيين (١/٣٤١)، ولسان العرب (٤/١٦٥)، وتاج العروس (١/ ٢٦٦٦).

سورة يونس(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله -عزّ وجل- ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾؛ قد بينا في أول البقرة ما قيل في ﴿الر﴾ وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾؛ أي: الآيات التى جرى ذكرها هي آيات الكتاب الحكيم.

وقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾؛ يعنى بالناس ههنا أهل مكة.

ويروى أنهم قالوا: العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وجائز -والله أعلم- أنهم عجبوا من أن النبي ﷺ أنذرهم وبشر الذين آمنوا، والإنذار والبشارة متصلان بالعبث والنشور، فعجبوا أن أعلمهم أنهم يبعثون. ويجازون بالحسنة والسيئة. فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة يونس من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف العاشرة. عدد آياتها تسع ومائة آية. وجاءت تسميتها يونس لذكر قصته فيها، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا بعد أن كاد يحل بهم البلاء والعذاب.

تُعنَى السورة الكريمة بأصول العقيدة الإسلامية: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالكتب، والرسل، والبعث والجزاء. وهي تتميز بطابع التوجيه إلى الإيمان بالرسالات السماوية وبوجه أخص إلى القرآن العظيم، خاتم الكتب المنزلة.

تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول، وبيّنت أن هذه سنة الله في الأولين والآخرين، فلا داعي لعجب المشركين من بعثه خاتم المرسلين ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾[يونس: ٢].

ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة الألوهية، والعبودية، وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق، وعرفت الناس بربّهم الحق الذي ينبغي أن يعبدوه. وتناولت السورة موقف المشركين من الرسالة والقرآن، وذكر أن هذا القرآن هو المعجزة الخالدة الدالة على صدق النبي الأمي، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز، حيث تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله مع أنهم أساطين الفصاحة والبلاغة والبيان. وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق، بذكر آثار قدرته ورحمته. وتحدثت السورة عن قصص بعض الأنبياء، فذكرت قصة نوح مع قومه، وقصة موسى مع فرعون الجبار، وذكرت قصة نبي الله يونس. وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، والصبر على ما يلقى من الأذى في سبيل الله.

فموضع «أن» الأولى رفع، المعنى: أكان للناس عجباً وَحْيُنَا، وموضع «أن» الثانية نصب بـ ﴿أَوْحَيْنَا﴾، وموضع «أن» المشددة نصب بـ«بشر»، والقراءة الفتح، ويجوز كسرها: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ».

لأن البشارة قول، فالمعنى: قل لهم قدم صدق عند ربهم ولكنه لا يقرأ بها إلا أن تثبت بها رواية لأن القراءة سنة.

والقدم الصدق: المنزلة الرفيعة.

﴿قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾؛ و﴿لَسِحرٌ مُبِينٌ﴾ جميعاً.

وإنما قالوا ﴿لَسِحرٌ مُبِينٌ﴾ لما أنذرهم بالبعث والنشور.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾؛ أعلمهم أن الذي خلق السموات والأرض وقدرته هذه القدرة قادر على بعثهم بعد موتهم.

وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، ولم يجر للشفيع ذكر قبل هذا، ولكن الذين خوطبوا كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فالذكر جرى بعد في الشفعاء.

فقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، أي: لا يشفع إلا لمن ارتضى الله. قال -جل وعز-: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء: ٢٨].

﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾؛ أي: فاعبدوه وحده.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾؛ يدل على أن الأمر في العجب كان في البعث والنشور.

﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾؛ ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ منصوب على معنى: وعدكم الله وعداً، لأن قوله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع، وحقاً منصوب على أحق ذلك حقاً.

ويجوز من غير القراءة: وعد الله حق.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؛ قرئت: ﴿أَنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وقرئت: ﴿إِنَّهُ﴾ بفتح الألف وكسرها، جميعاً، كثيرتان في القراءة، فمن فتح فالمعنى: إليه مرجعكم جميعاً لأنه يبدأ الخلق، ومن كسر كسر على الاستئناف والابتداء.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾؛ أي بالعدل.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾؛ وقدره يعنى القمر، لأنه المقدر لعلم السنين والحساب، وقد يجوز أن يكون المعنى: وقدرهما منازل فحذف أحداهما اختصاراً وإيجازاً كما قال الشاعر[1] [من المنسرح]:

نَحنُ بِما عِندِنا وَأَنتَ بِما عِندَكَ راضٍ وَالرَّأيُ مُختَلِفُ

وقوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾؛ معنى ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ دعاؤهم يعني إن دعاء أهل الجنة تنزيه الله وتعظيمه.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾؛ جائز أن يكون ما يحيي به بعضهم بعضاً سلام، وجائز أن يكون الله يحييهم منها بالسلام.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ أعلم الله أنهم يبتدئون بتعظيم الله رب العالمين.

و﴿أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ بالتخفيف، على حذف «أن» الشديدة والهاء، والمعنى: أنه الحمد لله رب العالمين.

وقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾؛ يروى أنهم لو أجيبوا في الدعاء على أنفسهم وأهليهم، كقول الرجل لابنه وحميمة: «أماتك الله، وفعل بك كذا كذا».

وجائز أن يكون عنى قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِن السَّمَاءِ﴾[الأنفال: ٣٢]، وما أشبه ذلك فلو عجل الله ذلك كما يعجل لهم الخير لأهلكهم به.

ونصب ﴿اسْتِعْجَالَهُم﴾ على مثل استعجالهم بالخير، أي: على نعت مصدر محذوف. والمعنى ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلاً مثل استعجالهم بالخير.

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾؛ ويقرأ: «لقَضى إليهم أجلهم» جميعاً، جيدتان، و﴿لَقُضِيَ﴾ أحسنهما، لأن قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ يتصل به ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ الطغيان في كل شي: ارتفاعه وعلوه، والعمه: التحير.

المعنى: فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في غلوهم وكفرهم يتحيرون.

وقوله ﴿إِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾؛ المعنى: -والله أعلم-:

---

(١) هو: أحيحة بن الجلاح.

وإذا مس الإنسان الضر من حال من الأحوال فجائز أن يكون دعانا لجنبه، ودعانا وهو سطيح، أو دعانا قائماً.

ويجوز أن يكون: وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو مسه قاعداً، أو مسه قائماً، دعانا.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾؛ المعنى: مر في العافية على ما كان عليه قبل أن يبتلى، ولم يتعظ بما ناله.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ ويجوز زين للمسرفين.

موضع الكاف نصب على مفعول ما لم يسم فاعله، المعنى: زين للمسرفين عملهم كذلك، أي: مثل ذلك، جعل جزاءهم الإضلال بإسرافهم بكفرهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾؛ المعنى كالمعنى من قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١].

أعلم الله -جل ثناؤه- أنهم لا يؤمنون ولو أبقاهم أبداً. فجائز أن يكون جعل جزاءهم الطبع على قلوبهم، وجائز أن يكون أعلم ما قد علم منهم.

والدليل على أنه طبع على قلوبهم جزاءً لهم قوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

قوله: ﴿كَأَن لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾؛ ﴿كَأَن﴾ مخففة من الشديدة، المعنى: كأنه لم يدعنا، قالت الخنساء [من المتقارب]:

كَأَن لَم يَكونوا حِمًى يُتَّقى إِذِ الناسُ إِذ ذاكَ مَن عَزَّ بَزّا

أي: كأنهم لم يكونوا.

وقوله: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ موضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأنها حرف استفهام، ولا يعمل فيها ﴿لِنَنظُرَ﴾ لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل في الاستفهام. ولو قلت: لننظر أخيراً تعملون أم شراً كان العامل في «خير وشر» تعملون.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾؛ منصوب على الحال.

﴿قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ لا يؤمنون بالبعث والنشور.

﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ أي: إيت بقرآن ليس فيه البعث والنشور وليس فيه عيب آلهتنا.

﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي: أو بدل منه ذكر البعث والنشور.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾؛ تأويله: إن الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدله.

﴿قُل لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

ويجوز ﴿عُمْراً﴾ بإسكان الميم، أي: قد لبثت فيكم من قبل أن يوحي إلي لا أتلوا كتاباً أخطه بيميني، وهذا دليل على أنه أوحي إلي؛ إذ كنتم تعرفونني بينكم، نشأت لا أقرأ كتاباً، وإخباري إياكم أقاصيص الأولين من غير كتاب ولا تلقين يدل على ما أتيت به من عند الله وحي.

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾؛ المعنى: ما لا يضرهم إن لم يعبدوه، ولا ينفعهم إن عبدوه.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: أتعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز، وتزعمون أنها تشفع عند الله، فتخبرون بالكذب.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾؛ قيل: يعنى بالناس ههنا العرب الذين كانوا على الشرك.

اختلفوا: آمن بعض وكفر بعض، وقيل: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: ولدوا على الفطرة، واختلفوا بعد الفطرة.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ ويجوز: «لقَضى بينهم»، أي: لولا أن الله -جل وعز- جعل لهم أجلاً في القضاء بينهم، لفصل بينهم في وقت اختلافهم.

و«بين» منصوبة لأنها ظرف.

وقوله ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَكْرٌ﴾، يعنى بالناس ههنا: الكافرون.

وقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾؛ جواب الجزاء، وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[الروم: ٣٦].

المعنى: وإن تصبهم سيئة قنطوا، وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا، فـ«إذا» تنوب عن جواب الشرط كما ينوب الفعل.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ ويجوز: «هو الذي يَسِيرُكُم»، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ﴾، الفلك: يكون واحداً ويكون جمعاً، كما أن «فُعْلاً» في قولك: «أُسْد»، جمع: «أسد» وفُعْل وفَعَل من باب واحد، جاز أن يكون جمع الفلك فلكاً.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾؛ ابتداء الكلام خطاب، وبعد ذلك إخبار عن غائب لأن من أقام الغائب مقام من يخاطبه جاز أن يرده إلى الغائب، قال الشاعر[1] [من الكامل]:

شَطَّتْ مَزارُ العاشِقينَ فأَصْبَحَتْ عَسِراً عليَّ طلابُكِ ابنَةَ مَخْرَمِ

ومثل الآية قول كثير [من الطويل].

أَسِيئي بِنا أَو أَحسِني لا مَلومَةً لَدِينا وَلا مَقلِيةً إِن تَقَلَّت

وقرأ بعضهم: «هو الذي ينشركم».

وأكثر ما جاء في التفسير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ يعنى به آدم - عليه السلام-.

﴿فَاخْتَلَفُوا﴾؛ اختلف هابيل وقابيل.

وقوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ المعنى: من كل أمكنه الموج.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾؛ يقال: لكل من وقع من بلاء قد أحيط به، أي: أحاط به البلاء وقيل: أحاطت بهم الملائكة.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ﴾؛ المعنى: فلما انجاهم بغوا، «والبغي الترامي في الفساد.

قال الأصمعي: يقال: «بغَى الجرح يَبْغِي بَغْياً» إذا ترامى إلى فساد، «وبَغَت المرأة بِغَاء» إذا فجرت.

وقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أنفُسِكُم مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ وتقرأ ﴿مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، خبراً لقوله: ﴿بَغْيُكُمْ على أنفُسِكُم﴾؛ ويجوز أن يكون خبر الابتداء ﴿على أنفُسِكُم﴾؛ ويكون ﴿مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على إضمار «هو».

---

(١) هو: عنترة.

ومعنى الكلام: أن ما تنالونه بهذا الفساد والبغي إنما تتمعون به في الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾؛ ومن نصب ﴿مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فعلى المصدر؛ المعنى: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، لأن قوله: «إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أنفسِكُم» يدل على أنهم يتمتعون.

ومعنى ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أنفسِكُم﴾ أي: عملكم بالظلم عليكم يرجع، كما قال -جل وعز- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾؛ ويقرأ: «وأَزْيَنَت».

والزخرف: كمال حسن الشيء، فمن قرأ: ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾؛ فالمعنى: وتزينت فأدغمت التاء في الزاي، وسكنت الزاي فأجتلبت لها ألف الوصل، ومن قرأ: «وأَزْيَنَت» بالتخفيف فهو على «أفعلت» أي: جاءت بالزينة، و«ازَّيَّنَتْ» بالتشديد أجود في العربية، لأن «أَزْيَنَت» الأجود فيه في الكلام: «أزانت».

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: قادرون على الانتفاع بها.

وقوله: ﴿كَأَن لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾؛ أي: كأن لم تعمر بالأمس، والمغاني: المنازل التي يعمرها الناس بالنزول بها، يقال: «غنينا بمكان كذا وكذا» إذا نزلوا به.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ﴾؛ السلام: هو الله -جلّ وعز- فالله يدعو إلى داره، وداره الجنة، ويجوز -والله أعلم- أن يكون دار السلام الدار التي يسلم فيها من الآفات.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾؛ الحسنى: الجنة، و«زيادة» في التفسير النظر إلى وجه الله -جل وعز-، ويجوز أن تكون الزيادة تضعيف الحسنات، لأنه قال -جل وعز-: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[الأنعام: ١٦٠]؛ والقول في النظر إلى وجه الله كثير في التفسير وهو مروي بالأسانيد الصحاح، لا يشك في ذلك.

﴿وَلاَ يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾؛ القتر: الغبرة التي فيها سواد، ﴿وَلاَ يَرْهَقُ﴾ لا يغشي.

وقوله -جل وعز-، لأهل النار: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾؛ ويقرأ: «قِطْعاً من الليل مظلماً» من نعت القطع، ومن قرأ «قِطَعاً» جعل مظلماً حالاً من الليل.

المعنى: اغشيت وجوههم قطعاً من الليل في حال ظلمته.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾؛ ﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أنتم وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾؛ ﴿مكانكم﴾ منصوب على الأمر، كأنه قيل لهم: انتظروا مكانكم حتى نفصل بينكم، والعرب تتوعد فتقول: «مكانك وانتظر» فهي كلمه جرت على الوعيد.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ من قولك: زِلت الشيء عن مكانه أُزيلة، وزَيَّلت للكثرة، ومن هذا إذا نحيته عن مكانه.

وقوله: ﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾؛ معناه: كفى الله شهيداً منصوب إن شئت على التمييز، وإن شئت على الحال.

﴿إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾؛ معناه: ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾؛ ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف.

المعنى: في ذلك الوقت تبلو، وهو منصوب «بتبلو» إلا أنه غير متمكن، واللام زائدة، والأصل: «هناك»، وكسرت اللام لسكونها وسكون الألف، والكاف للمخاطبة.

ومعنى ﴿تَبْلُو﴾ تخبر، أي: تعلم كل نفس ما قدمت، ومثل «هنالك» قول زهير:

هُنالِكَ إن يُستَخبَلوا المالَ يُخبِلوا ... وَإِن يُسأَلوا يُعطوا وَإِن يَيسِروا يُغلوا[1]

وقرئت «هنالك تتلو» بتاءين، وفسرها الأخفش وغيره من النحويين: تتلو من التلاوه أي: تقرأ كل نفس، ودليل ذلك قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إلى قوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾[الإسراء: ١٣، ١٤]؛ وفسروه أيضاً: تتبع كل نفس ما أسفلت، ومثله قول الشاعر:

قَدْ جَعَلْت دَلْوِي تَسْتَتْلِينِي ... وَلاَ أُحِبُّ تَبَعَ القَرِينِ

أي: تسستتبعني، أي: تستدعي اتباعي لها.

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الحَقِّ﴾؛ القراءة ﴿الحَقِّ﴾ من صفة الله -عز وجل- ويجوز «الحقِ والحقَّ» والنصب من جهتين:

إحداهما: ردو حقاً، ثم أدخلت الألف واللام، ويجوز على تقدير: هو ملاهم الحق، أي: يحق ذلك حقاً، وفيه جهة ثالثة في النصب على المدح هي: «اذكر مولاهم الحق».

ومن قرأ «الحقُّ» -بضم القاف- فعلى: هو مولاهم الحق، لا من جعلوا معه من

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦١٨/١٠)، ومفردات القرآن (٣٨٩/١)، ولسان العرب (١٩٦/١١)، وتاج العروس (٧٠١٩/١).

الشركاء، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ﴾؛ بعد أن قرروا فقيل لهم: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ﴾.

لما خوطبوا بما لا يقدر عليه إلا الله -جل وعز- كان فيه دليل على توحيده.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾؛ الكاف في موضع نصب، أي: مثل أفعالهم جازاهم ربك.

وقوله: ﴿أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: حق عليهم أنهم لا يؤمنون، فإنهم لا يؤمنون بدل من «كلمة ربك»، أعلم الله أنهم بأعمالهم قد منعوا من الإيمان، وجائز أن تكون الكلمة خفت عليهم لأنهم لا يؤمنون، فإنهم بدل من «كلمة ربك» وتكون «الكلمة» ما وعدوا به من العقاب.

وقوله: ﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾؛ تقول: «هُدِيت إلى الحق، وهدَيت الحق» بمعنى واحد، لأن «هديت» يتعدى إلى المهديين و«إلى الحق» يتعدى بحرف جر.

المعنى: يهدي من يشاء للحق.

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّي إلا أَن يُهْدَى﴾؛ أي: فرروا، فقيل لهم: أيُّ أولى بالاتباع؟ الذي يهدي أم الذي لا يهدي إلا أن يهدى، وجاء في التفسير أنه يعني به الأصنام.

وفي «يهدي» قراءات، قرأ بعضهم: «أم من لا يهْدْي» بإسكان الهاء والدال، وهذه القراءة مروية إلا أن اللفظ بها ممتنع، فلست أدري كيف قرئ بها وهي شاذة.

وقد حكى سيبويه أن مثلها قد يتكلم به.

وقرأ أبو عمرو بن العلاء «أم لا يهَدي» -بفتح الهاء- وهذا صحيح جيد بالغ الأصل «يهتدي» فأدغم التاء في الدال وطرح فتحتها على الهاء، والذين جمعوا بين ساكنين. الأصل عندهم أيضاً: «يهتدي»، فأدغمت التاء في الدال وتركت الهاء ساكنة فاجتمع ساكنان.

وقرأ عاصم «أم من لا يَهِدِّي»، وهي في الجودة كفتح الهاء في الجودة.

والهاء على هذه القراءة مكسورة لالتقاء الساكنين، ورويت عن عاصم أيضاً «يِهِدِّي»

بكسر الهاء والياء. أتبع الكسرة الكسرة، وهي رديئة لنقل الكسر في الياء.

وقرئت «أم من لا يهدي» بدال خفيفة. فهذه خمسة أوجه قد قرئ بها هذا الحرف.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلام تام، كأنه قيل لهم: أي شيء لكم في عبادة الأوثان، ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: على أي حال تحكمون، فموضع «كيف» نصب «بتحكمون».

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ هذا جواب لقولهم: إيت بقرآن غير هذا أو بدله، وجواب لقولهم افتراه؛ والمعنى: وما كان هذا القرآن لأن يفترى من دون الله، ويجوز أن يكون المعنى: وما كان هذا القرآن افتراء، كما تقول: وما كان هذا الكلام كذباً.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون تصديق الشيء الذي القرآن بين يديه، أي: الذي قبل سماعكم القرآن، أي: تصديق من أنباء الأمم السالفة وأقاصيص أنبائهم.

ويجوز أن يكون «ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن»، أي: تصديق الشيء الذي تقدمة القرآن أي: يدل على البعث والنشور.

وقرئ: «ولكن تصديقٌ الذي بين يديه»، فمن نصب فإن المعنى: ولكن كان تصديق الذي بين يديه، ومن رفع فعلى: ولكن تصديق الذي هو بين يديه ومن رفع قال: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ المعنى: بل أيقولون افتراه، هذا تقرير لهم لإقامة الحجة عليهم ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾؛ أي: أتقولون النبي اختلقه وأتى به من ذات نفسه فأتوا بسورة من مثله، أي: بسورة مثل سورة منه، وإنما قيل مثله، يراد سورة منه لأنه إنما التمس من هذا شبه الجنس.

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾؛ ممن هو في التكذيب مثلكم، وإن خالفكم في أشياء.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ في أنه اختلقه.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾؛ هذا، -والله أعلم- قيل في الذين كذبوا، وهم شاكون ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ أي: لم يكن معهم علم تأويله، وهذا دليل أن علم التأويل ينبغي أن ينظر فيه، ويجوز أن يكون: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ لم يأتهم ما يؤول إليه أمرهم في

التكذيب به من العقوبة ودليل هذا القول: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

«كيف» في موضع نصب على خبر كان، ولا يجوز أن يعمل فيها «انظر» لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَن لا يُؤْمِنُ بِهِ﴾؛ أي: منهم من يعلم أنه حق فيصدق به، أو يعاند فيظهر الكفر.

﴿وَمِنْهُم مَن لا يُؤْمِنُ بِهِ﴾: أي: منهم من يشك ولا يصدق.

﴿وَمِنْهُم مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾؛ أي: ظاهرهم من يستمع، وهم لشدة عداوتهم وبغضهم للنبي ﷺ وسوء استماعهم بمنزلة الصم.

﴿وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: ولو كانوا مع ذلك جهالاً، وهذا مثل قول الشاعر.

* أصم عما ساءه سميع *

﴿وَمِنْهُم مَن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ﴾؛ أي: يقبل عليك بالنظر وهو كالأعمى من بُغضه لك وكراهته لما يراه من آياتك، كما قال -عز وجل- ﴿لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[الكهف: ١٩].

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾؛ يعرف بعضهم بعضاً، وفي معرفة بعضهم بعضاً وعلم بعضهم بإضلال بعض، التوبيخ لهم وإثبات الحجة عليهم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾؛ يجوز -والله أعلم- أن يكون هذا إعلاماً من الله -جل وعز- بعد أن بين الدلالة على أمر البعث والنشور، أنه من كذب بعد هذه الآية فقد خسر ويجوز أن يكون -والله أعلم- بتعارفهم بينهم يقولون قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله.

وقوله ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾؛ يقال في التفسير: إنه يعني به وقعة بدر، وقيل: إن الله -جل وعز- أعلم النبي ﷺ أنه ينتقم من بعض هذه الأمة ولم يعلمه أيكون ذلك قبل وفاته أم بعدها.

والذي تدل عليه الآية أن الله -جل وعز- أعلمه أنه إن لم ينتقم منهم في العاجل انتقم منهم في الآجل، لأن قوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ يدل على ذلك.

وقد أعلم كيف المجازاة على الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾؛ المعنى: -والله أعلم- أن كل رسول شاهد على أمته بإيمانهم وكفرهم كما قال -جل وعز- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[البقرة: ١٤٣]، وكما قال -جل وعز-: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[الفرقان: ٣٠].

ويجوز -والله أعلم- أن الله أعلم أنه لا يعذب قوماً إلا بعد الإعذار إليهم والإنذار، أي: لم يعذبهم حتى يجيئهم الرسول، كما قال -جل وعز-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥]، وكما قال: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥].

وقوله -جل وعز-: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً﴾؛ البيات كل ما كان بليل، وهو منصوب على الوقت.

وقوله: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ «ما» في موضع رفع من جهتين:

إحداهما: أن يكون «ذا» بمعنى «ما الذي» يستعجل منه المجرمون، ويجوز أن يكون «ماذا» اسماً واحداً، ويكون المعنى: أي: شيء يستعجل منه المجرمون.

والهاء في «منه» يعود على العذاب نصب؛ فيكون المعنى: أي شيء يستعجل المجرمون من الله -جل وعز-، والأجود أن تكون الهاء تعود على العذاب، لقوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾.

وقوله ﴿آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ المعنى: الآن تؤمنون، فزعم الفراء أن «الآن» إنما هو «أن كذا وكذا»، وأن الألف واللام دخلت على جهة الحكاية.

وما كان على جهة الحكاية نحو قولك «قام» إذا سميت به فجعلته مبنياً على الفتح تدخله الألف واللام. و«الآن» عند سيبويه مبني على الفتح. نحو «نحن من الآن نصير إليك». فتفتح لأن الألف واللام إنما تدخل لعهد، و«الآن» لم تعهده قبل هذا الوقت فدخلت الألف واللام للإشارة إلى الوقت؛ والمعنى: نحن من هذا الوقت نفعل، فلما تضمنت معنى هذا، وجب أن تكون موقوفة ففتحت لالتقاء الساكنين، وهما الألف واللام.

وقوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾؛ المعنى: نعم وربي.

﴿وَمَا أَنتم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ أي: لستم ممن يعجز أن يجازى على كفره.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾؛ هؤلاء الدعاة الرؤساء الكفرة، أسروا ندامتهم.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ يعني القرآن.

وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؛ اللام أصلها الكسر. و﴿فَبِذَلِكَ﴾ بدل من قوله ﴿بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾؛ وهو يدل على أنه يعنى به القرآن أيضاً.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً﴾؛ «ما» في موضع نصب بأنزل.

والمعنى: إنكم جعلتم البحائر والسوائب حراماً والله لم يحرم ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قرآن وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾؛ أي: أي وقت تكون في شأن من عبادة الله، وما تلوت به من الشأن من قرآن.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: إذ تنتشرون فيه، يقال: أفاض القوم في الحديث إذا انتشروا فيه وخاضوا.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ يقرأ «يعزُب ويعزِب» بضم الزاي وكسرها.

ومعناه: ما يبعد، والمثقال والثقل: في معنى واحد.

﴿وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ﴾؛ فالفتح: على ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر، والموضع موضع جر إلا أنه فتح لأنه لا ينصرف. ومن رفع؛ فالمعنى: ما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين. والخبر قوله: ﴿إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

وقوله: ﴿لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾؛ جاء في أكثر التفسير: «البشرى»، الرؤيا الصالحة يراها المؤمن في منامه، وفي الآخرة الجنة، وهو -والله أعلم- أن البشرى ما بشرهم الله به، وهو قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾[التوبة: ٢١]، وهذا يدل عليه: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾؛ أي: لا يحزنك إبعادهم وتكذيبهم وتظاهرهم عليك.

﴿إِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾؛ إن الغلبة لله فهو ناصرك وناصر دينه.

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ يفعل فيهم ما يشاء.

وقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾؛ المعنى: ما عندكم من حجة بهذا.

﴿قُلْ إن الذينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾؛ هذا وقف التمام.

وقوله: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾؛ مرفوع على معنى: ذلك متاع في الدنيا، ولو كانت نصباً لجازت، إلا أنه لا يقرأ بها لمخالفة المصحف.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا أمركم وَشُرَكَاءَكُمْ﴾؛ ويقرأ: ﴿فاجْمِعُوا أمركم وَشُرَكَاءَكُمْ﴾.

زعم الفراء أن معناه: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم. وهذا غلط لأن الكلام لا فائدة فيه، لأنهم إن كانوا يدعون شركاءهم لأن يجمعوا أمرهم فالمعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، كما تقول: «لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها»؛ المعنى: لو تركت مع فصيلها لرضعها.

ومن قرأ - «وشركاؤكم» جاز أن يعطف به على الواو، لأن المنصوب قد قوى الكلام. لو قلت: «لو تركت اليوم وزيد لعلمت» جاز ولو قلت: لو تركت وزيد لقبح، لأنك لا تعطف على الضمير المرفوع حتى تقوي المرفوع بلفظ معه.

ومن قرأ «وَشُرَكَاءَكُمْ» في قوله ﴿فاجْمِعُوا أمركم﴾ بوصل الألف.

فنصبه على ضربين؛ أحدهما: العطف على الأمر؛ المعنى: فاجمعوا أمركم واجمعوا شركاءكم ويكون فاجمعوا مع شركائكم أمركم.

﴿ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً، كما قال رؤبة [الرجز]:

بَل لَو شَهِدتَ الناسَ إِذ تُكُمّوا   بَل لَو شَهِدتَ الناسَ إِذ تُكُمّوا[1]

غموا بالمكروه بغمة أي: ما يسترهم واشتقاق ذلك من «الغمامة» التي تستر، ويجوز لا يكن أمركم عليكم غمة أي: غماً.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾؛ قرئت «ثم أقضوا إليّ»، فمن قال: «ثم اقضوا إلي»؛ فالمعنى: ثم افعلوا ما تريدون. و «ثم افضوا» -بالفاء- وهي قريبة المعنى: منها.

وقوله: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾؛ هذا الكلام تقرير لقولهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٨٤/٦)، وتفسير القرطبي (٣٢٣/٨)، ولسان العرب (٤٤١/١٢)، وتاج العروس (٧٨٨٣/١).

﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ هذا اللفظ، أي: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾، ثم قررهم فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾.

والمفلح: الذي يفوز بإرادته أي: فكيف يكون هذا سحراً وقد أفلح الذي أتى به، أي: فاز وفلح في حجته.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾؛ أي: لتصرفنا وتعدلنا، يقال: لفته عن الأمر أَلْفته لفتاً إذا عدلته عنه، ومن هذا قولهم: «التفت إليه» أي: عدل وجهه إليه.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾؛ الكبرياء: الملك، وإنما سمي «الملك» كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا.

وقوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾؛ أي: قال موسى: الذي جئتم به السحر، ويقرأ: «ما جئتم به السحر»؛ والمعنى: أي: شيء جئتم السحر. هو على جهة التوبيخ لهم.

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلا ذُرِّيَّةٌ مِن قَوْمِهِ﴾؛ قيل: إنه مكث يدعو الآباء فلم يؤمنوا، وآمنت طائفة من أولادهم.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛ جاز أن يقال: «ملئهم لأن فرعون ذو أصحاب يأتمرون له»، والملأ من القوم الرؤساء الذين يرجع إلى قولهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: لا تهلكنا وتعذبنا فيظن آل فرعون أنا إنما عذبنا لأننا على ضلال.

وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾.

جاء في التفسير: اجعلوا صلاتكم إلى البيت الحرام، وقيل: اجعلوا بيوتكم قبلة أي: صلوا في بيوتكم لتأمنوا من الخوف لأنهم آمنوا على خوف من فرعون.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾؛ ويقرأ: «لِيَضِلوا عن سبيلك» أي: إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا فأصارهم ذلك إلى الضلال كما قال -جل وعز- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾[القصص: ٨] أي: فالتقطوه، وآل أمره أن صار لهم عدواً وحزناً، لا أنهم قصدوا إلى أن يكون لهم عدواً وحزناً.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾؛ جاء في التفسير أي: اجعل سكرهم حجارة؛ وتأويل تطميس الشيء: إذهابه عن صورته والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها.

﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: اطبع على قلوبهم.

﴿فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾؛ دعاء أيضاً عليهم.

ويجوز -والله أعلم- ما قاله محمد بن يزيد. ذكر أن قوله: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُوا﴾ عطف على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: ربنا إنك آتيتهم ليضلوا فلا يؤمنوا.

وقوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾؛ يروى في التفسير: أن موسى دعا، وأن هارون أمن على دعائه. وفي الآية دليل أنهما دعوا جميعاً لأن قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ يدل أن الدعوة منهما جميعاً، والمؤمن على دعاء الداعي داع أيضاً لأن «آمين» تأويله: استجب فهو سائل كسؤال الداعي.

وقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾؛ موضع ﴿تَتَّبِعَانِّ﴾ جزم، إلا أن النون الشديدة دخلت للنهي مؤكدة، وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها، واختير لها الكسر لأنها بعد الألف، فشبهت بنون الاثنين.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ﴾؛ جعله الله يبساً حتى جاوزه.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾؛ ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نلقيك عرياناً، وقيل: ننجيك ببدنك نلقيك على نجوة من الأرض، وإنما كان ذلك آية لأنه كان يدعي أنه إله وكان يعبده قومه، فبين الله أمره وأنه عبد.

وفيه من الآية أنه غرق القوم وأخرج هو من بينهم فكان في ذلك آية.

وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزلنا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَئُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ هذه آية قد كثر سؤال الناس عنها وخوضهم فيها جداً، وفي السورة ما يدل على بيانها وكشف حقيقتها.

والمعنى: أن الله -جل وعز- خاطب النبي ﷺ وذلك الخطاب شامل للخلق؛ فالمعنى: أإن كنتم في شك فاسألوا، والدليل على ذلك قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ فأعلم الله -جل وعز- أن نبيه ﷺ ليس في شك، وأمره أن يتلو عليهم ذلك.

ويروى عن الحسن أنه قال: لم يسأل ولم يشك، فهذا بين جداً.

والدليل على أن المخاطبة للنبي مخاطبة للناس قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[الطلاق: ١]؛ فقال طلقتم ولفظ أول الخطاب للنبي وحده فهذا أحسن الأقوال قولان آخران.

فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين، كما تقول للرجل: إن كنت أبي

فتعطف علي أي: إن كنت أبي فواجب أن تتعطف علي، ليس أنه شك في أنه أبوه.

وفيها وجه ثالث: أن تكون «أن» في معنى «ما» فيكون المعنى: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، فاسأل الذين يقرؤون، أي: لسنا نأمرك لأنك شاك، ولكن لتزداد، كما قال إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠] فالزيادة في التثبيت ليست مما يبطل صحة القصد.

﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمنت فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾؛ فهلا كانت قرية، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

تَعُدُّون عَقرَ النيب أفضلَ مجدِكُم بَني ضوطرى لولا الكميَّ المُقنَّعا[2]

أي: فهلا تعدون الكمي، الداخل في السلاح.

والمعنى: فهلا كان أهل قرية آمنوا.

وقوله: ﴿إلا قَوْمَ يُونُسَ﴾؛ استثناء ليس من الأول، كأنه قال: لكن قوم يونس لما آمنوا.

وقوله ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾؛ معناه: هلا كانت قرية آمنت في وقت ينفعهم الإيمان، وجرى هذا بعقب قول فرعون لما أدركه الغرق: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾.

فأعلم الله -جل وعز- أن الإيمان لا ينفع عند وقوع العذاب ولا عند حضور الموت الذي لا يشك فيه. قال الله -جل وعز-: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[النساء: ١٨]؛ وقوم يونس -والله أعلم- لم يقع بهم العذاب، إنما رأوا الآية التي تدل على العذاب، فلما آمنوا كشفت عنهم.

ومثل ذلك العليل الذي يتوب في مرضه وهو يرجو في مرضه العافية ولا يخاف الموت فتوبته صحيحة.

أما الذي يعاين فلا توبة له، قال الله -عز وجل- في قصته: ﴿وَإِن مِن أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ

---

(١) هو: جرير.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١/٥٥٩)، وتفسير القرطبي (٢/٨٩)، وروح المعاني (١١/١٩١)، ومعاني القرآن (٤/١٠)، والجمل في النحو (١/١٢٨)، والخصائص (٢/٤٥)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/٤٣٢)، وشرح ابن عقيل (٤/٥٨)، وحروف المعاني (١/٤)، ومغني اللبيب (١/٣٦١)، ولسان العرب (٤/٤٨٩)، وتاج العروس (١/٣٠٩٥).

﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[النساء: ١٥٩]؛ فأما النصب في قوله: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ فمثله من الشعر قول النابغة [من البسيط]:

وَقَفتُ فيها أُصَيلاناً أُسائِلُها عَيَّت جَواباً وَما بِالرَّبعِ مِن أَحَدِ
إِلا الأَوارِيَّ لأياً ما أُبَيِّنُها وَالنُؤيَ كَالحَوضِ بِالمَظلومَةِ الجَلَدِ(١)

ويجوز الرفع على أن يكون على معنى: فهلا كانت قرية آمنت غير قوم يونس، فيكون ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ صفة.

ويجوز أن يكون بدلاً من الأول، لأن معنى يونس محمول على معنى «هلا كان قرية»، أو قوم نبي آمنوا إلا قوم يونس ولا أعلم أحداً قرأ بالرفع.

وفي الرفع وجه آخر وهو البدل، وإن لم يكن الثاني من جنس الأول، كما قال الشاعر.

وبلدة لَيْسَ بِهَا أنيسُ إلا اليعافير وإلا العيسُ(٢)

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ معناها: وما كان لنفس الوصلة إلى الإيمان إلا بما أعلمها الله منه، ويكون أيضاً إلا بتوفيق الله، وهو إذنه.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾؛ والرجس العذاب، ويقال هو الرجز.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ و «ننجئ»، أي: إذا أهلكت قرى أنجى الله الأنبياء، والمؤمنين مما ينزل بأهلها.

فإن قال قائل: فهلا كانت قرية آمنت، ألم يؤمن أحد من أهل القرى ؟

فالمعنى: أن أهل القرى ذكر الله في جمهورهم الكفر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف: ٩٦].

فأما من قرأ «نُجّي المؤمنين» فلا وجه له. وقد نجي النجاء المؤمنين، وهذا روي في القراءة عن عاصم في سورة الأنبياء ولا وجه له.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/٢٧٦)، وتفسير القرطبي (٥/٢٩٧)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١/١٧٠)، والأغاني (١١/٣٣)، ولسان العرب (١٥/٣٦٤).

(٢) مر ذكره.

سورة هود (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياته﴾.

«كتاب» مرفوع بإضمار: هذا كتاب، وقال بعضهم: كتاب خبر «الر» وهذا غلط، لأن قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياته ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ ليس هو «الر» وحدها.

وفي التفسير ﴿أُحْكِمَتْ آياته﴾ بالأمر والنهي والحلال والحرام.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعد والوعيد.

والمعنى: -والله أعلم- أن آياته أحكمت وفصلت بجميع ما يحتاج إليه من الدلالة على التوحيد، وإثبات نبوة الأنبياء -عليهم السلام- وإقامة الشرائع.

والدليل على ذلك قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨]، وقوله ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[يوسف: ١١١]؛ ويدل على هذا قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ الله إِنَّنِي لَكُم

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة:** سورة هود من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الحادية عشرة. عدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية.

وجاءت تسميتها هود تخليدًا لجهود نبي الله هود الكريمة في الدعوة إلى الله.

تُعنَى هذه السورة الكريمة بأصول العقيدة الإسلامية: التوحيد، والرسالة، والبعث والجزاء. وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقاه من أذى المشركين لاسيما بعد الفترة العصيبة التي مرت به بعد وفاة عمه أبي طالب، وزوجه خديجة.

ابتدأت السورة بتمجيد القرآن العظيم الذي أحكمت آياته فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض، ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية، عن طريق الحجج العقلية، مع الموازنة بين الفريقين: فريق الهدى، وفريق الضلال، وضربت مثلاً للفريقين، ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة نوح عليه السلام، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوح والمؤمنون الذين ركبوا معه السفينة، وهو أطول عمرًا، وأكثر الأنبياء بلاء وصبرًا. ثم ذكرت قصة هود عليه السلام فقد أرسله الله تعالى إلى قوم عاد العتاة المتجبرين، وقد أسهبت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين. ثم تلتها قصة نبي الله ((صالح)) ثم قصة ((لوط)) ثم قصة ((شعيب)) ثم قصة ((موسى وهارون)) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم أعقب القصص ما جاء من عبر وعظات.

وختمت السورة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين، وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدئت به ليتناسق البدء مع الختام.

مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

المعنى: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ أي: من عند حكيم خبير، لأن لا تعبدوا إلا الله. وموضع «أن» نصب على كل حال.

وقوله: ﴿إِنَّنِي﴾؛ مقول قول مقدر، أي: قل يا محمد لهم: إنني ﴿لَكُم مِنْهُ﴾، أي: من جهة الله ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: مخوف من عذابه لمن كفر، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة لمن آمن.

وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: وأمركم بالاستغفار.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعاً حَسَناً﴾؛ أي: يبقيكم ولا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل أهل القرى الذين كفروا.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؛ أي: من كان ذا فضل في دينه فضله الله بالثواب، وفضله بالمنزلة في الدنيا بالدين كما فضل أصحاب نبيه -عليه السلام-.

وقوله: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ «ألا» معناها التنبيه ولا حظ لها في الإعراب، وما بعدها مبتدأ.

ومعنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا﴾، أي: يسرون عداوة النبي ﷺ.

وقيل: إن طائفة من المشركين قالت: إذا أغلقنا أبوابنا وأرخينا ستورنا، واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ كيف يعلم بنا، فأعلم -جل وعز- بما كتموه فقال -جل ثناؤه-: ﴿أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ وقرئت «ألا إنهم يثنوني صدورهم». قرأها الأعمش ورويت عن ابن عباس «تثنوني» صدورهم، على مثال: «تَفْعَوْعِلْ» ومعناها: المبالغة في الشيء، ومثل ذلك: «قد احلولي الشيء» إذا بلغ الغاية في الحلاوة.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾؛ قيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ ماؤها على ظهر الأرض، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ما تصير إليه، وقيل أيضاً: مستقرها في الأصلاب ومستودعها من الأرحام.

وقوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: ذلك ثابت من علم الله. فجائز أن يكون في كتاب، وكذلك قوله -جل وعز-: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا﴾[الحديد: ٢٢].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيامٍ﴾ الله قادر على أن يخلقها في لحظة، لأنه على كل شيء قدير، وإذا خلقهما وقدرهما هذا القدر العظيم، والسماء

ليس بينها وبين الأرض عمد يرى في ستة أيام علم أن من كانت قدرته هذه القدرة لم يعجزه شيء. قال الله -جل وعز-: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يحيي المَوْتَى﴾؛ وكان المشركون يكذبون بأنه يبعث الموتى أنه خالق السماوات والارض.

وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾؛ هذا يدل على أن العرش والماء كانا قبل السماوات والأرض.

وقوله ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾؛ معناه: ليختبركم الاختبار الذي يجازيكم عليه، وهو قد علم قبل ذلك أيهم أحسن عملاً، إلا أنه يجازيهم على أعمالهم لا على علمه فيهم.

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾؛ ويقرأ: ((إلا ساحر مبين)).

والسحر باطل عندهم، فكأنهم قالوا: هذا إلا باطل بيّن.

وأعلمهم الله -عز وجل- أن القدرة على خلق السماوات والأرض تدل على بعث الموتى. وأهل الكفر مختلفون في البعث فالمشركون يقولون: إنهم لا يبعثون البتة ولا يرجعون بعد موتهم واليهود والنصارى يزعمان أن لا أكل ولا شرب ولا غشياً للنساء في الجنة وكل كافر بالبعث على جهته.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾؛ معناه: إلى أجل وحين معلوم، كما قال الله -تعالى- ﴿.. وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[يوسف: ٤٥] أي: بعد حين.

وقوله: ﴿أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾؛ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ منصوب بمصروف.

المعنى: ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ كما تقول: أحاط بفلان عمله، وأهلكه كسبه، أي: أهلك جزاء كسبه وعاقبته.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾.

يعني الكافر، والرحمة: الرزق ههنا، والإنسان: اسم للجنس في معنى الناس.

وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء ليس من الأول.

المعنى: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾؛ يروى أن

المشركين قالوا للنبي ﷺ لو تركت عيبنا وسب آلهتنا لجالسناك، ومعنى أن يقولوا ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ معناه: كراهة أن يقولوا.

﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ﴾؛ أي: إنما عليك أن تنذرهم وتأتيهم من الآيات بما يوحى إليك وليس عليك أن تأتيهم بشهواتهم واقتراحهم الآيات.

ثم أعلمهم وجه الاحتجاج عليهم فقال -جل وعز-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: يقولون افتراه.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾؛ أي: مثل سورة منه، أي: سورة منها.

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: اطلبوا من يعاونكم على ذلك كل من قدرتم عليه، ورجوتم مظاهرته ومعاونته.

﴿فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعلموا أنمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾؛ ومعنى ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: أنزل والله عالم بإنزاله، وعالم أنه حق من عنده.

ويجوز أن يكون -والله أعلم- ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: بما أنبأ الله فيه من غيب ودل على ما سيكون وما سلف مما لم يقرأ به النبي ﷺ كتاباً وهذا دليل على أنه من عند الله.

وقوله -تعالى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِم أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: نجازيهم على أعمالهم في الدنيا.

فأما كان في باب حروف الجزاء ففيها قولان:

قال أبو العباس محمد بن يزيد: جائز أن تكون لقوتها على معنى المضي عبارة عن كل فعل ماض، فهذا هو قوتها وكذلك تتأول قوله ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾.

وحقيقها -والله أعلم- من تعلم منه هذا، فهذا على باب سائر الأفعال، إلا أن معنى ﴿كَانَ﴾ إخبار عن الحال فيما مضى من الدهر، فإذا قلت: سيكون عالماً فقد أنبأت أن حاله ستقع فيما يستقبل، إنما معنى «كان ويكون» العبارة عن الأفعال والأحوال.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾؛ قيل: في التفسير أنه يعني محمداً ﷺ.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾؛ أي: شاهد من ربه، والشاهد: جبريل، وقيل: يتلوه البرهان، والذي جرى ذكر البينة، لأن البينة والبرهان بمعنى واحد.

وقيل: ويتلوه شاهد منه يعني لسان النبي ﷺ أي: أفمن كان على بينة من ربه، وكان

معه من الفضل ما يبين تلك البينة كان هو وغيره سواء، وترك ذكر المضاد له لأن فيما بعده دليلاً عليه.

وقوله: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾؛ ويجوز أن يكون -والله أعلم- أفمن كان على بينة من ربه يعنى به النبي ﷺ المؤمنين، ويكون معنى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ يتلوه ويتبعه، أي: يتبع البيان شاهد من ذلك البيان، ويكون الدليل على هذا القول: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ويكون دليله أيضاً: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، فاتباع الشاهد بعد البيان كاتباع التفصيل بعد الإحكام.

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾؛ أي: وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ ويكون كتاب موسى على العطف على قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾، أي: وكان يتلوه كتاب موسى، لأن النبي بشر به موسى وعيسى في التوراة والإنجيل، قال الله -جل وعز-: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ونصب ﴿إِمَاماً﴾ على الحال، لأن كتاب موسى معرفة.

﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾؛ يجوز كسر الميم في «مرية» وضمها وقد قرئ بهما جميعاً في «مِرية ومُرية».

ويجوز نصب ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾، ويكون المعنى: ويتلوه شاهد منه وهو الذي كان يتلوه كتاب موسى، والأجود الرفع، والقراءة بالرفع لا غير.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأشهاد هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾؛ الأشهاد: هم الأنبياء والمؤمنون، وقال: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾، والخلق كلهم يعرضون على ربهم، كما قال -جل ثناؤه- ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[لقمان: ٢٣] و ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فذكر عرضهم على ربهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم.

وقوله: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ لعنة الله إبعاده من عفوه ورحمته.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾؛ أي: يصدون عن طريق الإيمان بالنبي ﷺ يريدون رد السبيل التي هي الإيمان والاستواء إلى الكفر والاعوجاج عن القصد.

﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾؛ ذكرت هم ثانية على جهة التوكيد لشأنهم في الكفر.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: الله لا يعجزه انتقام من دار الدنيا، ولا ولي يمنع انتقام الله لمن أراد به النقمة.

ثم استأنف فقال: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾؛ فوصف مضاعفة العذاب على قدر ما وصف من عظم كفرهم بنبيه ﷺ وبالبعث والنشور.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: من شدة كفرهم وعداوتهم للنبي لا يستطيعون أن يسمعوا ما يقول.

ثم بين -جل وعز- ضرر ذلك عليهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾؛ قال المفسرون: المعنى: جزاء حقاً، أنهم في الآخرة هم الأخسرون وزعم سيبويه أن جرم بمعنى حق، قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فَزَارَةُ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا[1]

معناه: أحقت فزارة الطعنة بالغضب.

ومعنى «لا» نفي لما ظنوا أنه ينفعهم، كأن المعنى: لا ينفعهم ذلك جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون، أي: كسب ذلك الفعل لهم الخسران.

ثم ضرب الله مثلاً للمؤمنين والكافرين فقال: ﴿مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾؛ ومثل فريق الكافرين كالأعمى والأصم لأنهم في عداوتهم وتركهم التفهم كمن لا يسمع ولا يبصر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أرسلنا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾؛ كسر «إن» في القراءة على معنى قال لهم: إني لكم نذير مبين، ويجوز: «أني لكم نذير مبين» على معنى: لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بالإنذار أن تعبدوا.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؛ يجوز في غير القراءة: «إني أخاف عليكم عذاب يوم أليماً»، لأن الأليم صفة للعذاب، وإنما وصف اليوم بالألم، لأن الألم فيه يقع.

والمعنى: عذاب يوم مؤلم، أي: موجع.

﴿فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾؛ ﴿المَلأُ﴾ رؤساء القوم وكبراؤهم الذين هم ملأ بالرأي وبما يحتاج إليه منهم. أي: فأجابوه بهذا الجواب والقول.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/٤٠٠)، وتفسير القرطبي (٦/٣٦)، وفتح القدير (٢/٩)، وروح المعاني (١٢/ ١٢١)، وزاد المسير (٤/٩٢)، وحروف المعاني (١/٧٢)، وأدب الكاتب (١/٥٠)، ولسان العرب (١٢/٩٠)، وتاج العروس (١/٧٦٤٥).

﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا﴾؛ أي: ما نراك إلا إنساناً مثلنا، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾؛ أي: لم يتبعك الملأ منا، وإنما اتبعك أخساؤنا.

وقوله: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾؛ بغير همز في «بادي»، وأبو عمرو يهمز ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾، أي: اتبعوا اتباعاً في ظاهر ما يرى، هذا فيمن لم يهمز، ويكون التفسير على نوعين في هذا؛ أحدهما: أن يكون اتبعوك في الظاهر وباطنهم على خلاف ذلك.

ويجوز أن يكون اتبعوك في ظاهر الرأي ولم يتدبروا ما قلت ابتداء الرأي، أي: حين ابتدأوا ينظرون وإذا فكروا لم يتبعوك.

فأما نصب ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ فعلى: اتبعوك في ظاهر الرأي، وعلى ظاهر الرأي، كأنه قال: الاتباع الذي لم يفكروا فيه. ومن قال بادي الرأي فعلى ذلك نصبه.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِن عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ كذا أكثر القراءة بفتح العين والتخفيف، وقد قرئت: «فعُمِّيت عليكم» بضم العين وتشديد الميم.

هذا ما أجابهم به في أن قالوا: إن الذين اتبعوك إنما اتبعوك غير محققين. فأعلمهم أنهم محققون بهذا القول لأنه إذا كان على بينة من آمن به فعالم بصير مفضول له، وأن من لم يفهم البينة فقد عمي الصواب.

وقوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: فعميت البينة عليكم

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾؛ القراءة بضم الميم، ويجوز إسكانها على بُعد لكثرة الحركات وثقل الضمة بعد الكسرة. وسيبويه والخليل لا يجيزان إسكان حرف الإعراب إلا في اضطرار، فأما ما روي عن أبي عمرو من الإسكان فلم يضبط ذلك عنه، ورواه عنه سيبويه أنه كان يخفف الحركات ويختلسها، وهذا هو الوجه.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾؛ إذا لاقوا ربهم جازى من ظلمهم وطردهم، بجزائه من العذاب.

وقوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾؛ ﴿تَزْدَرِي﴾ تستسفل وتستخس.

يقال: زَرَيت على الرجل إذا عبت عليه وخسست فعله. وأَزْرَيت إذا قصرت به «وتزدري» أصله: «تزتري» بالتاء، إلا أن هذه التاء تبدل بعد الزاي دالاً، لأن التاء من حروف الهمس، وحروف الهمس خفية فالتاء بعد الزاي تخفى، فأبدلت منها الدال

لجهرها، وكذلك «يفتعل» من الزينة: «يزدان»، تقول: أنت تزدان يا هذا.

وقوله: ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾؛ لأنهم قالوا: ﴿اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

وقوله: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في ظاهر الرأي والذي أدعو إليه توحيد الله، فإذا رأيت من يوحد الله -جل ثناؤه- عملت ظاهره، والله أعلم بما في نفسه، لا يعلم الغيب إلا الله.

وقوله: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ ويقرأ: «فأكثرت جدلنا»، والجدل والجدال المبالغة في الخصومة والمناظرة، وهو مأخوذ من الجدل وهو شدة الفتل، والصقر يقال له: «أجدل» لأنه من أشد الطير.

وقوله: ﴿إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾؛ ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾ يضلكم ويهلككم.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ معناه: بل أيقولون افتراه.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾؛ من قولك: «أجرم الرجل إجراماً»، ويقال: «جَرِم» في معنى: أجرم، وأكثر ما تستعمل «أجرم» في كسب الإثم خاصة يقال: «رجل مُجرم وجَارم».

ويجوز: «فعلي أجرامي» على جمع «جُرْم» وهو على نحو قوله ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾[محمد: ٢٦]، و«أسرارهم» إلا أن القراءة الألف، و«إجرامي» على المصدر.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾؛ فلذلك -والله أعلم- استجار نوح بقوله: ﴿لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾.

أعلم أنهم لا يلدون إلا الكفرة بقوله -تعالى-: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؛ معناه: لا تحزن ولا تستكن.

وقوله: ﴿وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ الفلك: السفينة، والفلك يكون واحداً ويكون جمعاً كما أنهم قالوا: «أسد وأُسد»، قالوا في الواحد: «فلك» وفي الجمع: «فُلك»، لأن «فعلا وفعلا» جمعها واحد ويأتيان بمعنى كثيراً، يقال: «العَجم والعُجم، والعَرب والعُرب والفَلك والفُلك» والفَلْكة: يقال لكل شيء مستدير أو في استدارة.

ومعنى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾؛ أي: بإبصارنا إليك وحفظنا لك، وبما أوحينا إليك.

﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُونَ﴾؛ المعنى: لا تخاطبني في إمهال الذين كفروا إنهم مغرقون.

ثم أخبر الله -جل ثناؤه- بعمله الفلك فقال: ﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾؛ يقال في التفسير: إنهم كانوا يقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي مرسل صار نجاراً، فقال: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾؛ أي: نحن نستجهلكم كما تستجهلوننا.

ثم أعلمهم بما يكون عاقبة أمرهم فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾؛ أي: فسوف تعلمون من هو أحق بالسخرية، ومن هو أحمد عاقبة.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾؛ أعلم الله -جل وعز- نوحاً وقت إهلاكهم فور التنور.

وقيل في التنور أقوال؛ قيل: إن التنور وجه الأرض. ويقال: إن الماء فار من ناحية مسجد الكوفة، ويقال: إن الماء فار من تنور الخابزة، وقيل: التنور تنوير الصبح.

والجملة أن الماء فار من الأرض وجاء من السماء قال الله -جل وعز- ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر: ١١، ١٢]؛ فالماء فوره من تنور أو من ناحية المسجد أو من وجه الأرض، أو في وقت الصبح لا يمنع أن تكون تلك العلامة لإهلاك القوم.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ أي: من كل شيء.

والزوج في كلام العرب واحد ويجوز أن يكون معه واحد، والاثنان يقال لهما: زوجان، يقول الرجل: علي زوجان من الخفاف، وتقول: عندي زوجان من الطير، إنما تريد ذكر أو أنثى فقط.

وتقرأ: «من كل زوجين» على الإضافة؛ والمعنى واحد في الزوجين أضفت أم لم تضف.

﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾؛ أي: واحمل من آمن.

ويقال: إن الذين آمنوا معه كانوا ثمانين نفساً، فقال -تعالى- ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾؛ لأن ثمانين قليل في جملة أمة قوم نوح.

﴿.. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أي: بالله تجري، وبه تستقر.

ومعنى قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: بالله.

وقد قرئت على وجوه، قرئت «مَجراها» بفتح الميم، «ومُرساها» بضم الميم. وقرئت «مُجراها ومُرساها» بضم الميمين جميعاً. ويجوز «مَجْرَاها ومَرْسَاها»، وكل صواب حسن.

فأما من قرأ «مَجراها» بفتح الميم؛ فالمعنى: جَريها ومُرْسَاها؛ المعنى: وبالله يقع إرساؤها، أي: إقرارها، ومن قرأ «مُجراها ومُرساها». فمعنى ذلك: بالله إجراؤها وبالله إرساؤها، يقال: أَجْريته مَجرًى وإجراء في معنى واحد. ومن قال: «مَجْرَاها ومَرْسَاها»، فهو على جرت جرياً ومجرًى، ورست رسوا ومرسًى.

والمرسى مستقرها؛ والمعنى: أن الله -جل وعز- أمرهم أن يسموا في وقت جريها ووقت استقرارها.

﴿وَمُرْسَاهَا﴾ في موضع جر على الصفة لله -جل وعز-.

ويجوز فيه شيء لم يقرأ به ولا ينبغي أن يقرأ به لأن القراءة سنة متبعة:

«باسم الله مجريها» على وجهين؛ أحدهما: الحال؛ المعنى: مجرياً لها ومرسياً لها. كما تقول: «مررت بزيد ضاربها» على الحال. ويجوز أن يكون منصوباً على المدح، أعني مجريها ومرسيها. ويجوز أن يكون مجريها ومرسيها في موضع رفع على إضمار «هو» مجريها ومرسيها.

وقوله: ﴿وهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾؛ قيل: إن السماء والأرض التقى ماؤهما فطبق بينهما وجرت السفينة في ذلك الماء.

وقوله: ﴿هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾؛ إن الموج لا يكون إلا فوق الماء.

وجاء في التفسير: أن الماء جاوز كل شيء خمسة عشر ذراعاً، قال الله -عز وجل-: ﴿فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[القمر: ١٢]؛ فجائز أن يكون يلتقي ماء السماء وماء الأرض وما يطبق ما بينهما، وجائز أن يطبق ما بينهما.

والموج: تموج الماء، وأكثر ما يعرف تكونه في علو الماء، وجائز أن يتموج داخل الماء.

والرواية في السفينة أكثر ما قيل في طولها إنه كان ألفاً ومائتي ذراع، وقيل: ستمائة ذراع. وقيل: إن نوحاً بعث وله أربعون سنة ولبث في قومه كما قال الله -جل ثناؤه- ﴿أَلْفَ

﴿سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾[العنكبوت: ١٤] وعمل السفينة في خمسين سنة ولبث بعد الطوفان ستين سنة.

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾؛ يجوز أن يكون كان في معزل من دينه، أي: دين أبيه ويجوز أن يكون -وهو أشبه- أن يكون في معزل من السفينة.

﴿يَا بُنَيِّ ارْكَب مَعَنَا﴾؛ الكسر أجود القراءة أعني كسر الياء، ويجوز كسرها وفتحها من جهتين، أحدهما: أن الأصل «يا بني»، والياء تحذف في النداء أعني ياء الإضافة، وتبقى الكسرة تدل عليها، ويجوز أن تحذف الياء لسكون الراء من «اركب»، وتقر في الكتاب على ما هي في اللفظ.

والفتح من جهتين؛ الأصل: «يا بنيا» فتبدل الألف من ياء الإضافة. العرب تقول: يا غلام أقبل، ثم تحذف الألف لسكونها وسكون الراء، ويقر في الكتاب على حذفها في اللفظ ويجوز أن تحذف ألف النداء كما تحذف ياء الإضافة، وإنما حذفت ياء الإضافة وألف الإضافة في النداء، كما يجوز وجه آخر لم يقرأ به وهو إثبات الياء «يا بني»، وهذه تثقل لاجتماع الياءات.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ﴾؛ أي: يمنعني من الماء.

والمعنى: من تغريق الماء.

﴿قَالَ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَحِمَ﴾؛ هذا استثناء ليس من الأول، وموضع «من» نصب.

المعنى: لكن من رحم الله، فإنه معصوم، ويكون ﴿لاَ عَاصِمَ﴾ معناه: لا ذا عصمة، كما قالوا: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[الحاقة: ٢١] معناه: مرضية، وجاز «راضية» على جهة النسب أي: في عيشة ذات رضا.

وتكون «من» على هذا التفسير في رفع، ويكون المعنى: لا معصوم إلا المرحوم.

وقوله ﴿وَغِيضَ المَاءُ﴾؛ يقال: غاض الماء يغيض. غاب في الأرض، ويجوز إشمام الضم في الغين.

﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾: أي: هلاك قوم نوح.

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ﴾؛ والجودي جبل بناحية آمد.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهلي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ * قَالَ يَا

نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ قرأ الحسن وابن سيرين «عَمِلَ غير صالح» وكان مذهبهما أنه ليس بابنه، لم يولد من صلبه.

قال الحسن: والله ما هو بابنه، وقال ابن عباس وابن مسعود: إنه ابنه، ولم يبتل الله نبياً في أهله بمثل هذه البلوى.

فأما من قرأ: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾؛ فيجوز أن يكون يعنى به أنه ذو عمل غير صالح، كما قالت الخنساء [من البسيط].

تَرتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إِذا ادَّكَرَت فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ(١)

أي: ذات إقبال، وقد قال الله -عز وجل- ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ فنسبه إليه.

وللقائل أن يقول: نسبه إليه على الاستعمال، كما قال الله -جل وعز- ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾[النحل: ٢٧]، فنسبهم إليه على قولهم، والله لا شريك له.

ولكن الأجود في التفسير أن يكون ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتك أن أنجيهم، ويجوز أن يكون ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ إنه ليس من أهل دينك.

﴿فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ ويقرأ: «فلا تَسْألَن ما ليس لك به علم».

وقوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾؛ المعنى: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

وقيل: أخاهم من جهتين؛ أحدهما: أنه منهم وبين بلسانهم، والأخرى أنه أخوهم من ولد آدم، بشر مثلهم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾؛ وإن شئت «غَيْرِهِ»، من نعت الإله، و«غَيْرُهُ» على معنى ما لكم إله غيره.

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً﴾؛ كان أصابهم جدب فأعلمهم أنهم إن استغفروا ربهم وتابوا أرسل السماء عليهم مدراراً.

والتوبة الندم على ما سلف، والعزم على ترك العود في الذنوب، والإقامة على أداء الفرائض.

ونصب «مدراراً» على الحال، كأنه قال: يرسل السماء عليكم دارة، ومعنى مدرار المبالغة، وكان قوم هود -أعني عاداً- أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/٤٢)، وتفسير البيضاوي (١/٢٣٧)، وروح المعاني (١٢/٦٩)، وتفسير الثعالبي (٢/٢٠٧)، والأغاني (١٥/٧٨)، ودلائل الإعجاز (١/٢٣١)، ومجمع الأمثال (٢/٢٦٥).

التي هي بين الشام واليمن، فدعاهم هود إلى توحيد الله واستغفاره وترك عبادة الأوثان، فلم يطيعوه وتوعدهم بالعذاب فأقاموا على كفرهم، فبعث الله عليهم الريح، فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم وتقطعهم عضواً عضواً.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾؛ أي: يزدكم قوة في النعمة التي لكم. ويجوز أن يكون: ويزدكم قوة في أبدانكم.

﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾؛ أي: ما نقول إلا مسك بعض أصنامنا بجنون، بسبك إياها فقال لهم هو: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾.

وهذه من أعظم آيات الرسل أن يكون الرسول وحده، وأمته متعاونة عليه، فيقول لها: «كيدوني ثم لا تنظرون»، فلا يستطيع واحد منهم ضره.

وكذلك قال نوح لقومه: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾[يونس: ٧١]؛ وقال محمد ﷺ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾[المرسلات: ٣٩] فهذه من أعظم آيات الرسل وأدلها على رسالاتهم.

﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾؛ أي: هي في قبضته، وتنالها ما تشاء قدرته.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: هو سبحانه وإن كانت قدرته تنالها بما شاء فهو لا يشاء إلا العدل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾؛ المعنى: فإن تولوا.

﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾؛ فجعل ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ في موضع ثبتت الحجة عليكم، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ يحتمل أن يكون بما أربناهم من الهدى والبيان الذي هو رحمة، ويحتمل أن يكون ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: لا ينجو أحد وإن اجتهد إلا برحمة من الله -جل وعز-.

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ أي: مما عذب به قوم عاد الكفار في الدنيا ومما يعذبون به في الآخرة.

﴿أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾؛ «ألا» ابتداء وتنبيه. و﴿بُعْداً﴾ منصوب على أبعدهم الله بعداً، ومعنى «بُعْد» أي: بعداً من رحمة الله.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾؛ المعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً.

وثمود ينصرف لأنه اسم قبيلة، ومن جعله اسماً للحي صرفه وقد جاء في القرآن مصروفاً: ﴿أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾؛ ثم بين ما هي فقال: ﴿هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾؛ يقال: إنها خرجت من حجر، وفي هذا أعظم الآيات، ويقال: إنها كانت ترد الماء، لا ترد الماء معها دابة، فإذا كان يوم لا ترد، وردت الواردة كلها. وفي هذا أعظم آية.

ونصب «آية» على الحال؛ المعنى: إن قال هذه ناقة الله آية أو آية لكم، فكأنه قال: انتبهوا لها في هذه الحالة. والآية: العلامة.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أرض اللهِ﴾؛ و «تأكلُ في أرض»، فمن قرأ «تأكل» بالجزم فهو جواب الأمر، وقد بينا مثله في سورة البقرة، ومن قرأ «تأكلُ» فمعناه: فذروها في حال أكلها. ويجوز في الرفع وجه آخر، على الاستئناف؛ المعنى: فإنها تأكل في أرض الله.

﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾؛ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ جواب النهي.

والمعنى: عذاب يقرب ممن مسها بالسوء، أي: فإن عقرتموها لم تمهلوا.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾؛ فأهلكوا بعد الثلاث، وقد بينا في الأعراف كيف أهلكوا.

وقوله: ﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ معناه: كأن لم ينزلوا فيها.

قال الأصمعي المنازل التي نزلوا بها، يقال: «غنينا بمكان كذا وكذا» إذا نزلوا به.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾؛ بالبشرى، بالولد.

﴿قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ﴾؛ و«قالوا سلامٌ» يقرأن جميعاً، فأما قوله ﴿سَلاماً﴾ فمنصوب على: سلمنا سلاماً، وأما «سلامٌ» فمرفوع على معنى: أمري سلام، ومن قرأ «سلامٌ» فمرفوع على أمري سلام.

أي: لست مريداً غير السلامة والصلح.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾؛ أي: ما أقام حتى جاء حنيذ.

والحنيذ: المشوي بالحجارة، وقيل: الحنيذ المشوي حتى يقطر. والعرب تقول: أحنذ الفرس أي: اجعل عليه الجُلَّ حتى يقطر عرقاً، وقيل: الحنيذ المشوي فقط. وقيل: الحنيذ

السميط، ويقال: حنذته الشمس والنار إذا شوته.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾؛ لم يأكلوا لأنهم ملائكة.

ويقال: إنهم كانت العلامة لديهم في الضيفان إذا قصدوا لخير الأكل.

يقال: «نَكَرت الشيء وأَنْكَرت»، ويقل في اللغة: «أنكر» ويقل منكور، والكلام: أنكر ومنكور.

و﴿أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ معناه: أضمر منهم خوفاً.

﴿قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أرسلنا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ ألا تراه قال في موضع آخر: ﴿إِنَّا أرسلنا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ﴾[الذاريات: ٣٢، ٣٣].

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾.

يروى أنها ضحكت لأنها كانت قالت لإبراهيم: اضمم لوطاً ابن أخيك إليك، فإني أعلم أنه سينزل بهؤلاء القوم عذاب، فضحكت سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت.

فأما من قال: «ضحكت»: حاضت فليس بشيء

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾؛ تقرأ: «يعقوبَ ويعقوبُ» بالرفع والنصب.

وفي هذه البشارة بشارة بالولد وولد الولد، يقال: هذا ابني من الوراء، أي: هذا ابن ابني.

فبشرناها بأنها تلد إسحاق أنها تعيش حتى ترى ولده.

وروينا في التفسير: أن عمرها كان تسعاً وثمانين، وأن عمر إبراهيم كان تسعاً وتسعين في وقت البشارة.

فأما من قرأ: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فيعقوب في موضع نصب محمول على موضع فبشرناها بإسحاق، محمول على المعنى؛ المعنى: وهبنا لها إسحق ووهبنا لها يعقوب.

ومن قرأ «يعقوبُ» فرفعه على ضربين، أحدهما: الابتداء مؤخراً، معناه: التقديم؛ والمعنى: ويعقوب محدث لها من وراء إسحاق. ويجوز أن يكون مرفوعاً بالفعل الذي يعمل في «من وراء» كأنه قال وثبت لها من وراء إسحاق يعقوب.

ومن زعم أن يعقوب في موضع جر فخطأ زعمه، ذلك لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو العاطفة، لا يجوز مررت بزيد في الدار، والبيت عمرو ولا

البيت عمرو، حتى تقول: وعمرو في البيت.

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾؛ المصحف فيه: «يا ويلتي» بالياء، والقراءة بالألف، إن شئت على التضخيم وإن شئت على الإمالة.

والأصل: يا ويلتى فأبدل من الياء والكسرة الألف، لأن الفتح والألف أخف من الياء والكسرة.

ويجوز الوقف عليه بغير الهاء، والاختيار أن يوقف عليه بالهاء، يا ويلتاه. فأما المصحف فلا يخالف، ولا يوقف عليه بغير الهاء فإن اضطر واقف وقف بغير الهاء.

فأما الهمزتان بعد «يا ويلتا» ففيهما ثلاثة أوجه، إن شئت حققت الأولى وخففت الثانية، فقلت: «يا ويلتا أألد»، وإن شئت. وهو الاختيار خففت الأولى وخففت الثانية فقلت: «يا ويلتا آلد»، إن شئت حققتهما جميعاً فقلت: «ألد» وتحقيق الهمزتين مذهب ابن أبي إسحاق.

﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾؛ القراءة النصب وكذلك هي في المصحف المجمع عليه، وهو منصوب على الحال والحال ههنا نصبها من لطيف النحو وغامضه.

ذلك أنك إذا قلت: هذا زيد قائماً، فإن كنت تقصد أن تخبر من لم يعرف زيداً أنه زيد، لم يجز أن تقول: هذا زيد قائماً، لأنه يكون زيداً ما دام قائماً، فإذا زال عن القيام فليس بزيد، وإنما تقول ذاك للذي يعرف زيداً: هذا زيد قائماً، فيعمل في الحال التنبيه؛ والمعنى: انتبه لزيد في حال قيامه، وأشير لك إلى زيد حال قيامه، لأن «هذا» إشارة إلى ما حضر، فالنصب الوجه كما ذكرنا ويجوز الرفع.

وزعم سيبويه والخليل أن النصب من أربعة أوجه:

فوجه منها أن تقول: هذا زيد قائم فترفع زيداً بهذا وترفع قائماً خبراً ثانياً، كأنك قلت: هو قائم أو هذا قائم.

ويجوز أن تجعل زيداً وقائماً جميعاً خبرين عن هذا فترفعهما جميعاً خبراً بهذا، كما تقول: هذا حلو حامض تريد أنه جمع الطعمين.

ويجوز أن تجعل زيداً بدلاً من هذا، كأنك قلت: زيد قائم.

ويجوز أن تجعل زيداً مبيناً عن هذا، كأنك أردت: هذا قائم، ثم بينت من هو بقولك زيد. فهذه أربعة أوجه.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾؛ الروع: الفزع. يعني ارتياعه لما نكرهم حين لم يأكلوا من العجل. والروع -بضم الراء- النفس. يقال: وقع ذلك في روعي، أي: في نفسي ومن خلدي.

﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ يجادلنا حكاية حال قد مضت لأن «لما» جعلت في الكلام لما قد وقع لوقوع غيره. تقول: لما جاء زيد جاء عمرو، ويجوز: لما جاء زيد يتكلم وعمرو، على ضربين:

أحدهما: أن «إن» لما كانت شرطاً للمستقبل وقع الماضي فيها في معنى المستقبل، نحو: إن جاء زيد جئت. والوجه الثاني -وهو الذي اختاره- أن يكون حالاً لحكاية قد مضت.

المعنى: فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى أخذ يجادلنا في قوم لوط، وأقبل يجادلنا. ولم يذكر في الكلام أخذ وأقبل، لأن في كل يخاطب به المخاطب معنى «أخذ وأقبل» إذا أردت حكاية الحال، لأنك إذا قلت: قام زيد، دللت على فعل ماض، وإذا قلت «أخذ زيد» يقول دللت على حال ممتدة من أجلها ذكرت: أخذ وأقبل. وكذلك: جعل زيد يقول كذا وكذا، وكرب يقول كذا وكذا.

وقد ذكرنا «الأواه» في غير هذا الموضع وهو المبتهل إلى الله المتخشع في ابتهاله، الرحيم الذي يكثر من التأوه خوفاً وإشفاقاً من الذنوب.

ويروى أن مجادلته في قوم لوط أنه قال للملائكة وقد أعلموه أنهم مهلكوهم، فقال أرأيتم إن كان فيها خمسون من المؤمنين أتهلكونهم معهم إلى أن بلغ خمسة، فقالوا: لا، فقال الله -عز وجل-: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[الذاريات: ٣٦].

ويروى: أنهم كانوا جمعاً كثيراً، أكثر ما روي فيهم أنهم كانوا أربعة الآف.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛ المعنى: جادلنا؛ فقلنا يا إبراهيم أعرض عن هذا.

ويروى أن إبراهيم لما جاءته الملائكة كان يعمل في أرض له وكلما عمل دبرة من الدبار وهي التي تسمى المشارات غرز بآلته وصلى، فقالت الملائكة: حقيق على الله أن يتخذ إبراهيم خليلاً.

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾؛ معناه: ساءه مجيئهم، لأنهم استضافوه فخاف عليهم قومه، فلما مشى معهم قليلاً قال لهم: إن أهل هذه القرية شر خلق الله وكان قد عهد إلى الرسل ألا يهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات، ثم جاز عليهم بعد

ذلك قليلاً، ورد عليهم القول ثم فعل ثالثة ومضوا معه.

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾: أصله «سوئ بهم»، من السوء، إلا أن الواو أسكنت وثقلت كسرتها إلى السين، ومن خفف الهمزة قال: «سي بهم».

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾؛ يقال: ضَاق زيد بأمره ذَرْعاً إذا لم يجد من المكروه في ذلك الأمر مخلصاً.

﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾؛ أي: شديد، فلما أضافهم مضت امرأته -عجوز السوء- فقالت لقومه إنه استضاف لوطاً قوم، لم أر أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب رائحة، ولا أنظف ثياباً.

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يسرعون في المجيء فراودوه عن ضيفه، وحاولوا فتح بابه، فأعلمته الملائكة أنهم رسل الله وأن قومه الفسقة لن يصلوا إليهم.

فقال لهم لوط حين راودوه: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾؛ فقيل: إنهم عرض عليهم التزويج، وكأنه عرضة عليهم إن أسلموا.

وقيل: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي﴾: نساء أمتي، فكأنه قال لهم: التزويج أطهر لكم، فلما حاولوا فتح الباب طمس الله أعينهم. قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[القمر: ٣٧].

ولما استعجلوا بالعذاب، قالت لهم الرسل: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾؛ القراءة بالرفع في «أطهر»، وقد رويت عن الحسن: «هن أطهرَ لكم»، وعن عيسى بن عمر. وذكر سيبويه أن ابن مروان لحن في هذه في نصبها.

وليس يجيز أحد من البصريين وأصحابهم نصب «أطهر»، ويجيزها غيرهم. والذين يجيزونها يجعلون «هُنَّ» في هذا بمنزلتها في «كان» فإذا قالوا: هؤلاء بناتي أطهر لكم، أجازوا هن أطهر لكم، كما يجيزون: كان زيد هو أطهر من عمرو.

وهذا ليس بمنزلة كان. إنما يجوز أن يقع «هو» وتثنيتها وجمعها «عماداً» فيما لا يتم الكلام إلا به، نحو كان زيد أخاك. لأنهم إنما أدخلوا «هم» ليعلموا أن الخبر لابد منه، وأنه ليس بصفة للأول. وباب «هذا» يتم الكلام بخبره، إذا قلت: هذا زيد فهو كلام تام. ولو جاز هذا لجاز جاء زيد هو أنبل من عمرو.

وإجماع النحويين الكوفيين والبصريين أنه لا يجوز: قدم زيد هو أنبل منك حتى يرفعوا فيقولوا: هو أنبل منك.

وبعد؛ فالذين قرأوا بالرفع هم قراء الأمصار، وهم الأكثر. والحسن قد قرأ «الشياطون» والشياطون ممتنع في العربية.

وقد قال بعضهم: إن المشركين في ذلك الدهر قد كان لهم أن يتزوجوا من المسلمين.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِن اللَّيْلِ﴾؛ أي: بظلمة من الليل. يقال: قطع من الليل أي: قطعة صالحة، وكذلك مضى عنك من الليل، وسِعْوٌ من الليل.

ويقرأ: ﴿فَأَسْرِ﴾ بإثبات الهمزة في اللفظ، ويقرأ: «فاسر» يقال: «أَسْرَيت وسَرَيت» إذا سرت ليلاً، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

مَطَوتُ بِهِم حَتّى تَكِلَّ مَطِيُّهُم ... وَحَتّى الجِيادُ ما يُقدنَ بِأَرسانِ[2]

وقال النابغة [من البسيط]:

سَرَت عَلَيهِ مِنَ الجَوزاءِ سارِيَةٌ ... تُزجي الشَّمالُ عَلَيهِ جامِدَ البَرَدِ[3]

وقد رووا في هذا البيت «سرت»، وقال الله -جل وعز-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾[الإسراء: ١].

وقوله: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾؛ يجوز فيه النصب والرفع.

فمن قرأ: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ﴾. بالنصب فعلى معنى: فأسر بأهلك إلا امرأتك، ومن قرأ بالرفع، حمله على معنى: ﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتُكَ﴾.

وقوله: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾؛ يقال: إن جبريل جعل جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الدجاج، ثم قلبها عليهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ مَنضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾؛ وقد قال الناس: في ﴿سِجِّيلٍ﴾ أقوالاً:

---

(١) هو: امرؤ القيس.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/٣٥٣)، وأسرار العربية (١/٢٤٢)، والجمل في النحو (١/١٨٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٩/٦٩)، وفتح القدير (٤/٦٠)، وزاد المسير (٤/١٤١)، والأغاني (١١/٣٥)، ولسان العرب (١٤/٢١١)، وتاج العروس (١/٨٤٢٨)، وغريب الحديث لابن قتيبة (٣/٧٥٧).

ففي التفسير: أنها من جِلٍ وحجارة. وقال اللغة: هو فارسي معرب، والعرب لا تعرف هذا. والذي عندي أنه إذا كان هذا التفسير صحيحاً فهو فارسي أُعرب، لأن الله -جل وعز- قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط، فقال: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ﴾[الذاريات: ٣٣] فقد تبين للعرب ما عني بسجيل، ومن كلام الفرس ما لا يحصى مما قد أعربته العرب. نحو: جاموس وديباج. فلا أنكر أن هذا مما أعرب.

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: تأويله كسيرة شديدة، وقال إن مثل ذلك قول الشاعر:

ورَجْلةٍ يَضْرِبون البَيْضَ عن عُرُضٍ ضَرْباً تَوَاصَتْ به الأَبْطالُ سِجِّينا[1]

والبيت لابن مقبل، وسجين وسجيل بمعنى واحد. وقال بعضهم:

«سجيل» من أسجلته أي: أرسلته فكأنها مرسلة عليهم. وقال بعضهم ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ من أَسجلت إذا أعطيت، فجعله من السجل وهو الدلو.

قال الفضل بن عباس [من الرمل]:

مَن يُساجِلني يُساجِل ماجِداً يَملأُ الدَلوَ إِلى عَقدِ الكَرَب[2]

وقيل: ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ كقولك مما سجل أي: مما كتب لهم، وهذا القول إذا فسر فهو أثبتها. لأن في كتاب الله -تعالى- دليلاً عليه، قال -جل وعز-: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كتاب مرقوم﴾[المطففين: ٧-٩]؛ سجيل في معنى سجين.

فالمعنى: أنها حجارة مما كتب الله -جل ثناؤه- أنه يعذبهم بها. وهذا أحسن ما مر فيها عندي.

فأما قوله: ﴿مَنضُودٍ * مُسَوَّمَةً﴾؛ فمعناه: أن بعضها يأتي مع بعض كالمطر.

وأما ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ فروي عن الحسن أنها معلمة ببياض وحمرة، وقال غيره:

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٩٧)، وتفسير القرطبي (٩/٧١)، وزاد المسير (٤/١٤٤)، ولسان العرب (١١/ ٢٦٥)، وتاج العروس (١/٧٠٨٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/٩١)، وتفسير القرطبي (٩/٧١)، وفتح القدير (٢/٧٤٤)، ومفردات القرآن (١/ ٦٥٧)، والأغاني (١٦/١٨٢)، ومجمع الأمثال (١/٢١٤)، ولسان العرب (١١/٣٢٥)، وتاج العروس (١/ ٩٠٥).

مسومة بعلامة يعلم بها أنها ليست من حجارة أهل الدنيا، وتعلم بسيماها أنها مما عذب الله بها.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ قيل: إنها ما هي من ظالمي هذه الأمة ببعيد.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾؛ المعنى: أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً، فحذف أهل وأقام مدين مقامه.

ومدين: اسم المدينة أو القبيلة فلذلك لم ينصرف.

وقوله: ﴿بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ﴾؛ ومعناه طاعة الله.

﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾، ويجوز أن يكون معناه: الحال التي تبقي لكم من الخير خير لكم.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ﴾؛ ويقرأ: «أصلواتك».

﴿تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؛ هذا دليل أنهم كانوا يعبدون غير الله -جل وعز-.

﴿أَوْ أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾؛ المعنى: إنا قد تراضينا بالبخس فيما بيننا.

وفي التفسير: أنه نهاهم أن يحذفوا الدراهم. أي: أن يكسروها.

﴿إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ قيل: كني بهذا عن أنهم قالوا له: إنك السفيه الجاهل، وقيل: إنهم قالوا له: إنك السفيه الجاهل، وقيل: إنهم قالوا له هذا على وجه السخرية.

وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾؛ وجواب الشرط ههنا متروك.

المعنى: إن كنت على بينة من ربي أتبع الضلال فترك الجواب لعلم المخاطبين بالمعنى، وقد مر ما ترك جوابه لأنه معلوم وشرحه في أمكنته.

وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾؛ أي: حلالاً، وقيل: رزقاً حسناً ما وفق له من الطاعة.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾؛ أي: لست أنهاكم عن شيء وأدخل فيه، وإنما أختار لكم ما أختار لنفسي، ومعنى «ما أخالفك إليه» أي: ما أقصد بخلافك القصد إلى أن أرتكبه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾؛ أي: بقدر طاقتي، وقدر طاقتي إبلاغكم وإنذاركم، ولست قادراً على إجباركم على الطاعة.

ثم قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾؛ فأعلم أنه لا يقدر هو ولا غيره على الطاعة إلا بتوفيق الله، ومعنى ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع.

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم﴾؛ موضع «أن» نصب؛ المعنى: لا تكسبنكم عداوتكم إياي أن يصيبكم عذاب العاجلة.

﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيدٍ﴾؛ وكان إهلاك قوم لوط أقرب الإهلاكات التي عرفوها، فكأنه قال لهم: العظة في قوم لوط قريبة منكم.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ وكان ضريراً.

وحمير تسمي المكفوف ضعيفاً، وهذا كما قيل: ضرير أي: قد ضر بذهاب بصره، وكذلك قد كف عن التصرف بذهاب بصره.

﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾؛ أي: لولا عشيرتك لرجمناك أي: لقتلناك بالرجم.

والرجم: من سيىء القتلات، وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم﴾؛ أي: أنتم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكراماً لرهطي والله -جل وعز- أولى بأن يتبع أمره.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً﴾؛ أي: نبذتموه وراء ظهوركم. والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر: قد جعل فلان الأمر بظهره، قال الشاعر:

تَميمُ بنُ قَيْس لاَ تَكُونَن حَاجَتِي بِظَهر فَلا يَعْيى عَلَيَّ جَوابهَا[(١)]

وقوله -جل وعز-: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛ يروى أن جبريل صاح بهم صيحة فماتوا في أمكنتهم، فأصبحوا جاثمين لا يقدرون على حركة قد ماتوا.

﴿كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ كأن لم ينزلوا فيها، يقال: غنينا بالمكان إذا نزلنا به.

﴿أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ﴾؛ ﴿أَلا﴾ حرف يبتدأ الكلام به، وهو تنبيه للمخاطب.

ومعنى ﴿بُعْداً لِمَدْيَنَ﴾ أنهم قد بعدوا من رحمة الله، وهو منصوب على المصدر.

---

(١) انظر: فتح القدير (١٨٦/١) وفيه: ((تميم زيد)).

المعنى: أبعدهم الله فبعدوا بعداً، ودليل ذلك: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؛ ويجوز بَعِدت وبَعُدت.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته.

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: وحجة بينة. والسلطان: إنما سمي «سلطاناً» لأنه حجة الله في أرضه.

واشتقاق السلطان من «السليط»، والسليط: ما يضاء به، ومن هذا قيل: للزيت سليط.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾؛ ملؤه أشراف قومه، الذين هم ملأ بالرأي والمقدرة ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ أي: استحبوا العمى على الهدى.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ يقال: «قَدِمت القوم أَقْدُمُهم قَدْماً وقُدُوماً» إذا تقدمتهم.

أي: يقدمهم إلى النار، ويدل على ذلك قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

وقوله: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾؛ كل شيء جعلته عوناً لشيء، وأسندت به شَيْئاً فقد رفدته، يقال: عمدت الحائط وأسندت ورفدته بمعنى واحد، والمرفد: القدح العظيم.

وقوله: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ أي: من القرى التي أهلكت قائم قد حياطنه، نحو قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾[الحج: ٤٥].

﴿وَحَصِيدٌ﴾ مخسوف به، وهي ما قد انمحى أثره.

وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾؛ معناه: غير تخسير، ومنه قوله ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[المسد: ١] أي: خسرت.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ فأعلم الله -عز وجل- أنه يحيي الخلق ويبعثهم في ذلك اليوم ويشهدوا به.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾؛ الذي يختاره النحويون: يوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه بإثبات الياء، والذي في المصحف وعليه الفراء القراءات بكسر التاء من غير ياء. وهديل تستعمل حذف هذه الياءات كثيراً، وقد ذكر سيبويه والخليل أن العرب تقول: لا أدر؛ فتحذف الياء وتجتزي بالكسر، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال. والأجود في النحو إثبات الياء والذي أراه اتباع المصحف مع إجماع القراءة، لأن القراءة سنة وقد جاء مثله في كلام العرب.

وهذه الآية فيها سؤال أكثر ما يسأل عنه أهل الإلحاد في الدين فيقولون لم قال: ﴿يَوْمَ

يَـأْتِ لاَ تَكَلَّـمُ نَفْـسٌ إِلاَّ بِإِذْنِـهِ﴾، و﴿هَـذَا يَـوْمُ لاَ يَـنطِقُونَ * وَلاَ يُـؤْذَنُ لَهُـمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[المرسلات: ٣٥، ٣٦]، وقال في مواضع من ذكر القيامة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾[القلم: ٣٠]، وقال: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[النحل: ١١١]، وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسؤولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]، وقال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩]؛ ونحن نفسر هذا على ما قالت العلماء المتقدمون في اللغة المسلمون الصحيحو الإسلام:

قالوا: قوله -عز وجل-: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْؤولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]؛ الله عالم بأعمالهم فسألهم سؤال توبيخ وتقرير لإيجاب الحجة عليهم.

وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩]، أي: لا يسأل ليعلم ذلك منه، لأن الله قد علم أعمالهم قبل أن يعملوها.

وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿لاَ يَنطِقُونَ﴾[المرسلات: ٣٥]، أي: لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضاً وطرح بعضهم الذنوب على بعض، فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذي يخاطبك كثيراً وخطابه فارغ من الحجة: ما تكلمت بشيء، وما نطقت بشيء فسمي من تكلم بما لا حجة له فيه، غير متكلم كما قال -عز وجل-: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[البقرة: ١٨] فهم لا يبصرون وهم يبصرون ويسمعون إلا أنهم لا يقبلون ولا يفكرون فيما يسمعون ولا يتأتلون، بمنزلة الصم، قال الشاعر:

* أصم عما ساءه سميع *

فهذا قول حسن.

وقال قوم: ذلك اليوم طويل وله مواضع ومواطن ومواقف، في بعضها يمنعون من الكلام وفي بعضها يطلق لهم الكلام، فهذا يدل عليه ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ وكلا القولين حسن جميل.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ من شديد الأنين وقبيحه.

﴿وَشَهِيقٌ﴾ والشهيق: الأنين الشديد المرتفع جداً.

وزعم أهل اللغة من البصريين والكوفيين: أن الزفير بمنزلة ابتداء صوت الحمار في النهيق، والشهيق بمنزلة آخر صوته في النهيق.

وقوله -تعالى-: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾؛ فيها أربع أقوال: قولان منها لأهل اللغة

البصريين والكوفيين جميعاً.

قالوا: المعنى: خالدين فيها إلا ما شاء ربك بمعنى سوى ما شاء ربك، كما تقول: لو كان معنا رجل إلا زيداً أي: رجل سوى زيد ولك عندي ألف درهم سوى الألفين، وإلا الألفين اللذين لك عندي.

فالمعنى على هذا: خالدين فيها مقدار دوام السماوات والأرض سوى ما شاء ربك من الخلود والزيادة كما قلت سوى الألفين اللتين علي.

وقالوا قولاً آخر: إلا ما شاء ربك وهو لا يشاء أن يخرجهم منها، كما تقول أنا أفعل كذا وكذا إلا أن أشاء غير ذلك، ثم تقيم على ذلك الفعل وأنت قادر على غير ذلك، فتكون الفائدة في هذا الكلام أن لو شاء يخرجهم لقدر ولكنه قد أعلمنا أنهم خالدون أبداً. فهذان المذهبان من مذاهب أهل اللغة.

وقولان آخران:

قال بعضهم: إذا حشروا وبعثوا فهم في شروط القيامة فالاستثناء وقع من الخلود بمقدار موقفهم للحساب.

والمعنى: خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا مقدار موقفهم للمحاسبة.

وفيها قول رابع: إن الاستثناء وقع على أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم تذكر، وكذلك لأهل الجنة نعيم ما ذكر ولهم ما لم يذكر مما شاء ربك ويدل عليه -والله أعلم- ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ أي: غير مقطوع. قال النابغة [من الطويل]:

تَقُدُّ السَلوقِيَّ المُضاعَفَ نَسجُهُ وَتوقِدُ بِالصُفّاحِ نارَ الحُباحِبِ(١)

يصف السيوف وأنها تقطع الدروع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾؛ أي: نوفيهم ما يصيبهم من خير أو شر.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ قرئت: بتشديد النون وتخفيفها، وقرئت «لما» بتخفيف الميم ولما بتشديدها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤٦/٩)، والمستقصى في أمثال العرب (١١/١)، ولسان العرب (٢٩٦/١)، وتاج العروس (٣٨٧/١).

فأما تشديد «إن» والنصب فعلى باب «إن»، وأما تخفيفها وترك النصب على حاله فلأن «إن» مشبهة بالفعل فإذا حذف منها التشديد بقي العمل على حاله، وأما تخفيف «لما» فهو الوجه والقياس، ولام «لما» لام «إن» و«ما» زائدة مؤكدة. لم تغير.

المعنى: ولا العمل. وأما التشديد في «لما» فزعم بعض النحويين أن معناه: «لمن ما» ثم انقلبت النون ميماً فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت إحداها وهي الوسطى، فبقيت «لما» وهذا القول ليس بشيء لأن «من» لا يجوز حذفها، لأنها اسم على حرفين، ولكن التشديد فيه قولان أحدهما يروى عن المازني؛ زعم المازني: أن أصلها «لما» ثم شددت الميم، وهذا القول ليس بشيء أيضاً. لأن الحروف نحو «رب» وما أشبهها تخفف، ولسنا نثقل ما كان على حرفين فهذا منتقض.

وقال بعضهم قولاً لا يجوز غيره -والله أعلم- أن «لما» في معنى: «إلا» كما تقول سألتك لما فعلت كذا وكذا. وإلا فعلت كذا. ومثله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾؛ معناه: «إلا».

وتأويل اللام مع «إن» الخفيفة إنما هو تأويل الجحد والتحقيق، إلا أن «إن» إذا قلت إن زيداً لعالم هي «ما» ولكن اللام دخلت عليها لئلا يشبه المنفي المثبت، فتكون المشددة بدخول اللام عليها بمعنى المخففة إذا دخلت عليها اللام.

فعلى هذا جاءت «أن» الناصبة فجائز أن تكون «أن» الناصبة من حيث دخلت عليها اللام كما دخلت على «أن» غير الناصبة دخلت عليها «لما» ودخلت عليها «إلا» فصار الكلام في تخليص التحقيق له بمنزلة ما نفي عنه غير المذكور بعد «لما» ووجب له ما بعد «لما» فتقول على هذا الحد: إن كلهم لما يحبني؛ معناه يؤول إلى معنى ما كلهم إلا يحبني، وكذلك يجوز: إن كلاً لما يحبني، بحذاء: إن كلا لما يحبني، فدخلت «لما» محققة كما دخلت اللام محققة وصار تأويل الجملة تأويل المنفي والمحقق.

وحكى سيبويه وجميع البصريين أن «لما» تستعمل بمعنى «إلا». ويجوز: ﴿وَإِنَّ كُلاً لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾، معناه: وأن كلا ليوفينهم جمعاً. لأن معنى «اللم» الجمع يقال: لممت الشيء ألمه لماً إذا جمعته، فأما قولهم: لم الله شعثك، فتأويله: جمع الله لك ما يذهب شعثك.

وقوله -تعالى-: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ﴾ فطرفا النهار غدوه وعشيه وصلاة طرفي النهار الغداة والظهر والعصر.

﴿وَزُلَفاً مِن اللَّيْلِ﴾؛ ويجوز «وزُلُفاً من الليل» بضم الزاي واللام، وهو منصوب على الظرف كما تقول حينا طرفي النهار وأول الليل.

ومعنى «زلفاً من الليل» الصلاة القريبة من أول الليل، وزلفاً جمع «زلفة»، يعني بالزلف من الليل المغرب وعشاء الآخرة.

﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ أي: إن الصلوات تكفر ما بينها من الذنوب. وهذا يصدق ما في الخبر من تكفير الصلوات الذنوب.

والزلف: واحد مثل الحلم. وجائز أن يكون جمعاً على «زليف من الليل» فيكون مثل «القريب والقرب»، ولكن الزلف أجود في الجمع. وما عملت أن «زليفاً» يستعمل في الليل.

وقوله: ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾؛ معناه: أولو تمييز، ويجوز أن يكون معناه: «أولو» طاعة.

ومعنى البقية: إذا قلت فلان في بقية، معناه: فيه فضل فيما يمدح به ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾؛ استثناء منقطع.

المعنى: لكن قليلاً ممن أنجينا منهم ممن نهى عن الفساد.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾؛ معناه: الشيء الذي به يدوم لهم الترف والنعيم، وركنوا إلى الدنيا فلم يقبلوا ما ينقص ترفهم في كسب أو عمل.

﴿مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ يجوز أن يكون وما كان ربك ليهلك أحداً وهو يظلمه كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾[يونس: ٤٤]؛ وجائز أن يكون معناه: وما كان ربك ليهلك القرى؛ ومعناه: أهل القرى بظلم وأهلها يتعاطون فيما بينهم بالنصفة.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: لو شاء لجمعهم على هدايته، كما قال -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾[الأنعام: ٣٥].

﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾؛ «من» استثناء على معنى: لكن من رحم ربك فإنه غير مخالف.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؛ أي خلقهم للسعادة والشقاء فاختلافهم في الدين يؤدي بهم إلى سعادة أو شقاء.

وقيل: ولذلك خلقهم أي: لرحمته خلقهم، لقوله: ﴿إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ﴾، والقول

الأول يدل عليه.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ لأملأن لفظ القسم، أي: فتم قوله لأملأن جهنم.

﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ «كلاً» منصوب «بنقص».

المعنى: وكل الذي يحتاج إليه من أنباء الرسل نقص عليك. و«ما» منصوبة بدل من «كل».

المعنى: نقص عليك ما نثبت به فؤادك. ومعنى تثبت الفؤاد: تسكين القلب، وهو ههنا ليس للشك، ولكن كلما كان الدلالة والبرهان أكثر كان القلب أثبت، كما قال إبراهيم: ﴿وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يجوز أن يكون وجاءك في هذه السورة، لأن فيها أقاصيص الأنبياء ومواعظ وذكر ما في الجنة والنار.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ﴾؛ أي: في ذكرى هذه الآيات التي ذكرت قبل هذا الموضع.

أي: جاءك الحق في أن الخلق يجازون بأنصبائهم في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾؛ وقد جاءه في القرآن كله «الحق»، ولكنه ذكرها هنا توكيداً، وليس إذا قيل: قد جاءك في هذه الحق وجب أن يكون لم يأتك الحق إلا في هذه، ولكن بعض الحق أوكد من بعض في ظهوره عندنا وخفائه علينا، لا في عينه. إذا قلت: فلان في الحق وأنت تريد أنه يجود بنفسه، فليس هو في غير تلك الحال في باطل، ولكنه ذكر «الحق» ههنا أغنى عن ذكر الموت لعظمه وأنه يحصل عنده على الحق.

* * *

فهرس المحتويات

سورة النساء

يقبح أن يُنسق باسم ظاهر على اسم مضمر ٤
معنى ﴿وَبَثَّ﴾ ٤
معنى ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ ٤
قوله: ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ والمراد به ٦
وجوه القراءات في ﴿ صَدُقَاتِهِنَّ ﴾ وما أجازه النحويون منها ٧
معنى قوله: ﴿نِحْلَةً﴾ ٧
معنى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ ١٥
معنى ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ١٨
مسألة حول ((اللاتي)) ٢٠
معنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ ٢٠
معنى ﴿مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ٢٢
المتاع في اللغة ٢٣
معنى قوله﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ ٢٣
العنت في اللغة ٢٥
النون وشبهها بحروف اللين واختيار الزجاج فيها ٣١
السبيل في اللغة ٣٦
((زكاء الشيء)): في اللغة ٣٦
معنى ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ٣٦
((أن)) في اللغة تنوب عن الاسم والخبر ٤٢
إجماع أهل اللغة على ((من وما والذي)) لا يوصلن بالأمر والنهي ٤٥
معنى ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ ٤٧
معنى ((يستنبطونه)) في اللغة ٤٩
الكفل في اللغة ٥٠
الصفات التي لا تنصرف ٥١
معنى ((القيامة)) في اللغة ٥١
معنى ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ ٥١
تأويل ﴿أَرْكَسَهُم﴾ في اللغة ٥٢
نصب ﴿فِئَتَيْنِ﴾ ٥٢
معنى ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ ٥٢
معنى ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ ٥٢
كلام النحاة في قوله ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ٥٣
معنى ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ ٥٤

كسر لام الجر ولام الأمر ٥٨
تأويل: ((لا تهنوا)) في اللغة ٥٨
معنى ﴿ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ ٥٨
معنى قوله: ﴿هَا أَنتُمْ﴾ ٦٠
أصل المجادلة والجدال في اللغة ٦٠
معنى نجوت الشيء في اللغة ٦١
معنى ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ ٦٣
أصل الفرض في اللغة ٦٤
معنى قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ ٦٥
معنى ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ ٦٥
معنى ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ في اللغة ٧١
((استحوذ)) وخروجه على أصله ٧٢
معنى قوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ ٧٢
السلطان في اللغة ٧٢
((باب المدح)) ٧٧
الزَّبْرُ في اللغة ٧٨
معنى ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ ٧٩
معنى ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ ٧٩
معنى ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ وأصله في اللغة ٨٠
جواز تقديم الاسم قبل الفعل مع ((إن)) ٨١

سورة المائدة

الأنعام في اللغة ٨٣
معنى ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ٨٦
أصل الذكاء في اللغة ٨٧
أصل الصميات في اللغة ٨٩
المرفق في في اللغة ٩١
النقيب: في اللغة ٩٤
العزر في اللغة ٩٥
القاسي في اللغة والقاسح ٩٥
قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ واختيار الزجاج فيها ٩٥
قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ واختيار الزجاج في معناها ١٠٠
تأويل الويل في اللغة ١٠١
قوله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾؛ واختلاف النحاة في تفسير الرفع فيه ١٠٣
معنى ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ ١١٠

معنى ﴿يُقِيمُونَ﴾ ١١١
((هزءاً)) واللغات التي فيه، واختيار الزجاج ١١٣
معنى ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ١١٥
معنى ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِم﴾ ١١٦
معنى ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾ ١٢٠
القَسُّ في اللغة ١٢١
معنى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ١٢١
معنى ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ ١٢٢
معنى ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ١٢٣
الرجس في اللغة ١٢٤
أصل ((الرجز)) في اللغة ١٢٤
معنى ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ ١٢٥
معنى قوله: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ١٢٥
ما تشتمل عليه النعم في اللغة ١٢٦
معنى قوله: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ ١٢٧
معنى ﴿قِيَاماً لِّلنَّاسِ﴾ ١٢٨
إعراب: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ ١٣٠
معنى قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ ١٣٢
معنى قوله: ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ ١٣٥
معنى ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ ١٣٦

سورة الأنعام

((قضي)) في اللغة على ضروب ١٤١
معنى ﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ ١٤١
((الحيق)) في اللغة ١٤٢
تأويل ((السَّطر)) في اللغة ١٤٦
معنى ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ ١٤٧
الكاف في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ ١٥٢
معنى ﴿كَتَبَ﴾ ١٥٧
معنى ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ ١٥٧
معنى التفريط في اللغة ١٥٩
قوله: ﴿يُنَجِّيكُم﴾ واختيار الزجاج قراءة التشديد ١٥٩
معنى ﴿ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ١٥٩
معنى قوله ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ١٦٠
معنى ﴿شِيَعاً﴾ ١٦٠

معنى قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ١٦٤
معنى ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ ١٦٦
معنى قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ ١٦٦
معنى ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ ١٦٨
معنى ﴿قُبُلاً﴾ ١٧٥
الزخرف في اللغة ١٧٥
معنى ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ١٧٥
معنى ﴿مَا اضْطُرِرْتُمْ﴾ ١٧٧
الحرج في اللغة ١٧٩
معنى ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ١٨٠
معنى ﴿مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ ١٨٤
معنى ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ١٨٤
الزوج في اللغة ١٨٥
معنى ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ١٨٥
إعراب ﴿آلذَّكَرَيْنِ﴾ ١٨٦
معنى ﴿هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ ١٨٨
معنى ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ ١٩٠
معنى ﴿وَكَانُوا شِيَعاً﴾ ١٩١
معنى ((شيعت)) في اللغة ١٩٢

سورة الأعراف

معنى ﴿بَيَاتاً﴾ ١٩٨
مسألة حول ((مصائب)) في جمع ((مصيبة)) ٢٠٠
معنى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ ٢٠١
معنى ﴿مَّدْحُوراً﴾ ٢٠٣
قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ واختيار الزجاج فيه ٢٠٤
معنى قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ ٢٠٤
معنى ﴿يَخْصِفَانِ﴾ ٢٠٤
معنى ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ ٢٠٥
((جعلنا)) في اللغة على ضروب ٢٠٦
معنى ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ ٢٠٨
إعراب ﴿خَالِصَةً﴾ ٢٠٨
قوله: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ ﴾ واختيار الزجاج في ((أن)) ٢١٢
معنى ﴿هَدَانَا لِهَذَا﴾ ٢١٢
معنى ﴿جَاثِمِينَ﴾ ٢٢٠

معنى ﴿تُوعِدُونَ﴾ ٢٢١
المشيئة في اللغة ٢٢٢
معنى قوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ٢٢٦
معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ ٢٢٧
معنى قوله: ﴿يَأْفِكُونَ﴾ ٢٢٨
معنى ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ ٢٣٤
معنى ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ ٢٣٥
معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ ٢٣٨
معنى ﴿خَاسِئِينَ﴾ ٢٤١
معنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ٢٤٣
معنى ﴿مُرْسَاهَا﴾ ٢٤٥

سورة الأنفال

معنى ﴿مُرْدِفِينَ﴾ ٢٥٢
معنى ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ ٢٥٦
تأويل ((التحريض)) في اللغة ٢٦٥

سورة براءة

الإعراب في ﴿أَحَدٌ﴾ مع ((إن)) ٢٧٠
اجتماع الهمزتين في ((أئمة)) ٢٧٢
أصل المضاهاة في اللغة ٢٧٨
الطائفة في اللغة ٢٨٩
معنى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ ٢٨٩
معنى ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ ٢٩٠
معنى ﴿هَارٍ﴾ ٢٩٥
معنى قوله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ ٢٩٦

سورة يونس

((ازَّيَّنَتْ)) بالتشديد واختياره لهذه القراءة ومناقشة الرأي الآخر ٣٠٨
معنى ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أنفسِكُم﴾ ٣٠٨
معنى ﴿تَبْلُو﴾ ٣٠٩

سورة هود

معنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا﴾ ٣٢١
معنى ﴿أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ ٣٢٣
معنى قوله: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ ٣٢٩
معنى ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ٣٤١
معنى ﴿بُعْداً لِّمَدْيَنَ﴾ ٣٤١